عبد الكريم الخطيب

النبي محمد

إنسان الإنسانية ونبي الأنبياء

الطبعة الثانية

ملتزم الطبع والنشر
دار الفكر العربي

دار الاتحاد العربي للطباعة
لصاحبها: محمد عبد الرازق
١٩ كنيسة الأرمن ش الجيش
تليفون ٩٢٤٠٩٨

بسم الله الرحمن الرحيم

أشهد لقد ظلمت نفسى ، إذ أقدمت على هذا العمل ، بعد أن ظللت سنين كثيرة أتهيبه ، وأحاذر الإقدام عليه !

فإن الحديث عن النبى صلى الله عليه وسلم ـ وإن يكن طلبة النفس فى كل حين ، ورغيبتها فى كل حال ـ فقد كان الهمس به ، والتخافت فيه أحب إلى قلبى ، وأرضى لمشاعرى وأروح لنفسى ، ... إذ كنت أدع لخواطرى الانطلاق فى مغانى السيرة النبوية ومجانيها ، إلى المدى الذى تقدر عليه ، دون أن آخذ نفسى بمنهج ، أو أقف بها عند مورد . بل كان لها أن ترود كل منهج ، وترد كل مورد ، وتنتقل من حال إلى حال كما يتنقل النحل بين ألوان الزهر ! !

° ° °

ولا أدرى ماذا حدث حتى انتقل هذا الحديث الهامس الخافت من سيرة الرسول ، الذى كان بينى وبين نفسى ينساب فى مسارب الضمير ، ويسرح بين حنايا الصدر لا أدرى كيف انتقل هذا الحديث الهامس الخافت ، إلى هذه الصورة المسموعة المقروءة فى هذا الكتاب ، الذى يجده القارىء بين يديه ؟ ؟

فلقد كنت حريصاً أشد الحرص على أن أظل قارئاً أو مستمعاً لسيرة الرسول صلى الله عليه وسلم دون أن أكون مقرئاً أو مسمعاً لها يوماً من الأيام !

إنى أعرف حق المعرفة جلال هذا المقام ، وأقدره قدره من الاحترام والتوقير ، كما أعرف حق المعرفة ما ينبغى لسيرة الرسول الكريم من حرمة وتصون من أن يباح حماها لكل من يقول بعلم وبغير علم ، ولكل من يرتاد حماهـــا بزاد أو بغير زاد !

فليس كل من عرف طرفاً من سيرة الرسول ، وضم صدره على حبه والولاء له ، بقادر على أن يصور مشاعره وأحاسيسه . وأن ينقل ما بنفسه من معانى الجلال والعظمة التى تفيض عليه من جلال النبوة وعظمتها إلى كلمات مسموعة

مقروءة ، وأن ينفض ما يصدره من مشاعر الحب والولاء على الأسطر التي يسود بها صفحات ، ثم يجعلها كتاباً في السيرة ! !

ولو كان ذلك مما يقع في الإمكان ، أو لو وقع جاء بجيء الرضا والقبول لأخرج كل مسلم كتاباً عجباً من أعماقه ، في تلك السيرة الكريمة ، ولكانت هذه الكتب آية الآيات فيما تحمل من معاني الحب الصادق ، التي ضمت عليها صدور المسلمين للنبي الكريم !

ولكن ما في الصدور شيء ، وما تستطيع أن تحمله الكلمات من هذا الشيء شيء آخر ! !

فكيف إذا كانت المعاني من السمو والكمال ، وكانت المشاعر من الصدق والعمق على هذا النحو الذي يجده من يطوف بحمى النبوة ، ويطالع أنوارها ؟؟

إن ما تأخذ الكلمات هنا من هذا الجلال ، وما تحمل من تلك المعاني لا يكون إلا كما يأخذ القلم من ماء البحر ، وإلا كما تمسك اليد من شعاع الشمس ، أو تلتقط العين من ضوئها !

° ° °

فإذا ما تهيبت هذا الموقف ، وأخذتني منه رهبة ، فليس ذلك إلا لأني أعرف للموقف جلاله ، وأقدر خطره ، وخطر العثار فيه !

إن العثرة هنا بلقاء مشهورة ، تتلمظ بها الشفاه ، وتشرع لها الأقلام ، ويكثر من أجلها الطعن والقتال ! .. فلا يقال للعاثر لعاً ، ولا تقبل منه معذرة . . ! إذ كان ذلك العثار محمولا عند أكثر الناس على أنه تطاول على مقام الرسول ، وتجديف عليه . .

وقد يحسن الظن عند بعض الناس فيغفر الزلة ، ويقيل من العثرة ، ولكنه لا يخلي صاحبها من الرمي بالجهل أو الاستخفاف .. وقد يشتط بعض آخر فيسوق التهم ويرمي بالكفر والإلحاد .

وقل في الناس من يقع على الزلة هنا فيلقاها بالتسامح والصفح ، ويجد لها في

باب الغفران مدخلا ، حين ينظر إلى الأمر بعينيه معاً ، وحين يرى الحسنات والسيئات جميعاً !

* * *

وعذيرى عند نفسى من هذا الموقف الذى سقته إليها ، أو ساقتنى هى إليه — أنى نصحت لها . ودعوتها إلى الريث والمهل فيه ، فطاولت معها الأيام ، ولويت زمامها عن هذا القصد زمنا طويلا ، لعلها ترضى من سيرة الرسول بما أريد لها الرضا به ، وهو أن تعيش فيها وحدها ، وأن تلتقى بها على غير مشهد من أحد !

وأكثر من هذا ، فلقد تلطفت بها ، وترفقت فى صرفها ، فلم أدعها تهيم فى كل واد ، وتسقط على كل مرعى ، حين صرفتها عن وجهتها تلك ، وأخذت عليها الطريق إليها — بل قدمت إليها زاداً عتيداً طيباً ، وهو أن تلتقى مع صحابة رسول الله وخلفائه الراشدين ، وأن تعيش معهم فى السر والعلن ؛ تتحدث إلى الناس بما تشاء من حديث عنهم ، إن كانت تشتهى الحديث إلى الناس فى هذا الباب ، وتحرص عليه .

وقد كان !

فأرخيت لنفسى العنان لتحيا فى سيرة صحابة الرسول ، وخلفائه الراشدين ، وأن تأخذ الوضع الذى ترتضيه لتتحدث بما تشاء من صور الحديث : مقروءة أو مسموعة !

وكان ذلك — فيما بدا لى أول الأمر — سياسة ناجحة فيما أردت ، إذ سكنت تلك النوازع التى كانت تطلع بها على نفسى بين الحين والحين ، وتصرخ بها فى أعماقى ليكون لى فى سيرة الرسول صلى الله عليه وسلم كتاباً !

وفعلا .. كاد يقع التصالح بينى وبين نفسى على هذا الموقف، وأمسكت بالقلم لأبدأ بسيرة الخليفة الأول « أبى بكر » رضى الله تعالى عنه !

وهنا ألقت النفس إلى خاطراً غريباً ، وهو أن أبدأ بسيرة الخليفة الثانى « عمر بن الخطاب » !

فسألتها : ولم عمر؟ أتراه يفضل أبا بكر ، ويقدم عليه ؟

قالت . مالك ولهذا الظن؟ ولم تحمل الأمر على المفاصلة ، والتفاضل بين خلفاء الرسول ؟

قلت : وبم يفسر هذا ... بيني و بينك على الأقل ؟

قالت : إن ما اجتمع بين يديك من سيرة « عمر » يصلح أن يكون كتاباً ، يقرؤه الناس، وربما كان القلم هنا أسرع وأطوع فى تصوير الحقائق التى تريد عرضها أما « أبو بكر » فإنى أرى أن سيرته لم تكتمل لديك ولم يبلغ عندك ما تريد منها !

وخيل إلى أن هذه نصيحة ناصح ، ومشورة أمين !

فأقبلت أكتب سيرة « عمر » فكتبتها ، وأخرجتها كتاباً بين أيدى الناس !

* * *

وأشهد أنى حين كنت متوفراً على الكتابة فى سيرة « عمر » كنت أكاد أثب وثبا ، لأبلغ خاتمة الكتاب ، حتى ألتقى لقاء مباشراً مع سيرة الرسول ، وأفرغ جهدى كله فى الحياة معها ، وإعلان الحديث عنها ، ومجاهرة الناس بها !

وإذ ذاك عرفت الكيد الذى كادته نفسى ، وانكشف لى سر التدبير الذى دبرته ، حين ألقت إلى بهذا الخاطر الذى حملنى على البدء « بسيرة عمر » !

فقد كانت سيرة « عمر » عندى خير آذن يأذن لى بالدخول إلى السيرة النبوية ، ويمهد لى الطريق إليها ، ويفتح كنوز الجـــلال والعظمة المحجبة فى أنوارها !

فلقد وجدت فى سيرة عمر ريح النبوة ، نفاذ الشذى ، فواح الطيب !

ووجدت فى عمر العظمة الإنسانية ، والكمال البشرى ، النامى فى ظلال النبوة . المستضىء من مشكاتها .

فكان ذلك إغراء قوياً لى بالتطلع إلى موطن العظمة ، وإلى مصدر الإشعاع !

وليس ثمة شك فى أن سيرة صحابة رسول الله وخلفائه الراشدين ، لاتنكشف جوانب العظمة فيها ، ولا تتجلى مطالع الأنوار منها حتى ترد إلى المصدر الذى أفاض عليها ما أفاض ، من جلال وعظمة ، وإشراق !

إن سيرة الرسول صلى الله عليه وسلم هي النور الكاشف الذي ترى فيه مغارس النبوة ، ويستدل به على ما في مجانيها الطيبة من ثمر طيب !

* * *

وبعد :

فإذا عذرت لنفسي بالكتابة في سيرة الرسول ، والمعالنة بالحديث في تلك السيرة المباركة الطيبة — فمن يعذر لي عند الناس إن وجدوا زلة أو عثرة ؟ ؟

حسبي أنها كانت نية خالصة ، أردت بها إرواء نفس متعطشة إلى أن تجامع الناس في أكرم حديث ، وأطيب سيرة .

« وإنما الأعمال بالنيات ، وإنما لكل امرىء مانوى » .

فاللهم تقبل هذا العمل ، واجعله صلاة وسلاماً دائمين على نبيك المصطفى وحبيبك المجتبى ، محمد بن عبد الله ، وعلى آله وصحبه ، ومن اهتدى بهديه واتبع سنته إلى يوم الدين ؟

القاهرة في : ٣٠ رجب سنة ١٣٨٣ هـ
٢٧ ديسمبر سنة ١٩٦٢ م

المؤلف

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة الطبعة الثانية

الحمد لله والصلاة والسلام على سيدنا محمد خاتم النبيين ، وإمام المرسلين ، وعلى آله وصحبه ومن اهتدى بهديه . وسلك سبيله إلى يوم الدين . .

وبعد :

فهذه الطبعة الثانية من كتاب « النبي محمد » إنسان الانسانية ونبي الأنبياء ، نعود فنلتقي مع أولياء الله وأحباب رسوله ، والمتأسين بسيرته . .

وقد كنا ونحن على نية تقديم هذا الكتاب للمرة الثانية بين أمرين :

الأمر الأول : أن نعيد صياغته من جديد ، وأن تدخل عليه ما دخل على مشاعرنا من أنوار الهدى النبوى ، وما اكتحلت به أبصارنا من أضواء سيرته المباركة الطيبة ، التى تتجدد بها الحياه كلما تفيأت ظلالها علينا ، وكلما هبت أنسامها العطرة فى أجوائنا .. وكان ذلك من شأنه أن يجعل من هذا الكتاب كتاباً جديداً ربما اختلط به الأمر على من قرأه فى صورته الأولى : حين يرجع إلى فصل من فصوله . أو باب من أبوابه . .

والأمر الثانى : هو أن نقدم الكتاب كما هو ، وأن نجعل هذا الذى زودتنا به السيرة النبوية المباركة من زاد جديد ، كتاباً آخر يلحق بهذا الكتاب ، ويكون مكملا له .

وقد آثرت الأمر الثانى . وها هو ذا الكتاب فى صورته الأولى ، لم نزد عليه إلا بعض العبارات التى نراها لازمة لتوضيح معنى أو استيفاء فكرة . .

نسأل الله أن ينفع به ، وأن يثيبنا عليه ، وأن ينزل منزل الرضاء والقبول من صاحب السيرة صلوات الله وسلامه عليه ، وعلى آله وصحبه والتابعين إلى يوم الدين .

وسلام على المرسلين ، والحمد لله رب العالمين ؟

القاهرة فى : جمادى الأول ١٣٩٦ هـ
أبريل ١٩٧٦ م

المؤلف

صلوات .. وابتهالات

الكلمة الطيبة

« ضربَ اللهُ مثلاً

« كلمةً طيبةً .. كشجرةٍ طيبةٍ ..

« أصلها ثابت . وفرعُها فى السماء ..

« تؤتى أُكُلَهَا كلَّ حين .. بإذن ربِّها ..

« ويضرب الله الأمثال للناس . لعلهم يتذكرون » !

° ° °

« محمد » .. « محمد » .. « محمد » ..

يا للكلمة الطيبة .. المباركة ..

ويالروعة جرسها .. وصفاء لحنها !

من جوهرها الكريم يصاغ الكلم الطيب .. وتولد الكلمات الحسان !

محمود ، وأحمد ، وحمد . ومدح !

فأى إلهام . وأى تدبير ، وأى قدر اصطفاك — أيتها الكلمة المباركة الطيبة — لابن عبد الله اسما ، ولخاتم النبيين سمة وعلماً !؟

وأى إلهام ، وأى تدبير ، وأى قدر حفظك — أيها الاسم النبيل — فى ضمير الحياة تلك القرون الكثيرة المتطاولة .. لم ينطق بك فم ، ولم يكتس بجلالك وليد ؟!

حتى إذا وضعت آمنة بنت وهب وليدها اليتيم ، وملأت عينيها من قسمات وجهه الوضىء ، وثغره الباسم ، وجبينه المشرق ـ أحست أن وليداً آخر يتملت من صدرها ، وينطلق إلى فمها .. وإذ لسانها يتحرك ، وشفتاها تتصادحان بنغم وادع ، رقيق .. محمد .. محمد .. هـــذا هو وليدى . وذاك اسمه .. وإنى لأرجو أن يحمد ، وأن يكون محمداً !!

فمحمد . . الكلمة الطيبة المباركة .

ومحمد . . النبي الأمي . . مبعوث السماء بالهدى ودين الحق . .

محمد . . كلمة . . هي سيدة الكلام !

ومحمد . . إنسان . . هو سيد الأنام !

° ° °

ويلتقي العظيمان :

الذات . . والكلمة !

المسمى . . والاسم !

فيشهد التاريخ معجزة الحياة . . المعجزة الخالدة . التي تخلقت من كلام . وجرت على لسان !

° ° °

فلقد تفجرت من الكلمة ينابيع الحكمة ، وصورت آيات البلاغة والفصاحة فيجم لبلاغتها البلغاء ، ويخرس لفصاحتها الفصحاء .

ولأول مرة في حياة البشر . تكون الكلمة آية ، وتصبح الآية معجزة خالدة ، تتحدى الناس على مدى الأجيال ، وتطاول الأزمان !

ولأول مرة في حياة الرسل تكون معجزة الرسول في فمه . . كلمات تجرى على لسانه . فتعنو لها الوجوه ، وتخرس لها الألسنة . . !

« أم يقولون افتراه ، قل فأتوا بعشر سور مثله مفتريات ! . . وادعوا من استطعتم من دون الله إن كنتم صادقين » .

° ° °

« محمد » !

كم أنت موفورة الحظ أيتها الكلمة المباركة الطيبة !

إنك أبداً في قلب كل مسلم ، وعلى لسانه ، وملء فمه وسمعه !

فمن يوم أن ولد ابن عبد الله وأنت نور يبدد الظلام ، وهدى يدفع الضلال . وحق يدمغ الباطل . . وإذ أنت رحمة راحمة حيث ضمك قلب ، أو تحرك بك لسان !

ومن يوم أن ولد ابن عبد الله ، وأنت تستأثرين بالمكان الأول ، فى مقام الذيوع والانتشار ، بين الكلمات الحية العاملة فى الحياة . . !

لقد اختصك الله – أيتها الكلمة الطيبة المباركة – بهذا الفضل الغدق ، فجعل ذكرك عبادة ، وصلاة ، ودعاء !

وكان مما فضل الله به عليك – أيتها الكلمة المباركة الطيبة – أن جمع بينك وبين اسمه تعالى ، وجعل الإيمان به لا يتم إلا ولك نصيب فيه ، وذكر معه !

فالصلاة على « محمد » فى شريعة الإسلام مرضاة للرب . . مغفرة للذنب .

والشهادة برسالة محمد ركن من أركان الإسلام . . لا يكمل إلا بها ، ولا يقبل إلا معها !

فى كل أذان تتردد كلمة « محمد » وفى مفتتح كل صلاة تذكر كلمة « محمد » ، وفى التشهد من كل صلاة ، وفى مختتم كل صلاة تذكر كلمة محمد !

إن أدنى ما يجب على المسلم أن يذكره من كلمة « محمد » لا يقل عن عشرين مرة كل يوم فى مقام الصلاة المفروضة . . أما الصلاة على النبى صلى الله عليه وسلم فلا يقف المسلم بها عند حد أبداً ، والزيادة فيها زيادة من خير ، واستزادة من رحمة ورضوان .

إن أى كلمة قد تعيش فى الناس زمناً ما . . يطول أو يقصر ، ولكنها لن تحيا مع الناس حياة ملازمة أبداً . . ولن يرتبط مصيرهم بها فى كل حين ! بل تدور معهم دورة ثم ينتهى دورها ، وتخلفها غيرها من الكلمات . . وهكذا دواليك . . تولد كلمات ، وتموت كلمات ، شأنها شأن الكائنات الحية ، من إنسان وحيوان ونبات .

أما كلمة « محمد » فقد عاشت ، وستعيش فى الناس أبد الدهر !

إنها تكسب كل يوم ألسنة جديدة تهتف بها ، وتستقبل كل وقت أهلا وأنصاراً ، يجتمعون عليها ، وينصرون تحت لوائها . .

إنها كلمة مباركة طيبة . . « تؤتى أكلها كل حين بإذن ربها » .

ما نطق بها مؤمن بالله إلا ارتفع فى الملأ الأعلى ذكره ، وزاد فى ميزان الخير خيره !

ذلك هو بعض « محمد » الكلمة . . الكلمة التى انتسبت إلى ابن عبد الله الوليد . . اليتيم . النبى . . الأمى . . رسول رب العالمين !

* * *

أما « محمد » الذات .. ذلك اليتيم الفقير الذى عرفته « مكة » وليداً ، وعرفته البادية رضيعاً ، ثم استقبلته مكة غلاماً ، وشهدته نبياً مرسلا ، يحمل فى فمه دعوة الحق ، يؤذن بها فى الناس : «أن آمنوا بربكم» . . وشهدت قومه يلقونه بالسوء ، ويرمونه بالضر والأذى ، ورأته يلقى مايلقى فى صبر جميل .. لا يبرم ولا يضجر .. وإن ضجرت لذلك الأرض ، وضجت السماء !.. ثم نظرت إليه فى أسى وحزن وهو يهاجر إلى المدينة ، حاملا معه رسالته ، طالعاً بها فى هذا الأفق الجديد من آفاق الجزيرة العربية .

ـــ أما « محمد » هذا الإنسان الذى عرفته الحياة ، وعرفه الناس ، فما أجد الكلمة التى تحمل بعض مشاعرى لهذا الإنسان العظيم . . الإنسان الذى شاءت إرادة الخالق أن يكون مبعوثه إلى الناس كافة . هدى ورحمة للعالمين !

غرق أعرابى فى لجج الليل المتضاربة فى صدر الصحراء العريض ، وضلت فى ناظريه معالم الطريق . فوقف مقيداً بالحيرة والذهول ، لا يدرى إلى أى اتجاه يتجه . ولا إلى أى منصرف ينصرف ! وفجأة طلع القمر فملأ الصحراء بوجهه المشرق الوضىء ، ولبست الموجودات حلة زاهية من النور الفضى الرفيق !

وتطلع الأعرابى إلى القمر ، وقد ملأت الفرحة كيانه ، واستبد العجب به . وجمدت الكلمات على لسانه فما يدرى ماذا يقول . . ؟

إنه يود لو أن القمر منه دان قريب . . إذن لضمه إلى صدره ، واحتواه بين ذراعيه وغمره لثماً وضماً !

أما والقمر أبعد من أن ينال ، فإنه لابد من أن ينفس الأعرابى عن تلك المشاعر بما يقدر عليه من صور الكلام !

فعاد يتطلع إلى القمر من جديد ، ويملأ عينيه من نوره المتدفق ، وجعلت

شفتاه تختلجان ببعض كلمات هامسة حالمة .. هى خفقات قلبه ، وذوب مشاعره! إنها كلمات أشبه بتغريدة طائر ، أو قصيدة شاعر !

ماذا أقول فيك !

أأقول زادك الله جمالا ؟ فأى جمال بعد هـذا الجمال ؟
أأقول زادك الله علواً ؟ وأين ؟ وهل وراء السماء سماء ؟

ثم سكن الأعرابى فى صمت بليغ !

وما موقف هذا الأعرابى من القمر فى حاله تلك يكون شيئاً إلى حال من يقف من رسول الله موقف المطالع لسيرته ، الدارس لرسالته ، المتأمل فى دعوته ، المتابع لهذه الدعوة ، والمتتبع لآثارها فى الحياة ، وفى أجيال الناس ؛ عصراً إثر عصر إلى يوم الناس هذا ، وإلى ما بعد هذا اليوم !

إن الذى يقف من سيرة هذا الرسول الكريم موقف المتأمل المنصف ليجد أنه أمام ظاهرة رائعة من ظاهرات الوجود ، لم تشهد الحياة من قبل شبيهاً لها ، ولم تقع العين على مثلها ، فيما يطلع فى الوجود من ظواهر وعجائب !

إنسان من الناس . . ولد لأبوين كما يولد سائر الناس ، ثم لم يتلق من الحياة إرثاً من الملك أو الغنى كما يتلقى بعض المولودين ، وإنما كان الذى تلقاه هو اليتم والفقر ، منذ استقبل الحياة ، بل من قبل أن يستقبل الحياة !

هذا الوليد .. اليتيم .. الفقير .. ماذا تظن به ؟ وماذا تقدر له مع الأيام؟ لو جرت الحياة به على طبيعتها لكان مصيره إلى الضياع فى دنيا الضائعين من اليتامى والفقراء ، فى عالم البادية ، وفى كنف الصحراء !

ولو أحسنا الظن بالحياة فى شأن هذا الوليد اليتيم الفقير لما بلغ بنا الظن فيه إلى أكثر من أن يكون فتى من فتيان قريش .. يقطع أيامه ولياليه فى معاقرة الخمر ، ولعب الميسر ، وفى مغازلة النساء ، ومخاللة القيان .. ثم ينتهى به الأمر فى شيخوخته إلى أن يكون شيخاً من شيوخ قريش ، يأخذ مكانه بين رواد الندوة ، يستمع إلى مايدور من أحاديث الجد والهزل فيها ، ثم تطويه الأيام فيما طوت من سادات قريش وصعاليكها !

ولكن الذى جاء من هذا اليتيم الفقير كان على غير هذا كله .. كان شيئاً لم يقع فى حسبان أحد ، ولم يدر فى خلد إنسان !

وأحسبك تنتظر أحداثاً مفاجئة .. وعجائب مذهلة ! كلا !

لم تتغير طبيعة الحياة من أجل هذا اليتيم الفقير !.. كل شىء يجرى فى مجراه المقدور له .. فلم تهبط عليه ثروة مفاجئة تتبدل بها حاله .. ولم يتحول فى قريش شىء عما عهد فيها من خير وشر ، ومن جد ولهو ، ومن رشاد وغى ، ولم يتغير وجه الصحراء وما يعلوه من جدب وجفاف ، وما يتعاور عليه من زمهرير الشتاء ، وسموم الصيف !

لقد ظل كل شىء كما عهده الناس .. اليتيم على يتمه وفقره .. وقريش على عهدها فى صحوها ، ونومها ، والحياة على سيرها ، فى نهارها وليلها !

تجرى الحياة ، ويجرى الناس معها ، وكأن لم يكن شىء قد دخل عليها وعليهم ، يوشك أن يبدل سير الحياة ، وأن يعدل موقف الناس فيها . ويغير أوضاعهم منها !

على حين أن هذا اليتيم الفقير كان يصنع حياته فى رفق ، وعلى مهل !

فهو يصدق القول حيث يكذب الناس . . وهو يؤدى الأمانة حيث يخون الناس ! وهو يعف عن الخمر حيث يتهافت عليها الشيب والشبان ، ويعزف عن اللهو حيث يتهالك الرجال والغلمان . . وهو يحقر الأوثان ويزوى وجهه عنها حيث يتخاشع لها قومه ، ويسعون إليها مصبحين وممسين !

كل ذلك وما إليه من الشمائل الحلوة ، والصفات الكريمة كان يجرى فى وداعة ورفق ، دون أن يثير فى الناس ضجة ويحدث فى الحياة هزة . . لأن ذلك كله كان يجرى عن طبيعة لا تكلف فيها ، ويصدر عن فطرة سليمة لا صنعة معها !

ومن هنا كان إحساس الناس بتلك الصفات فى محمد إحساساً قوياً راسخاً ، واقعاً منهم موقع اليقين ، لأنه دخل عليهم فى هوادة ورفق ، وتأدى إليهم يوماً بعد يوم ، وحالا بعد حال ، حتى نضج واستوى ، كما ينضج ويستوى الطعم الحلو فى الثمر الطيب ، والعطر الذكى فى يانع الزهر !

(محمد) .. الصادق الأمين

(محمد) ... العف النزيه

(محمد) ... العاقل الرشيد

(محمد) ... البر الرحيم

(محمد) ... الزاهد العابد

هذا بعض (محمد) فيما عرف الناس منه ، وهو بعد فى يفاعة الصبا . وفى ميعة الشباب ؛ قبل أن يبلغ عمر الرجال ، وقبل أن يتلقى دعوة السماء ، ويؤذن بها فى الناس : أنى لكم رسول أمين .

* * *

ولقد تسأل ويسأل الناس :

من أين لهذا اليتيم الفقير بهذا الأدب العالى الرفيع ؟

ومن أين له بهذه الأخلاق المجتمعة على الفضل والنبل ؟

إنه قد يتهيأ لإنسان أن يستقيم على خلق فاضل حيناً من الدهر .. ولكن هيهات أن يستقيم عليه العمر كله على درجة واحدة من السمو ، دون أن يميل أو ينحدر !

وهيهات أن يجمع بين اثنين أو ثلاثة من الصفات الفاضلة على هذا المستوى العالى ، وأن يمسك بها جميعها فى قوة وفى استقامة دون أن تهتز ، وينصرم عقدها !

فأنى لهذا اليتيم الفقير أن يربى نفسه هذه التربية ! وأن ينشئها هذه النشأة التى لم تقع لأحد فى قومه ؟ وكيف لهذا الفقير اليتيم أن يحوى الفضائل الإنسانية كلها ، ويمسك بها جميعها ، فى قوة وفى استقامة ، على جميع الظروف وفى كل الأحوال ؟

أسئلة ظل الناس سنوات غير قليلة ينتظرون جوابها ، كلما رأوا « محمداً » أو جلسوا إليه ، واستمعوا منه !

حتى إذا جاءت أنباء السماء تحدث عن أن « محمداً » هو النبي المرسل إلى الناس بالهدى ، والمبعوث فيهم بالرحمة . تنبهوا إلى أن لهذه العلاقة بين « محمد » وبين السماء صلة بتلك الصفات التي اشتمل عليها ، وبهذه الأخلاق العالية التي تفرد بها ، وبدأ الناس يعيدون النظر في « محمد » على ضوء هذا الإحساس الجديد الذي دخل عليهم من دعوته : أنه رسول رب العالمين !

والناس — بين مصدق ومكذب بنبوة محمد — . . وقد نضرت نظرتهم إليه منذ ذلك اليوم الذي لبس فيه ثوب النبوة ، وطلع على الناس به .

فالذين آمنوا به وصدقوه ازدادت هذه الصفات في أعينهم سمواً وقداسة ، وبدا لهم « محمد » من خلالها إنساناً يحيا في الناس بجسده ، ويحيا في الملأ الأعلى روحه .. إنساناً هو وحده بين الناس جميعاً الذي يملأ الفراغ . . بين الأرض والسماء . . بين الناس والملائكة !

وأما الذين أخذتهم العزة بالإثم ، وأعمى الحقد أبصارهم ، وطمس الحسد على قلوبهم فإنهم استكثروا أن يكون ذلك الشأن العظيم لمحمد وحده من بين سادة قريش وعظمائها ! فجعلوا يرمونه بالسحر والكهانة ، وينسبون هذه القوة الروحية التي اشتمل عليها ، وملأ بها قلوب الناس هيبة — ينسبون هذه القوة إلى قوى السحر والكهانة ، لا إلى أمداد السماء ورحمة الرحمن ! . إنهم لم يستطيعوا أن ينكروا هذا الواقع الذي تشهد به الحياة كلها ، وهو أن « محمداً » ليس على شاكلتهم ، وإنما هو إنسان نسيج وحده بين الناس . . ولكنهم مع هذا أبوا أن يضيفوا هذا الذي بان به « محمد » عليهم ، وتفرد به بينهم — إلى الله وأن يقروا لمحمد بما فضل الله به عليه ، إذ جعله مبعوثه إلى الناس بالهدى ودين الحق !

* * *

إنه تدبير السماء بلا شك !

ولكن ماذا يدرى الناس من أمر السماء وتدبيرها في تربية محمد ، وفي تنشئته تلك النشأة الربانية ؟

إن ذلك لم يكن عن معالنة ومجاهرة ، حتى أن « محمداً » نفسه لم يكن يعلم من أمر ذلك شيئاً إلى أن آذنه الله بما اختاره له ، حين نزل عليه جبريل فى غار حراء ، بأول نبأ من أنباء السماء ! وقد بلغ الأربعين من السنين . . عندئذ عرف « محمد » أن بينه وبين السماء شيئاً ، وأن هذا الشىء صائر به إلى خير . . وخير كثير !

أما قبل ذلك اليوم الذى اتصل فيه محمد بالسماء فإنه : لم يكن يدرى من أمر نفسه أكثر من أنه واحد من آحاد قومه ، قد ارتبط مصيره بمصيرهم فى زمانهم ومكانهم . . لايستطيع أن يغير من واقع القوم شيئاً ، وإن يكن قد بدا له من حياتهم مايكره ، وإن يكن قد حجز نفسه عن أن يدخل عليها ماكره من حياتهم وما أنكر من أمرهم !

* * *

بهذه الأخلاق الكريمة الرضية ، وبتلك السيرة الطيبة القويمة عاش « محمد » فى قومه وبين أهله !

ومن أجل هذه الأخلاق الكريمة الرضية ، ومن أجل تلك السيرة الطيبة القويمة أحب الناس « محمداً » وأحلوه من قلوبهم مكان الإعزاز والإكرام . . فحيث كان « محمد » ارتفعت إليه العيون تتملاه ، حيث تجد الراحة والرضا فى هذا الإنسان الذى يعيش فى الناس أشبه بالنسمة العطرة فى الهواجر اللافحة !

قطع « محمـــد » من عمره أربعين عاماً قبل البعثة لم تجرب عليه كذبة ، ولم تعلق به شائبة ، ولم يتحرك لسان بكلمة سوء .

كذلك أمضى « محمد » حياته كلها قبل البعثة بين قومه . لم يقع بينه وبين أحد منهم شر ، ولا قامت بينه وبين إنسان عداوة ، على كثرة ما كان يقع بين الناس والناس من شرور ، وما كان يقوم من مشاحنات ، فى تلك الحياة التى كل مافيها أو أكثره قائم على العداوة والشحناء !

ياسبحان الله !

كيف يسلم إنسان يعيش فى تلك المواطن التى يترامى فيها أهلها بالشرر الذى

يوقد فى النفوس نيران العداوة ، ويؤجج سعير الشر ، فيلتهم ما بين الناس من أواصر القربى ، وأسباب الحب والمودة ! ؟

فاللون الغالب فى هذه الحياة التى كان يحياها العرب قبل الإسلام هو لون الدم الذى يسيل ظبات السيوف وعوالى الرماح . . فما يستطيع إنسان فى هذه البادية أن يتوقى الشر ، أو يأمن مبادرة الأحداث ، فى أية ساعة من ليل أو نهار !

إن القوم هناك قد فرغوا لأنفسهم ، وشدوا عزائمهم كلها إلى الحرب والطعان . . وآمنوا جميعاً بسلطان القوة ، وأسلموا وجودهم ووجوههم لهذا السلطان . . فمن لم يكن ذئباً أكلته الذئاب !

هكذا كان الشر بادياً صارخاً مطلا على الناس من كل أفق ، طالعاً عليهم من كل وجه . .

وشهادة القرآن الكريم عن هذه الحال أصدق شهادة . . حيث يقول جل شأنه — منبهاً العرب إلى النعمة التى جاءهم الإسلام بها ، فنزع عنهم لباس الخوف وخلع عليهم خلع السلام والأمن — « واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداءاً فألف بين قلوبكم ، فأصبحتم بنعمته إخوانا ، وكنتم على شفا حفرة من النار ، فأنقذكم منها . . »(١) !

نعم ، . كيف يستطيع إنسان أن يدفع عن نفسه هذا الشر المحيط به من كل جهة . وأن يسلم من هذا الأذى المندفع إلى الناس من كل صوب ؟ ؟ إنه لا يكفى فى مثل هذه المواطن الغارقة فى الشر والعدوان أن يكف المرء يده عن الناس ، ويحبس لسانه عنهم ، ليسلم منهم . وينجو من أذاهم . فما أكثر ما يكون هذا الموقف العف النظيف داعية إلى الهزء والسخرية ممن لا اخلاق لهم ، أولئك الذين لا يقيمون وزناً لخلق كريم ، ولا يحفلون بأصحاب الخلق الكريم . وما أكثر ما يغرى الحلم والاحسان وكثيراً من السفهاء ، بالتطاول والسفاهة ، إذ يحسبون هذا الموقف تعاظما وتعالياً أو جبناً وعجزاً . . وعلى كلا الحالين ، فإن هذا الموقف

(١) سورة آل عمران : ١٠٣

يتيح للسفهاء والضلال فرصاً للتحرش بأصحاب الاستقامة والجد ، ويفتح لهم طرقاً إلى النيل من المستقيمين الجادين ، ليخوضوا معهم فى الإثم والضلال كما خاضوا ، حتى لا يكون فى المجتمع من يشهد سفههم وضلالهم ، وهو عن السفه والضلال بمعزل !

والعجب فى أمر « محمد » مع قومه هؤلاء الذين عاش معهم فى عزلة روحية ؛ وفى هجرة نفسية — أنه مع هذا لم يحدث بينه وبينهم مايثير شراً ، أو يبعث عداوة ، أو يدعو إلى قطيعة . .

فلقد كان « محمد » مع هذا الاحساس الذى يعيش به فى قومه ، آثر إنسان فى قريش عند قريش . . . أحبه العقلاء لعقله وكماله ، وهابه السفهاء الجلال حلمه ، وكمال عقله ، وعظمة نفسه ، فلم يكيدوا له بكيد ، ولم يقفوا له فى طريق ! .

على أن هذا العجب من تلك الحال يرتفع ، ويصبح أمراً مألوفاً ، واقعاً مع منطق الحياة ، ومجريات الأمور فيها ، إذا عرفنا أن الأخلاق الكريمة والسجايا النبيلة التى لبسها « محمد » منذ نشأته الأولى لم تكن ثياباً مستعارة أو حلياً زائفاً ، وإنما هى بعض نفسه ، وطبيعة من طبعه . . فهى — والحال كذلك — سمة من السمات الذاتية فى « محمد » ، أشبه بملامح وجهه ولون جسده ، ثم هى مع هذا الارتباط الوثيق بينها وبين صاحبها — تبدو للمتوسم فيها شيئاً فريداً فى الكمال والتمام ، لا يرى فى غير « محمد » ، ولا يقدر على الوفاء له ، والحفاظ عليه ، بلا وهن ولا انتكاس غير « محمد » ! ومن أجل هذا كان الذى يرى محمداً فى صفاته العالية تلك لايرى شيئاً غريباً ، وإنما يرى إنساناً سوياً ، زانه الخلق الكريم ، كما يزين الوجه الصبوح صاحبه !

ويحدث الذين أسعدهم الزمان بمشاهدة الرسول أنه « كان صلى الله عليه وسلم إذا التفت التفت معاً ، وإذا مشى مشى تقلعاً(١) » .

إنه كيان واحد . وليس أوصالاً ممزقة يحويها جسد ، ويشتمل عليها إهاب ! كما يرى ذلك فى أكثر الناس !

---

(١) الشفا بتعريف حقوق المصطفى ، للقاضى عياض جزء أول ص ٥٧

، إذا التفت التفت معاً ، !

طبيعة متجانسة تؤلف بين أعضاء الجسد ، وكما يؤلف النغم الموسيقى بين عديد الألوان من الألحان !

كذلك شأنه صلى الله عليه وسلم فى صفات الكمال التى اشتمل عليها . . لنها أشبه بالصفة الواحدة ، تعمـــل جميعها متساندة ، متفاهمة . . للحق ، والعدل والاحسان .

وهكذا الشأن فيما بين ذاته وصفاته . . فليست صفاته شيئاً دخيلا عليه . إنها بعض ذاته ، وإنها لفى المستوى الذى تنقطع دونه الأمانى والأطماع ممن تطمعهم هممهم فى مساماته ، أو تنزع بهم أمانيهم إلى التشبه به .

ومن هنا سكنت فيمن عاصروا « محمداً » — قبـــل البعثة — دواعى الحسد ، وانقطعت أسباب العداوة والبغضاء ! إذ لا يتحاسد الناس فى الميئوس منه . ولا يتباغضون ! !

ويتلقى « محمد » دعوة السماء أنه رسول الله إلى الناس ، وحامل كلماته إليهم بشيراً ونذيراً لقوم يؤمنون » .

وما أن يصدع « محمد » بأمر ربه ، ويؤذن فى قومه : أنى رسول الله إليكم - حتى تغلى مراجل الحقد والحسد ، وحتى تتصدع صدور كثيرة ، فتلقى إلى « محمد » بكل مافيها من حنق ، وبغضة ، وشر ! !

فماذا جد فى الأمر ؟ وماذا فى « محمد » مما لم يعهد القوم فيه من قبل ! ؟

إنه الصادق غير المكذب . .

وإنه الأمين غير المتهم .

وإنه الطيب الذى لا يخبث أبداً . .

وإنه الرشيد الذى لا يهتر أبدا . .

وإنه الجاد الذى لا يهزو والمستقيم الذى لا ينحرف !

فماذا عدا مما بدا ؟

أأن جاءهم رجل منهم على فترة من الرسل يدعوهم إلى الهدى ، ويخرجهم من الظلمات إلى النور — أنكروا ماضيه فيهم ، وتنكروا لحاضره معهم ! أأن كان الرسول إنسانا بشراً يقوم بالسفارة بين الله والناس ، تمتلىء القلوب ضغناً ، وتفيض النفوس حسدا .

إن القوم قد استكثروا على « محمد » اليتيم الفقير أن يكون ممثل السماء على الأرض ، وسفير الله إلى الناس ! .

أفرغت الدنيا من أصحاب الجاه ، والرياسة حتى لاتجد السماء غير هذا اليتيم الفقير ، تجعله سفيرها إلى الناس ، وحامل كلمتها إلى العالمين .

إن كل ماعرفوا من صفات الكمال فى « محمد » لن يرشحه لهذا المنصب الخطير ، ولا يقيمه على رأس هذه الجماعة التى لاتأخذ الحياة إلا من جانبها المادى ، ولا تحسب حساب الناس إلا به . .

« وقالوا : لولا نُزِّلَ هذا القرآنُ على رَجُلٍ من القريتين عظيم[1] ! أهُمْ يَقسِمُون رحمة ربِّكَ ؟ نحنُ قسَمْنا بينهم معيشتهم فى الحياة الدُّنيا ، ورَفَعْنا بعضهم فوقَ بعضٍ درجاتٍ ، ليتَّخذَ بعضُهم بعضاً سُخْرِيًّا ، ورحمةُ ربِّكَ خيرٌ مما يجمَعُونَ[2] » .

وهب « محمداً » الرجل الأول فى قريش ، فإن ذلك لايخرج به عن أن يكون بشرا ! .

وأنى لبشر أن يطول السماء ، وأن يعرف الطريق إليها ، وأن يأخذ ويعطى معها . ذلك إن يكن فلتقع الواقعة ، وليكن بطن الأرض خير من ظهرها ! ! « وما منع الناس أن يؤمنوا إذ جاءهم الهدى إلا أن قالوا أبعث الله بشراً

---

(١) القريتان : مكة والطائف ، والرجل العظيم الذى يزعمونه فى مكة هو الوليد ابن المغيرة ، وفى الطائف عروة بن مسعود .

(٢) سورة الزخرف آية ٣٢ .

رسولا ! »(١) . . « وقالوا : لولا أنزل إليه ملك فيكون معه نذيرا ! »(٢).

* * *

« أهُمْ يقسمون رحمةَ ربك ؟ » .

هيهات . . . هيهات !

« إنك لرسول الله . والله يعلم إنك لرسوله . . . »(٣).

« فاصدع بما تؤمر ، وأعرض عن المشركين » .

« يا أيها المدّثرْ ، قمْ فأنذرْ ، وَرَبكَ فكبرْ ، وثيابكَ فطهِّر ، والرُّجْزَ فاهجرْ ، ولا تَمْنُنْ تَسْتَكثرْ ، وَلربِّكَ فاصْبرْ » .

وهنا يجمع « محمد » من كيانه رصيد أربعين عاما من الشمائل الطيبة التى احتواها ، ومن الأخلاق الكريمة التى اشتمل عليها . . من الصدق ، والأمانة ، والعفة ، والاستقامة ، والصبر ، والرضا ، والقناعة ، والرحمة ، والحنان ، والحب ، فيضمها جميعاً إليه ، لتكون له ردءاً وسنداً ، مع ماتمده به الشمائل من قوى وأمداد . . فإنه فى وجه عداوة صارخة ، وفى مواجهة عدو مغيظ محنق ، وفى قوم قد جعلوا أصابعهم فى آذانهم ، واستغشوا ثيابهم ، وأصروا ، واستكبروا استكبارا . . وهو مطالب أن يسمعهم كلمة الله ، وأن يقيم الحجة عليهم . ثم هو حريص أشد الحرص على أن يستنقذهم من العمى . وأن يخرجهم من الظلمات إلى النور ، بما يحمل فى قلبه الطيب الرضى من خير وعطف ومودة :

« لقد جاءكمْ رسولٌ من أنفسكمْ عزيزٌ عليه ما عَنِتّمْ ، حريص عليكم ، بالمؤمنين رءوف رحيم » . . « إن تحرصْ على هُدَاهم ، فإن الله لايهدى مَن

---

(١) سورة الإسراء آية ٩٤.

(٢) سورة الفرقان آية ٧

(٣) سورة المنافقون آية ١ .

يُضْلِلْ وما لهم من ناصرين » . « إنك لا تَهْدِي من أحْبَبْتَ . ولكنَّ الله يهدى من يشاء »

« وما أرسلناك عليهم حفيظا . . إن عليك إلا البلاغ » .

***

« اللهم اهد قومى . . فإنهم لا يعلمون »

ومن قلب مفعم بالحسرة، مخنوق بالأسى . لهذا اللجاج فى العناد ، ولهذا الإصرار على الضلال الذى تقيم عليه قريش ، وتؤذى نبيها من أجله ، حتى لتنوشه رماحها ، وتتعاوره سهامها يوم أحد فتدمى جبهته ، وتكسر رباعيته — من هذا القلب الرحيم الكبير تفيض معانى الأسى والحسرة ممزوجة بالإشفاق والرحمة ، مصورة فى تلك الكلمات الرقيقة : «اللهم اهد قومى . . فإنهم لا يعلمون» .

يارسول الله !

يا نبى الرحمة . . !

ماذا يقال فيك فى مقام المدح والثناء — وكل مقاماتك مدح وثناء — بعد أن زكتك السماء ، وقال فيك رب العالمين : « وإنك لعلى خلق عظيم ! » .

وأى كلام يبلغ صفتك ، ويجلى حقيقتك . وقد منحك الرحمن صفتين من صفاته : الرأفة والرحمة ، فقال فيك جل شأنه : « بالمؤمنين رءوف رحيم » ! !

فلا مدح ولا ثناء بعد أن خلع عليك ربك حلل المدح والثناء !

إن كل قول يقوله المادحون بعد هذا ليس وصفاً لذاتك ، ولا تشخيصاً لصفاتك ، وإنما هو تسبيح وتمجيد ، وصلاة ودعاء ! يجد فيه القائلون سعادة ورضى ، ويقبسون منه نوراً وهدى ، ويستمدون منه مضاءاً وعزما !

فإذا وقفت ببابك أقبس من أضواء سيرتك ، وأنشق من عبير هديك ، وأنهل من موارد فيضك وفضلك ، فإنما هى وقفة صلوات وتسليمات عليك ،

استجابة لما أمر الله به المؤمنين فى قوله تعالى : « إن الله وملائكته يصلون على النبى . يا أيها الذين آمنوا صلوا عليه ، وسلموا تسليما » .

فلا مدح ولا ثناء ! فانك فوق المدح ، وفوق الثناء ! .

ولكن .

صلوات ، وتسليمات . .

ورحمات ، وبركات . .

الباب الأول

الاسم .. والمسمى

« وَالبَلَدُ الطيِّبُ يخرجُ نباتُه بإذن ربِّه »

« قرآن كريم »

هل هناك علاقة بين الاسم وصاحبه ! بمعنى أن دلالة الاسم تتحقق فى المسمى ، وتفسر فى صفاته ، وفى سلوكه فى الحياة !

والذى يطلب الجواب على هذا السؤال لا يمكن أن يقع عليه فى مقررات علمية ثابتة ، إذ لم تخضع هذه الظاهرة لدراسة علمية منظمة بعد ، وغاية ماعرف الناس من وشائج القربى بين الاسم والمسمى إنما كان عن ملاحظات شخصية لأحوال فردية ، تصدق أحيانا ، ولا تصدق فى كل حين !

على أن الذى يعنى بالتعمق فى دراسة هذه الظاهرة ، ورصد النتائج التى تلوح من خلال هذه الدراسة — يقع على كثير من عجائب الاتفاق بين المسميات والأسماء ، وقل ألا ينكشف للمتأمل فى اسم ومسماه شىء من التطابق والتوافق بينهما ، حتى ليكاد يعد ذلك من قبيل الخطأ فى التأويل للحالات التى لا تتضح فيها علاقة بين الاسم وصاحبه ، استناداً إلى الحالات الكثيرة التى تبدو فيها تلك العلاقة واضحة أشد الوضوح ، لاتحتاج إلى كثير من النظر والتأمل !

وعلى أى ، فانا — كما قلنا — لا ندخل هـــذه الظاهره مدخل الحقائق المقررة ، أو النظريات المحققة ، وإنما نعدها من الأمور التى تنطوى على حقائق جديرة بالبحث عنها ، والوقوف على أسرارها .

وقد يبدو لسائل أن يسأل : إذا كان هناك علاقة أو شبه علاقة بين الأسماء ومسمياتها فكيف لا يتجه الناس جميعاً إلى أن يسموا ، أو يتسموا بالأسماء ذات الدلالات الجميلة الطيبة ، لتنضح على ذواتهم بعض مافيها من طيب وجميل ؟

والأسماء مباحة للناس جميعاً ، ميسرة لهم أعظم اليسر ، لا يتكلفون لها ثمناً ، ولا يبذلون من أجلها جهداً . . فلكل إنسان أن يتخير لنفسه أو لولده ما شاء من الأسماء ، غير مضيق عليه ، ولا مطالب بحساب ، لما يختار ويؤثر من أسماء . . . فلم يعدل كثير من الناس عن الأسماء الكريمة الطيبة إلى أسماء كريهة منبوهة ؟ ولم تشيع فيهم هذه الأسماء المكزة الثقيلة لفظاً ومعنى ؟ ؟

وندع الجواب على هذا السؤال الآن إلى أن ننتهى من حديثنا عن العلاقة التى قلنا إنها قائمة بين الاسم والمسمى ، وأن نعرض لذلك بعض الشواهد المعتمدة على الملاحظة والتجربة !

يقول ابن قيم الجوزية : « لما كانت الأسماء قوالب للمعانى ، ودالة عليها اقتضت الحكمة أن يكون بينهما ارتباط وتناسب ، وألا يكون المعنى معها بمنزلة الأجنبى المحض ، الذى لا تعلق له بها . فإن حكمة الحكيم تأبى ذلك ، والواقع يشهد بخلافه .. بل للأسماء تأثير فى المسميات . وللمسميات تأثر بأسمائها فى الحسن والقبح ، والخفة والثقل ، واللطافة والكثافة .. كما قيل .

وقل أن أبصرت عيناك ذا لقب
إلا ومعناه — إن فكرت — فى لقبه

« وكان صلى الله عليه وسلم يستحب الاسم الحسن ، وأمر إذا أبردوا إليه بريداً أن يكون حسن الاسم حسن الوجه . . !

« وكان صلى الله عليه وسلم يأخذ المعانى من أسمائها فى المنام واليقظة . .

« فقد رأى — فى منامه — أنه وأصحابه فى دار عقبة بن رافع ، فأتوا برطب من رطب طاب » . . فأوله — صلى الله عليه وسلم — بأن لهم العاقبة فى الدنيا ، والرفعة فى الآخرة : وأن الدين الذى اختاره الله لهم قد أرطب وطاب[1] » .

---

(١) تأول الرسول الكريم : عقبة بالعاقبة ، ورافع بالرفعة . . وجعل العاقبة فى الدنيا ، والرفعة فى الأخرة لأن عقبة جاء فى النطق قبل « رافع » وكذلك الدنيا تجىء قبل الآخرة .

« وتأول — صلى الله عليه وسلم — سهولة أمرهم يوم « الحديبية » من مجىء سهيل بن عمرو إليه(١) . . فقال : « سهل الله أمركم . »

« وكان — صلى الله عليه وسلم — يكره الأمكنة المنكرة الأسماء ، ويكره العبور فيها . كما مر فى بعض غزواته بين جبلين ، فسأل عن اسميهما ، فقالوا : فاضح ، ومخز ، فعدل عنهما ، ولم يجز بينهما(٢) .

« وقد ثبت عنه - صلى الله عليه وسلم - أنه غير اسم « عاصية » وقال : أنت جميلة(٣) !

« وغير - صلى الله عليه وسلم — « حزن » — جد سعيد بن المسيب — وجعله « سهلا » فأبى صاحب الإسم وقال : « السهل يوطأ ويمتهن »(٤) .

وسمى - صلى الله عليه وسلم - « حربا » سلما ، وسمى « المضطجع » المنبعث ، وأرضاً عفرة سماها خضرة ، وشعب الضلالة سماه شعب الهدى ، وبنو الزنية سماهم بنى الرشدة(٥) » .

ويقول ابن قيم الجوزية أيضاً : « ولما كان بين الأسماء والمسميات من الارتباط والتناسب والقرابة ما بين قوالب الأشياء وحقائقها ، وبين الأرواح والأجسام - عبر العقل من كل منهما إلى الآخر كما كان إياس بن معاوية(٦) ، وغيره ، يرى الشخص فيقول : ينبغى أن يكون اسمه كيت كيت ، فلا يكاد يخطىء !! .

وضد هذا ، العبور من الاسم إلى مسماه ، كما سأل عمر بن الخطاب رجلا عن اسمه ، فقال : جمرة ، فقال : واسم أبيك ؟ قال : شهاب ! قال : ممن ؟ قال : من الحرقة ! قال : فمنزلك ؟ قال : بحرة النار ؟ قال فأين مسكنك ؟ قال : بذات

---

(١) سهيل بن عمرو هو الذى ندبته قريش ليلقى النبى وهو على جيش المسلمين فى الحديبية قرب مكة ، فعقد معه صلحا .

(٢) زاد المعاد جزء ٢ ص ١٧ . (٣) صحيح مسلم .

(٤) صحيح البخارى — وسنن أبى داود . (٥) سنن أبى داود .

(٦) يضرب به المثل فى الذكاء ونفاذ البصيرة .

لظى . . قال : اذهب ، فقد احترق مسكنك ، فذهب فوجد الأمر كذلك[1] »
فعبر عمر من الألفاظ إلى أرواحها ومعانيها . .

ولما قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة واسمها « يثرب » لا تعرف بغير غدا الاسم ، غيره « بطيبة » لما زال عنها ما فى لفظ يثرب من التثريب ، بما فى معنى طيبة من الطيب استحقت هذا الاسم ، وازدادت به طيبا آخر ، فأثر طيبها فى استحقاق الإسم ، وزادها طيباً إلى طيبها » .

ويقول ابن القيم أيضاً :

« ولما كان الاسم الحسن يقتضى مسماه ويستدعيه من قرب ، قال النبى صلى الله عليه وسلم لبعض قبائل العرب ، وهو يدعوهم إلى الله وتوحيده « يا بنى عبد الله . . إن الله قد حسن اسمكم ، واسم أبيكم » .

« فانظر كيف دعاهم إلى عبودية الله بحسن اسم أبيهم ، وما فيه من المعنى المقتضى للدعوة ؟

ويأخذ ابن القيم من الواقع العملى للحياة شاهداً حياً على ما بين الأسماء والمسميات من علاقة التجانس والتطابق . فيعرض مشهداً من مشاهد القتال بين طائفتين من الناس . . الأولى مؤمنة ، والأخرى كافرة . . تدور بينهما الحرب فتنتصر الأولى وتنهزم الثانية .

والذى يقع فى نفس المشاهد للمعركة ، أو المستمع لأخبارها أن المعركة كانت بين الإيمان والكفر ، بين المؤمنين والكافرين . . وأن النصر الذى أحرزه المؤمنون إنما كان بما فى قلوبهم من قوة الإيمان الذى ثبت أقدامهم ، وملأ قلوبهم حمية وقوة !

ولكن ابن القيم ينظر فى ظلال هذه الواقعة فيرى فيها إلى جانب الإيمان الذى كسب به المؤمنون المعركة دلالة أخرى من شأنها أن تكتب لأصحابها النصر والغلب . . تلك هى دلالة الأسماء . . التى أدلت بنصيبها هذه المعركة ، فكان النصر فى جانب الأسماء ذات الدلالات الموحية بالقوة والعزم ، وكان الاندحار للأسماء ذات الدلالة الدالة على الضعف والخور !

---

(١) موطأ مالك .

يقول ابن القيم : وتأمل أسماء الستة المتبارزين يوم بدر(١) . . كيف اقتضى القدر مطابقة أسمائهم لأحوالهم يومئذ . . !

« فكان الكفار . شيبة ، وعتبة ، والوليد . . ثلاثة أسماء من الضعف ، فالوليد له بداية الضعف ، وشيبة له نهاية الضعف ، كما قال تعالى : « الله الذى خلقكم من ضعف ثم جعل من بعد ضعف قوة ، ثم جعل من بعد قوة ضعفاً وشيبة » ، وعتبة من العتب — أى اللوم — فدلت أسماؤهم على عتب يحل بهم ، وضعف ينالهم .

وكان أقرانهم : « عليا » و « عبيدة » و « الحارث »(٢) رضى الله عنهم . . ثلاثة أسماء تناسب أوصافهم ، وهى العلو ، والعبودية ، والسعى الذى هو الحرث فعلوا عليهم بعبوديتهم وسعيهم فى حرث الآخرة(٣) .

* * *

وسواء أكان هناك تلازم خفى بين الاسم ومسماه بحيث يمثلان معاً حقيقة واحدة أم لم يكن . . فإن الذى لاشك فيه أن للاسم موحيات تقع فى النفس عند ذكرها لاسم من الأسماء أو كلمة من الكلمات . . ! فكلمات النجاح والنصر ، والغنى والسعادة ، والشباب ، تبعث فى النفس رضى ، وتشيع فى القلب غبطة وروحاً ، على خلاف أضدادها من كلمات : الإخفاق ، والهزيمة ، والفقر ، والشقاء ، والهرم ، فإنها تشيع فى النفس انقباضاً ، وتبعث فى الصدر وحشة وكآبة !

---

(١) يشير ابن القيم إلى المبارزة التى وقعت أول معركة بدر ، فقد ندبت قريش للمبارزة ثلاثة نفر ، هم : شيبة ، وعتبة ، والوليد ، فتصدى لهم ثلاثة من الأنصار ، فأبت قريش منازلتهم ، وقالوا نريد من ينازلنا من قومنا ، فندب النبى صلى الله عليه وسلم ثلاثة : على ، وحمزة ، وعبيدة بن الحارث .

(٢) المشهور فى كتب السيرة أن الثالث هو حمزة رضى الله عنه وقد جعل ابن القيم عبيدة بن الحارث اسمين . هما : عبيدة ، والحارث . . ولهذا أغفل ذكر حمزة .

(٣) زاد المعاد جزء ٢ ص ١٩ .

وإنك حين تسمع اسم سعيد ، ومحمود ، ومحمد ، وحسن ، غيرك حين يصطك سمعك بأسماء . . حرب ، وغضبان ، وأعرج ، ومجذوب ونحوها . . فإنه يلقاك من الأولى روح من ريحها الطيب ، على حين يهب عليك من الثانية ريح بارد ثقيل . قد يثير قشعريرة تسرى فى كيانك كله ، وتملأ نفسك هما وكدرا .

وليس هذا شأن الأسماء . والكلمات وحدها بل هو الشأن كذلك فى المسموعات جميعها من أصوات وألحان . . فهديل الحمام ، وزقزقة العصافير غير نعيق الغربان والبوم والفرق بينهما كالفرق بين موسيقى الأفراح والموسيقى التى تصحب الجنائز ، وتمشى فى مركب الموت .

وليس هذا أيضاً شأن المسموع من الأصوات والألحان وحده ، بل هو شأن المنظور من كل شىء . . فالمنظر الحسن الجميل يبعث فى النفس ألوانا من مشاعر الحسن والجمال ، على خلاف المنظر الشائه القبيح ، فانه يلقى إلى الناس صوراً مفزعة مزعجة . .

وقد جاء توجيه النبى الكريم : « إذا أبردوا إليه بريدا أن يكون حسن الاسم حسن الوجه » . . جاء هذا التوجيه جامعاً لاختيار مايحسن فى السمع والنظر .

* * *

وننظر بعد هذا فيما كان لنبى الإسلام من حظ إلى سلام موفور فى اختيار الاسم اللائق به ، وبالرسالة التى ندبته السماء لها .

فقد بشر به عيسى عليه السلام باسم أحمد ، كما يقص القرآن الكريم فى قوله تعالى على لسان عيسى عليه السلام : « ومبشراً برسول يأتى من بعدى اسمه أحمد » .

وإذا كانت نسخ الأناجيل الأربعة التى فى أيدى الناس اليوم قد خلت من هذه البشرى على هذا الوجه الصريح ، فان ذلك لا ينقض ما جاء به القرآن الكريم فى الآية السابقة . . إذ القرآن هو الحجة القائمة على ما فى الكتب السماوية ، لأنه آخرها ، وضابط محكمها والمهيمن عليها ، وفى هذا يقول الله تعالى : « هو الذى أنزل عليك الكتاب بالحق ، مصدقا لما بين يديه من الكتاب ، ومهيمناً عليه » . . وهيمنة القرآن على الكتب السماوية السابقة إنما تجىء من هذا الوجه الذى أشرنا إليه ، وهو أنه آخرها والضابط لها ، كما تجىء من وجه آخر ، وهو أن التوراة والإنجيل قد دخل عليهما من التحريف ، والتبديل ،

مالا يجعل الاطمئنان إليهما أمراً مسلماً به . إذ أن الأناجيل ذاتها قد تعددت ، واختلفت فيما بينها ، وهى على رغم تعددها واختلافها لا تعتمد على أصل واحد ، ولا ترجع إلى الإنجيل الذى أنزل على عيسى عليه السلام .. وإنما هى روايات تتحدث عن سيرة المسيح ، رواها عنه بعض حوارييه ، أو من اتصل بحوارييه أو سمع منهم ، وفى هذه السيرة عبارات من عظات السيد المسيح ووصاياه ، وقد يكون فيها بعض آيات من الإنجيل السماوى ، كان السيد المسيح يضمنها عظاته ووصاياه ! وإذن فالأناجيل التى ذكرت سيرة المسيح ، تختلف فى تشخيص شخصية المسيح ، وفى تناول مواقفه باختلاف الكتاب الذين كتبوا هذه السيرة ، ونضجوا عليها من عواطفهم ، ومن ألوان ثقافتهم ما جعل هذه الأناجيل تختلف ذلك الاختلاف ، كما يختلف إنسان عن إنسان فى تفكيره . وفى تصوره للأحداث .

وقد جمع العالم المسيحى « فابرى سيوس » أكثر من خمسة وسبعين إنجيلا ، وطبعها فى ثلاث مجلدات . وكشف عن أوجه الخلاف بينها .

غير أن المعمول به الآن فى الديانة المسيحية أربعة أناجيل هى : « متى ، ولوقا ، ومرقس ، ويوحنا » حيث استقر العمل بها فى أول القرن الثالث .

وليس من همنا هنا دراسة تاريخية محققة للانجيل السماوى . أو للأناجيل التى جاءت محدثة عنه

وإنما الذى نقف عنده هنا هو أن القرآن الكريم قد ذكر آية صريحة تذكر على لسان السيد المسيح تلك البشرى التى أعلنها فى بنى إسرائيل مبشرا بمولد نبى اسمه « أحمد » . . . « إنى رسول الله إليكم مصدقاً لما بين يدى من التوراة ، ومبشرا برسول يأتى من بعدى اسمه أحمد » ثم لا نجد هذه البشرى صريحة تلك الصراحة فى الأناجيل الأربعة التى اعتمدتها المسيحية . وإنما الذى جاء فيها إشارات يمكن أن تؤول — فى شىء من التعسف والعسر — لتؤدى معنى يفهم منه ظهور نبى عربى يأتى من بعد المسيح ، موصوفا بصفات الحمد . فمثلا فى إنجيل

يوحنا . « إن كنتم تحبونى ، فاحفظوا وصاياى ، وأنا أطلب من الرب ليعطيكم البارقليط آخراً ليمكث معكم إلى الأبد[1] .

وفى هذا الانجيل أيضاً : متى جاء البارقليط الذى سيرسله إليكم الرب ، هو روح الحق الذى من عند الرب ينبثق ، فهو يشهد لى ، وتشهدون أنتم أيضاً ، لأنى معكم من الابتداء » .

وتفسير كلمة « البارقليط » فى القاموس العبرى ، بكلمة الحمد، أو كثير الحمد.

ولعل أعجب مافى هذا الأمر الذى يبلغ مبلغ المعجزة أن يجىء عيسى مبشرا بنبى يأتى من بعده اسمه « أحمد » ، ثم يظل هذا الاسم فى كتاب مكنون لا يمسه أحد ، حتى يجىء صاحبه « محمد » صلى الله عليه وسلم . فيلبسه ، ثوبا من أثواب الحمد التى خلعها الله سبحانه وتعالى عليه .

يقول القاضى عياض :

« فهو — أى النبى — أحمد الحامدين . وأحمد المحمودين . ومعه لواء الحمد يوم القيامة . ويبعثه ربه هناك مقاماً محموداً كما وعده . يحمده فيه الأولون والآخرون بشفاعته لهم . وسمى أمته فى كتاب أنبيائه بالحمادين[1] . فحقيق أن يسمى « محمدا » و « أحمد » .

« ثم فى هذين الإسمين من عجائب خصائصه ، وبدائع آياته فن آخر .. هو أن الله جل اسمه حمى أن يسمى به أحد قبل زمانه » .

أما « أحمد » الذى أتى فى الكتب ، وبشرت به الدنيا فمنع الله تعالى بحكمته أن يسمى به أحد غيره . ولا يدعى به مدعو قبله ، حتى لا يدخل لبس على ضعيف القلب أى شك . وكذلك « محمد » أيضاً ، لم يسم به أحد من العرب أو غيرهم ، إلى أن شاع قبيل وجوده صلى الله عليه وسلم وميلاده أن نبياً سيبعث اسمه « محمد » ، فسمى قوم قليل من العرب أبناءهم بذلك رجاء أن يكون أحدهم هو . و « الله أعلم حيث يجعل رسالته » ثم حمى الله سبحانه كل من تسمى به أن يدعى النبوة

---

(١) انجيل يوحنا اصحاح ١٤ آية ١٥ .

أو يدعيها أحد له ، أو يظهر عليه سبب يشكك أحداً فى أمره ، حتى تحققت السمتان[1] له صلى الله عليه وسلم ، ولم ينازع فيهما[2] » .

وقد أخبر القرآن الكريم أن الله سبحانه وتعالى اختار لنبيه « يحيى » عليه السلام الاسم الذى سمى به ، فقال تعالى : « يازكريا إنا نبشرك بغلام اسمه يحيى ، لم نجعل له من قبل سميا » !

فقد حفظ الله سبحانه وتعالى اسم « يحيى » من أن يسمى به أحد حتى جعله سبحانه اسماً لنبيه الكريم « يحيى » عليه السلام !

كذلك حمى الله سبحانه اسم « أحمد » أن يسمى به أحد حتى كان النبى الكريم « محمد » هو الذى يخلع عليه هذا الاسم الكريم .

على أن هناك آية معجزة من آيات الإعجاز فيما أراد الله سبحانه لنبيه « محمد » من تكريم بهذا الاسم الكريم ، فقد أعلى اسمه على لسان عيسى عليه السلام قبل مولده بنحو ستة قرون ، ثم ظل هذا الاسم فى أفواه الحواريين ، وفى صحف الإنجيل ، دون أن يخطر ببال أحد أن يسمى به ابناً من أبنائه على عادة الناس فى تهالكهم على تسمية أولادهم بأسماء النبيين ، والقديسين ، وأهل الفضل والخير من الناس ، عسى أن يصيبوا من بركة أصحابها شيئاً ، أو أن يكون لهم من اسمهم الطيب نصيب .

و « أحمد » فى ذاته اسم جميل ، سمح ، حلو النغم ، عذب الجرس ، يغرى بالتسمى به ، حتى عند من لا يحسن العربية ولا يعرف مدلوله الذى يدل عليه فكيف ظل هذه القرون دون أن يتفق لإنسان أن يقع عليه أو يتسمى به ؟ إن ذلك إن دل على شىء ، فإنما يدل على أن الله قد آثر نبيه بهذا الاسم الكريم ، واختصه به ، وجعله على أفواه الناس ، إرهاصاً بمولد النبى الذى سيحمل هذا الاسم ، وبشرى بين يدى بعثته . وفى ذلك آية للمستبصرين من أهل الكتاب الذين يعرفون صفات هذا النبى الأمى ويجدونه مكتوباً عندهم

---

(١) السمتان : هما الاسمان : أحمد ، محمد .

(٢) « الشفا » للقاضى عياض جزء ١ ص ١٩٠ .

فى التوراة والإنجيل، ثم تصرفهم عنه قوة علوية، وتعقد ألسنتهم عن أن تتعامل به، وتجعله علماً لإنسان من الناس .

و (محمد) اسم علم ، وهو منقول من صفة .. من قولهم رجل (محمد) وهو الكثير الخصال المحمودة ، والمحمد فى لغة العرب هو الذى يحمد حمداً بعد حمد ، مرة ، بعد مرة[1] .

قال السهيلى : لم يكن محمداً حتى كان أحمد .. حمد ربه ، فنبأه — أى جعله نبياً — وشرفه ، فلذلك تقدم اسم (أحمـــد) على الاسم الذى هو (محمد) ، فذكره عيسى ابن مريم باسمه (أحمد)[2] .

* * *

وانظر بعد هذا كيف اختار الله لنبيه هذا الاسم الطيب « محمد » فسماه « أحمد » قبل أن يولد . و « محمداً » بعد أن ولد .. فهو الحامد لربه ، المحمد من عباده .. حمد ربه على ما أفاء عليه من فضل ، وما أسبغ عليه من نعم ، وحمده الناس بما جاءهم به من الحق ، وما هداهم إليه من الإيمان ، فهو حامد لله ، « محمد » محمود من الله ومن الناس .

وبهذا كان النبى بهذين الإسمين جامعاً لصفات الحمد كلها .. فهو الحامد المحمد المحمود ، فإذا كان بعد ذلك من يحمد الله فهو من حمد « أحمد » يغترف ، وعلى هداه يهتدى ، وإذا كان بعد ذلك فى الناس من يحمده الناس فهو لما يحمد به « محمد » تبع ، ولما يثنى به عليه تابع ومقتد .

ثم انظر فى ذات « محمد » نفسه ، وكيف كانت المحامد كلها مجتمعة إليه فى أكمل صورها ، وأجمل أوضاعها . فما كان من خلق كريم محمود فهو فى « محمد » على أوفى صورة وأتمها ، وما كان من فعل طيب محمود ، فهو فى « محمد » على أجمل حالة وأحسنها .

---

(١) نهاية الأرب للنويرى جزء ١٦ ص ٧٥ .

(٢) الروض الأنف للسهيلى جزء ١ ص ١٥٦ .

وليس يجمع هذه الصفات الكريمة اسم أتم وأعدل من اسم « محمد » ! فقد يكون في أسماء : أمين ، وصادق ونبيل ، وعظيم ، وطيب ونحوها ما ينبىء عن صفة أو أكثر من الصفات الطيبة التي إن صدقها مسماها ، أو صدقت هي في المسمى بها كان ذلك دلالة على اتصاف صاحبها بالصفة التي تدل عليها دون أن ينسحب ذلك، إلى غيرها من الصفات : حمداً ، أو ذماً . . فالمسمى بالأمين ، إن طابق الاسم فيه المسمى ، كان نصيبه من الصفات الطيبة صفة « الأمانة » ، وقد يكون له إلى جانبها صفات أخرى لا تحمد كالجبن أو البخل ، ونحوهـــا . . وكذلك قل في الصادق ، والنبيل ، والعظيم والطيب ، وما شابه ذلك من صفات . . فقد ينال الإنسان منزلة النبل أو العظمة بصفة كريمة أو أكثر دون أن يكون من لوازم ذلك أن يحوى الصفات الطيبة كلها . . أما « المحمد » فلا يكون على تلك الصفة حتى يجمع المحامد كلها ، وحتى تكون كل أقواله وأفعاله على الوجه الذى تحمد فيه عن كل الناس، وفى جميع الأحوال ! ، ولن يكون « محمداً » من جمع أكثر المحامد ثم فاته بعضها أو القليل منها .

فماذا نقول بعد هذا فى ذلك التوافق بين محمد « الذات » ومحمد « الاسم الذى سميت به تلك « الذات » ؟ .

قد يقول قائل : وماذا فى هذا التوافق ؟ ولم لا تكون الصدفة وحدها هى التى جمعت بين « محمد » الوليد وبين هذا الاسم « محمد » ؟ حتى إذا تألق « محمد » وعلا ذكره فى الوجود كان كل شىء مهما صغر ، وكل حدث مهما ضؤل ذا شأن أى شأن . . له تقدير وحساب ، تكثر دلالاته ، وتتعدد مفاهيمه ، ما دام قد اتصل بالنبى ولابس حياته ؟ ؟

ونقول : إن فى ظاهر ذلك القول شيئاً من الحق . . ولكن ليس على إطلاقه فى كل ما يتصل بالنبى . . !

حقاً إن عظمة العظيم تلقى على كل شى اتصل به ألوانا وظلالا تجعل له فى مشاعر الناس مكانا غير مكانه الذى له ، فيبدو صغيره كبيراً ، وقليله كثيراً ، وواضحه غامضاً ، وقريبه بعيدا . .

ولكن ليس ذلك على إطلاقه - كما قلنا - إذ هناك فى حياة العظيم أمور هى فى ذاتها رائعة ، معجبة ، مذهلة ، معجزة . . لا يختلف عليها الناس ، ولا تتباعد بينهم شقة الخلاف إن اختلفوا !

وهنا فى تسمية « محمد » بمحمد لا يمكن أن يكون ذلك وليد الصدفة بحال أبداً ذلك أن اسم « محمد » لم يكن من الأسماء المعروفة الشائعة يوم مولد النبى . . وأن الذين تسموا بمحمد كانوا أفرادا . قيل إنهم خمسة ، وقيل إنهم سبعة . . وكلهم كانوا فى عصر النبوة وبين يديها ، وقد أدرك معظمهم الإسلام فمن أين لآمنة بنت وهب أن تقع على هذا الاسم ، الذى ربما لم يكن قد طرق سمعها ، أو جرى على لسانها من قبل أن تتحرك به شفتاها ، حين اختارته اسما لوليدها اليتيم ؟

ثم لو فرض أن اسم « محمد » كان من الأسماء المعروفة عند العرب ، فإن الاتجاه إليه لم يكن من الأمور المنتظرة فى شأن هذا الوليد القرشى ، الهاشمى . إذ أن ضخامة الأسماء ، فى لفظها ، وفى مدلولها ، كان لها الشأن الغالب فى تسمية المولودين من أشراف قريش . مثـــل : حنظلة ، ومرة ، وأسد ، وفهر ، وغالب ، وعبد العزى ، وعبد الدار ، وعبد اللات ، وعبد مناة . .

وما أشبه ذلك من الأسماء التى تلقى فى قلوب سامعيها الرعب ، والفزع ، وتكسو مسماها هيبة وقوة - وقد أشرنا من قبل إلى موقف « حزن » جد سعيد ابن المسيب من الاسم الذى أراد الرسول أن يسميه به وهو « سهل » ، فأبى ، وقال : إن السهل يوطأ ويمتهن » : فكان المتوقع لوليد آمنة بنت وهب أن تتخير له إسما من تلك الأسماء ذات الإشعاع القوى النفاذ إلى مواطن الإرهاب فى الناس!

فكيف تنفذ الصدفة بين هذه الحوائل جميعها ، وتحمل إلى ذلك الوليد اليتيم هذا الاسم الفريد اليتيم من بين هذا العديد من الأسماء المنصوبة فى قائمة أشراف العرب وأبطالها ؟ ثم كيف تظل هذه الصدفة ذلك الزمن الطويل - والصدفة لحظة عابرة ، تجىء خلسة وتذهب خلسة - كيف ظل هذا الزمن الطويل محتفظة للنبى بهذا الاسم الذى سمى به ، دون أن يزحزحه عن مكانه لقب ، أو دون أن تشاركه كنية ؟ وما أكثر الألقاب والكنى : . وقل أن يكون فى العرب من

لايكون له كنية أو لقب . أو كنية ولقب معاً أو عدة ألقاب وكنى ! تغلب على اسمه فلا يكاد يذكر على لسان ؟

كيف يظل « محمد » هو « محمد » . . لاكنية ، ولا لقب حتى يكون هو الذى يكنى نفسه « أبا القاسم » .. بعد أن ولد له مولوده « القاسم[1] » .

كيف يكون للصدفة هذا التصرف المتمكن من الأحداث ، الممتد مع الزمن الجارى على الحكمة والمنطق ؟ كيف وشأن الصدفة أن تكون خلسة خاطفة ، وأن تجىء على غير حساب ، وأن تقع بغير تقدير . هكذا خبط عشواء ! ؟

إن يكن ذلك شأن الصدفة فماذا تركت للتدبير والحكمة ؟ وأين تكون مواقع أفضال الله . ومنازل رحمته ؟ وأين آيات تدبيره وحكمته ، فيمن يصطفى ويختار من عباده ؟

وأكثر من هذا . !

فإن الفرعين الزكيين اللذين ولدا « محمدا » قد أراد الله لهما اسمين كريمين يليقان بهذا النبى العظيم الذى سينسب إليهما . فأبوه « عبد الله » وأمه «آمنة» !

والدين الذى جاء به « محمد » هو دين العبودية الخالصة لله : « إن كل من فى السموات والأرض إلا آتى الرحمن عبدا » والشريعة التى يدعو إليها «محمد» شريعة أمن وسلام : « يا أيها الذين آمنوا ادخلوا فى السلم كافة ، ولا تتبعوا خطوات الشيطان ، إنه لكم عدو مبين » .

فالعبودية والأمن هما اليدان الكريمتان اللتان قدمتا محمداً إلى الإنسانية ، وأطلعتا شمسه على هذا الوجود !

وأكثر من هذا أيضاً فإن اسم المرأة التى أرضعته يدخل فى هذه الظاهرة التى نتحدث عنها . . فاسمها « حليمة » وموطنها « نجد » وقومها بنو « سعد » !

ولنا أن نقول إن محمداً قد رضع الحلم من حليمة ، إلى ما أفاض عليه ربه من فضله ، وأذاقه من رحمته ! وأن شأنه وشأن شريعته العلو والإسعاد .

---

(١) والقاسم : صفة من صفات النبى .

وإذا كان من الجائز أن يسلم اسم الأب أو الأم أو المرضع من ضلالات أسماء الجاهلية وشناعاتها ، وسوء موردها ومصدرها ، فإن مما لا يمكن أن يكون إلا بتدبير أن تسلم لهذه المسميات أسماؤها جميعاً ، فيسلم اسم أبيه ، واسم أمه ، واسم مرضعته ! ، ثم لا تكون بحيث تخلو من العيوب والمقابح ، بل تتزين بأحسن ما يمكن أن يتزين به اسم من صفات ، ويجتمع إليه من خير .

ومن عجب أن تكون هذه الأسماء . . عبد الله ، وآمنة ، وحليمة » أسماء غير شائعة ولا غالبة ، ثم يجتمعن على نسق !

وقليل جداً فى العرب ـ قبل الإسلام ـ اسم « عبدالله » فما عرف العرب العبودية الخالصة لله ، حتى عند من عرف منهم أن للعالم إلهاً هو الله ، بل كان ولاؤهم ، وعبوديتهم للأصنام التى عبدوها من دون الله . فأضافوا أنفسهم إليها وقالوا : عبد العزى ، وعبد اللات ، وعبد مناة ، وعبد ود ، وقد كان أقرب شىء إلى عبد المطلب إذا أضاف ابنه « عبدالله » هذا إلى معبود ، أن يضيفه إلى صنم من تلك الأصنام . . أما أن يضيفه إلى « الله » فذلك أمر لا يعلم تأويله إلا الله . . !

وكذلك اسم أمه « آمنة » بنت وهب ، واسم مرضعه حليمة السعدية . . كان أقرب شىء إليهما من الأسماء ما شاع بين العرب الجاهليين : كعفراء ، وحنساء ، وأم الهيثم ، وما شابه تلك الأسماء . . ولكنه فضل من الله الذى شمل النبى من قبل أن يولد ، وبعد أن ولد ، واصطفى للنبوة . وفى هذا يقول الله سبحانه وتعالى لنبيه الكريم : « وكان فضل الله عليك عظيما » .

وبعيد أننا نلتمس هنا من دلالات الأسماء على مسمياتها شيئاً يضاف إلى جلال النبوة ، أو يزكى قيامها على أصول ثابتة وطيدة من الحق والعدل والخير ، فإن ما تقيمه السماء ليس فى حاجة إلى شىء يدعمه أو يسنده !

ولكن الذى نلتمسه من هذا التوافق المطرد فى اجتماع الأسماء الطيبة الزكية كلها للنبى فى شخصه ، وفى أبويه ، وفى مرضعه ـ الذى نلتمسه من ذلك هو تلك العناية الصمدانية التى حمت حمى الرسول أن يطوف به طائف سوء ، أو يلم

بد طيف خبيث .. إنه حمى النبوة العظمى ... وإنه لفى حماية الله ورعايته « ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء ، والله ذو الفضل العظيم » .

* * *

ونجيب الآن على السؤال الذى افترضناه آنفاً ، وهو : إذا كان هناك علاقة ، أو شبه علاقة بين الأسماء ومسمياتها ، فكيف لا يتجه الناس جميعاً إلى أن يسموا ، أو يتسموا بالأسماء ذات الدلالات الجميلة الطيبة ، لتنضح على ذواتهم بعض ما فيها من طيب وجميل ؟؟

ذلك سؤال يدور فى نفس أى إنسان يقف على هذه الظاهرة ، ويعلم من أمرها شيئاً .

والأمر ليس من السهولة واليسر كما يبدو لأول وهلة . إن الأمر فى ظاهره مطلق إطلاقاً تاماً ، بلا قيود ، ولا حدود .. يتناوله المرء من قريب ، كما يتناول الهواء برئتيه ، أو يغترف من النور بعينيه فما على الإنسان إلا أن يقصد أى اسم يريد ، فيحرك به شفتيه ، ويسمى به من يشاء ، فإذا الإسم ملك له ، وإذا المسمى محكوم بهذا الاسم مستظل به !

هذا مايبدو فى ظاهر الأمر ، ولكن الواقع يشهد لخلاف ذلك فحين نستعرض أسماء الناس ، أو « أعلامهم » نجد عجباً عاجباً ... فهناك كثرة كثيرة من الأسماء الجافية ، أو الموحشة ، أو المستقبحة . قد ألقاها الناس على أبنائهم وكأنهم تحت سلطان قاهر حملهم عليها ؛ حتى ليبدو أن الناس لو خلوا وشأنهم لما جرت هذه الأسماء على ألسنتهم ، ولفروا منها فراراً ..

فإنك لتجد فى الناس من سمى ابنه ، مشحوتاً ، أو شحاتا ، أو مسروقا ، أو حابساً ، أو كلباً ، أو حماراً ، وليس بينه وبين الأسماء الجميلة — فى ظاهر الأمر — حاجز أو حائل .

ولكن الأمر على خلاف هذا .. إن الحياة تفرض على الأحياء أن يشغلوا كل جانب فيها : الحسن والقبيح ، والسهل والوعر ، والخصب ، والجدب ، حتى تحتفظ بتوازنها ، فلا يرجح جانب ويخف جانب ، فتضطرب ، وتفسد ، ،

ولو كان الناس أن ينطلقوا من غير أن تحكمهم هذه الخيوط غير المنظورة التى تمسك بهم — لكانت وجهتهم جميعاً واحدة . ولاختاروا الحسن منها وهجروا القبيح ، ولعمروا السهل دون الوعر ، وافترسوا فى الخصب دون الجدب ، ولما رأينا أمماً تسكن الصحراء أو تعيش بين الثلوج أو فى الأدغال ؟

وليس ذلك شأن الإنسان وحده ، بل إنك لتجد عالم الحيوان محكوما كذلك بهذه القوة الخفية ، ومشدودا بتلك الخيوط غير المرئية ... فهناك طيور تعيش فى القفر ، لا ظل ، ولا ماء وليس بينها وبين الماء والظل إلا أن تفرد أجنحتها وتنطلق إلى هذا النعيم الذى حرمت منه ، فتبلغه فى غدوة أو روحة من غدواتها أو روحاتها !

وأكثر من هذا ، فإنا نرى « العصافير » مثلا فى المكان الواحد ، فى البلد الواحد ، بعضها يغشى الدور ، ويخترق الأبواب والنوافذ ، ويتعرض للهلاك فى سبيل التقاط حبة أو فتاة خبز ، على حين يكون على رمية منها مخازن الحبوب فى العراء ، وفى مواطن الحصاد والدرس . يغشاها كثير من هذه العصافير ، وينال حاجته منها من قريب !

ولا تسأل : ما هذا ؟ فذلك تقدير العزيز العليم . الذى أعطى كل شىء خلقه ثم هدى !

ولا نجد بدًّا من أن ننقل هنا نظرة من نظرات « الجاحظ » النافذة فى هذا الأمر ، فإنه لم تفلت منه ملاحظة هذه الظاهرة ، ولم تغب عن باله فى دراساته للحياة وللأحياء !

يقول الجاحظ :

« واعلم أن الله تعالى إنما خالف بين طبائع الناس ليوفق بينهم ولم يحب أن يوفق بينهم فيما يخالف مصلحتهم .

« لأن الناس لو لم يكونوا مسخرين بالأسباب المختلفة ، وكانوا مخيرين(١)

---

(١) فى الأصل مجبرين وهو تصحيف .

فى الأمور المتفقه والمختلفه لجاز أن يختاروا بأجمعهم الملك والسياسة ، وفى هذا ذهاب العيش وبطلان المصلحة ، والبوار والتواء(١) .

« ولم يكونوا مسخرين بالأسباب ، مرتهنين بالعلل لرغبوا عن الحجامة أجمعين ، وعن البيطرة والقصابة والدباغة(٢) .

« ولكن كل صنف من الناس مزين عندهم ماهم فيه ، ومسهل ذلك عليهم فالحائك إذا رأى تقصيراً من صاحبه أو سوء حذق ، أو خرقاً ، قال له : ياحجام ! .

« والحجام إذا رأى تقصيراً من صاحبه قال له . ياحائك !

ولذلك لم يجمعوا على إسلام أبنائهم فى غير الحياكة ، والحجامة ، والبيطرة والقصابة .

« ولولا أن الله تعالى أراد أن يجعل الاختلاف سبباً للاتفاق والائتلاف ؛ لما جعل واحداً قصيراً ؛ وآخر طويلا ؛ وواحداً حسناً والآخر قبيحاً ؛ وواحداً غنياً ؛ وآخر فقيراً ، وواحداً عاقلا وآخر مجنونا ؛ وواحداً ذكيا ؛ وآخر غبيا .

« ولكن خالف بينهم ليختبرهم ؛ وبالاختيار يطيعون ؛ وبالطاعة يسعدون !

« ففرق بينهم ليجمعهم ؛ وأحب أن يجمعهم على الطاعة ليجمعهم على المثوبة .

« فسبحانه وتعالى ما أحسن ما أبلى . وأحكم ماصنع وأتقن مادبر !

« لأن الناس لو رغبوا كلهم عن عار الحياكة لبقينا عراة ولو رغبوا بأجمعهم عن كد البناء لبقينا بالعراء ، ولو رغبوا عن الفلاحة لذهبت الاقوات ؛ ولبطل أصل المعاش .

« فسخرهم على غير إكراه ، ورغبهم من غير دعاء !

---

(١) التواء : الهلاك .

(٢) كانت أمثال هذه الصناعات والحرف مما تأباه النفس العربية .

ولولا اختلاف طبائع الناس وعللهم لما اختاروا من الأشياء إلا أحسنها ، ومن البلاد إلا أعدلها ، ومن الأمصار إلا أوسطها .

« ولو كان كذلك لتناحروا على طلب الواسط ، وتشاجروا على البلاد العليا ، ولما وسعهم بلد ، ولما تم بينهم صلح !

« فقد صار بهم التسخير إلى غاية القناعة !

« وكيف لا يكون كذلك وأنت لو حولت ساكنى الآجام إلى الفيافى ، وساكنى السهل إلى الجبال ، وساكنى الجبال إلى البحار ، وساكنى الوبر إلى المدر — لأذاب قلوبهم الهم ، ولأتى عليهم فرط النزاع ..

ثم يقول :

« وليس على ظهرها — أى ظهر الأرض — إنسان إلا وهو معجب بعقله ، لا يسره أنه له ما لغيره . ولولا ذلك لماتوا كمداً ، ولذابوا حسداً ! .

« ولكن كل إنسان وإن كان يرى أنه حاسد فى شىء فهو يرى أنه محسود فى شىء !

ثم يصير الجاحظ إلى ما نحن فيه من الأسماء والمسميات فيقول :

« ولولا اختلاف الأسباب لتنازعوا بلدة واحدة ، واسما واحداً ، وكنية واحدة .

« فقد صاروا — كما ترى — مع اختيار الأشياء المختلفة إلى الأسماء القبيحة ، والألقاب السمجة !

« والأسماء مبذولة ، والصناعات مباحة ، والمتاجر مطلقة ، ووجوه الطرق مخلاة .

« ولكنها مطلقة فى الظاهر ، مقسمة فى الباطن ، وإن كانوا لا يشعرون بالذى دبره الحكيم من ذلك ، ولا بالمصلحة فيه .

فسبحان من حبب إلى واحد أن يسمى ابنه محمداً ، وحبب إلى آخر أن يسميه شيطانا ، وحبب إلى آخر أن يسميه عبد الله ، وحبب إلى آخر أن يسميه حمارا .

« لأن الناس لو لم يخالف بين عللهم فى اختيار الأسماء ، وجاز أن يجتمعوا على شيء واحد ، كان فى ذلك بطلان العلامات ، وفساد المعاملات(١) » .

هذا ، ولا يدع أعداء الإسلام ونبى الإسلام وسيلة يتوسلون بها إلى الطعن فى رسول الله ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ إلا أمسكوا بها ، ولو غرقوا فى الزور والبهتان ..

وحتى لقد نازعوا فى اسم رسول الله صلى الله عليه وسلم . وجعلوا ينسجون حوله من الأوهام والضلالات ، ما يثيرون به الغبار فى وجه الشمس ليحجبوا أضواءها وهيهات هيهات ! !

ولقد كان من جرأتهم على الحق أن ادعوا أن النبى الكريم لم يكن اسمه أول الأمر « محمداً » بل لقد سماه جده عبد المطلب « قثم » ورووا فى هذا تلك الأسطورة المفضوحة » .

يقول المستشرق : « إميل درمنقم » :

وهنا نذكر أن الاسم الأصلى للنبى محمد هو « قثم » ! ! ثم لم يلبث هذا الاسم أن عدل عنه بعد ولادته بوقت قصير أو حين بعثته ! ! ـ إلى محمد ، الذى هو لقب نبوى أكثر منه أن يكون اسماً ! !

ويعلق الاستاذ عادل زعيتر على هذا بقوله :

« هنا أعرب ما انتهى إليه المستشرقون ، وأول من ذهب إلى ذلك « سبرنجر » مستنداً إلى ما جاء فى باب تسمية الرسول » من « السيرة الحلبية » نقلا عن كتاب : « الإمتاع » : أنه لما مات قثم بن عبد المطلب ، قبل مولد النبى صلى الله عليه وسلم بثلاث سنين ، وهو ابن تسع سنين ، حزن عليه أبوه حزناً شديداً . . فلما ولد رسول الله صلى الله عليه وسلم سماه « قثم » حتى أخبرته أمه آمنة ، أنها أمرت فى منامها أن تسميه محمداً ، فسماه محمدا ، ثم يقول الأستاذ زعيتر : « فمن هذه الرواية البادية الوضع ، والتى تدل أقل نظرة إليها عند قبولها على علاتهـــا ـ على أن عبد المطلب عدل عن اسم « قثم » إلى اسم « محمد » بعد ولادته بدقائق معدودات .

وتابع « هرشفلد » « سبرنجر » على رأيه ذلك ، ولم يلبث كثير من المشركين أن وجدوا فى هذا فتحاً جديداً لهم ، وبلغ ببعضهم التعسف والتجنى ما صار يزعم

به . أن ماورد فى القرآن من ذكر لمحمد وأحمد قد أضيف إليه فيما بعد ، وذلك رداً على الحجة القائلة : إن أمر الرسالة ما كان ليستقيم ، لو عدل بعد الرسالة إلى إسم محمد » .

وفى القرآن الكريم « وإذ قال عيسى ابن مريم ، يا بنى إسرائيل إنى رسول الله إليكم مصدقاً لما بين يدىّ من التوراة ، ومبشراً برسول يأتى من بعدى اسمه أحمد » ونفسا على الإسلام ما كان من اشتمال كلمة البارقليط « اليونانية التى وردت فى الإصحاح الرابع عشر من إنجيل يوحنا » والتى يدل معناها على (محمد) ! » .

ونقول : « إن ما استدل به المستشرق « سبرنجر » مما نقله من بعض الروايات المدسوسة فى كتب السيرة ، ينطق بالكذب والتلفيق :

فأولا : ما قيل من أن عبد المطلب جد النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ كان ولد ولد اسم « قثم » ، وأنه لما مات هذا الولد حزن عليه ، ثم لما ولد لآمنة بنت وهب « محمد » سماه « قثم » إحياء لذكرى ابنه الميت ، وذلك بعد ثلاث سنوات من موته ـ هذا القول يكذب بعضه بعضاً . . إذ كيف ينتظر الأب ثلاث سنين حتى يولد « محمد » ليسميه « قثم » ـ أفما كان فى أبناء عبد المطلب من يولد له ولد خلال هذه المدة ؟ وكيف وكان له عشرة أبناء ؟

وثانياً : إذا كان عبد المطلب قد سمى حفيده محمداً « قثم » ثم عدل عن ذلك بعد أن علم من أمه أنه قد أمرت فى منامها أن تسميه محمداً ، فعدل عن ذلك وسماه محمداً ـ إذا كان ذلك كذلك فكيف يحفظ هذا الاسم المقترح ، الذى لم يشع فى الناس ولم يكن إلا حديثا عابراً بين عبد المطلب وآمنة ـ كيف يبقى له ذكر فى الحياة بعد هذا ؟

أما القول بأن رسول الله قد ظل يحمل اسم « قثم » إلى أن كانت البعثة : فكان ذلك الاسم لقباً نبوياً له على حين ظل اسم « قثم » هو العلم عليه ـ فإن هذا القول تكذبه الشواهد كلها ، ولو أن ذلك كان له أثر من الصحة لما كان حديث قريش إلى النبى إلا بهذا الاسم « قثم » ولما عدلت عنه أبداً ! ! فهل كان شىء من هذا ؟

« سبحانك ما يكون لنا أن نتكلم بهذا ، سبحانك هذا بهتان عظيم » .

* * *

نعود بعد هذا ، فنقرر أن الاسم الذى سمى به النبى ، والاسم الذى بشر به عيسى قبل مولده ببضعة قرون ـ هذا الاسم ليس مجرد اسم ، وإنما هو دلالة من دلالات النبوة ، ومعجزة من معجزاتها . .

فقد حمى الله اسم « أحمد » أن يسمى به أحد قبل النبى . ثم حمى اسم « محمد » أن يظهر إلا بين يدى النبوة ، وألا يتسمى به إلا بضعة نفر من العرب ، طمعوا أن يكون أبناؤهم النبى المنتظر ، الذى أظل زمانه ، وبدت تباشير صبحه ، ثم حمى الله كذلك من سمو بهذا الاسم أن يدعوا النبوة أو يدعيها لهم أحد !

ولو أراد أتباع « محمد » الذين آمنوا بشريعته ، وعرفوا حقيقة نبوته ، وشاهدوا عن قرب أنوار السماء تفيض عليهم من بينهم . . لو أنهم أرادوا أن يتخيروا له الاسم الذى يرونه جديراً به ، مناسباً لجلال النبوة وعظمة النبى ، لما وجدوا أعدل ، ولا أكرم ، ولا أنسب من اسم « محمد » ! .

فسبحان من له الخلق الأمر ، ومن بيده ملكوت السموات والأرض ، ومن إليه يرجع الأمر كله ! » .

« ألا له الخلق والأمر . تبارك الله رب العالمين » .

الباب الثانى

النبوة . . والنبى

هل النبوة ضرورة إنسانية :

نازع كثير من الناس ـ قديماً وحديثاً ـ فى أمر النبوة . وهل هناك ضرورة إنسانية تدعو إلى أن يقوم فى الناس أنبياء ورسل يسفرون بن الله وبين الناس، حاملين إليهم وصايا السماء وشرائعها ؟

والناس فى هذا مذاهب وشيع :

فالمؤمنون بالشرائع السماوية يعتقدون أنهم إنما أخذوا شريعتهم عن رسول من عند الله . وأن هذا الرسول إنسان من بينهم ، يعرفونه كما يعرفون أبناءهم وإنما اختاره الله منهم ليحمل إليهم شريعته .

وأما غير المؤمنين بشرائع السماء فلا يتصورون أبداً أن يكون بين إنسان من الناس صلة بالعالم العلوى ، لاختلاف الطبيعة فى كل من العالمين : الأرضى والعلوى . . هذا إذا صح ـ عند القائلين بهذا الرأى ـ وجود للعالم العلوى . . أما الماديون فلا يعترفون أصلا بوجود للعالم العلوى . أو عالم الروح . وإذن فالرأى عندهم فى رسل الله هو الإنكار الصريح للرسالات السماوية ، وللرسل ، ولله أيضاً ! !

* * *

ولا نريد أن نقف طويلا عند هذه الآراء المتخالفة فى شأن الرسل ، وفى طبيعتهم ، وفى الضرورة الإنسانية الداعية إليهم ، وفى إمكان اتصال الإنسان بالملأ الأعلى إذا دعته السماء لحمل رسالتها إلى الناس !

لأنريد أن نقف طويلا هنا ، حيث أن لنا وقفه فى هذا الشأن عند الحديث عن الرسالة المحمدية !

ولكن أريد أن أعرض - فى إيجاز - وجهة نظر المؤمنين بالرسل والمنكرين لهم ، لنجعل من ذلك مدخلا إلى الحديث عن نبوه النبى الأعظم محمد بن عبدالله ، عليه صلوات الله وسلامه !

ولا حديث لنا مع المؤمنين برسل الله وأنبيائه فى هذا الأمر ، فذلك هو إيماننا وعقيدتنا . . وإنما نقف معهم صفاً واحداً فى وجه المنكرين للنبوات ، على اختلاف مذاهبهم وتعدد آرائهم .. ولا حديث لنا أيضاً مع الماديين الملحدين الذين ينكرون ما وراء المادة ، ولا يعترفون بالإله الخالق ! إذ أن الحديث فى شأن الرسل والأنبياء القائمين بالسفارة بين الله والناس لامساغ له إلا فى ظل الإيمان بالله ، عند الذين يؤمنون به ! وإنما حديثنا مع أولئك الذين يعترفون بوجود الله ، ويؤمنون به ، ولكنهم لايتصورون قيام رسل بين الله والناس ولايرون داعية تدعو إلى نبى أو رسول يحمل إلى الناس وصايا السماء !

والذين يذهبون هذا المذهب هم طائفة من الفلاسفة والحكماء الذين تلبس عليهم الأمر فى شأن الرسل ، وأبت عليهم عقولهم أن تستسيغ هذه المهمة النبيلة ، التى قام عليها أنبياء الله ورسله .

وهؤلاء الحكماء والفلاسفة ينظرون إلى هذا الأمر نظرتين متباعدتين : نظرة تحقر الإنسان ، فلا تراه أكثر من كائن حيـــوانى كسائر الحيوان . . لايعدو أن يكون فصيلة من فصائل الحيوانات ، وسلالة من سلالاتها . . فهو - والأمر كذلك - مقضى عليه أن يحيا حياته فى هذا الركب ، أو فى هذا القطيع ، دون أن يدعى لنفسه شأناً يتغير به وضعه . ويعزله عن المجتمع الحيوانى ، فى هذا الكوكب الأرضى !

تلك هى نظرة الفلاسفة المتشائمين الذين نظروا إلى الحياة بمنظار أسود فرأوا الوجود كله مجللا بالسواد ، ورأوا الإنسان دودة غارقة فى أكوام من التراب . وفى بحار من الأوحال .

وكثير من الفلاسفة الأقدمين آمنوا بالله ولكنهم لم يؤمنوا برسل الله ، ولم يرضوا للإنسان أن يلتقي بالملأ الأعلى ويتعامل معه ! وكأن هؤلاء الفلاسفة الذين يذهبون هذا المذهب قد نظروا فيه إلى أنفسهم . فحين وجدوا أنهم وهم الفلاسفة ، وأكمل الناس عقلا - لم ترفعهم عقولهم إلى الملأ الأعلى ، ولم تتح لهم الوصول إليه .. فكيف يكون ذلك لإنسان ليس له عقل الفيلسوف ولا فلسفته ؟ !

يقول ابن تيمية عن هؤلاء الفلاسفة : « والمتفلسفة من اليونان والهند منازعون في وجود كمال الجنس - أي الجنس البشري - ، وإن أقروا ببعض صفات الأنبياء ، فإنما أقروا منها بما لا يختص بالأنبياء ، بل هو مشترك بينهم وبين غيرهم ، فلم يؤمن هؤلاء بالأنبياء ألبتة(١) » .

وقد عاشت هذه النظرة التي تمسك بالإنسان أن يرتفع إلى ما فوق هذا التراب - عاشت في أجيال الناس جيلا بعد جيل ، وكان لها دورات عاصفة في عقول كثير من الفلاسفة والمفكرين .

يقول نيتشه : « لا نريد ملكوتاً في السموات . فنحن بشر .. نريد ملكوتاً أرضياً » .

نحن بشر ! أي نحن من دواب الأرض . لا ينبغي أن نرفع أبصارنا إلى السماء ، ولا أن نجاوز هذا الملكوت الأرضي !

فالإنسان في مفهوم هذه الفلسفة السوداء محكوم عليه أن يظل في هذا الوضع الذليل المهين في الحياة ، كائناً ترابياً ، ليس فيه قبس من العالم العلوي وليس هو كما تحدثت عنه الديانات السماوية خليفة الله في الأرض ، والموعود بالعودة إلى العالم العلوي الذي خرج منه !

ويقول « نيتشه » أيضاً : « إذا كان الله قد خلق الإنسان : فإنما خلقه قرداً يلهو به في أبديته الطويلة » !

---

(١) النبوات : لابن تيمية ص ٢٥ .

هذه هى إحدى النظرتين اللتين تنظر بهما الفلسفة المؤمنة إلى الإنسان وهى نظرة تستكثر على الانسان أن تكون له صلة بالسماء ، وأن يكون فى الناس من يطول بيديه الملأ الأعلى . ويتعامل معه .

أما النظرة الأخرى فهى على خلاف النظرة الأولى فى تقييمها للإنسان . . وفى تقديرها للرسالة السماوية . ومن ثم كانت هذه النظرة ذات شعبتين : شعبة تحلق بالانسان ، وتجاوز به قدره ، وتراه فى مستوى يستغنى به عن وصاية السماء ، وعن تدبيرها لحياته ، وتوجيهها لسلوكه . وتصحيحها لعقيدته . فلا ضرورة إذن لمبعوث من السماء يحمل إلى الناس شريعة ، ويقيم لهم ديناً . . وحسب الناس فى هذا أن يقوم فيهم قادة ، ومصلحون ، وفلاسفة . . منهم وإليهم . . من الأرض وفى الأرض !

وشعبة أخرى ترتفع بمقام الرسالة ، فترى أن الانسان مهما يبلغ من العلو والصفاء فلن يكون له أن يحمل رسالة سماوية عن طريق الاتصال المباشر بالله أو ملائكته !

فإذا كان من الحتم أن تتنزل على الناس شريعة سماوية فليكن الذى يحملها إليهم مبعوثاً من العالم العلوى . . ودعوى من يدعون أن المسيح هو « الله » أو هو « ابن الله » قائمة فى ظل هذا الإحساس الذى يتدافع فى صدور الذين يرفعون مقام الرسالة عن أن تتناولها يد إنسان من الناس ، أو أن يستأثر بهذا الشرف العظيم واحد منهم إنها أكبر من أن يستقل بها فرد ، وأعظم من أن يختص بها إنسان !

ولهذا تتحول بعض الرسل عند بعض الناس عن طبيعة غير طبيعة البشر . « وقالت اليهود عزير ابن الله ، وقالت النصارى المسيح ابن الله . . ذلك قولهم بأفواههم ، يضاهئون قول الذين كفروا من قبل . . قاتلهم الله أنى يؤفكون ؟ »

وقد كشف القرآن الكريم عن هذا اللون من التفكير الانسانى فى

مواجهة دعوى الرسل . فيقول سبحانه وتعالى فى قوم صالح : « فقالوا أبشراً منا واحداً نتبعه؟ إنا إذن لفى ضلال وسعر ! أألقى الذكر عليه من بيننا ؟ بل هو كذاب أشر (١) » . . ويقول جل شأنه فى فرعون وقومه : « فقالوا أنؤمن لبشرين مثلنا وقومهما لنا عابدون(٢) » . ويقول سبحانه فى قوم نوح : « ولئن أطعتم بشراً مثلكم إنكم إذن لخاسرون (٣) » . . ويقول جل وعلا فى كفار قريش : « أكان للناس عجباً أن أوحينا إلى رجل منهم أن أنذر الناس ، وبشر الذين آمنوا أن لهم قدم صدق عند ربهم ، قال الكافرون إن هذا لسحر مبين(٤) » . ويقول سبحانه : « وقالوا لولا أنزل علينا الملائكة أو نرى ربنا . لقد استكبروا فى أنفسهم وعتوا عتواً كبيراً (٥) » . . ويقول سبحانه وتعالى: « ولو جعلناه ملكا لجعلناه رجلا، وللبسنا عليهم ما يلبسون(٦) ».

بشرية الرسل :

لو وقع للناس ما يتمنون من أن يكون الرسول ملكا لما استقام للناس معه أمر ولا صلح بينه وبينهم شأن .. إنهم سيفتنون به ، ويذهلون عن رسالته ، وفى هذا يقول القرآن الكريم : « وما منع الناس أن يؤمنوا إذ جاءهم الهدى إلا أن قالوا أبعث الله بشراً رسولا ، قل لو كان فى الأرض ملائكة يمشون مطمئنين لنزلنا عليهم من السماء ملكا رسولا(٧) » . . وكيف يطمئن للملائكة مقام بين الناس ؟ إن الملك لا يمكن أن يظهر للناس فى أية صورة غير صورة الانسان إلا كان مبعث فتنة للناس . . إنهم سيتدافعون إليه تدافع الفراش إلى ضوء المصباح ، يدور حوله فى لهفة مجنونة إلى أن يسقط نصباً وإعياء ! .

كذلك لا يستقيم أمر الناس إذا جاءهم الرسول ملكا فى صورة إنسان .

---

(١) سورة القمر ، ٢٤/٢٥ .
(٢) سورة المؤمنون ٤٧ .
(٣) سورة المؤمنون ٣٤ .
(٤) صورة يونس ٢
(٥) سورة الفرقان ٢٦ .
(٦) سورة الأنعام ٩ .
(٧) سورة الإسراء ٩٥ .

إنه لا يصير بما فى نفوسهم شيئاً من أمر الرسول البشرى ما دام الملك يلقاهم فى صورة آدمية . . فإنه فى حالة تلك إنسان ، يرونه رأى العين فى صورة بشرية ، ولا تختلف عما ألفوا من صور الآدميين . . وبهذا كان رد القرآن على هذا المقترح الغبى الأحمق . . . « ولو جعلناه ملكا لجعلناه رجلا ، وللبسنا عليهم ما يلبسون »(١) أى أنه لو جاءت الملائكة رسلا إلى الناس لما جاءوا إلا فى صورة بشرية ، لأن مجيئهم فى صورتهم الملكية لا يجعل لهم بين الناس مكاناً يطمئنون فيه ، ومجيئهم فى صورة بشرية لا يجعل لهم عند الناس شأناً غير شأنهم مع الرسل الآدميين . وإذن فلا معنى لأن يكون الرسول ملكا مادام لا يمكن أن يجىء إلا فى صورة بشر !

وأنت ترى التفات القرآن إلى تقرير بشرية الرسل واضحاً فى هذا الأسلوب المفحم — فى موقف الخصومة والجدل . . وهو موقف واحد هنا ، يقف فيه الكفار المعاندون موقف المنكر على الرسول أن يكون بشراً ، وأن دعوى من يدعى من الناس — أياً كان — أنه رسول ادعاء لا يقبل . . ! وكان من صنيع القرآن فى دفع هذا الضلال ، وكشف المستترين به ، أنه جعل القضية قضية جدلية يمكن النظر فيها ، والاستماع إلى دعوى الخصوم عليها . . فلم يلقها من أول الأمر بالكلمة الحاسمة ، وأنها ضلال مكشوف ، لا يستأهل الوقوف إزاءه ، والنظر فيه . بل بسط لهم القرآن مجال القول ، وأراهم أن لقضيتهم شأناً ، وأن عليهم أن يفتحوا آذانهم لسماع الحكم فيها . . . « لو كان فى الأرض ملائكة يمشون مطمئنين ، لنزلنا عليهم من السماء ملكا رسولا »(٢) ! فإنه قادر على أن يبعث إليهم ملكا . . ولكن هل يمكن أن تستقيم حالهم معه ؟ هل يجرؤ أحد أن يقول نعم ؟ فإن قال سفيه أحمق « نعم » قيل له : على أية صورة يلقاك الملك ؟ أعلى صورته النورانية ؟ إنك لن تراه ؟ ولن تتعرف إليه ، ولن تأخذ شيئاً عنه ! أم على صورة بشرية ، يخاطبك بلسان بشر وبهيئة إنسان ؟ قد يمكن

---

(١) الأنعام آية ٩ .

(٢) الإسراء آية ٩٥ .

أن يكون هذا . . ولكن من يدلك على أنه ملك فى صورة إنسان ؟ هو كما يبدو لك إنسان ، لا فرق - فى ظاهر الأمر عندك - بين الإنسان الملك ، والإنسان الرسول ، وإذن فما يدخل عليك من أمر الرسول البشر سيدخل عليك من أمر الرسول الملك .. وهذا ما يكشف عنه القرآن الكريم فى قوله تعالى : « ولو جعلناه ملكا لجعلناه رجلا وللبسنا عليهم ما يلبسون » .

الله يصطفى من الملائكة رسلا . ومن الناس :

لهذا اقتضت حكمة الله أن يبعث إلى الناس رسلا من الناس حتى يكون بين الرسول ومن أرسل إليهم إلف وأنس . فلا يجدون فى رسولهم شيئاً لم يألفوه .. على خلاف ما لو جاء الرسول إليهم فى أية صورة غير صورة الإنسان .. إنه حينئذ سيكون مبعث عجب ودهش ومثار فتنة وابتلاء ، أضعاف ما يقع لهم من الرسول الانسان . . ولهذا أنكر القرآن على المشركين أن يعجبوا من أن يبعث الله فيهم رسولا منهم : « أكان للناس عجباً أن أوحينا إلى رجل منهم أن أنذر الناس . (١) » ولهذا كان فيما امتن الله سبحانه وتعالى به على الأمة العربية أن بعث فيهم رسولا من أنفسهم : « لقد جاءكم رسول من أنفسكم ، عزيز عليه ما عنتم .. حريص عليكم بالمؤمنين رءوف رحيم » (٢) « وهو الذى بعث فى الأميين رسولا منهم يتلو عليه آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة ، وإن كانوا من قبل لفى ضلال مبين(٣) . وكذلك كان فضل الله على الأمم السابقة . كل رسول جاء إلى أمة كان منها ، وبلسانها . . « وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه ، ليبين لهم » (٤) .

صفوة الخلق :

وإذا كان الرسول بشراً فما ظنك أن يكون فى الناس ؟

---

(١) سورة يونس : آية ٢ . (٢) سورة التوبة : آية ١٢٨ .
(٣) سورة الجمعة : آية ٢ . (٤) سورة إبراهيم : آية ٤ .

أتراه واحداً من آحاد الناس لا امتياز له فى عقل أو خلق ؟ أم تراه إنسانا فاتكا جبارا ، ملأ قلوب الناس فزعاً ورعبا ؟ أم أنه متخاذل ضعيف يلقى من الناس الذل والهوان ؟

وكلا . . فإن الرسول ليس إلى هؤلاء ، ولا أولئك !

إن الرسول قبل أن ترشحه السماء لحمل الرسالة ، وقبل أن يلقى الناس بها ، ينبغى أن يكون فيه أمارات ودلائل تشهد له برجاحة العقل ، وكمال المروءة ، والعفة ، وحسن الأحدوثة بين الناس ! فلا يعرف الناس منه قبل بعثته فيهم إلا ما يحمدون ويكبرون !

هكذا رسل الله فى أقوامهم . . خيار من خيار . . لم تجرب عليهم كذبة ، ولم تظهر فيهم ريبة . . وما تكذيب قومهم لهم ، وتطاولهم عليهم بعد الرسالة إلا عن حسد واستكبار ، وإلا عن شقاق وعناد ! وقد كشف القرآن الكريم عن شهادة ثمود فى نبيهم صالح ، وهى شهادة — على رغم ما واجهوه به من عناد وتحد وإعنات — لم تستطيعوا إنكارها ، لأنها أكبر وأظهر من أن تنكر . . « قالوا يا صالح قد كنت فينا مرجوا قبل هذا(١) » أى قد كنت قبل رسالتك موضع أمل ورجاء لما نرى فيك من الخير والصلاح .. فلما جاءهم يدعوهم إلى الهدى ويبلغهم رسالة ربه أنكروا ما كانوا قد عرفوا منه .. !

وقريش . . مع النبى الكريم . . كان عندها الصادق الأمين . . فلما جاءته دعوة السماء أنكروا ما عرفوا .. ولهذا يعزيه الله سبحانه وتعالى بقوله : «فإنهم لا يكذبونك ، ولكن الظالمين بآيات الله يجحدون » . . ويقول له أبو جهل : (والله لا نكذبك ، ولكن نكذب ما جئت به) . !

إن حكمة الله اقتضت أن يكون الرسول المختار لهذه المهمة الجليلة خلاصة الإنسانية وهاماتها ، فى كل عصر ، وفى كل مكان تبزغ فيه شمس النبوة وتتألق أنوار الرسالة . . فيكون النبى أو الرسول هو الرجل الأول فى الكمال الإنسانى

---

(١) سورة هود آية ٦٢

بين قومه ، ويكون هو الإنسان الذى تتمثل فيه كمالات الجنس البشرى لعصره ، وتجتمع فيه كل فضائله !

والرسول بهذه الصفات التى اجتمعت له جدير بأن يكون صلة بين السماء والأرض ، وسفيراً بين الله والناس !

إنه لابد أن يكون الرسول الذى يوكل إليه إبلاغ رسالة سماوية إلى الناس على أكمل صورة إنسانية ، وأتمها فى ظاهر وباطن معاً ، كى يتقبل الناس دعوته ويستجيبوا لما يدعوهم إليه !

وشتان بين أن تسمع الكلمة الطيبة الرشيدة من إنسان تعرف فيه الطهر والتقوى ، وتجد فى سيرته وسلوكه الآثار الطيبة لهذه الكلمة الطيبة التى يلقاك بها ، ويدعوك إلى الاستماع إليها ، والاستجابة لها — شتان بين هذا وبين أن تجىء إليك هذه الكلمة ذاتها على لسان إنسان هازل عابث ، لا ترى فى حاله ما يحملك على احترامه وتوقيره . . إنه لن يكون لكلمته هنا ثمن . ولا أثر ! إنها كلمة — على ما بها من حسن — ميتة ، فقدت ما فيها من حرارة وحياة ؛ حين انطلقت من هذا الكيان الخرب ، كما تنطلق القذيفة الفاسدة من « المدفع » لا تبلغ غاية ، ولا تصيب هدفا !

والرسل هم حملة الكلام الطيب كله إلى الناس .. على ألسنتهم تجرى الحكمة والموعظة الحسنة ، فتثمر ثمرتها الطيبة فى العقول ، وفى القلوب ؛ لما يجد الناس فى هذه الكلمات من ريح النبوة ؛ وما يتنشقون من شميم شذاها الطيب الطهور !

إن فى كيان رسل الله قوى روحية تشيع فى وصاياهم وتشريعاتهم القوة والنفوذ إلى أعماق النفوس ؛ فتملك ناصيتها ، وتأخذ بزمامها !

وأظهر دلالة يستدل بها العقلاء من الناس على صدق الرسول ؛ ويفرقون بينه وبين أدعياء النبوة من الكهان والمشعوذين أن الرسول لا يدعو الناس إلى فضيلة من الفضائل إلا كان قائماً عليها فى كل أطوار ؛ حياته قبل النبوة وبعدها، ولا ينهى الناس عن رذيلة من الرذائل إلا كان مجانباً لها ، عزوفاً عنها ؛ فى كل

حال من أحواله . . وبهـذا يراه الناس قد وافق فعله قوله ، وصدق خبره خبره !

وواقع الحياة يشهد لهذا الذى نقول به . . فما صادفت دعوة من دعوات الإصلاح فى أى مجال من مجالات الحياة ، الاجتماعية ، أو السياسية ، أو الفكرية حظاً من النجاح إلا بمقدار ما فى الداعين إليها والقائمين عليها من صدق ومن إخلاص ، يراه الناس فى هذا التوافق بين مدلول الدعوى وسلوك الداعى إليها وعلى عكس هذا ما يصادف كثيراً من الدعوات من تفسخ وانحلال ، أو من انتكاس واضطراب ، إنما هو بما يكون بين مفهوم الدعوة وبين القائم عليها من فجوات وخلخلات ، يأخذ فيها كل من القول والعمل طريقاً غير طريق صاحبه .

وقد ذم الله سبحانه وتعالى هذا الخلق الذى يخالف فيه المرء بين قوله وعمله . . فقال تعالى : « يا أيها الذين آمنوا . . لم تقولون مالا تفعلون ؟ . . كبر مقتاً عند الله أن تقولوا ما لا تفعلون »(١) .

وإذ كان الخلق على تلك الصفة من الشناعة فى حال الإنسان الفرد ، وفى خاصة نفسه ، فما ظنك به إذا كان هذا الخلق فى إنسان ينصب نفسه لدعوة عامة ، يبشر بها فى الناس ، أو يحملهم عليها ؟ إنه لشناعة مجسدة ، وبلاء غليظ !

وانظر كيف رفع الله سبحانه وتعالى قدر رسوله « محمد » فعزله عن جماعة الشعراء ، ودفع عنه هذه الفرية التى كان يرميه بها كفار قريش ، وهو قولهم إنه شاعر ، لما رأوا فى القرآن من جلال وروعة لم يجدوا لها تفسيراً لما يتلو عليهم الرسول من كلام الله ، إلا أن يضيفوه إلى « الشعر » الذى هو غاية ما عرفوا للكلام من تأثير وسلطان على النفوس . . فكان رد القرآن على هذا بقوله تعالى : « إنه لقول رسول كريم ، ذى قوة عند ذى العرش مكين ، مطاع ثم أمين ، وما صاحبكم بمجنون ، ولقد رآه بالأفق المبين ، وما هو على الغيب بضنين »(٢) ، وفى قوله تعالى : « وما هو بقول شاعر ، قليلا ما تؤمنون ، ولا بقول كاهن ،

---

(١) سورة المنافقون آية ١ .
(٢) سورة التكوير آية : ٢٢/٢٤ .

قليلا ما تذكرون ، تنزيل من رب العالمين »(١) ، وفي قوله سبحانه : « وماعلمناه الشعر ، ومايبنغى له ؛ إن هو إلا ذكر وقرآن مبين »(٢) .

ورفع مكانة النبي عن مواقف الشعر والشعراء إنما هو لما يغلب على الشعر من خيال هو فى الحقيقة صورة كاذبة للواقع .. ولما يغلب على الشعراء من جريهم فى حياتهم على غير ما تنطق به ألسنتهم من شعر .. : « والشعراء يتبعهم الغاوون . ألم تر أنهم فى كل واد يهيمون وأنهم يقولون ما لا يفعلون »(٣) . والأنبياء لا يقولون إلا ما يفعلون . فما ينبغى لنبى أن يكون شاعراً ؛ لأنه يدعو إلى المعروف وينهى عن المنكر . والشاعر محمول على أن يترضى مشاعره ؛ بما يخلط بين الجد والهزل ؛ وبين الحق والباطل ؛ والهدى والضلال : « والشعراء يتبعهم الغاوون ألم تر أنهم فى كل واد يهيمون » ! بل إن الشاعر فى أصدق أحواله وأعدلها إنما ينسج شعره من خيوط الخيال ، إذ كان واقعاً دائماً تحت تأثير وجدانه ، ونداء مشاعره ... وهيهات أن تسلم الحقائق — إذا تحكم فيها الوجدان ، وتسلط عليها الشعور — من أن تتغير معالمها . ثم هيهات أن يأخذ الشاعر نفسه بما يقول ، أو يجرى فى حياته على ماأوحت إليه شياطين شعره . إنه يعلم أن ما يقول من شعر ليس إلا أمانى وأحلاماً ، إن صح بعضها فى حال ، فلن يصح أكثرها فى معظم الأحوال ، ولهذا قيل : « أعذب الشعر أكذبه » .

* * *

(١) سورة الحاقة آية : ٤١/٤٣ .
(٢) سورة يس آية : ٦٩
(٣) سورة الشعراء آية : ٢٢٤ — ٢٢٦ .

الباب الثالث

المعجزة .. والإعجاز

ومع ماى الرسول من صمات نفسية، وروحية ، وعقلية يعرف بها فى قومه، ويأخذ بها المكان الأول فيهم ، فإنه يطالب دائماً بآيات وبراهين تثبت دعواه التى يدعيها بأنه رسول من عند الله ، يحمل إلى الناس كلمة الله !

ولهذا كانت رسل الله تزود دائماً بالمعجزات القاهرة التى تجىء إلى الناس على غير ما ألفوا ، وتخرج عليهم بما لا يستطيعونه ، أو يجدون له تفسيراً ، إلا أن ينسب إلى الله ، ويحسب شهادة على صدق الرسول ، وتأييد دعواه !

المعجزة :

فالمعجزة حدث فريد يجرى على غير مألوف الحياة ، ويخرج على ما بين الأسباب والمسببات من تلازم !

وقد ذكرت الكتب المقدسة كثيراً من المعجزات التى أجراها الله على أيدى الرسل ، كطوفان نوح ، وناقة صالح ، وعصا موسى ، وكلمة عيسى فى إحياء الموتى ، وهى معجزات مادية تقع فى مجالى الحس والمشاهدة ! وتقوم الشواهد على عجز الناس عن مجاراتها . والوقوف إزاءها ! فتخرس الألسنة ، وتخضع الأعناق ؟ ومع هذه الحجة القاهرة التى تنطوى عليها المعجزة ، فإن اللجاج يذهب بالناس ، أو بكثير منهم إلى التهرب من الواقع ، والاحتماء وراء التهم الملفقة ، والمعاذير التافهة ، ليخلصوا من هذا الموقف الذى انكشف فيه أمرهم ، فأسقط فى أيديهم ، ولم يكن لهم من سبيل إلا الإيمان أو الفرار !

ويصور القرآن الكريم بعض هذه المواقف المتهافتة المتخاذلة التى يقفها

المكابرون المعاندون فى وجه المعجزات القاهرة التى لايجحدها إلا الضعفاء السفهاء من الناس !

فهؤلاء بنوا إسرائيل مثلا . . لقد رأوا من المعجزات ما ينطق الحيوان ، ويحرك الجماد . . العصا يلقيها موسى من يده فإذا هى ثعبان مبين ، ويضرب بها البحر فينفلق ، فإذا كل فرق كالطود العظيم ، ويضرب بهـــا الحجر فتتفجر منه عيون الماء .. اثنا عشر عينا ، بعدد أسباطهم الاثنى عشر .

لقد رأوا كل هذا بأنفسهم رأى العين ، ومع هذا فقد ظلت غيوم الشك تحجبهم عن الإيمان بالله ، وبرسوله . . فكانت قولتهم تلك الآثمة التى حكاها القرآن عنهم فى قوله تعالى . «وإذ قلتم ياموسى لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة.. فأخذتكم الصاعقة وأنتم تنظرون(١) .

فأى عناد بعد هذا ! وأى لجاج فى الضلال والزيغ بعد هذا الضلال والزيغ ؟

ومن قبل كانت دعوة نوح إلى قومه ، وحجته عليهم بحيث لايستطيعون لها دفعاً ، فكانوا إذا دعاهم الى الإيمان بالله جعلوا أصابعهم فى آذانهم كى لايسمعوا فيؤمنوا ، ودخلوا فى ثيابهم كى لايروا فيتأثروا .. !

يقول الله سبحانه على لسان نوح : « وإنى كلما دعوتهـــم لتغفر لهم جعلوا أصابعهم فى آذانهم واستغشوا ثيابهم وأصروا ، واستكبروا استكبارا(٢) » . . إنه الفرار من هذا النور الذى يطلع عليهم من فم النبى الكريم ، فلا يجدون دفعاً له إلا هذا العمل المخبول : « جعلوا أصابعهم فى آذانهم ، واستغشوا ثيابهم » .

ويذكر القرآن الكريم ما كان عليه بعض كفار قريش من العناد والإصرار على الكفر والإقامة على مشاقة الرسول مهما تكن الآيات والمعجزات التى تساق إليهم . فيقول سبحانه وتعالى : « ولو فتحنا عليهم باباً من السماء فظلوا فيه يعرجون لقالوا : إنما سكرت أبصارنا ، بل نحن قوم مسحورون(٣) » .

إنه العناد واللجاج فيه ، وإنه الكبر والتمسك به ، والحرص عليه « وإن

---

(١) سورة البقرة آية : ٥٥ . (٢) سورة نوح آية : ٧ .
(٣) سورة الحجر آية : ١٤/١٥ .

يروا كل آية لايؤمنوا بها ، وإن يروا سبيل الرشد لايتخذوه سبيلا ، وإن يروا سبيل الغى يتخذوه سبيلا(١) »

امكانيات المعجزات :

تقف بعض المذاهب الفلسفية من « المعجزة » موقف الشك أو الإنكار، وكثير من الفلاسفة لايسلمون بإمكانها ، وإن كانوا يؤمنون بالله ، ويعترفون بالخالق المبدع لهذا الوجود !

وحجة الفلسفة أو الفلاسفة على إنكار المعجزة أو الشك فيها حجة داحضة متهافتة ، لاتستند إلى حقيقة علمية ولا تعتمد على شهادة من واقع الحياة ، أو من صحف التاريخ !

« المعجزة » عند المؤمنين بالمعجزات حدث خارق للعادة ، لم يجر على سنن الحياة ، ولا ناموس الطبيعة على الوجه الذى ألفه الناس ، وعرفوه !

إنها خرق لنواميس الطبيعة ، وخروج على أوضاعها !

والفلاسفة المنكرون للمعجزات يرون أن كل ما يقع فى الحياة ، مألوف ، وغير مألوف ، هو جار على طبيعتها ، واقع على ما تقضى به سننها !

إن التلازم بين الأسباب والمسببات لايمكن أن ينفك أبداً . وإن الأمور التى تقع من غير أن تنكشف لنا أسبابها هى فى الواقع نتيجة لأسباب ملازمة ، إذا تحققت الأسباب تحققت هذه الأمور . .

وإن الأحداث التى تبدو غريبة أو خارقة لمألوف الحيـــاة هى فى الواقع أحداث طبيعية ، لم نعرف أسبابها التى لابد أن تكون قائمة وراءها ، وأنه متى عرفنا أسبابها أصبحت غير غريبة ، وزايلها العجب الذى أخذ الناس منها .

ومعجزات الرسل ـ على هذا ـ كما يرى الفلاسفة ليست إلا أموراً طبيعية تجرى مع ناموس الطبيعة ، وترتبط بالأسباب كما يرتبط غيرها من الأمور ، وإن دهش

---

(١) سورة الأعراف آية : ١٤٦ .

الناس منها ، وتسليمهم بها إنما لخفاء أسبابها عنهم ، وظهورها بينهم ، منقطعة عن كل علة ، غير مستندة إلى سبب .

وإذن فالمعجزات ـ على هذا التقدير ـ أمور واقعة فى حيز الإمكان ، وإن أى إنسان يستطيع أن يخرج على الناس بمثل هذه المعجزات إذا أمسك بين يديه بأمر لم يعهده الناس ، ووقع هو على أسبابه دونهم ؟ إنه يستطيع أن يجعل من هذا الذى بين يديه معجزة يتحدى بها الناس ، ويعجزهم عن الإتيان بمثلها !

فلو فرضنا أن مخترع البخار ، أو الكهرباء طلع على الناس لأول عهدهم بما اخترعه وأراهم آلة تتحرك بالبخار ، أو مصباحاً يضىء بالكهرباء ، وأراهم أن ذلك خاصة من خصوصياته ليس لأحد أن يأتى به أو بمثله ، ثم أفهمهم أنه إنما استمد هذه القوة من « الله » وأنه رسوله إليهم ، لو أن واحداً من هؤلاء المخترعين فعل ذلك لوجد كثيراً من الناس من يصدقه ويستجيب له ، ويؤمن بما يدعوه إليه !

وتصوير « المعجزة » هذا التصوير ، ووضعها بهذا الموضع فيه تلبيسات ومغالطات .

فأولا : لم تشهد الحياة مخترعاً من المخترعات ولد كاملا . . بل يبدو لأول ظهوره فى يد مخترعه خفيا لم تتضح معالمه ، ولم تتحدد ملامحه . . ثم يدرج شيئاً فشيئاً نحو النضج والكمال ، ولا يزال مع الأيام موضع زيادة وحـــذف حتى يبلغ غايته !

وثانياً : أن المخترع مهما يكن شأنه من الغرابة والعجب عند ظهوره . فإنه لم يكن منقطع الأسباب عن سوابق كثيرة من المعارف الإنسانية استند إليها وتعلق بها . فهو ليس من صنع إنسان ، وإنما هو من صنع الإنسانية المعاصرة له ، والسابقة واللاحقة .

وثالثاً : لم يجرؤ مخترع من هؤلاء المخترعين أن يقول إن هذا مما تعجز الحياة عن أن تلد مثله ، أو تكشف المستور عن سره .

ومن أجل هذا لم تكن مخترعات المخترعين ، ولا أعمال العباقرة فى العلوم والفنون والآداب مما تدعى له « المعجزة » أو مما يتحدى به فى مقام الإعجاز ، إذ كانت كل هذه المخترعات وهذه الأعمال مما ينازع الناس فى مساماتها واللحاق بها أو سبقها ، ولم يحدث قط إزاء اختراع من المخترعات ، أو عمل من هذه الأعمال الخالدة أن انقطعت عزائم الناس دونها ، أو وقفت منازعهم عن محاولاتها ، ومحاولة الإتيان بمثلها ، أو أحسن منها ..

وليس هذا أمراً مستغرباً ، لأن هذه الأعمال — مهما كان لها من روعة — هى من صنع بشر ، يظهر فيها الطابع الإنسانى ، وتشم منها ريح الإنسان ، الأمر الذى يغرى الناس بها ، ويدنيهم منها ، ويقرب بعيدها إليهم .. فلا تنقطع آمالهم دونها ، ولا تسكن عزائمهم إلى التسليم بالعجز عنها .

وليس كذلك « المعجزة » فهى تأتى من أول ما تأتى كاملة لا يدخل عليها بعد هذا زيادة أو نقص ، لأنها لا تقبل الزيادة ولا النقص . إنها من صنع الخالق ، وما كان لمخلوق أن يدخل شيئاً على صنعة أرادها الخالق « معجزة »

ومن هنا كانت « المعجزة » مصحوبة بالتحدى من جهة ، وبدعوى النبوة من جهة أخرى . فهى شهادة صدق على نبوة النبى ، وأنه مرسل من عند الله ، وأن العمل الذى جرى على يديه هو من عند الله ، والدليل على أنه من عند الله ، أن أحداً من الناس لا يستطيع أن ينقضه أو يأتى بمثله .

يقول ابن « تيمية » : « ثم إنه تعالى جعل مــــع الرسل ، آيات هى علامات وبراهين ، وهى أفعال يفعلها مع الرسل ، يخصهم بها ، لا توجد لغيرهم .. فيعلم العباد لاختصاصهم بها أن ذلك إعلام منه للعباد ، وإخبار لهم أن هؤلاء رسلى .[1] » .

ويقول أيضاً : « إنما تكون — أى المعجزة — آية إذا كانت من فعل الله مع التحدى بمثلها ، ودعوى النبوة .. فدلالتها على وجه لا يمكن أن يشترك فى ادعائه الصادق والكاذب ، فإذا ظهرت على هذا الوجه كانت آية لمن فعلت على

---

(١) النبوات لابن تيمية ، ص ١٩١ .

بده ولهذا لم تكن أشراط الساعة آية لأحد ، وإن خرقت العادة . إذ لم يكن معها دعوى نبوة ... ولأن موت زيد عند قول الرسول : آيتى أن يميت الله زيدا عند دعائى بموته ... فإذا مات عند دعوته صار ذلك آية له ، وإن كان فعل الموت فى الإنسان وغيره من الحيوان معتاداً !

ويقول ابن خلدون :

« ومن علاماتهم — أى الأنبياء — وقوع الخوارق لهم شاهدة بصدقهم ؛ وهى — أى الخوارق — أفعال يعجز البشر عن مثلها ؛ فسميت بذلك معجزه !

وليست — أى المعجزة — من جنس مقدور العباد ؛ وإنما تقع فى غير محل قدرتهم !

ثم يقول :

وللناس فى كيفية وقوعها ودلالتها على تصديق الأنبياء خلاف :

« فالمتكلمون » بناء على القول بالفاعل المختار — أى بأن الإنسان هو الذى يخلق أفعاله — قائلون بأنها - أى المعجزة — واقعة بقدرة الله لا بفعل النبى .. وإن كانت أفعال العباد عند المعتزلة — من المتكلمين — صادرة عنهم ؛ إلا أن المعجزة لا تكون من جنس أفعالهم ؛ وليس للنبى فيها عند سائر المتكلمين إلا التحدى بها بإذن الله ؛ وهو أن يستدل بها النبى قبل وقوعها على صدقه فى مدعاه ؛ فإذا وقعت تنزلت منزلة القول الصريح من الله بأنه أى النبى — صادق ، وتكون دلالتها على الصدق قطعية ! فالمعجزة الدالة بمجموع الخارق والتحدى ؛ ولذلك كان التحدى جزءا منها .

« وأما الحكماء — ويريد بهم الفلاسفة المؤمنون — فالخارق عندهم من فعل النبى ... وأن النفس النبوية عندهم لها خواص ذاتية ؛ منها صدور هذه الخوارق بقدرته ؛ وطاعة العناصر له فى التكوين .. والنبى عندهم — أى الفلاسفة — مجبول على التصريف فى الأكوان مهما توجه إليها ؛ واستجمع لها ؛ بما جعل الله له من ذلك .

« والخارق عندهم يقع للنبي . كان - أي الخارق - للتحدى أم لم يكن ؛ وهو شاهد بصدقه ، من حيث دلالته على تصرف النبي في الأكوان ؛ والذي هو أي التصرف - في الأكوان - من خصائص النفس النبوية ؛ لا بأن يتنزل منزلة القول الصريح بالتصديق . فلذلك لا تكون دلالتها عندهم قطعية كما هي عند المتكلمين ، ولا يكون التحدى جزءاً من المعجزة ! ولم يصح - أي التحدى - فارقا لها عن السحر والكرامة .

وفارقها عندهم عن السحر ، أن النبي مجبول على أفعال الخير ، مصروف عن أفعال الشر ، فلا يلم الشر بخوارقه ؛ والساحر على الضد ، فأفعاله كلها شر ، وهي في مقاصد الشر !

« وفارقها عن الكرامة أن خوارق النبي مخصوصة ، كالصعود إلى السماء ؛ والنفوذ في الأجسام الكثيفة ، وإحياء الموتى ، وتكليم الملائكة ، والطيران في الهواء . وخوارق الولي دون ذلك كتكثير القليل ، والحديث عن بعض المستقبل وأمثاله ، مما هو قاصر عن تصريف الأنبياء . »(١) .

وأنت ترى فيما نقل ابن خلدون من آراء المتكلمين والفلاسفة أن الفريقين متفقان على أن « المعجزة » خارقة للعادة . لا يقدر الناس على مثلها !

كما ترى أن اقتران المعجزة بالتحدى شرط لازم عند المتكلمين ، على حين أنه غير لازم عند الفلاسفة ! وهذا الخلاف متفرع عن الأصل قامت عليه المعجزة عند كلا الفريقين ...

فإذا قرر المتكلمون أن « المعجزة » من فعل الله ، وليست من فعل النبي .. فإنه ينبني على هذا أن « المعجزة » لا تقع إلا حين تقتضيها ضرورة ، وهذه الضرورة إنما هي الشهادة على صدق النبي ، وأنه مبعوث السماء ومؤيد منها بما يشهد له بصدق دعواه .. فحينئذ تنزل « المعجزة » التي يقترحها القوم . كما اقترح الحواريون على المسيح أن ينزل عليهم مائدة من السماء .. وفي هذا يقول القرآن الكريم : « إذ قال الحواريون يا عيسى ابن مريم هل يستطيع

---

(١) مقدمة ابن خلدون - ص - ٩٠ .

ربك أن ينزل علينا مائدة من السماء ؟ قال: اتقوا الله إن كنتم مؤمنين . قالوا نريد أن نأكل منها وتطمئن قلوبنا . ونعلم أن قد صدقتنا ، ونكون عليها من الشاهدين »(١).
فهؤلاء حواريو عيسى والمؤمنون برسالته . ولكنه إيمان متلبس بالشك والريبة .. فهم من أجل هذا يقترحون عليه آية ، ويحددون له صفتها .

وانظر فى هذه الطبيعة الماكرة الخبيثة التى تندس فى كيان اليهود .

فهم الذين يقترحون المطلوب ، ويحددون صفته حتى لا يكون هناك مجال للتلبيس إن كان نبيهم من أدعياء النبوة ، فلو أنهم طلبوا معجزة مطلقة فقد تختلط معجزة النبى بشعوذة المشعوذ . . ولكن إذا اقترحوا أمراً على صفة محددة ، وجاء على هــذا الوصف كان لا شك أنه معجزة ، وأن الذى يتعامل معهم نبى .

هذه واحدة .. وأخرى .. هى أنهم — فيما حكى القرآن عنهم — قالوا لعيسى: هل يستطيع ربك . » ولم يقولوا « ربنا » لأن إيمانهم بالله مازال متردداً فى مواقع الظن والشك . . ولو كانوا مؤمنين بالله حقاً لما قالوا فى حق الله سبحانه وتعالى . هل يستطيع . ، فتعالى الله أن يعجزه شىء فى الأرض أو فى السماء ، إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون »(٢) .

وثالثة من فعلات اليهود هنا . . هى أنهم كما وصفهم القرآن « أحرص الناس على حياة » ، وعلى كل ما فى الحياة ، فلم يذهبوا مذهب كفار مكة عندما أرادوا أن يتثبتوا من دعوى النبى فقالوا فيما حكى القرآن عنهم : « وإذ قالوا اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك . فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم »(٣) لم يذهبوا هذا المذهب ، بل طلبوا « مائدة » حافلة بألوان الطعام وأطايبه ! « مائدة » . . . » نريد أن نأكل منها وتطمئن قلوبنا ، ونعلم أن قد صدقتنا . ونكون عليها من الشاهدين ! » .

---

(١) سورة المائدة آية ١١٢ / ١١٣ . (٢) سورة يس آية ٨٢
(٣) سورة الأنفال الآية : ٢٢ .

فكم عصفوراً صيد بحجر واحد من هذه الرمية الماكرة ! ؟

وقد تقع المعجزة ابتداء من غير طلب محدد لها واصفاتها ، كما هى فى ناقة صالح ، وعصا موسى !

وهذا كله بناء على رأى المتكلمين فى أن « المعجزة » من فعل الله ، وليس للنبى شأن بها إلا أنها تجرى على يديه . . وبهذا تجىء معلنة التحدى !

أما الفلاسفة فإنه ينبنى على رأيهم القائل بأن « المعجزة » من فعل النبى وأن أعمال النبى كلها خارقة للعادة — ينبنى على هذا أن النبى نفسه « معجزة » وأن الخوارق تجرى عليه من غير قصد ولا التفات إلى التحدى بها !

هذا خلاصة ما بين المتكلمين والفلاسفة من خلاف فى شأن المعجزة على حسب ما نقل ابن خلدون عن الفريقين .

امكان اتصال الانسان بالملأ الأعلى :

« المادية » فى كل عصر هى التى تعزل الإنسان عن العالم العلوى ، وتأبى عليه أن يرتفع عن هذا التراب الذى يعيش عليه .

ولا نريد هنا أن نشرح فلسفة الماديين ، وما تقضى به هذه الفلسفة فى شئون الإنسان ، وخاصة ما يسميه المؤمنون الجانب الروحى منه . . فقد عرضنا فى كتابنا الثانى من « قضية الألوهية »(١) مذاهب الماديين ومقولاتهم عن عالم ما وراء المادية ، وبسطنا القول فى إيراد حججهم على ما وراء الحس ..

والذى يعنينا هنا أن نقرره هو أن الماديين إذ ينكرون العالم الروحى كله ينكرون تبعاً لهـــذا رسالات السماء — إذ لا سماء ، ولا رسالة عندهم — كما ينكرون الأنبياء ، والديانات ، ويعدون الحديث عن الأنبياء والديانات أحاديث ملفقة ، وادعاءات كاذبة ، لا تقف أمام النظر العقلى ، ولا تثبت أمام البحث العلمى !

---

(١) « قضية الألوهة بين الفلسفة والدين : » « الله والإنسان » للمؤلف . الناشر دار الفكر العربى .

ولا نجادل الماديين ، ولا نقف معهم موقف الخصومة فى هذه القضية . . فقد قلنا ما عندنا فى هذا فى أكثر من موضع .

وإنما نود أن نقف هنا وقفة قصيرة مع الذين يؤمنون بالعالم الروحى ، ويقولون بأن وراء المادة عالماً آخر غير مادى أرحب وأوسع مما لا يقاس به هذا العالم المادى ، ولا يحسب بحسابه

هؤلاء الذين يؤمنون بما وراء المادة بينهم أعداد غير قليلين يشكون فى قيام صلة بين العالمين — المادى ، وغير المادى — ثم يسلمهم هذا الشك إلى شك آخر فى « الوحى » الذى يتلقاه رسل الله من السماء ! ومن ثم فهم شاكون فى الرسل ، وفى الديانات السماوية التى يحملها رسل الله إلى الناس .

وكان الفيلسوف العربى « المعرى » من هؤلاء الشاكين فى النبوات ، وفى رسالات السماء . . وقد ترددت أصداء هذا الشك فى كثير من شعره فى اللزوميات .

يقول المعرى — جاعلا « العقل » هو النبى الذى يقوم بالهداية ، وهو النبى القائم فى كيان كل إنسان :

أيها المغرور إن خصصت بعقل
فاسألنه فكل عقل نبى(1)

وواضح من هذا أن « المعرى » لا يجعل هذا الحكم للعقل عند كل الناس ، بل لعقول الصفوة الممتازة منهم ؟ ولهذا قال : «إن خصصت بعقل» . فهو يخصص ولا يعمم ، فلا يجعل العقول بهذه المنزلة إلا عنده هو ، وعند أمثاله من الحكماء والفلاسفة .

والمعرى مواقف كثيرة يزرى فيها بالشرائع السماوية ، ويهون ، بل يستخف من آثارها فى حياة الناس . ويود لو نبذ الناس التعلق بتلك الشرائع ، ورجعوا إلى ما يوجبه «العقل» أو بمعنى آخر ، إن الناس لو أسلموا أنفسهم لآراء الفلاسفة والحكماء ، واستمعوا إليهم ، لكان ذلك أجدى عليهم مما يتلقون من الشرائع

---

(1) اللزوميات جزء ٤ ص ١١

التى يقوم عليها الكهان والرهبان ، والفقهـــاء ، وغيرهم من علماء الدين فى كل ملة . . يقول :

والعقل يبحث . . والشرائع كلها ... خبر يقـــلد لم يقسه قائس
متمجسون ، ومسلمون ومعشر ... متنصرون ، وهائدون رسائس(١)
وبيوت نيران تزار تعبـــدا ... ومساجد معمورة وكنائس
والصابئون يعظمـــون كواكباً ... وطباع كل فى الشرور حبائس(٢)

وغير « المعرى » كثير من الفلاسفة ممن سبقوه أو جاءوا بعده يرون هذا الرأى . . وقد أشرنا إلى بعض هؤلاء الفلاسفة وإلى آرائهم فى الرسالات السماوية .

ونعرض هنا وجوهاً من الرأى ، يدافع بها أصحابها عن الرسالات السماوية وعن صدق الأنبياء فى تلقيها عن الله .

رأى ابن خلدون :

وابن خلدون يبذل جهداً مضنياً موفقاً فى إقامة صرح متين من الأدلة على إمكان «الوحى» ، والتقاء السماء والأرض عن طريق مخلوق أرضى ، هو قمة مخلوقات العالم المادى ، ومن هذه القمة يمكن أن يلمس السماء ، ويلمح أضواءها . وهذا المخلوق هو الإنسان الذى يضع قدميه على الأرض ، ويطاول برأسه السماء !

وقد امتد نظر ابن خلدون إلى آفاق بعيدة فى الوجود . وفى هذه النظرة رتب الموجودات وتدرج بها فى منازل « الترقى » درجة درجة حتى انتهى إلى الإنسان ، الذى جعله غاية ما يمكن أن تثمر « المادة » من ثمر طيب ، يمكن أن « يترقى » درجة أخرى ، ينزع بها عن وجوده كثافة المادة وظلامها ، فيكون من العالم النورانى الشفاف . . عالم الملائكة . ! وبهذا يمكن أن يتلقى الإنسان — فى شخص النبى — بالملك فى شخص « جبريل » . . . ويتلقى عنه رسالة السماء !

---

(١) الرسائس : جمع رسيس ، وهو المبطل . (٢) اللزوميات جزء ٣ صفحة ٣٢

يقول ابن خلدون :

« ثم انظر إلى عالم التكوين كيف ابتدأ من المعادن ثم النبات ، ثم الحيوان، فى هيئة بديعة من التدريج . . آخر أفق المعادن متصل بأول أفق النبات ، مثل الحشائش ومالا بذر له : وآخر أفق النبات مثل النخل والكرم ، متصل بأولى أفق الحيوان مثل الحلزون والصدف ، لم يوجد لهما إلا قوة اللمس فقط ، ومعنى الاتصال فى هذه المكونات أن آخر أفق منها مستعد بالاستعداد القريب أن يصير أول أفق المدى الذى بعده .

ثم ينتقل ابن خلدون بنظره إلى عالم الحيوان . . فيقول :

« واتسع عالم الحيوان وتعددت أنواعه ، وانتهى فى تدريج التكوين إلى الإنسان ، صاحب الفكر والروية .

ثم يعرض ابن خلدون بعد هذا أثر العالم العلوى فى الموجودات كلها ، ويجعل لهذه الموجودات تحركا يتدرج بها من حال إلى حال حتى تصل إلى الإنسان، ثم يتدرج إلى العالم الإنسانى فى أفراده ، حتى يبلغ نهاية الأفق الذى يلامس فيه الملأ الأعلى ، ويتهيأ للانتقال إليه .

يقول :

« فوجب من ذلك أن يكون للنفس استعداد للانسلاخ من البشرية إلى الملكية ليصير بالفعل من جنس الملائكة ، وقتاً من الأوقات فى لمحة من اللمحات وذلك بعد أن تكمل ذاتها الروحانية بالفعل »[1] .

وأياً كانت هذه النظرة ، وأياً كان حظها من الصحة والصدق ، فإنها تنبىء عن حاجة الإنسان إلى قوة فوقه ، يتعامل معها ، ويفيد منها ، ويطمح إلى بلوغها أو مداناتها .

اختلاف المعجزات باختلاف الأمم :

ترى ماذا يكون لو أن معجزات الرسل كانت جارية على أسلوب واحد

---

(١) مقدمة ابن خلدون ص ٩٢

فى صورة واحدة . يتلقاها رسول بعد رسول . فتظهر للمشاهدين كما ظهرت لأسلافهم . معجزة قاهرة ، تخرس معها الألسنة ، وتخضع لها الأعناق ! ؟

ماذا يكون لو أنها معجزة واحده تنتقل مع الرسل رسولا رسولا ؟ . وتظهر فى الأمم أمة أمة ؟ ماذا لو حدث هذا ؟

عصى موسى مثلا لو أنها كانت فى يد نوح ومن بعده من الأنبياء : هود ، وصالح . وشعيب ، وإبراهيم ، وعيسى ، ومحمد . لو أنها كانت لهؤلاء الأنبياء ، وجرت على أيديهم فى أقوامهم أما كان لها فى نفوس هؤلاء الأقوام ما كان لها فى قوم موسى ؟

وبمعنى آخر : أما كانت معجزة كافية للتحدى والإعجاز ؟

ويمكن أن يقال فى ترجيح هذا الرأى الفرضى - : إن تطويع المعجزة الواحدة ليد الأنبياء ، وانتقالها من سابق إلى لاحق ، فيه توكيد لها ، وشهادة مجددة على أنها ليست وليدة الصدفة ، ولا أنها فلتة من فلتات الحياة وقعت ليد إنسان من الناس . فاتخذ منها أداة للتعالى على الناس بما فى يديه . وإذلال كبريائهم وفضح مدعياتهم من العلم والقوة .

فإذا تظاهر ظهور هذه المعجزة مرة بعد مرة فى أزمان مختلفة ؛ مع احتفاظها بكل ما فيها من ملامح ومميزات - كان فى ذلك ما يحسم الشك فيها ، ويقطع باليقين بأنها من عند الله ، وأنها لا تظهر إلا لمن اختارهم الله رسلا إلى عباده .

هذا ما يمكن أن يقال فى هذا الوجه من الإعجاز ..

ولكن هذا الوجه على ما يبدو من وجاهته مدفوع من وجوه :

فأولا : مجىء المعجزة على صورة واحدة متكررة يفقدها كثيراً من التأثير العقلى والنفسى الذى كان لها على الناس عند وقوعها لأول مرة . فإن ظهورها فى الناس بعد احتجابها - الطويل أو القصير - لا يثير فيهم تلك المشاعر العاصفة التى كانت تثيرها عند ظهورها أول مرة .. إذ أن الناس فى المرات التالية للمرة الأولى يلقونها وقد عرفوا عنها كثيراً من صفاتها وأفعالها فلا تقع من

نفوسهم الموقع الذى كان لها فى نفوس من شهدوها لأول مرة عرفتها الحياة فيها ... وهكذا الشأن فى كل أمر يعيش فى الحياة ، وتتكرر دوراته فيها ...

.. فالشمس على ماهى عليه من عظمة وجلال ، قل ما يلتفت إليها الناس ، وقل مايرون ما فيها من عظمة وجلال ! وذلك لتكرار دوراتها بين المشرق والمغرب ! حتى لقد صار ذلك منها أمراً مألوفاً ، وكل مألوف تلقاه النفس لقاء فاتراً ، غير واقفة عنده ، أو ملتفتة إليه ! !

وثانياً : تكرار المعجزة الواحدة ، فى صورة واحدة يوقع فى كثير من النفوس أنها ليست من عند الله . وإلا لما وقفت قدرة الله عندها . مهما كان مبلغها من الدلالة على قدرة الخالق وسلطانه . . !

إن الفنان العبقرى لايرضى أن يحسب فى الفنانين العباقرة بأثر واحد من آثاره . ولاتفسح له الحياة مكاناً بين العباقرة الفنانين حتى يأتى بأكثر من شاهد يشهد له على مكانته وأصالته . ورسوخ قدمه !

فالعمل الفنى الواحد - مهما يكن فيه من لمسات العبقرية ومخايلها - ليس إلا نبأة تلفت الناس إلى أن فناناً يوشك أن يولد ، ويخرج إلى الحياة . . ويترقب الناس بعد هذه النبأة مولد الفنان فيما يقدم من أعمال . . فإن وقف عند العمل الأول تزاورت عنه الأبصار ، وحسب عمله الأول فلتة من الفلتات ، أو مصادفة لم يكن له تدبير فيها !

والناس فى جناب الله ، وفى قدرته يتوقعون أعمالا لاتقف عند حد فى مجال الاستدلال على قدرة الله . . فكل شىء مسخر لله ، خاضع لأمره ، مستجيب لدعوته . .

« إنما أمرنا لشىء إذا أردناه أن نقول له كن فيكون » .

والرسل هم السفراء بين السماء والأرض . . بين الله والناس . !

والذى يتوقعه الناس هو أن يروا هؤلاء السفراء فى حلل جديدة من الرواء والجلال . . كل حلة منفردة بألوانها وأصباغها ، لا تشبه لاحقتها

سابقتها . فإذا جاء الأمر على خلاف هذا . وجاء السفراء واحداً إثر واحد في حالة يأخذها اللاحق عن السابق ! ساء ظن الناس - وحق لهم أن يسوء ظنهم بهؤلاء السفراء ، وأن يشكوا في صدق دعواهم أنهم رسل من عند الله . فإن ما عند الله كثير لاينفد ، ولا يجيء على تلك الصورة التي لاتدل إلا على العجز والفقر ! ! ومن شأن المعجزة أن تحدث الناس بلسان فصيح عن قدرة الله، وعن جلاله وعظمته ، وأن ترى الناس الله الذي له ملك السموات والأرض .. الله الذي لايعجزه شيء في الأرض ولا في السماء ، وهو السميع العليم ..

وثالثاً : المعجزة في حقيقتها لسان يحدث الناس على قدر عقولهم . وباللغة التي يتعاملون بها .

وسواء أكانت المعجزة حسية أم عقلية . فإنها لكي تكون حجة على الناس - ينبغي أن تقدر بقدرهم ، وتحسب بحسابهم ، أو بمعنى آخر ينبغي أن تجرى معهم على مقتضى الحال كما يقول علماء البلاغة . . فإذا كانت من الناس بحيث تبعد الشقة بينهم وبينها صعوداً أو هبوطاً - لم تلتق بالناس ، ولم يلتقوا بها ، فذهبت مذهباً ، وذهبوا هم مذهباً آخر وكانت وهم كما يقول الشاعر :

أيها المنكح الثريا سهيلا   عمرك الله كيف يلتقيان

هي شامية إذا ما استقلت   وسهيل إذا استقل يماني

وإذا كان الناس مختلفون في طبائعهم . متفاوتون في ذكائهم ؛ حسب أزمانهم وأوطانهم ، فاللسان الذي يخاطبون يجب أن يكون مختلفاً بحسب هذه الطبائع ، متفاوتاً بتفاوت هذا الذكاء ، حتى يكون لساناً مفهماً يجد من يستمع إليه ، ويتلقى عنه !

من أجل هذا كانت معجزات الرسل واقعة على حسب كل أمة واستعدادها العقلي والنفسي . . وكان لكل رسول معجزة أو أكثر تناسب حال قومه ، وتجيء إليهم من الجانب الذي بلغوا فيه غاية ماعندهم من فطنة وذكاء وماليهم من قوة وجهد !

وكان من هذا أن جاءت معجزات الأنبياء على هذا التقدير .. محسوبة بحساب الأمم واستعدادها .

يقول الجاحظ : « وعلى قدر جهل الأمة ، وغباء عقولها ، وسوء رغبتها ، وخبث عادتها ، وغلظ محنتها ، وشدة حيرتها — تكون الآيات .. » كفلق البحر ، والمشى على الماء ، وإحياء الموتى ! »(١)

وسنرى فيما نستقبل من أبواب هذا الكتاب بياناً شارحاً للحكمة فى اختلاف المعجزات . ومناسبتها لأحوال الأمم ! كما سنرى لماذا كانت معجزة النبي « محمد » معجزة عقلية ، تخاطب العقل الإنسانى فى أعلى مستوياته وأدناها جميعاً ، فيما حمل القرآن من آيات بينات .

* * *

(١) رسائل الجاحظ ص ٢٤٨

الباب الرابع

مصادر الرسالة الإسلامية

محمد ، والقرآن ، والصلة التي تجمع بين « محمد » والقرآن . تلك هي موضع البحث والنظر لمن يريد أن يتعرف على المصادر التي أقامت الشريعة الإسلامية على تلك الصورة ، التي تعرفها الحياة ، ويدين بها المسلمون .

من أجل هذا كانت هذه الدراسات الكثيرة لشخصية محمد ، ولحقيقة القرآن ، ولما بين محمد والقرآن من صلة — كانت هذه الدراسات منظوراً إليها من آفاق مختلفة ، متعددة ، سواء أكان ذلك من المسلمين أنفسهم ، أم من غير المسلمين .

فقد استبد بكثير من المسلمين الشعور الديني ، وغلبتهم العاطفة الدينية ، وصور لهم الوهم الخاطىء أن يلونوا شخصية الرسول بألوان وأصباغ ليترضوا بها مشاعرهم الساذجة ، فجاءت هذه الأصباغ الغريبة وتلك الألوان الصارخة على غير ما قدروا وعلى غير ما أرادوا .. إنها تنزل من جلال النبوة وجمالها بمنزلة أصوات دخيلة مزعجة في نشيد علوى ملائكى ! بل إنها — في أحسن أحوالها أشبه بالمصابيح الموقدة تحت أشعة الشمس ، في وجه النهار المشرق !.

وكما استبد الحماس الديني ببعض المسلمين ، فجاءوا إلى شخصية الرسول بهذه البضاعة الرخيصة ، كذلك استبدت الكراهية للإسلام ، والحقد على نبي الإسلام ببعض الناس فحاولوا أن يلقوا على الإسلام ، وعلى نبي الإسلام ظلالا معتمة من الريب والشكوك ، وأن ينزعوا عنهما ما عليهما من عظمة قدسية ، وجلال ربانى .. فجاء عملهم هذا على غير ما قدروا ، وعلى غير ما أرادوا فإن ما يبنيه الله لن يهدمه الناس ! وهل يحجب الدخان المتصاعد من الأرض والغبار الثائر من أعاصيرها وعواصفها وجه الشمس عن الحياة يوماً أو بعض يوم ؟ بل إن الشمس لتزداد في العين بهاء وجمالا إذا أسفرت من وراء الغمام ، وتبدت من خلال السحاب ! .

على أن كثيراً من الدراسات التي تناولت شخصية الرسول ، وحقيقة القرآن ، من علماء المسلمين ، وغير المسلمين قد جاءت مقتصدة فى أغلب أحوالها ، تنزع منزع الوقوف على الحقيقة والتهدى إلى مواطن الحق !.

ولا نريد أن نقف هنا على تلك الدراسات المستقيمة المعتدلة التى قصد بها أصحابها وجه الحق فى سيرة الرسول ، وفى شريعة الإسلام ، فإن طريقها واضح لاتعمى سبله على من يلتمس الحق ، ويطلب الوصول إليه .

وإنما الذى نريده هنا هو أن نعرض بعضاً من هذه الوجوه الشائهة الممسوخة التى أدخلها على سيرة الرسول ، وعلى حقيقة القرآن هؤلاء الجهلة المتنطعون من المسلمين ، أو أولئك الجهلة المتعصبون من غير المسلمين .

وأهم ما يعنينا فى موقفنا من تلك القضية أن نظل بمأمن من هذه التيارات المتدافعة من المتنطعين والمتعصبين ، فلا تغلبنا العصبية للعقيدة ، ولا يحملنا الشنآن المعادين للإسلام على أن نجور فى الحكم ، أو نستبد بالرأى وذلك مانستعين الله عليه ، ونرجو السداد والتوفيق فيه .

شخصية الرسول

كانت شخصية الرسول موضع نظر عميق ، وبحث متصل من أولياء الإسلام ، وأعدائه على السواء !.

ذلك أن الإسلام وإن كانت تعاليمه منزلة من السماء ، لا دخل لمحمد فيها — إلا أن تناول « محمد » لهذه التعاليم ، وقيامه عليها ، وتطبيقه لها قد جعل بينه وبين هذه التعاليم رابطة وثيقة ، بل إنه جعل منهما كياناً واحداً . .

فأى مايقع فى القرآن من ضروب الكمال والجلال — وكله كمال وجلال — يضفى على « محمد » كمالا وجلالا .. كما أن أى سناً يضىء من حياة « محمد » — وكل حياته سناً وضياء — يزيد القرآن ألقاً وإشراقاً على ألقه وإشراقه .

وعكس هذا يأخذ هذا المأخذ ، فإن أى عوج يبدو فى شخصية الرسول —

وهيهات هيهات — يتسرب إلى القرآن ذاته ، ويناله فى الصميم منه . . وإن أى مأخذ يؤخذ على القرآن — وهيهات هيهات — ينال من محمد ، فى شخصيته ، وفى مكانته !

وإنه لاخلاف بين المسلمين وغير المسلمين على شخصية «محمد» التاريخية ، فهو شخصية تاريخية معروفة الزمان ، والمكان ، تشهد لها الوثائق التاريخية شهادة لم يقدمها التاريخ لأية شخصية أخرى غير «محمد» .

من أجل هذا لم يستطع أشد أعداء الإسلام عداوة ، وأكثرهم جرأة على الحق ، وعدوانا على الحقائق أن يبذر بذرة واحدة من بذور الشك حول شخصية «محمد» من ناحية وجوده فى الحياة ، فى زمانه ومكانه الذى وجد فيه ، كما لم يستطع أحد أن ينكر الانقلاب الشامل الذى قام به «محمد» فى الجزيرة العربية ، وفى الحياة الإنسانية ، وما أثار فى العقول من أفكار ، وما ألقى فى القلوب من معتقدات .

ولكن الذين نصبوا أنفسهم لمحاربة الإسلام لم يسلموا بهذه الحقيقة على إطلاقها ، ولم ينطقوا بكلمة الحق فيها . . إذ أنهم لو سلموا «لمحمد» بما عرفت الحياة منه ، وبما حفظ التاريخ له لسلموا للإسلام بأنه دين الله ، وبأنه وحى السماء ، وشريعة الحق . ودون ذلك أهوال وأهوال .. فإنهم والإسلام فى حرب، ولن يسلموا له أو يستسلموا إلا بعد أن يرموا بآخر سهم بين أيديهم ، وإلا بعد أن ينفثوا ما فى صدورهم من حقد وحسد ..

تخبط وهذيان :

كان أقرب شىء إلى الذين حاربوا الإسلام وكادوا له أن يلقوا ظلالا من الريب والشكوك حول سيرة الرسول ، وأن يبعثوا من صدورهم المريضة نفثات من الحقد الأسود المحموم فيثير دخانا يزحف على تلك الشخصية ، فيغير من حقيقتها ، أو يخفى من معالمها .. فذلك وإن بدا لأول أمره أنه عمل طائش لا يلقى من الناس إلا استهزاء واستخفافا ، إلا أنه مع الزمن ، ومع ترداد هذا الافتراء قد يصبح يوما ما حديثا يروى فى الناس ، ثم لا يعدم على الأيام أنصاراً ، ثم قد

لا يعدم من أولئك الأنصار من يدخل به على التاريخ ، ويفسح له مكانا فيه .. فما أكثر المفتريات التى ولدت فى الحياة مولدا غريبا شائها ، ثم استطاعت مع الزمن أن تندس فى تفكير الناس ، وأن تجد من العقول « الرخوة » المريضة طواعية لها ، وقبولا لقوالبها الممسوخة المعوجة ! .. وكم فى التاريخ من أكاذيب وأباطيل ومفتريات غلبت الحقائق ، وأزالتها عن مكانها .

كان أقرب شىء إذن إلى الذين حاربوا الإسلام وكادوا له أن يذهبوا هذا المذهب ، وأن يحكموا رميتهم من هذا الجانب ، فإنها إن صحت أصابت من الإسلام مقتلا لا يقوم بعده ، وأنهوا هذه الحرب التى لا تنتهى بينهم وبين الإسلام .

ولكن الأمر — أمر محمد — أكبر من أن يتغشاه كذب ، أو يظهر عليه افتراء ..!

ولا تحسبن الذين حاربوا الإسلام ، وحاربوا فى الإسلام بجيوش زاحفة فى الحملات الصليبية ، وغير الحملات الصليبية التى شرع لها العلماء والفلاسفة أقلامهم ، وأقاموا لها دراسات أكاديمية ودارسين محترفين للمفتريات والأكاذيب المطلية بطلاء العلم ، والمموهة ببريق البحث عن الحقيقة — لا تحسبن هؤلاء جميعا قد غفلوا عن هذا السلاح ، سلاح التشويش على شخصية محمد وإذابتها بالدعاوى الباطلة ، والأسانيد الملفقة ، ليحيلوا شخصية محمد بعدها خرافة عاشت فى خيال العرب مع كثير من الخرافات التى تأثروا بها فى حياتهم . ولكنهم كانوا كلما حاولوا خلق عناصر الضلال والبهتان لينسجوا من خيوطها نسيجا يلفون فيه شخصية « محمد » وجدوا أنهم إنما ينسجون بيتاً من بيوت العناكب ، يحاولون أن يسدوا به وجه السماء ، وأن يحجبوا ضوء الشمس فى رابعة النهار !! فكان إذا ولد لهم من هذه الأكاذيب مولود وأدوه ، وواروه التراب .. أشبه بالأجنة التى تلفظها الأرحام قبل أن تدب فيها الحياة !

إن حقيقة « محمد » التاريخية لم تكن يوما من الأيام موضع شك أو مثار خلاف بين المسلمين وغير المسلمين على كثرة ماكان بينهم من خلاف متصل ، وجدل ملتهب فى كثير من أصول الشريعة وفروعها ..

عظمة محمد :

وعظمة « محمد » ليست محل شك عند كل من يعول عليه من أهل المعرفة ، وأصحاب الرأى من غير المسلمين ، فضلا عن المسلمين الذين يرتفعون بمقام نبيهم إلى مستوى من العظمة لا يرتفع إليه بشر ، ولا يدنو منه إلا أنبياء الله ورسله الكرام .

وعظمه « محمد » عظمة بارزه ، أكبر من أن ينكرها مكابر ، أو يعمى السبيل إليها مضلل أو مخادع .

لقد فرضت على أعداء الإسلام أن يشهدوا لمحمد بأنه واحد من آحاد العظماء فى تاريخ الإنسانية ، ورائد من روادها ، ومصلح من مصلحيها .

ولكن أبى كثير من هؤلاء أن يعترف لمحمد بأنه نبى ، وأنه تلقى شريعته من السماء . . ضناً منهم على شريعة الإسلام أن تفيض من هذا الينبوع العلوى ، وأن تتصل أسبابها بالسماء . وهم بهذا إنما يريدون أن تذهب هذه الشريعة مع ماذهب من شرائع سنها المصلحون من الناس . . ممن كانت شرائعهم مستمدة من إلهاماتهم الروحية دون أن تصلها بالسماء أسباب . وبذلك يذهب « محمد » كما ذهب العظماء فى متاحف التاريخ .

لقد ذهبت شريعة « حمورابى » وبهت ظل القانون الرومانى . وعفى الزمان على الإسكندر . ونابليون وغيرهما . . ذلك على خلاف الشرائع السماوية ، ورسل تلك الشرائع . . وإن دخل على بعض تلك الشرائع ما دخل من تبديل ، وتحوير . . فإنها على ما دخل عليها لا تزال محتفظة بطابع سماوى ، يضفى عليها الجلال ، والخلود !

عظمة الانسان ، وعظمة النبى :

ولا شك فى أن « محمداً » لو لم يكن نبياً ، لكان إنساناً مرموقاً فى قومه ، ولكان له شأن بينهم .

ولكن مهما يكن من شأن الأخلاق الكريمة ، والصفات الطيبة ، والذكاء العبقرى الذى يشتمل عليه كيان أى إنسان فى الجزيرة العربية ، فإنه لن يتجاوز

هذه الحدود التي كانت تدور فيها قواهم الروحية ، أو النفسية ، أو العقلية ، أو الجسدية . .

فلقد كان يمكن أن يكون « محمد » — لولا أن أكرمه الله بالنبوة ، واصطفاه بالرسالة — كان يمكن أن يكون واحداً من أولئك الذين كان لهم مكانة فى قومهم ، وكانوا بموضع التجلة والاحترام فيهم .

وانظر فيمن عرف فى الأمة العربية — قبل البعثة النبوية — بحال أوجبت له التقدير والاحترام ، وأضفت عليه ثوب الزعامة والقيادة . . فإنك تجد فى الحكماء مثلا « أكثم بن صيفى » . وفى الخطباء البلغاء « قس بن ساعدة » . وتجد فى الشعراء : امرأ القيس ، وعنترة ، ولبيد ، وعمرو بن كلثوم ، وغيرهم من أصحاب المعلقات . . وتجد فى الأبطال الفرسان عنترة ، وعمرو بن عبدود ، والحارث بن شهاب . . ! وتجد فى الكهان شقاً ، وسطيحاً ، وغيرهم كثير من تلك الأسماء التى حفظها تاريخ الأمة العربية فى الجاهلية لذوى النباهة والشأن من رجالها .

كان « محمد » لولا النبوة — يمكن أن يكون واحداً من أصحاب المعلقات ، أو الحكماء ، أو الخطباء ، أو الفرسان ، أو الكهان . . أو أن يكون فارساً ، أو شاعراً ، أو خطيباً . . ولكن يظل مع ذلك فى هذا المستوى الذى عاش فيه حكماء قومه ، وشعراؤهم وخطباؤهم وكهانهم ، وأصحاب المكانة المرموقة فيهم .

وماذا تعطى بلاد كالبلاد العربية المجدبة أكثر من هذا ؟ بل ماذا تعطى أعدل البلاد جواً ، وأخصبها أرضاً ، وأوفرها خيراً ؟ ماذا تعطى فى مجال العظمة ، وماذا تقدم للحياة من عظماء ؟ بل ماذا تعطى الحياة الانسانية كلها من عظمة وعظماء ؟ إن كل نتاج أرضى مهما يكن من الصفاء ، والقوة ، والسلامة لا يمكن أن يكون شيئاً إلى جانب تلك الثمرات الطيبة التى تتخيرها السماء من العالم الأرضى فتسكب فيها سماعات من النور العلوى ، وتطلق فيها شرارة من روح القدس فتكون هذه الثمرات الزكية الطيبة أنبياء الله ورسله إلى عباده ! إن عظمة النبى عظمة إنسانية سماوية معاً . . التقى فيها الانسان فى أكرم خصائصه وأصفى صفاته

بالعالم العلوى ، فنهل من مناهله ، واقتبس من أنواره ، وتزود لروحه من شعاعات الحق التى لا تخبو أبداً !

موقف .. وموقف :

لم يستطع أعداء (محمد) - قديماً وحديثاً - أن ينكروا هذا الذى بين يديه ، وعلى لسانه من علم وحكمه . . كما لم يستطع أعداؤه - قديماً وحديثاً - أن يغضوا الطرف عنه ، وأن يحجبوا عن أبصارهم أضواء هـــذا الجلال الذى يحف به ، أو أن ينكروا شعاعات تلك العظمة التى يجد ريحها كل من يخالطه أو يدنو منه ، أو يطالع سيرته !

ولـكن الذى يأباه هؤلاء الأعداء - قديماً وحديثاً - على محمد هو أن يكون متصلا بالسماء ، متلقياً عن الله تلك الرسالة التى يدعو الناس إليها ، ويبشر فيهم بها !

إنهم يرضون لمحمد أن ينزل من منازل العظمة الانسانية حيث يشاء ، ويسلمون له أن يكون مايشاء فيهم ، وفى مناصب السيادة والقيادة عليهم ، ولـكن على أن يعزل نفسه من منصب النبوة ، ومن مقام الرسالة ، وأن يجىء إليهم عن طريقه الشخصى ، فإن مافيه من الصفات الكريمة يؤهله للزعامة المطلقة فيهم !

وقد عرضنا للدوافع التى تحمل الناس على هذا الموقف من أنبياء الله ورسله ، واستكثارهم على بشر منهم أن يطاول السماء ، ويتعامل معها(١) !

وكان موقف قريش من (النبى) هذا الموقف العنادى قائماً على هذا التقدير ، ومقدراً بهذا الحساب . . وهو أن يكون لبشر معاملة مع السماء . . . « إن هـذا إلا قول البشر » !.. « أأنزل الذكر عليه من بيننا ؟ بل هو كذاب أشر ! » .

وقد تولى القرآن الـكريم فضح مقولات المعاندين من كفار قريش حالا بعد حال : فحين قالوا عن النبى إنه ساحر كان رد القرآن :

« هل أُنبِّئُـكم عَلَى مَنْ تَنَزَّلُ الشياطينُ ؟ تَنزَّلُ على كلِّ أفاكٍ أثيمٍ . يُلقُون السَّمعَ ، وأكثرهم كاذبون » .

(١) انظر ص ٤٨ وما بعدها من هذا الـكتاب .

وما جربت قريش على « محمد » حالا كذب فيه ، ولا عدت عليه فى حياته كذبة واحدة !

وحين قالت قريش عن النبى إنه شاعر أجابهم القرآن : « والشعراء يتبعهم الغاوون ألم تر أنهم فى كل واد يهيمون ، وأنهم يقولون ما لا يفعلون » .. والقرآن ـ كما تعرف قريش — ليس بشعر ، والنبى — كما تعرف قريش — لا يهيم فى أى واد من أودية الضلال ، ولا يقول ما لا يفعل أبداً .. والشعراء يهيمون فى أودية الخيال . ويقولون فى أشعارهم ما لا تصدقه أفعالهم .

أنشد « الفرزدق » سليمان بن عبد الملك قوله :

ثلاث واثنتـــان فهن خمس وسادسة تميـــل إلى شمـــام

فبـــن بجـــانبى مصرعات وبت أفض أغلاق الختـــام

فقـال سليمان : ويحك يا فرزدق ! أحللت بنفسك العقوبة ! أقررت عندى بالزنا ، وأنا إمام ، ولابد لى من أن أحدك . . فقال الفرزدق : بأى شىء أوجبت على ذلك ؟ قال : بكتاب الله ! . قال : فإن كتاب الله هو الذى يدرأ عنى الحد ! قال : وأين ؟ قال : قوله تعالى : « والشعراء يتبعهم الغاوون .. ألم تر أنهم فى كل واد يهيمون وأنهم يقولون ما لا يفعلون » . . فأنا قلت يا أمير المؤمنين ما لم أفعل ؟

ما أشبه الليلة بالبارحة

والموقف الذى وقفته قريش من النبى ، قد وقفه أعداء الإسلام بعد هذا من « محمد » ورسالته . .

فلقد نازع خصوم الإسلام فى نبوة « محمد » وإن لم ينازعوا فى مكانته من القيادة والزعامة والإصلاح ، بين القادة والزعماء والمصلحين من الناس .

والذى يرمى إليه هؤلاء الخصوم الذين يشككون فى نبوة محمد أو يكذبونها إنما هو — كما قلنا ـ تجريد الشريعة الإسلامية من عناصر الخلود المستمدة من السماء ، ووضعها فى دائرة الأنظمة الوضعية التى تخضع للتحوير والتغيير ـ الجزئى

أو الكلى ـ بأيدى الناس ! وبهذا تتعرى الشريعة الاسلامية من هذا السياج القدسى الذى حفظها من عبث العابثين ، وحماها من أن تمتـــد إليها يد بمحو أو تبديل !

ولقد حاول خصوم الاسلام محاولات مجهدة مضنية أن يدخلوا على الاسلام من هذا الطريق ، وأن يشككوا فى بعض آيات القرآن بإضافة أو حذف فما استطاعوا أن يدخلوا عليه حرفاً ، أو يخرجوا منه حرفاً على مدى يزيد على ثلاثة عشر قرناً !

والآيات التى أرادوا أن يشككوا فيها آيات معدودة ، . وليست من الآيات التى تمس أصلا من أصول الشريعة . ، ولكن الشك فى أى آية يسحب الشك إلى القرآن كله .. وهذا ما قصد إليه الذين جاءوا إلى الإســـلام مهاجمين من هذا الطريق . .

إن قداسة القرآن وحدة متكاملة ، فإذا تطرق الشك إلى أية جزئية فيه كان ذلك داعية إلى الشك فى كل أجزائه ، وبهذا يتداعى ذلك البنـــاء الشامخ المقدس ، وينهار !

محمد . . بعد القرآن :

وحين أعياهم أن يزيفوا شيئاً من تلك الوثيقة المقدسة الخالدة عمدوا إلى مصدرها الذى صدرت عنه ، فأثاروا حول نبوة النبى دخاناً متكاثفاً من الشكوك والريب . . وغايتهم من هذا أن يقطعوا الصلة بين القرآن وبين السماء ، وأن يضيفوه إلى « محمد » كما أضيفت معلقات الشعراء إلى أصحابها ، وكما نسبت أسجاع الكهان إلى أربابها !

يقول « بارثولوميو » الرهاوى : موجهاً هذا الحديث الخطابى إلى مسلم : « قل لى بربك .. ماذا تعنى بالنبوة والرسالة ! ؟

« والله يعلم أنكم ما كنتم تستطيعون أن تعرفوا ، ، لو لم يعلمكم المسيحى !

« إنك تقول : إن نبيكم ظل اثنين وثلاثين عاماً(١) لا يتكلم كلام الأنبياء ، ولا هو كان أثناءها رسولا ، ولا معلماً ، ولا عرف شيئاً عن الله ، وأنه عرفه بعد تلك الفترة ...

ثم يمضى فى هذه السفسطة ... فيقول :

« إذا كنت تنكر بتمام الجد أن شيئاً قد حصل بوساطة « محمد » إبان تلك السنوات الاثنتين والثلاثين الأولى من حياته .. فكيف لا ينبغى لى أنا المسيحى أن أنكر أحداث تلك السنوات الخمس عشرة التالية(٢) ؟

ثم يخلص من هذا الهزل إلى هزل ... يقول فيه :

« ولكن أخبرنى أولا — ناشدتك الله — كيف استطاع — محمد — أن يعرف الله ؟ وبأية وسيلة عرفه ؟

« وإذا كنتم تسمونه نبياً فأرونى ... ماذا تنبأ به ؟ وبأى لفظ تنبأ ؟ وما هى وصاياه ؟ وما هى الآيات والعجائب التى صنع ؟ »(٣) .

هذا لون من ألوان التشويش على الإسلام ، وعلى نبى الاسلام ... لم يكن صاحبه يحمل شيئاً من العلم بالموضوع الذى يجادل فيه . . ويكفى أنه يجهل من حياة « محمد » تلك الخطوط العريضة — كما يقولون — من سيرته . . تلك السيرة التى لم يختلف على حدودها الزمنية عدو أو ولى « فمحمد » إنما جاءته النبوة بعد أن بلغ الأربعين من عمره ، لا اثنتين وثلاثين سنة كما يقول هذا السيد المتعالم ! ! كما أن نبوة محمد قد ظلت ثلاثة وعشرين عاماً ، لا خمسة عشر عاما حسب دعواه .

---

(١) الحق أنه ظل أربعين عاما ، لا اثنتين وثلاثين . . فقد جاء وحى السماء بعد أن بلغ الأربعين من عمره .

(٢) أنها ليست خمس عشرة سنة ، ولكنها ثلاث وعشرون .. هى سنوات النبوة من بعثة النبى على رأس الأربعين من عمره ، إلى أن لحق بالرفيق الأعلى فى الثالثة والستين .

(٣) حضارة الإسلام لجوستاف جرونيباوم ص ٦٨

ويكفى فى سقوط كل مدعيات هذا المدعى أن كان من الجهل بموضوع هذه القضية إلى الحد الفاضح .

نعم . إن الرجل وإن لم يكن يحمل من العلم شيئاً فى موضوعه هذا ، إلا أنه كان يحمل طاقة كبيرة من الحقد على الإسلام ، والكراهية له ..!

ولكن الحقد والكراهية وحدهما لا يغنيان شيئاً فى التشويش على الحق ، ولا فى زحزحته عن موضعه .

ولو أن مع هذا الحقد ، وتلك الكراهية شيئاً من العلم لما كان هذا الخلط ، وذاك الهراء ، ولاستطاع الرجل بما عنده من علم أن يقتصد فى هذا النباح ، أو أن يخرجه فى صورة أقرب إلى صوت العقلاء من الناس .

ومن البديهى ألا نقف من هذا الكلام موقف الجد ، ولا أن نرد على تلك الأسئلة التى سألها - متبجحاً — فى صوره تهجم واستهزاء .. لأن ذلك كان يمكن لو أننا نجد لهذا الكلام شيئاً من الاحترام فى عقولنا ، أو قدراً من الاعتبار فى تقديرنا ؟.. فلندعه يمضى كما يمضى صوت النائحة فى جوف الصحراء . ولننظر فى صرخة أخرى من تلك الصرخات المجنونة .. فما أكثر تلك الأصوات التى تنطلق من صدور محنقة ، حاقدة ، على الإسلام . وعلى نبى الإسلام .

يقول « ثيوفانيز » المتوفى سنة ٨١٧ م فى صدد انتشار الإسلام :

وهكذا انتشر الخبر - خبر محمد - من النساء - يقصد خديجة - إلى الرجال ، فبلغ أولا أبا بكر الذى جعله فيما بعد خليفة بعده !

« وانتهى الأمر بأن استطاعت شيعته أو قل فرقته المارقة ! أن تحصل بالقوة أو قل بالحرب على السيادة على منطقة يثرب ، وذلك بعد أن قضى فى البداية عشر سنوات ينشر دعوته سراً ، ثم قضى عشر سنوات أخرى ينشرها حرباً ، وانتهى الأمر إلى إعلانها صريحة ، وحكم البلاد تسع سنوات !!

وكان يعلم أنصاره بأن من قتل عدوه أو قتله عدوه فهو داخل الجنة !!

وكان يصف الجنة بأنها موطن سرور جسدى ، وشرب وخمر ، وعناق للنساء وأن بها أنهاراً من خمر ، ومن عسل ولبن ، وأن هناك نساء غير اللواتى

لهم اليوم عناقهن مديد دائم ، وله سرور مقيم » ! (١) .

وأغرب ما فى هذا القول ـ وكله غريب ـ أن تقوم فرقة مارقة بإقامة دولة مترامية الأطراف ؛ وأن تقيم حضارة عريقة راسخة تنفذ شعاعاتها القوية فى ذلك الظلام المطبق الذى كان يخيم على أوربا ، فيفتح لها معالم الطريق إلى الخروج من ظلمات العصور الوسطى إلى عصر المدنية الحديثة . فإن القوة الغاشمة لا يمكن أن تقيم بناء قويا متماسكا يبقى على الزمن بعد أن تزايله تلك القوة ، وتتخلى عنه ... وقد بقى الإسلام أكثر من ثلاثة عشر قرنا ، يزداد على الأيام أنصاره ، وتنفسح فى العالم رقعته ، وسيبقى هذا الدين أبد الدهر مصدر هدى ، وإشعاع علم ومعرفة ، لكل عاقل رشيد .

ولا نقف عند تلك المقررات الباطلة التى يدعيها هذا المدعى عن الدوافع التى كانت تدفع المسلمين إلى الاستشهاد فى سبيل الله ، وإعزاز دين الله ، ونصرة نبيه ، . فإن هذا الرجل ـ شأنه شأن صاحبه من قبل ـ يستملى قلمه من صدر محموم ، وقلب مريض ! فلندعه إلى محموم آخر فى هذا الصف الطويل ، ممن يهذون هذيان الحمى من صدور تغلى حقداً على الإسلام وعلى نبى الإسلام !

يقول وليم الطرابلسى المتوفى سنة ١٢٧٣ م فى رسالة له عن حالة العرب والنبى محمد ، وشريعتهم ، وعقيدتهم :

« إن العرب يعتقدون أن جبريل نقل الإرادة الإلهية إلى النبى ! ثم صاغ المؤمنون ما كان ينطبق به كتابا » .

ثم يعلق على هذا الذى يعتقده العرب حسب رأيه فيقول : « إن للكاثوليك على ذلك رأياً آخر فهم يرون أنه بعد أن مات محمد أراد أنصاره أن يعالجوا العقيدة والشريعة معالجة شاملة قائمة على تعاليمه .. فلما تبينوا أن الرجل الذى نيط به العمل (٢) لم يرزق الكفاية اللازمة لأداء ذلك على الوجه الأكمل ـ طلبوا إلى اليهود والمسيحيين الذين أسلموا أن يساعدوه !

---

(١) حضارة الإسلام ص ٩٨

(٢) لعله يقصد بهذا الرجل زيد بن ثابت الذى جعله أبو بكر على رأس تلك الجماعة التى وكل إليها جمع القرآن ، وقد كان مجموعاً عند كتاب الوحى وغيرهم ، كما كان محفوظاً فى الصدور .

وهنا تبدو للرجل أن الفرصة سانحة بعد أن احتلق لها هذه الفرية بإدخال جماعة ممن أسلموا من اليهود والنصارى فى عملية جمع القرآن — فيقول :

« وعند ذلك رأى هؤلاء — أى الذين أسلموا من اليهود والنصارى — من الأفضل أن ينتقوا فقرات مناسبة من العهد القديم والجديد ، وأن يمزجوها بالكتاب كما اتفق (! !) وبذلك أصبح الكتاب على قدر عظيم من الرونق والجمال المنقول من الكتب المنزلة ، مابين مسيحية ويهودية أما الجانب الإسلامى الأصيل فليس إلا تشويها وتحريفاً ! ؟ . » (١)

وشخصية القرآن التاريخية — إن ساغ هذا التعبير — شخصية لامراء فيها ، ولا اختلاف عليها بين المسلمين ، وخصوم المسلمين ؛ فهى أكبر من أن يحجبها هذا اللغو ، وهى على الصحة والسلامة بحيث تقتل كل ميكروب خبيث يدخل عليها !.

وجميع الذين تعرضوا لدراسة تاريخ القرآن من علماء الغرب والذين يعتمد عليهم ، ويؤخذ برأيهم — لا ينكرون هذه الحقيقة ؛ وهى أن القرآن قد جاء به « محمد » ، وأن الجمع الذى قام به أبو بكر ؛ ثم عثمان من بعده ، لم يكن إلا نقلا له من تلك الوثائق الكثيرة ، التى كانت بأيدى كتاب الوحى ، وعند كثير من الصحابة وغيرهم ؛ وهى مع كثرتها كانت جميعها على الصحة والسلامة الكاملة ، يشهد بعضها لبعض ، ويزكى بعضها بعضاً . وذلك بالإضافة إلى شهادة الحفظ للقرآن كله ، عند كثير من القراء ، من صحابة رسول الله . .

من أجل هذا لم يجرؤ عالم من علماء الغرب أن يقف لهذه الحقيقة موقف المناقض لها ، أو المشوش عليها . وإنما الذى كان من مقولاتهم هنا : أن هـــذا القرآن من كلام « محمد » ، وليس وحى السماء ، وربما قالوا إنه استمد مصادر هذا القرآن من ورقة بن نوفل أو غيره من الأحبار والرهبان .. ولكنه على أى حال يضاف إلى « محمد » وينسب إليه !

ولم يقل أحد قبل هذا الرجل أو بعده أن جماعة ممن أسلموا من اليهود

---

(١) حضارة الإسلام ص ٧١

والنصارى شاركوا فى وضع القرآن أو جمعه .. ولم يقل أحد كذلك بأن فصلا ، أو فصولا من التوراة - فى عهديها القديم والجديد - قد أضيف إلى القرآن عند الجمع ! »

لم يقل أحد بهذا القول الرخيص ، لأنه قول يفضح صاحبه ، ويعريه من كل سمة من سمات العلم . فإن الذين شاركوا فى عملية جمع القرآن فى عهد أبى بكر وفى عهد عثمان . معروفون معرفة وثيقة فى التاريخ ، لا اختلاف عليها .! وأغرب ما فى هذا أن أصحاب هذه الدعوى من الغربيين يستندون إلى أقوال كفار قريش فى أول الدعوة الإسلامية ، حين أعجزهم أمر القرآن ، فلم يقبلوا أن يكون وحياً من السماء نزل على محمد .. ثم راحوا يلفقون أقوالا فى المصدر الذى يرجع إليه هذا الكلام العجيب الذين يسمعهم « محمد » إياه .. فقالوا تلك المقولات التى حكاها القرآن عنهم فى معرض السخرية بهم والتسخيف لآرائهم فيما نزل من الحق! يقول الله تعالى : « وقالوا يا أيها الذى نزل عليه الذكر إنك لمجنون .. لو ما تأتينا بالملائكة إن كنت من الصادقين » (١) .. ويقول سبحانه : « وقال الذين كفروا إن هذا إلا إفك افتراه ، وأعانه عليه قوم آخرون .. فقد جاءوا ظلما وزورا ، وقالوا أساطير الأولين اكتتبها فهى تملى عليه بكرة وأصيلا .. قل أنزله الذى يعلم السر فى السموات والأرض إنه كان غفورا رحيما » (٢) .. فهذه أقوال أخذها القرآن من أفواه أصحابها وردها عليهم فى حينها .. فكيف تصبح اليوم حجة على القرآن نفسه ؟ ثم هذا هو القرآن ، وتلك هى التوراة !

فما الفصول التى أضيفت إلى القرآن ؟ وما مكانها منه ؟

وهل يخفى ما بين أسلوب القرآن ، وترجمات التوراة من تفاوت واختلاف ؟

وهل يستطيع بشر أن يدخل على القرآن بآية واحدة ثم يجد لهذه الآية مكاناً مطمئنا فيه ؟

---

(١) سورة الحجر آية ٦ ، ٧ .

(٢) سورة الفرقان آية ٦ .

إن القرآن نسيج وحده فى الفصاحة والبلاغة ، وإن أى كلمة غريبة تدخل عليه تختنق وتموت ، ولا تجد لها بقاء فيه !

ولو كان فى مقدور أحد أن يدخل على القرآن بشىء ليس منه ، وأن يفسد معالمه عند المسلمين لكان ذلك إلى قريش،وإلى غيرها من فصحاء العرب وبلغائهم الذين حاربوا الإسلام حرباً مريرةطويلة ، أرخصوا فيها نفوسهم ، واستباحوا من أجلها كل شىء .. ومع هذا فقد عرفوا أن هذا الباب موصد بينهم وبين القرآن ، وأن كلامهم مهما يكن من بلاغة وبيان ، فهو بمنزلة الحصى من كريم الجواهر ويتيمها .

فكيف يصح لهؤلاء الدخلاء على العرب والعربية ، الداخلين فى الإسلام من اليهود والنصارى أن يترجموا فصولا من التوراة ، ثم يدخلوها على القرآن ، ثم تجد مكانها آمنا مطمئناً فيه ؟

وهذه هى التوراة ، وهذا هو القرآن مرة أخرى !

اقرأ فصلا أو فصولا من التوراة ، ثم اقرأ سورة ، أو سوراً من القرآن فإنك تجد طعما غير الطعم ، ومذاقا غير المذاق ، فإذا حاولت أن تجمع هذا بذاك أو ذاك بهذا ، وإن تزاوج بينهما وجدت أمراً غير مستقيم لك ولا مطاوع لصنيعك ... كمن يؤلف بين أنغام تخرج على غير اتفاق أو ترتيب ... أنغام مختلفة المقامات ، والاتجاهات فانه على فرض أن التوراة — بعهديها القديم والجديد — هى التوراة التى نزلت على موسى ، وهذا ماتنقضه شواهد التاريخ ، ويشهد به حال التوراة ذاتها — على فرض صحة التوراة وأنها والقرآن يخرجان من مشكاة واحدة، فان أسلوب الأداء تختلف أشد الاختلاف كاختلاف اللغة العامية الدارجة، ولغة الشعر فى أعلى طبقاته أو هو أشد .

فالذى يقول : إن فصولا من التوراة قد أضيفت إلى القرآن فزادته رونقاً وجمالا ليس أكثر تجنياً على الحقيقة ، ولا أشد نكراً فى القول ممن يقول : إن فصولا من قصة أبى زيد الهلالى أو سيف بن ذى يزن قد أدخلها شوقى كما هى

بحالها فى روايته : « عنترة » أو « مجنون ليلى » !! وشتان بين الحالين .. هناك وهناك .

وشبيه بهذا القول — من حيث الإسفاف والسقوط فى مجال البحث العلمى — مايقوله المؤرخ البيزنطى « ثيوفانيز » الذى نقلنا بعض آرائه آنفاً ...

فقد ألف هـــذا المؤرخ كتابا سماه « حياة النبى » . وكان مرجعاً هاماً — كما يقول . « جرونيباوم » لمن تلاه من الكتاب الغربيين !

يقول هذا المؤرخ : « ولما كان « محمد » المذكور فقيرا ، ويتيما ، فانه قرر أن يربط نفسه بامرأة ثرية من ذوى قرباه ، هى خديجة ، بأن جعل نفسه وكيلا لها ، لقاء أجر يتناوله ، يتولى شئون إبلها ، ويقوم بأشغالها فى مصر[1] وفلسطين !! « ولم يمض طويل زمن حتى فاز برضا السيدة — وكانت أيماً — بفضل طرائقه الصريحة . فاتخذها زوجاً له ، وبذلك حصل على إبلها ، وسائر ممتلكاتها » !!

وندع هذا التلفيق من القول فيما ينسب إلى النبى من تطلعه إلى المال ، ومن استيلائه على إبل السيدة خديجة . وسائر ممتلكاتها ، ويكفى أن يحصى خصوم الإسلام الذين ينظرون هذه النظرة إلى « محمد » — يكفى أن يحصوا تركة هذا النبى ، وما خلفه وراءه لذريته وأهله ! لقد توفى صلى الله عليه وسلم ودرعه مرهونة عند يهودى فى حاجة أهله ! . أفهذا شأن من فى نفسه أثارة لحب المال والثراء ؟ أفهذه تركة من تعلق قلبه بحب المال وجمعه ، وقد فتح الله عليه البلاد ، وأفاء إليه الخير الوفير من فيئها !؟

قلنا : ندع هذا .

فلندعه إلى قول آخر لهذا المؤرخ ، بعد هذا القول .

يقول :

« وقد اختلط — أى محمد — فى فلسطين باليهود والمسيحيين . وبواسطتهم حصل على بعض الكتب المنزلة !!

---

(١) لم يكن للرسول الكريم رحلة إلى خارج الجزيرة العربية غير رحلته إلى الشام .. مرة وهو غلام مع عمه أبى طالب ، ومرة فى قافلة قريش فى تجارة للسيدة خديجة ، ولم يكن لمصر هذا الشرف برحلة النبى اليها فى تجارة أو غير تجارة .

ثم ماذا ؟

« وأصيب كذلك بمرض عصبى ! !

« فلما علمت زوجته بأمره حز فى نفسها ـ وهى العريقة الأصل ـ أن قد أصبحت اليوم مرتبطة بإنسان لا يقتصر أمره على أنه فقير . بل هو أيضاً مريض ! !

« فراح يهدئها بقوله : إنى تلم بى رؤية ملك من الملائكة اسمه « جبريل » ولما كنت لا أقوى على تحمل مرآه ؛ فإنى تخور قواى ، وأقع على الأرض !

« وكان يقيم بتلك النواحى راهب قد نفى لكفره . واتخذته صديقاً(١) ، فأخبرته خديجة بكل شىء ، كما أبلغته اسم الملاك .

« وأراد الراهب أن يقنعها تماماً ، فقال لها : لقد قال الصدق ، فما ذلك الملاك إلا الناموس الذى يرسل إلى النبيين كافة(٢) » .

تهمتان هنا أراد هذا المؤرخ ـ الذى لم يحترم حرمة التاريخ ـ أن يرمى بهما نبى الإسلام ؛ وذلك لينفذ إلى غرض آخر خبيث ؛ وهو أن القرآن إنما هو هذيان تفيض به نفس محمد ؛ ويتحرك به لسانه فى نوبات الصرع ؛ وأن هذا الهذيان إنما هو من أخلاط ما وقع عليه فى الكتب المنزلة التى استجلبها معه من فلسطين .

ولم يجىء هذا المؤرخ بجديد ؛ بل أخذ هذا القول عن كفار قريش ؛ واتهامهم لرسول الله بأنه ساحر أو مجنون . وبقولهم « إنما يعلمه بشر ! » .

وقد سجل القرآن الكريم هذه المزاعم الباطلة ، وكبت قائليها .. ثم لم يمض إلا زمن قليل حتى زالت العداوة عن قلوب كثير منهم ، فاهتدوا إلى الحق ، ودخلوا فى دين الله !

---

(١) يشير إلى ورقة بن نوفل ، وهو قرشى ، يمت إلى السيدة خديجة بقرابة قريبة .

(٢) حضارة الإسلام ص ٦٧

وإذ يذكر القرآن الكريم تلك المزاعم الباطلة ، فإنما ليسجل على أصحابها هذا الادعاء ، ثم ليفضحه ، ويفضحهم معه ، على مدى الأزمان المتطاولة !

فإذا حكى القرآن قولهم . « إنْ تتبعون إلاّ رجلاً مسحوراً [١] » وقولهم: يَاأيُّها الذي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إنَّكَ لمجنُونٌ [٢] » ردّ عليهم بقوله : « ن . وَالقَلَمِ وَمايَسْطُرُون ، ما أنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ . وإنَّ لكَ لأجْراً غَيْرَ مَمْنُونٍ ، وإنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ [٣] » ! وليس بعد هذا مقام يرتقي إليه بشر !

وإذا ذكر القرآن قولهم : « وقالوا أساطير الأولين اكتتبها فهي تملى عليه بكرة وأصيلا . .[٤] » رد عليهم بعدها بقوله تعالى : « قل أنزله الذي يعلم السر في السموات والأرض .. إنه كان غفوراً رحيما[٥] » وإذا قالوا : « إنما يعلمه بشر[٦] » رد القرآن بقوله : « لسان الذي يلحدون إليه أعجمي وهذا لسان عربي مبين[٧] » .

ومع هذا فكيف يحتمل التاريخ ـ إن احتملت الحياة ـ رجلا مجنونا ، يخلط القول ، ويهذي به ؟ ثم كيف تقبل الأجيال المتتابعة هذيان مجنون،وشريعة مخبول ؟ أهذا يقع في الحياة ، وفي الناس من يعقل ، ويعي ؟ اللهم إن ذلك لا يكون حتى تنقلب الأوضاع في الحياة ، ويصبح المجانين على رأس القافلة !

فهل انقلبت أوضاع الحياة حقاً ؟

نعم !!

ويقولها صريحة أحد مسيحيي القرن العاشر الميلادي .. إذ يقول :

« عندما شاهد ذلك الراهب الفاسق[٨] سذاجة القوم رأى أن يمنحهم عقيدة وشريعة على غرار مذهب « آريوس » وغيره من ألوان الكفر والزندقة التي حرم من أجلها !

---

(١) سورة الإسراء آية ٤٧ (٢) سورة الحجر آية ٦ (٣) سورة القلم آيه ١ ٤
(٤) سورة الفرقان آية ٥ (٥) سورة الفرقان آية ٦ (٦) النحل ١٠٣
(٧) سورة النحل آية ١٠٣
(٨) هناك راهبان التقى بهما النبي ، بحيرا « الراهب » في رحلته إلى الشام وقد ألم به ساعة أو بعض ساعة ، وورقة بن نوفل وهو ابن عم السيدة خديجة ، وكان يقيم بمكة ، ولعله المقصود هنا

« فراح يسطر كتابا هو الذى يسمونه القرآن ؛ وهو شريعة الله ، ناثراً فيه كل ما أودع من مروق . . فعلم فيه أن الله لا كلمة ، ولا روح ، وأن المسيح لم يكن رباً ، وإنما هو نبي كبير وحسب . .

« وجمع فيه - أى القرآن — شتات قدر ضخم من أمثال هذه الترهات !

« وعند ذلك أعطى كتابه لتلميذه « محمد » ، وأبلغ أولئك البلهاء أن ذلك الكتاب أنزل على « محمد » من السماء ، حيث كان فى حفظ « جبريل » الملك ، فصدقوه بما قال ، وبذلك مكن الراهب لذلك القانون الجديد ! »(١) .

من الخير ألا نقف عند هذا القول ، ولا نلتفت إليه . . ! فقد وقفنا أكثر مما ينبغى عند هذه المقولات الهزيلة المريضة . . التى ربما ينضح على النفس بعض صورها المنكرة ، كما يقع ذلك لمن يكثر مخالطة المجانين ، ويستمع إليهم . . فلقد كادت تندس إلىّ خواطر مضللة من هذا الخلط العجيب من القول . وكدت أسأل نفسى . وماذا لو وقع هذا ؟ ألا يجوز أن يؤثر الأستاذ تلميذه ويقدمه على نفسه ، فيعطيه ثمرة عقله ، وعصارة قلبه ؟ وهل احتفى الإيثار من هذه الدنيا ؟ لا ، إن الدنيا بخير !

وما أن صحوت من هذا الكابوس المجنون حتى انتزعت نفسى انتزاعاً من هذه الهوة المظلمة ، وأسلمتها إلى الواقع المحسوس !

إن « ورقة بن نوفل » قد مات بعد قليل من بعثة النبى . لم يشهد أحداث الدعوة ، ولم يدرك وقائعها ، فكيف يضمن القرآن الذى وضعه بين يدى « محمد » — كيف يضمنه أحداثا لم تقع إلا بعد أن مات وصار ترابا فى التراب ؟ كيف يذكر هذه الأحداث التى كان ينزل بها الوحى فى حينها محددة الزمان والمكان . .

فهذه غزوات النبى مثلا . بدر ، وأحد ، والأحزاب ، وحنين . . إنها مشاهد حية وقعت بين النبى والمسلمين من جهة ، وبين أعداء النبى والاسلام من جهة ، وقد سجل التاريخ أحداثها من أوثق المصادر ، بعد أن ذكرها القرآن فى حينها ،

---

(١) حضارة الإسلام ص ٦٨ .

وشرع للمسلمين منها أحكاماً ، وكشف لهم عن كثير من خفايا هذه المواقع وما أصاب المحاربين من نصر أو هزيمة .

فهل كان قس بن ساعدة شاهد هذه المعارك فى بدر ، وأحد ، والأحزاب وحنين ؟ لقد طواه الموت — كما قلنا — قبل ذلك بزمن غير قليل . . فكيف إذن يذكرها فى القرآن الذى وضعه لمحمد ؟

ثم هذه الأحداث التى وقعت من اليهود فى المدينة ، والمكائد التى كادوا بها للنبى وللمسلمين . . لقد ذكر القرآن بشىء غير قليل من التفاصيل ما كان من اليهود ، وما نزل بهم من عقاب . . فهل شهد « ورقة » هذه الأحداث ؟ وهل شهد « ورقة » حديث الإفك ؟ وهل شهد واقعة ابن أم مكتوم وإعراض النبى عنه ؟

إن القرآن قد نزل منجماً فى ثلاث وعشرين سنة ، فجعل تشريعاته وأحكامه فى مواجهة الأحداث التى وقعت خلال هذه المدة ليرى الناس الشواهد العملية لأحكام الشريعة ، فيكون ذلك شرحاً للنص ، وتطبيقا له ، وشاهداً به . . وفى هذا ما فيه من تمكين لأحكام الشريعة فى قلوب الناس وعقولهم . . !

وأكثر من هذا ، فإن الكفار والمشركين كانوا يأخذون على النبى أنه لم يجئهم بالقرآن جملة واحدة ، كما كانت الكتب السماوية تنزل من قبل ، فذكر القرآن قولهم هذا فى قوله تعالى : « وقال الذين كفروا لولا نزل عليه القرآن جملة واحدة ! ! » (١) ثم رد عليهم بقوله تعالى . « كذلك . . لنثبت به فؤادك ، ورتلناه ترتيلا ، ولا يأتونك بمثل إلا جئناك بالحق وأحسن تفسيرا » (٢) ! !

فكيف يتفق هذا الذى كانت تطلبه الكفار من النبى وهو أن يجيئهم بالقرآن جملة واحدة ، وهو يجيئهم به آية آية ، أو سورة سورة — كيف يتفق هذا مع القول بأنه تناول القرآن مرة واحدة من « ورقة بن نوفل » ؟

وصدق رسول الله إذ يقول : « إذا لم تستح فاصنع ماشئت » ! فلو كان هناك بعض الحياء فى تلك الوجوه التى لا يخدش حياءها شىء لما بلغت الجرأة إلى حد التحدى الصريح للحقائق السافرة ، التى يشهدها الناس ، ويرونها رأى العين !

---

(١) سورة الفرقان آية ٣٢ (٢) سورة الفرقان آية ٣٣ .

مع الجادين والمنصفين :

على أن من العزاء للنفس ، من هذا السخف الذى يصادفه المرء وهو يقلب آراء الدارسين لشخصية الرسول من علماء الغرب – أن يجد فى بعض هذه الدراسات عمقا ، وجدا ، ومقصداً إلى الحق ، وإن كانت تظهر فى أحوال كثيرة بعض النفثات المسمومة التى تعبر عن أحقاد قديمة متوارثة للإسلام ولنبى الإسلام – كذلك نجد دراسات كثيرة من بين هذه الدراسات قد تحرر أصحابها تماما من العصبية والهوى ، فوضعوا النبى بمكانه اللائق به ، وأحلوا الإسلام بالمنزلة الجدير بها .

فإذا خرجنا من هذا الجو الخانق ، جو الكراهية ، والحقد ، والكذب ، والبهتان ، إلى هذا الجو النقى ، انطلقنا فيه لحظات قصيرة نبلغ بها ما نشاء ، حيث لا نقف عند تلك الحفر والأخاديد ، التى كانت تلقانا فى جولتنا مع تلك الجماعة الضالة المضللة !

لهذا فإنا سنكتفى بالتقاط بعض الثمرات الطيبة من آراء أولئك العلماء المحصين المنصفين ، دون أن نعرض لها بالتعليق أو الشرح . فهى فى ذاتها فى غنى عن التعليق والشرح !

لامارتين :

يقول « لامارتين » شاعر أوربا العظيم ، فى كلمات قليلة بليغة ، مشحونة بعاطفة مشبوبة من الإجلال والإكبار لنبى الإسلام ، ولما أقام فى الأرض من معالم الحق والخير . .

يقول :

« إنه – أى محمد – نبى أصغر من إله ، وأكبر من إنسان » !

وهذا على ما فيه من حق ، فإن فيه من المغالاة ما لا يقول به مسلم فى حق النبى . . فإنه مهما يكن شأن النبى من السمو والكمال ، فإنه لا يقاس إلى جانب كمال الله وعظمته ، ولكن الرجل شاعر جمح به خيال الشعراء ! !

ويقول الفيلسوف الألمانى العظيم « جيته » ، وهو يستعرض الدين الإسلامى بوصفه قوة مهذبة ، ومؤدبة . ،

يقول مخاطباً « أكرمان » : أنت ترى أن هذا التعليم لا يخفق أبداً . . ونحن — بكل مالنا من نظم — لا نستطيع ، بل أقول بوجه عام — إن أحداً من البشر لا يستطيع أن يذهب أبعد من هذا : (١) .

فهذا قول فيلسوف غزا العالم بفلسفته ، ولقح العقل الحديث بآرائه !

ول ديورانت :

وهو صاحب الموسوعة التاريخية « قصة الحضارة فى العالم » وقد كان موقفه فى هذا الأفق العالى الذى يطل منه على البشرية كلها — كان ذلك الموقف باعثا له على أن يقتل فى نفسه كثيرا من دواعى العصبية والهوى ، فجاءت نظراته وأحكامه قريبة من مواقع الحق والعدل . . وحسب السيرة النبوية أن تجد من يقف منها موقفا محايدا : فإنه عندئذ سيعود بمغنم عظيم من المثاليات التى يرفعها للناس ، منارات للهدى ، ورزايات للحق والعدل .

يقول « ول ديورانت » :

« وإذا حكمنا على العظمة بما كان للعظيم من أثر فى الناس — قلنا إن محمداً كان من أعظم عظماء التاريخ . فقد أخذ على نفسه أن يرفع المستوى الروحى ، والأخلاقى ، لشعب ألقت به فى دياجير الهمجية وحرارة الجو ، وجدب الصحراء . وقد نجح فى تحقيق هذا الغرض نجاحا لم يدانه فيه أى مصلح آخر فى التاريخ كله .

« وقل أن نجد إنسانا غيره حقق كل ما كان يحلم به(٢) .

« وقد وصل إلى ما كان يبغيه عن طريق الدين . . ولم يكن ذلك لأنه

---

(١) تجديد التفكير الدينى الإسلامى ص ١٩ .

(٢) لم يكن النبى من أصحاب الأحلام ، وإنما كان مبعوث ، يحمل رسالة سماوية ، ومطلوب منه أن يؤديها على أكمل وجه .

هو نفسه شديد التمسك بالدين وكفى ، بل لأنه لم يكن ثمة قوة غير قوة الدين تدفع العرب فى أيامه إلى سلوك ذلك الطريق الذى سلكوه ! فلقد لجأ إلى خيالهم ، وإلى مخاوفهم ، وآمالهم ، وخاطبهم على قدر عقولهم ؟

« وكانت بلاد العرب لما بدأ الدعوة صحراء جدباء ، تسكنها قبائل من عبدة الأوثان ، قليل عديدها ، متفرقة كلمتها ! . . وكانت عند وفاته أمة موحدة متماسكة . . وقد كبح جماح التعصب والخرافات . . . وأقام فوق اليهودية والمسيحية ، ودين بلاده القديم : ديناً سهلا واضحاً ، وصرحاً خلقياً قوامه البسالة والعزة القومية !

« واستطاع فى جيل واحد أن ينتصر فى مائة معركة ، وفى قرن واحد أن ينشىء دولة عظيمة . وأن يبقى إلى يومنـــا هذا قوة ذات خطر عظيم فى نصف العالم(١) » .

هكذا يقول فى الاسلام ، وفى نبى الاسلام ، كل منصف : مسلما كان أو غير مسلم ، لأن ذلك هو الحق الذى لا يتغير وجهه أبداً ، إذا استقبلته قلوب سليمة ، وعقول واعية مستبصرة !

ويقول . ول ديورانت » أيضا عن حياة حياة النبى « محمد » :

« وكانت حياة « محمد » فيما عدا النساء والسلطان(٢) غاية فى البساطة . . فقد كانت المساكن التى أقام بها واحداً بعد واحد كلها من اللبن . . لا يزيد اتساعها على اثنتى عشرة أو أربع عشرة قدما ، ولا يزيد ارتفاعها عن ثمانية أقدام : وسقفها من جريد النخل ، وأبوابها من شعر المعز : أو وبر الجمل . أما الفراش فلم يكن أكثر من حشية : تفرش على الأرض ، ووسادة من ليف .

---

(١) قصة الحضارة المجلد الثانى — الجزء الرابع ص ٤٧

(٢) حياة النبى كلها نسق واحد من البساطة والاعتدال ، ونظرة الغربيين عموماً إلى النبى وإلى الشريعة الاسلامية فى شأن تعدد الزوجات نظرة خاطئة ، وقد عرضنا لها فى فصل خاص من هذا الكتاب . . أما السلطان الذى يستثنيه المؤرخ من البساطة التى كانت عليها حياة النبى فإنه سلطان روحى ، لادخل للقوة المادية ، ولا المظاهر الدنيوية فيه .

« وكثيراً ما كان يشاهد وهو يخصف نعليه ، ويرقع ثوبه ، وينفخ في النار ؛ أو يكنس أرض الدار ؛ أو يحلب عنزة البيت في فنائه ؛ ويبتاع طعامه من السوق ؛ وكان يأكل طعامه بيده ، ويلعق أصابعه ! !

« وكان طعامه الأساسي التمر وخبز الشعير : وكان اللبن وعسل النحل كل ما يستمتع به من الترف في بعض الأحيان . . »(١) .

ثم يقول أيضاً :

« ولم يتعاط الخمر التي حرمها هو(٢) على غيره؟ . . وكان لطيفاً مع العظماء ؛ بشوشاً في وجه الضعفاء . . . عظيماً مهيباً أمام المتعاظمين المتكبرين . . متسامحاً مع أعوانه — ومع الناس جميعاً — . . يشترك في تشييع كل جنازة تمر به . . ولم يتظاهر قط بأبهة السلطان . . وكان يرفض أن يوجه إليه شيء من التعظيم الخاص . . يقبل دعوة العبد الرقيق إلى الطعام ؛ ولا يطلب إلى عبد أن يقوم له بعمل يجد لديه من الوقت والقوة ما يمكنه من القيام به بنفسه .

« ولم يكن ينفق على أسرته إلا القليل من المال ؛ رغم ما كان يرد إليه من الفيء وغيره من الموارد .. أما ما كان ينفقه على نفسه فقد كان أقل من القليل » ؟

« وكان صوته موسيقياً حلواً يأسر القلوب ، وكان مرهف الحس إلى أقصى حد . لايطيق الروائح الكريهة . ولا صلصلة الأجراس ، ولا الأصوات العاليـــة » .

« ولكن لعله كان يشعر بأنه بهذه التضحية القليلة جعل كل تشريعاته تصطبغ بالصبغة الدينية الرهيبة (٣) .

---

(١) أهذه حياة أصحاب السلطان ؟ وكيف يقوم سلطان في صورة حياة متواضعة كهذه الحياة ؟ إن يكن سلطان فهو سلطان روحي كما قلنا ، لايفرضه صاحبه على الناس بمظاهر الترف ، ولا قوة الجند ، وإنما تفرضه أخلاقه ، وما يشع منها .

(٢) إن الذي حرم الخمر هو الله في كتابه الكريم ، وإن كان النبي قد حرمها على نفسه بفطرته قبل البعثة .

(٣) قصة الحضارة جزء ٢/ المجلد الرابع ص ٤٢ .

ستانلى لين بول :

يقول هذا العالم الفيلسوف عن القرآن :

« إن أسلوب القرآن فى كل سورة من سوره أسلوب أبى ، يفيض عاطفة وحياة .

« إن الألفاظ ألفاظ رجل أخلص للدعوة ، وإنها لا تزال حتى الآن تحمل طابع الحماسة والقوة ، وفى ثناياها تلك الجذوة التى ألقيت بها إنها ألفاظ قدت من قلب إنسان يستحيل أن يكون منافقا ، وهذا القلب قلب رجل كان له أخطر الشأن فى تاريخ الإنسانية »(١) .

فوستيل دوكو لانتر :

يقول هذا المؤرخ الفرنسى ، فى الفصل الثانى من كتابه « التمدن القديم » :

«لم يتداخل المسيح بأى وجه من الوجوه فى أمور القضاء ، والتملك والإرث، ومايخص المدنية من الأحكام ، ليعلم العالم بأن ابتداء المدنية الجديدة والحياة الجديدة ، والتربية الصحيحة ، سيكون من مدينة علم الإسلام، الذى سيجعل العالم أهلا للعلم والمدنية » .

بار الهى سنت هيلر :

يقول فى كتابه ترجمة القرآن : وهو يتحدث عن حال قومه الأوربيين :

« لقد أصلحت مفاسد أمرائنا وأشرافنا فى القرون الوسطى ، بمباشرة المسلمين ، وتقليدهم ، واقتبس فى أسلافنا من المسلمين الآداب الحسنة ، والأخلاق والصفات الجميلة ، والسجايا المحمودة »(٢).

جوستاف لوبون :

يقول هذا المؤرخ الكبير :

« لقد أثر التمدن الإسلامى على العالم تأثيراً كبيراً للعقول ، ونفوذ الأخلاق

---

(١) محمد رسول الله — تأليف ايتين دينيه ترجمة الدكتور عبد الحليم محمود

(٢) ونقول : لقد أصبحنا نأخذ عن الغرب ، كل خلق مرذول ، وكل صفة ذميمة . فهل لنا من عودة الى منابع ديننا الحنيف ؟

الإسلامية وتربيتها قد أدخلت الأمم الأوربية الوحشية التى كانت تقلق راحة السلطة الروحية ، فى طريق التمدن . ولقد فتحت أفكار المسلمين الجبارة ، أبواب العلوم والفنون والفلسفة ، التى كان الأوربيون فى جهل عنها ، وكان المسلمون أساتذتنا طوالى ستمائه سنة » .

كارليل :

ويقول الشاعر والأديب العظيم كارليل :

« إن القرآن هو التشريع الأساسى ، لكل زمان ومكان ، ومعدن القضاء ، وقوانينه المتبعة فى شئون الحياة ، لتهدى وتنير الطريق لأتباعه ، فيجب على كل عاقل أن يفكر فى آياته الحكيمة ، ليخلص بنوره من ظلمات الحياة » .

وليم هيود :

يقول هذا العالم الكبير فى كتابه المسمى « حياة محمد » .

« إن القرآن ممتلىء بأدلة من الكائنات المحسوسة ، والدلائل المتعلقة على وجود الله ، وأنه هو الملك القدوس ، وأنه سيجزى المرء بعمله إن خيراً فخير ، وإن شراً فشر ، وإن اتباع الفضائل واجتناب الرذائل فرض على العالمين ، وإن الواجب على كل مكلف أن يعبد الله تعالى ، وهى — أى العبادة — علة سعادته » .

سمورث اسمث :

ويقول هذا العالم فى كتابه « حياة محمد » أيضاً :

« إن محمداً لمؤسس أمة ومملكة وهداية وهذا أمر لم يوجد له سبق من قبل ، ولن يوجد وهو أمى » لا يعرف القراءة والكتابة ، وقد جاء بكتاب مشتمل على دستور الشرائع والعبادات وأخبار الأمم ، وهو نقى العبارة من الألفاظ المستهجنة ، باهر الحكمة والحقائق ، وهو معجزة له ، والحق يقال : إنه لمعجزة » .

* * *

وهذا بعض ما تنطق به أفواه قوم قد رضعوا من صغرهم كراهية الإسلام، وامتلأت رءوسهم بالمفتريات الكثيرة عليه .. ومع هذا فقد نفذوا ببصائرهم إلى شيء من حقائق الإسلام، فبددت ما كان قد لفها من ظلام، فشهدت شهادة الحق في رسول الله . وفي كتاب الله .

ثم ما قولنا نحن في رسول الله ، وفي كتاب الله ؟ ثم ما مدى ما تطوله أيدينا من هذا الخير العظيم الممدود لنا ؟

* * *

ونقف عند القدر من الآراء المنصفة للسيرة النبوية ، وللرسالة التي حملها النبي إلى الناس .. !

وقد تركنا كثيراً من المفهومات الخاطئة لطبيعة النبوة ، ولرسالة النبي التي وقع فيها كثير من هؤلاء العلماء ، على الرغم مما كان عندهم من استعداد طيب — حسب رأينا فيهم — للبحث عن الحقيقة في غير هوى أو عصبية .. ذلك أننا لانحاسبهم هنا على عقيدتهم الدينية ، فهم — أي أكثرهم — لايعتقدون في الأديان جميعاً ولا يؤمنون بما وراء المادة ..

ونظرتهم إلى الأنبياء نظرة قائمة على أنهم أصحاب دعوات إصلاحية نابعة من أنفسهم وليس بينهم وبين العالم العلوى صلة .. وكذلك كانت نظرتهم إلى « محمد » يرونه مصلحاً اجتماعيا عظيما ، وإنسانا على مستوى عال من الخلق والعقل

وإذا كنا لانسلم لهم بهذا ، كما لا يسلم لهم الواقع التاريخي ؛ ولا يسمح به منطق الحياة التي دخل عليها الأنبياء برسالاتهم — فإننا نحمد لهم أنهم دفعوا كثيراً من هذه التهم الباطلة التي ولدها الحقد والكراهية في تلك القلوب المريضة التي تحمل للإسلام ولأهله بغضة موروثة — فقد أكد هؤلاء الكتاب الأحرار الحقائق المقررة عن نبي الإسلام ؛ وعن رسالته ، ونفوا عن حمى نبوته تلك الأكاذيب الزائفة التي كانت تزحف عليها من متعصبة الصليبيين من الكهنة والحكام ؛ والعلماء ..

فقالوا عن « محمد » ما قال التاريخ فيه ؛ وهو أنه أعظم إنسان عرفته الحياة ؛ وأن شريعته أكمل شريعة ظهرت بين الناس .

ويكفي أن نعيد هنا قولة « لامارتين » الشاعر الأوربي الكبير عن النبي الكريم ... يقول : « إنه نبي أصغر من إله ؛ وأكبر من إنسان ! »

دعوات الحق ؛ ونزوات الباطل :

وإذ كان لكفار قريش أن يلقوا النبي بالتكذيب ، ويرمونه بالتهم ، ويقولون عنه فيما يقولون : إنه شاعر ؛ وإنه لمجنون ؛ أو إنه مدع كذاب - إذا كان لهم أن يقولوا هذا في النبي ؛ وأن يضلوا عن وجه الحق فيه أول ما يلقاهم بأمره ؛ وأنه تأخذهم الدهشة لهذا الأمر فيكذبون إنسانا عرف بينهم بالصدق ؛ ويتهمون رجلا لقبوه بالأمين ، ولم يحاولوا أن يربطوا بين حاضره وماضيه ، وأن يوازنوا بين الحق الذي يدعوهم إليه والباطل الذي هم فيه - نقول إذا كان لقريش أن تقف هذا الموقف من النبي أول الأمر ؛ وقبل أن تثبت الأيام سلامة موقفه ، وصدق دعواه - فإنه لا ينبغي لأحد له مسكة من عقل ؛ أو أثارة من وعي أن يماري في رسالة « محمد » الآن وأن يشك في صدقه ، وفي نبوته ... !

فلقد انفسح الزمن لهذه الرسالة ، وعاشت في الحياة قرونا متتابعة ، ونزلت من قلوب الملايين من الناس وعقولهم منزلة الإيمان ، فعاشوا فيها ، وخضعوا لها وجرت حياتهم عليها ... ثم هي مع هذا تزداد على الأيام ألقاً ، وإشراقا ، وتظهر في الأحداث والنكبات أنها الملاذ الذي يلاذ به ، والملجأ الذي يلجأ إليه .. ويختبر الناس أفراداً وجماعات وأمماً وجودها فيهم ، وحالها معهم ، فيجدون أمراً واقعاً لا يتخلف أبداً ، على اختلاف الأزمان والأوطان - يجدون أنهم إذا كانوا قائمين على هدى هذه الشريعة ، متصلين بها ، آخذين بأمرها ونهيها - استقام أمرهم ، وعلا في الحياة شأنهم ، وكانوا في الناس هامة وشامة ! .

وأنهم إذا بعدوا عن هذه الشريعة ؛ وفارقوا حماها عصفت بهم الأحداث ؛ وركبتهم الذلة ، وتخطفهم الناس ! .

فقد ـ عرف أصحاب الشريعة هذا ، وآمنوا عن تجربة وخبرة ، وعن شهادة التاريخ القريب والبعيد أنهم بقدر قربهم أو بعدهم من الشريعة الإسلامية يكون حظهم من الحياة ، وتكون مكانتهم بين الأحياء ! .

ذلك أمر لا يحتاج فى الاستدلال عليه إلى علم العلماء ، ولا إلى فلسفة الفلاسفة بقدر ما يحتاج إلى نظرة هادئة ، وقلب سلم من الحقـــد ، ليكشف عن مدلوله ، وليشهد شهادة لا ترد بأن الشريعة التى جاء بها محمد هى شريعة سماوية عامة ، جاءت لتكون الحكومة التى يحتكم إليها الناس على اختلاف أزمانهم وأوطانهم ! .

إن كفار قريش كانوا أكثر فقها ، وأحد بصراً ، وأصدق تقديراً من أولئك العلماء أو أدعياء العلم الذين يشككون فى نبوة محمد وفى رسالته التى جاء بها .

لقد دخل المعاندون ، والمكابرون ، والمكذبون من كفار قريش وغيرهم من العرب ـ دخلوا فى دين الله أفواجا بعد أن لبثوا بضع سنوات يرقبون سير الدعوة ، وسيرة صاحبها ... فلما استبان لهم أنهم فى وجه نبوة ، وأنهم مع رسالة سماوية ، ألقوا عن أعينهم غواشى الكبر ، والحمية ، فانحلت عقدة ألسنتهم وشهدوا أن الرسول حق ، وأن ما جاءهم هو الهدى المنزل من رب العالمين .

فمن عجب أن يلبث هذا الضلال الذى كان محوما فى عقول من كذبوا النبى أول أمره ـ من عجب أن يلبث هذا الضلال متوارثاً ، يتلقاه الأخلاف عن الأسلاف . .

إن عصر العلم الذى نعيش فيه إنما قام على كشف حقائق الوجود ، وتجلية غوامضها ، كما قام على وضع هذه الحقائق بمكانها اللائق فى مناهج الحياة . والشريعة الإسلامية ، ونبى هذه الشريعة أبرز وأوضح ما عرفت الحياة من حقائق .

وشريعة الإسلام ونبى الإسلام يقفان من العلم موقفا صريحا واضحاً ؛ كما تقف ظواهر الطبيعة فى أجلى صورها ، لا يحجبهما كهنوت ، ولا يقوم عليهما سدنة ؛ فلكل ذى بصر ، ولكل ذى بصيرة أن تملأ عينيه بهما ؛ وأن يرود بصيرته فيهما ، وليس يضير المعدن الكريم أن تتناوله أيدى الخبراء ، وأن تبلوه بما لديها

من وسائل الاختبار ، فإن ذلك المساول ، وهذا الابتلاء هو الذى يبين عن حقيقته ، ويجلى عن كرم معدنه !!

أما المعادن الرخيصة ، أو الزائفة فإنها تنكسف . ويفتضح عوارها عند الحك والاختبار ؟

فمن التجنى المفضوح أن يقول قائل فى نبى الإسلام إنه أقام دولته على الخداع والختل ، أو نشر دعوته بالقوة والسيف .. فان هذه كلها وسائل زائفة ، لا تتماسك جذورها ، ولا تخضر أعوادها ، ولا يبزغ لها زهر ، ولا يينع منها ثمر ..

والإسلام قد عمقت فى الحياة جذوره ، وامتدت وسمقت فروعه ، ونضرت أعواده ، وتفتحت أكمامه ، وطابت مغارسه وثماره .

وهذا فيصل ما بين الحـــق والباطل فى كل أمر ، وفى كل شأن من شئون الحياة المادية والروحية على السواء ! .

الكريم والأصيل من كل شىء يحيا ، ويمتد فى الحياة ! .

والخسيس الدخيل من كل شىء .. دخيل على الحياة . . . أشبه بالسراب « يحسبه الظمآن ماء حتى إذا جاء لم يجده شيئاً » .

ولله شوقى ، إذ يقول :

الجهل لا يلد الحياة مواته	إلا كما تلد الرمام الدودا
لم يخل من صور الحياة ، وإنما	أخطاه عنصرها فمات وليدا

وصدق الله العظيم إذ يقول سبحانه: « فأما الزبد فيذهب جفاء ، وأما ماينفع الناس فيمكث فى الأرض[١] » .

النبى والمتنبى :

يقول « كارليل » فى كتابه « من الأبطال » :

أيستطيع رجل مخادع أن يؤسس دولة ؟

---

(١) سورة الرعد آية ١٧

ويجيب :

« كلا ، وربي !

« إن رجلا مخادعا لايستطيع أن يقيم بيتاً من آجر ... إنه إن لم يكن عليما بخواص الطوب . والمونة ، وسائر مواد البناء الأخرى لمااستطاع أن يقيم بيتاً... ولن يقيم — إذا أقام — إلا أكواما منقضة ، لايمكن أن تقوم اثنى عشر قرنا(١) . تضم بين جدرانها مايربو على مئة وثمانين مليونا(٢) من الناس .. إن بناءالمخادع ينهار لاشك لساعته(٣) » .

إن هذا القول الوجيز البليغ هو تلخيص أمين دقيق لقضية الباطل فى تلبيسه بالحق، وتزييه بزيه . إن البناء الذى يقوم بيد الحق بناء راسخ مكين ، يزداد على مر الأيام رسوخا وتمكينا ، وليس كذلك ما يبنى الباطل، وما يقيم من معالم... إنه بناء متداع ، تسرى فى أوصاله حمى الفناء منذ اليوم الأول الذى يقوم فيه .

يقول « جان جاك روسو » فى كتابه « العقد الاجتماعى » :

« كل إنسان يستطيع أن ينقش كلمات على حجر ، أو يرشو كاهناً وثنياً ، أو يدعى اتصالا سرياً بأحد الآلهة ، أو أن يدرب طيراً ليهمس فى أذنه ، أو يجد وسيلة دنيئة للتمويه على الناس — إن من لايستطيع غير ذلك يكون فى وسعه أن يجمع حوله — صدفة — جماعة من الحمقى ، ولكنه لن ينشىء إمبراطورية أبداً.. وسرعان ما يختفى عمله الجاهل معه !

« إن المظاهر الجوفاء لا تنتج سوى صلات عابرة ، وليس هناك مايكفل لها الدوام سوى الحكمة !

إن الشريعة اليهودية ما زالت حية !

---

(١) بل قامت نحو أربعة عشر قرنا ، وستقوم ما بقيت الحياة ؛ وما بقى فيها من قرون .

(٢) إن من تضمهم جدران الشريعة الإسلامية اليوم أكثر من أربعمائة مليون من المسلمين .

(٣) محمد رسول الله ص ١٢٣ .

والشريعة الإسلامية التي حكمت نصف العالم مدى عشرة قرون(١) ، ما برحت حتى اليوم تعلن عن عظمة أولئك الذين وضعوها(٢) ، وقد لا يرى فيهم أولئك الذين أعمتهم الكبرياء الناجمة عن الفلسفة ، أو روح التحيز العمياء ، سوى دجالين حسنى الحظ ؟

ولكن السياسة الحسنة تعجب في أنظمتهم بتلك العبقرية العظيمة القادة التي تتصدر المنشآت الخالدة(٣) » .

إنه لكي تنجح دعوة من دعوات الإصلاح لابد من أن تقوم على دعامتين:

الدعامة الأولى: هي سلامة الدعوة ، وملاءمتها للطبيعة الإنسانية ، وتجاوبها مع المشاعر السامية في الناس ، وتقديرها للضعف البشرى ، الذى يعجز معظم الناس عن مجاهدته ودفعه في أكثر الأحيان .

والدعامة الثانية : قوة الشخصية التي تتولى القيام على هذه الدعوة ، وشرح حقيقتها ، وتطبيق مبادئها .

فبقدر ما يكون في الدعوة من عناصر الحق والخير ، وعلى حسب ما يكون عند الداعى من طاقات روحية ، ونفسية ؛ يكون الثمر الذى يجنى من هذه الدعوة ، ويكون الخير الذى يصيب الناس منها .

ومن هنا كان ذلك النجاح العظيم الذى أحرزته الدعوة الإسلامية ، وكان هذا المحصول الوفير من الثمر الطيب الذى عرفته الحياة ، وسعدت به الأمم ! .

ومصدر الدعوة الإسلامية ليس هو « محمداً » وإن كان هو حاملها ، والقائم عليها ، والشارح لحقيقتها ! . فالدعوة الإسلامية ليست من صنع « محمد » ،

---

(١) ذلك في الوقت الذى كان يعيش فيه جان جاك روسو ، أما اليوم فقد مضى على الشريعة الإسلامية ما يقرب من أربعة عشر قرنا .

(٢) واضع الشريعة هو الله وحده ، وليست من وضع أحد ، كما يصر على ذلك معظم كتاب الغرب .

(٣) النقد الاجتماعي لجان جاك روسو ص ١٢٥ .

وليست من تفكيره وتدبيره . . إنها من صنع السماء ، ومن تدبير رب العالمين. أرسلها إلى الناس هدى ورحمة ، كما يرسل الغيث إلى البلد الجديب .

أما دور « محمد » فى تلك الدعوة فهو دور الزارع المجد الخبير بمواسم الزرع ، العليم بطبيعة النباتات . . . تلقى هذا الغيث الغدق فأقام له السدود ، وأجرى الجداول ، وشق الأرض ، وألقى البذر ، وظل قائماً على مازرع ، يحرسه من الآفات ، ويحميه من العاديات ، وينقيه من الحشائش الغريبة ، حتى يخرج شطأه ، ويستغلظ ويستوى على سوقه ، ثم يزهر ، ويثمر أطيب ما عرفت الحياة من ثمر .

هذا ما يقوله عالم متمكن ، ومؤرخ نصب نفسه لتاريخ الإنسانية كلها ـ يقوله فى « محمد » نبى الإسلام ، وفى الحياة التى كان يحياها ، والأثر الذى تركه فيها .

أما ما يقوله عن القرآن فهو أيضاً قول رجل منصف متمكن من موضوعه الذى بين يديه .

يقول « ول ديورانت » .

« والقرآن يبعث فى النفوس الساذجة ــ أى ذات الفطرة السليمة ــ أسهل العقائد ، وأقلها غموضاً ، وأبعدها عن التقيد بالمراسم والطقوس ، وأكثرها تحرراً من الوثنية والكهنوتية .

« وقد كان له أكبر الفضل فى رفع مستوى المسلمين الأخلاقى والثقافى ، وهو الذى أقام فيهم قواعد النظام الاجتماعى ، والوحدة الاجتماعية ، وحضهم على اتباع القواعد الصحية ، وحرر عقولهم من كثير من الخرافات والأوهام ، ومن الظلم ، والقسوة ، وحسن أحوال الأرقاء . . وبعث فى نفوس الأذلاء الكرامة والعزة ، وأوجد بين المسلمين درجة من الاعتدال والبعد عن الشهوات ، لم يوجد لها نظير فى أية بقعة من بقاع العالم يسكنها الرجل الأبيض .

« ولقد علم الإسلام الناس أن يواجهوا صعاب الحياة ، ويتحملوا قيودها ،

بلا شكوى ولا ملل ، وبعثهم فى الوقت نفسه إلى التوسع توسعاً كان أعجب ما شهد التاريخ كله .

« وقد عرف الدين ، وحدده تحديداً لا يجد المسيحى ، ولا اليهودى الصحيح العقيدة ما يمنعه من قبوله ! « ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ، ولكن البر من آمن بالله ، واليوم الآخر ، والملائكة ، والكتاب ، والنبيين ، وآتى المال على حبه ذوى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل والسائلين وفى الرقاب ، وأقام الصلاة ، وآتى الزكاة والموفون بعهدهم إذا عاهدوا ، والصابرين فى البأساء ، والضراء وحين البأس(١) » .

ثم يقول :

« ولم يعرف عن « محمد » أنه كتب شيئاً بنفسه ، ولكن هذا لم يحل بينه وبين المجىء بأشهر وأبلغ كتاب فى اللغة العربية ، أو بين قدرته على تعرف شئون الناس تعرفا قلما يصل إليه أرقى الناس تعليما(٢) » .

ومن نظرات « ول ديورانت » إلى القرآن قوله :

« لم يكن النبى مشرعا علمياً ، فلم يضع لأمته كتاباً فى القانون ، أو موجزاً فيه ، ولم يبن تشريعه على نظام مقرر(٣) ، بل كان يصدر الأوامر حسبما تمليه عليه الظروف ، فإذا أدى هذا إلى شىء من التناقض(٤) أزاله بوحى جديد ، ينسخ القديم ، ويجعله كأن لم يكن ؟ » .

* * *

(١) سورة البقرة : آية ١٧٧ .

(٢) قصة الحضارة جزء ٢ ، مجلد ٤ ص ٢٢

(٣) يلاحظ غالباً أن الفلاسفة الغربيين يضيفون إلى النبى القرآن الكريم ، ويجعلونه من وضعه هو ، لا وحيا أوحى إليه !

والحق إن « محمداً » لم يكن هو الذى رسم خطة التشريع السماوى للشريعة الإسلامية ، وإنما هى من صنع الله . نزلت أحكامها بتدبير سماوى ، فى مناسبات ربطتها بالحياة

(٤) لم يقع تناقض فى التشريع بحال أبدا ، وحاشا لله أن يناقض أحكامه ، ولكن التدرج فى التشريع — وذلك ضرب عال من التربية الحكيمة — اقتضى أن تجىء الأحكام فى خطوات متدرجة . . واحدة بعد أخرى .

هذا ، وقد تجتمع الدعوة والداعى فى كيان واحد ، فيكون القائم على الدعوة هو المنشىء لها ، والمفكر فيها والمصور لحقيقتها .. وهذا شأن الدعوات التى لا يقوم عليها أنبياء الله ورسله ! .

فالمصلحون الذين ظهروا فى الناس بآرائهم ، وأعمالهم فى مجال الحياة السياسية أو الاقتصادية ، أو الاجتماعية ، أو الفكرية ، أو الروحية ، إنما اعتمدوا على شخصياتهم ، وما فى كيانهم من قوى عقلية أو نفسية تدفعهم إلى ذلك رغبة فى الإصلاح ، أو منافع شخصية يجنون من ورائها جاهاً أو سلطانا !

وهذه الدعوات الإصلاحية المعتمدة على الجهد الإنسانى وحده دون أن تكون مستندة إلى السماء ، مهتدية بهديها ، موجهة بوحيها - هذه الدعوات تتسم بسمتين : (الأولى) أنها محدودة الزمان والمكان . . فإن صوتها مهما علا لا يجاوز مدى المجتمع الإنسانى الذى يعيش فيه صاحب الدعوة ، ولا يكاد ينفذ إلى ما وراء الحدود المكانية لهذا المجتمع ، إلا إذا كان فيه نغمة إنسانية يستشعرها الناس استشعارا فيه ، وأنه إذا قدر لدعوة من الدعوات أن تجاوز حدودها المكانية لمجتمعها فإنها لن تتخطى عصرها الذى ظهرت فيه ، وأنها إذا تخطت هذا العصر إلى الأعصار التى تليه فإن ظلها سينكمش حالا بعد حال ، حتى تتبخر مع الزمن وتصبح تاريخا من التاريخ .

(والثانية) من هاتين السمتين اللتين تتسم بها الدعوات الشخصية أنها لا تكاد تتجرد من الأهواء الذاتية ، ولا تكاد تنفصل عن الدوافع الشخصية ، بل كثيراً ما ينتهى أمرها إلى أن تكون هوى خالصاً ، فتوجه بكلياتها وجزئياتها إلى خدمة الداعى ، وتحقيق مآربه !

ومن الحق أن نقرر أن هذا أمر طبيعى ، فالناس هم الناس ، وحب الذات طبيعة غالبة فى كل إنسان ، مهما غالب فى نفسه هذه الطبيعة ، ومهما حاول أن يعلو عليها بالمثل العليا ، التى يترسمها فى الإيثار والتضحية وغيرها ، إنه سيبقى له مع كل هذا ذاته التى لا يمكن أن ينفصل عنها أبداً ، ولهذه الذات مطالب ونزعات لا تموت إلا بموته !

ومن هنا كان ذلك التعثر والتخطيط الذى يصحب الدعوات الإصلاحية القائمة على الإنسان وحده ، المنقطعة عن أمداد السماء .. إنها أشبه بمجرى النهر، قد ينبع من عين صافية رقراقة ، ثم بعد أن يخرج من منبعه يحتك بالجنادل والصخور ، ويتخلل الأعشاب والزروع ، فتعلوه الكدرة ، ويزايله صفاؤه الذى كان له !

أنبي أم عظيم ؟ :

ونعود مرة أخرى فنسأل : أمحمد نبي أم عظيم ؟ أى أكانت دعوته صادرة عنه ، كما تصدر الدعوات عن المصلحين والعظماء ، أم كانت دعوته تلك التى قام بها من نوع آخر غير تلك الدعوات التى تعتمد على الجهد البشرى وحده ؟

من اليسير الواضح أن نجيب على ذلك السؤال من غير تردد ، بأن دعوة « محمد » كانت شيئاً آخر غير دعوات المصلحين من القادة والزعماء ، وأرباب الإصلاح من غير رسل الله وأنبيائه .. !

فقد اتسمت دعوة « محمد » بسمتين حلت منهما أية دعوة من دعوات الإصلاح البشرى .. فامتدت فى الزمان والمكان إلى أبعد حد فيهما، ولا تزال الأيام بعد مضى نحو أربعة عشر قرنا ـ تزيد فى امتدادها . ونحن نعرف أن الدعوات البشرية تطرد اطراداً عكسياً فى امتدادها مع الزمن . . فكلما امتد بها الزمن انكمشت ، وتبخرت شيئاً فشيئاً . .

ثم من جهة أخرى قد خلت دعوة « محمد » من الدوافع الذاتية والأهواء الشخصية .. فلم يكن لمحمد فى هذه الدعوة شيء لحسابه الشخصى ، وإنما خلصت جميعها لحساب الحق والخير الذى ينفع الناس جميعاً . . من كل أمة ، وفى كل جيل !

هذه حقائق ثابتة الدعوة الإسلامية ، لا تحتاج إلى إقامة البراهين عليها ، ولا مظاهر الحجج لها . .

فما وقف سير هذه الدعوة منذ قامت . . ولا حال بينها وبين غاياتها حائل من حدود الزمان والمكان ! .

وما وقفت الدعوة الإسلامية من صاحبها - « محمد » عليه الصلاة والسلام - موقفاً مميزاً له ؛ أو مترضياً لمصلحة ذاتية عنده !

فهذه هي الدعوة تزداد مع الأيام رقعتها على الأرض ، ويزداد أنصارها ، وتتكشف للعالم كله أضواؤها ؛ فيعترف لها أعداؤها - راغمين - بأنها الشريعة الصالحة للحياة الإنسانية ، على امتداد زمانها ومكانها !

وهذا هو نبي الإسلام والقائم على الدعوة . . يحمل أثقالها ، ويلقى من أجلها ما يلقى من ألوان الأذى ، ثم إذا آتت أكلها . وكثر خيرها ، لم يأخذ من ذلك شيئاً ، وعاش حياته على خبز الشعير ، لا يشبع منه وليس له من إدام إلا الخل والزيت لا يجمع بينهما !

ثم هذا هو دستور الشريعة الإسلامية يضع « محمداً » حيث يضع الناس جميعاً . . يعاتبه ، ويحذره ، وينصح له . . فما محمد بمعزل عما يوجب العتاب والتحذير والنصح من رب العالمين . . يقول تعالى معاتباً نبيه ؛ « عبس وتولى أن جاءه الأعمى ، وما يدريك لعله يزكى ، أو يذكر فتنفعه الذكرى ! أما من استغنى فأنت له تصدى[1] » ، ويقول سبحانه في شأن أسرى بدر : « ما كان لنبي أن يكون له أسرى حتى يثخن في الأرض ، تريدون عرض الدنيا ، والله يريد الآخرة ، والله عزيز حكيم ، لولا كتاب من الله سبق لمسكم فيما أخذتم عذاب عظيم[2] » . . ويقول سبحانه وتعالى لنبيه في شأن استغفاره لذوي قرباه . . ما كان للنبي والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين ولو كانوا أولي قربى من بعد ما تبين لهم أنهم أصحاب الجحيم[3] » ويقول سبحانه وتعالى في هذا الشأن أيضاً : « استغفر لهم ، أو لا تستغفر لهم ، إن تستغفر لهم سبعين مرة فلن يغفر الله لهم[4] » .

---

(١) سورة عبس آية ١-٦ .
(٢) سورة الأنفال آية ٦٧ ، ٦٨ .
(٣) سورة التوبة آية : ٢١٢ .
(٤) سورة التوبة آية ٨٠ .

أفلو كان « محمد » هو صاحب هذا التشريع أكان يضع نفسه هذا الموضع ؟ أوكان يأخذها بهذا الزجر والردع على سمع الدنيا وبصرها ؟

إن عزل المشرع عن التدخل فى وضع التشريع الذى يدعو الناس إليه ، ويأخذهم به هو فى الواقع أعدل سياسة وأحكمها فى إنجاح هذا التشريع ، وفى حمايته من الهزات والانحرافات .

يقول « جان جاك روسو » :

« ورغم أن عمله — أى المشرع — هو تأسيس الدولة ، فهو ليس جزءاً منها ، بل يقوم بوظيفة خاصة وسامية ، لاشىء مشترك بينها وبين حكم الناس . . إذ أنه إذا كان من يحكم الناس يجب ألا يحكم القوانين . . فكذلك من يحكم القوانين يجب ألا يحكم الناس ، وإلا كانت قوانينه خادمة لأهوائه ، ولاتؤدى فى كثير من الأحيان إلا إلى دوام مظالمه . . فهو لن يستطيع تجنب أن تؤدى وجهات نظره الخاصة إلى انحرافه فى عمله المقدس !

ثم يستشهد جان جاك روسو لهذا بوقائع تاريخيه ، فيقول :

« وقد بدأ « ليكورجوس » بالتخلى عن العرش عندما وضع القوانين لوطنه » . ويقول :

« وكان العرف السائد بين معظم المدن الإغريقية أن تعهد إلى أجانب بوضع قوانينها ! !

ثم يأخذ « روسو » فى الكشف عن خطورة التشريع الذى يصادف مكانا من قلوب الناس وعقولهم ، وأن هذا لايكون إلا إذا استند التشريع إلى قوة سماوية ، وإلا إذا قام على أساس من الدين . .

يقول « روسو » :

وهكذا يبدو أنه يوجد فى عملية التشريع شيئان غير متفقين : مهمة فوق طاقة البشر . . تقوم بتنفيذها سلطة ليست شيئاً مذكوراً ! .

« إن الحكماء الذين يتحدثون إلى العامة بلغتهم — أى لغة الحكماء — لن يفهمهم العامة — فهناك الآلاف الكثيرة من الأفكار التى لا يمكن ترجمتها إلى لغة الشعب ، كما أن التطرف فى التعميم ووجهات النظر البعيدة تسمو أيضاً على إدراك الناس . إذ لا يتذوق كل فرد غير نظام الحكم الذى يتفق مع مصلحته الخاصة ، ولا يقدر — إلا بصعوبة — المزايا التى تعود عليه من الحرمان المستمر الذى تفرضه القوانين الطبيعية . . ومن هنا كان المشرع لا يستطيع أن يستعمل القوة ولا الإقناع . وعليه بالضرورة أن يلجأ إلى سلطة من نوع آخر ، سلطة تقود بلا عنف ، وتقنع بلا حجة ! .

« وهذا هو السبب فى أن آباء الشعوب اضطروا فى جميع الأزمنة إلى الالتجاء إلى السماء ، وأن ينسبوا إلى الآلهة حكمة هى فى الحقيقة حكمتهم هم ، حتى يقبل الناس الخضوع لقوانين الدولة ، كما يخضعون لقوانين الطبيعة ، ويرون فى خلق المدنية السياسية نفس القوى العاملة فى خلق الانسان . فيطيعون بحرية ، ويتحملون فى وداعة ، وطأة السعادة العامة ! .

وهذا العقل السامى الذى يسمو على فهم العامة هو ما يضع المشرع أحكامه فى أفواه الخالدين ، ليقودوا بوساطة السلطة الإلهية أولئك الذين لا يستطيعون التخلص من عجز الهالكين .

« ولكن لا يستطيع كل إنسان أن يجعل الآلهة تتكلم ، ولا أن يجعل الناس تصدقه عندما يدعى أنه يتحدث باسمها . . فروح المشرع العظيمة هى التى يجب أن تكون دليل رسالته[١] » .

لو أن « محمداً » كان هو واضع الشريعة الاسلامية ، ولم يكن الله هو الذى نزل عليه كتابها ـ لكان كما وصف « لامارتين » فى قوله : « نبى أصغر من إله ،

---

(١) العقد الاجتماعى لجان جاك روسو ص ١٢٣ .

وأكبر من إنسان ،، ولكان لمحمد أو لأتباع محمد أن يقولوا فيه ما قال النصارى في المسيح ابن مريم من أنه ابن الله أو ثالث ثلاثة .

ولكن « محمداً » يعرف حق المعرفة أنه بشر ، وأن الشريعة التي جاء بها ليست من صنعه ، وإنما هو رسولها ، ومبلغها إلى الناس .. « قل سبحان ربي هل كنت إلا بشراً رسولا(١) » .

---

(١) سورة الإسراء آية ٩٣

الباب الخامس

خاتم النبيين

« اللهُ أعلمُ حيثُ يجعلُ رسالَتَه »

« قرآن كريم »

— ١ —

داع من السماء ، يحمل بين يديه النور والهدى إلى الناس !

ورسول من الله ، يقوم بالسفارة بين الله ، وبين عباد الله !

ما ظنك أن يكون هذا السفير ؟ وماذا يرتسم له فى خيالك من صور ؟

إن كثيراً من الناس قد ارتفعوا بمقام هذا السفير إلى أن يكون هو الله ذاته « تجسد » فى صورة بشر ، أو أنه « ابن الله » جاء إلى الناس فى صورة إنسان !!

وإن كثيرا من الناس أنكر أن يكون هذا السفير بشرا ، حين ظنوا أن هذه السفارة أكبر من أن تكون لبشر . . فكذبوا برسل الله ، وأبوا أن يعتمدوا الوثائق التى بين أيديهم إلا أن يشهد عليها شاهد من السماء !! . « وقال الذين لا يرجون لقاءنا : لولا أنزل علينا الملائكة أو نرى ربنا !! لقد استكبروا فى أنفسهم وعتوا عتوا كبيرا »(١) .

وما رأيك إن كان هذا الرسول بشرا .. يأكل الطعام ويمشى فى الأسواق ؟

أتراه واحداً من عامة الناس ممن لا امتياز لهم فى عقل أو خلق ؟ أم تراه واحداً من هؤلاء الذين بسطوا سلطانهم على الناس بالسيف والقهر والتغلب ؟ .

كلا فإنه لا إلى هؤلاء ، ولا إلى هؤلاء ! إن حكمة الله تقضى بأن يتخير

(١) سورة الفرقان آية ٢١ .

لهذه « السفارة » خلاصة الإنسانية . وهامتها . فلا تصطفى لها فى أى عصر إلا الرجل الأول فى الكمال الإنسانى ، فيكون هو الإنسان الذى تتمثل فيه كمالات الجنس البشرى لعصره ، وهو بهذه الصفة يكون بالمقام الذى يسامت فيه الملائكة ، ويصافح الملأ الأعلى . وهو بهذا المقام جدير بأن يكون وصلة ما بين السماء والأرض ، وسفيراً بين الله والناس .

— ٢ —

وذلك هو الشأن فى نبوة « محمد » !

لقد رشحته السماء لأعظم رسالة حملها نبى ، ولأكمل دعوه قام بها رسول !

إنه يحمل آخر كلمة من الله إلى الناس !

هى الكلمة الأخيرة . . الكلمة الحاسمة فيما بين السماء والأرض ! فليس بعدها كلام . . إنها الخاتمة ! .

وهو خاتم النبيين . ليس بعده نبى . . وليس وراءه بشير ولا نذير !

وإذ كان ذلك كذلك .. فإن لنا أن نقول إن « محمداً » هو منتخب الإنسانية كلها . وهو مجتمع كمالاتها فى أكمل حالاتها وأتم صورها . .

ذلك لأنه جاء إلى الإنسانية حين بلغت رشدها ، وحين أراد لها الله أن تستقل بوجودها وأن تستقيم على الطريق الذى يمليه عليها تفكيرها . دون أن يقوم عليها من السماء رسول يدعوها إلى الله ، ويرسم لها مناهج الإيمان ، وقواعد السلوك ! .

إن الإنسانية — لعهد محمد — كانت قد جاوزت طور الصبا ، وبلغت أشدها ورشدها ... ، وهى بهذا جديرة أن تستقل بنفسها ، وأن تستهدى بما أودع الله فيها من عقل ، وبما حملت إليها السماء من وصايا .

قد كانت رسالات الرسل .. قبل محمد — رسالات « محلية » ، أشبه بالوصاية على الأفراد . يظهر الرسول فى جماعة من الجماعات ، أو قوم من الأقوام ، يقيم لهم وجودهم المعوج ، ويضىء لهم طريقهم المظلم ، ثم لا يلبث أن يخلفه فيهم رسول يخلفه رسول وهكذا .

حتى إذا بلغ الكتاب أجله ، وأراد الله للناس أن يستقلوا بوجودهم ، وأن يفكروا لأنفسهم، بعد أن بلغوا الرشد وصاروا فى عداد الرجال — كانت رسالة الإسلام ، وكان رسولها الأمين . محمد بن عبد الله . . رسول الله وخاتم النبيين !

ومن هنا ندرك السر فى أن الرسالة الإسلامية كانت رسالة «عقلية» «منطقية» تخاطب العقل ، وتجىء لإقناعه عن طريق الحجة القائمة على البراهين الاستدلالية ، التى يستقيم عليها تفكير الناس جميعاً ... عامتهم وخاصتهم على السواء !

إن الرسالة « الإسلامية » لم تستند إلى معجزة قاهرة تطغى على عقول الناس وتغتال تفكيرهم ، وتشل إرادتهم حين لا يملكون لها رداً ، ولا يستطيعون لها نقضاً . وإنما استندت إلى الكلمة وما فيها من عقل ومنطق .. فلم تطلب إلى الناس أكثر من أن يفكروا . وأن يستخدموا عقولهم المعطلة ، وأن يتقبلوا — فى غير عناد أو تحرج — ما يتأدى إليهم من عقولهم ... فإنهم إن فعلوا ذلك فلن تبعد بينهم وبين الرسالة الإسلامية شقة الخلاف ، بل إنهم والرسالة سيلتقيان على طريق واحد ، إذا فكروا وأخلصوا التفكير ! .

« قل إنما أعظكم بواحدة . أن تقوموا لله مثنى وفرادى ... ثم تتفكروا(١) » . هذا هو عنوان الرسالة الإسلامية ، وهذا هو مفتاحها : استخدام العقل ، واحترام معطياته .

ليستعمل الإنسان عقله وليفكر فيما تحمل الرسالة الإسلامية من مقررات . . ليفكر وحده ، بينه وبين نفسه ، متأملا ، متعمقا . أو ليفكر مع غيره ، يعرض الأمر ويقلبه . . مؤيداً . . أو معارضاً !

إنه فى كلا الحالين سيصل إلى مقررات إن لم تكن حقاً خالصاً ، فهى أقرب شىء إلى الحق . . لأن العقل بطبعه — إذا خلا من آفات العناد والاستكبار — يتجه إلى الحق ، ويهتدى إليه ؛ لأنه شرارة من الحق وقبس من أقباسه !

فالعقل فى مواجهة الرسالة الإسلامية محمول على أن يفكر ، وأن يتحرك

---

(١) سورة سبأ آيه ٤٦

فى كل مجالاته ، غير مقيد بشىء أو مشدود إلى شىء .. بل إن الرسالة الإسلامية لتغرى العقل إغراء على التفكير ، بما تنادى به من دعوات عالية إلى إيقاظ العقل وتنبيهه ، وبما تقدم إليه من صور ، وما تفتح له من مجالات ، تدعو أكثر الناس بلادة وغباء إلى استخدام عقولهم ، واستدعاء تفكيرهم ! « قل انظروا ماذا فى السموات والأرض(١) » .

ذلك على حين كان العقل قبل الرسالة الإسلامية بمعزل عن دعوات الرسل ، وبمنقطع عن معجزاتهم القاهرة ، التى لا تستقيم على منطق العقل ، ولا تدخل فى معطيات التفكير !

إنها أمور خارقة للعادة ، لا تقع إلا على يد رسول . فيقع بها الإعجاز القاهر ، ويقوم التسليم !! الإعجاز الغالب القاهر ، المفحم للعقل . والتسليم القائم على الدهش ، والحيرة . والعجز !

وذلك هو شأن الأسلوب الحكيم فى التربية ... فالصغير الذى لا يحتمل عقله أحكام المنطق . ولا يخضع تفكيره الصغير لمعطيات ما بين الأسباب والمسببات من روابط — من الخطأ البين . بل ومن القسوة عليه أن يؤخذ بمنطق العقل ، ويحمل على العقل . . وإنما الذى يصلحه ويصلح له هو أن يخاطب بلغة الحس ، وبمنطق المادة . . فإذا نما عقله شيئا ، كان من التدبير الحكيم أن يخاطب بأسلوب المنطق العقلى . والمنطق الحسى معاً ، وأن يزاوج له بينهما بنسب تكثر فيها العناصر العقلية كلما نما عقله ، واتسعت مداركه ، حتى إذا بلغ مبلغ النضج والرشد أمكن أن يكون عقله هو موضع الاعتبار فى مخاطبته ومحاسبته .

والإنسانية — فى تقديرنا — بدأت وجودها كما يبدأ كل كائن حى وجوده ، نبتة صغيرة ، ثم شجيرة لا زهر فيها ، ثم شجرة مزهرة ، ثم شجرة مزهرة مثمرة ! !

الرسالة الإسلامية إذن هى الرسالة التى أدركت الإنسانية حين بلغت رشدها ،

---

(١) سورة يونس آية ١٠١

وحين رفضت عنها وصايا السماء ، التي أقامتها على الناس عن طريق أنبياء الله ورسله الكرام .

وشواهد التاريخ تؤيد هذا وتشهد له . .

فالإنسانية لعهد « محمد » كانت فى آخر مرحلة من مراحل سيرها نحو النضج العقلى . . كانت بمثابة طفل قد درج فى مدارج الحياة حتى بلغ مبلغ الرجال . . وكان عليه بعد هذا أن يستوفى حظه من الحياه . وأن يأخذ مكانه فيها ، غير مستند إلى أحد .

ودع عنك ما يقال من أن الإنسانية قد ارتكست وردت على أعقابها زمن البعثة النبوية . وأن الشر كان قد استشرى فى الناس وأن الظلام قد أطبق عليهم ، ولفهم فى قطع كثيفة من الجهل والضلال ، وأن معالم الحضارات التى أقامتها الإنسانية فى وادى النيل على يد الفراعنة ، وفى بابل وآشور على يد الكلدانيين والآشوريين قد ذهبت معالمها ، وضلت فى ظلمات الجهل شواهدها ، ومحيت آياتها .. وأن لمعات العقل اليونانى التى أضاءت العالم القديم قد ذهب الجهل بنورها ، وعقمت الحياة عن أن تلد سقراط ، وأفلاطون ، وأرسطو مرة أخرى . !

دع عنك هذا . . فالدنيا بخير . . والحياة ولود ، لا يصيبها العقم أبداً . . وهى سائرة إلى الأمام ، لا ترجع إلى الوراء بحال ! .

ربما قد تقع بعض النكسات فى الحياة الإنسانية فتضطرب حياة الناس ، وتسوء أمورهم . . ولكنها نكسات عارضة ، لا تلبث أن تزول ، وتعود إلى الحياة طبيعتها ، وإلى الناس سلامتهم ! والرجل حتى فى حال انتكاسه خير من الطفل فى حال صحته وسلامته !

ولا نريد أن نضرب الأمثال لهذا ، ولا أن نذكر مخلفات القرون من العباقرة والعظماء ، ونعقد المقارنات بين أجيال الناس فى الحياة لنعرف أن الحياة تخطو نحو النضج العقلى ، والكمال الإنسانى . لا نريد أن نضرب الأمثال لهذا ، وحسبنا أن نشهد واقع الحياة فى عصرنا هذا ، وما بلغ العقل الإنسانى فيه من

قوه ، استطاع بها أن يخضع تلك القوه الهائلة من قوى الطبيعه ، وأن يتحكم فيها ، ويسخرها على نحو لم تعرفه الحياه ، ولم يشهده الناس من قبل .

إن القرون الطويلة التى عاشتها الناس على هذه الأرض لم تمكن لهم من أن يستخدموا قوه البخار ، أو قوه الكهرباء ، ولم تفتح لهم الطريق إلى تحطيم الذرة ، وإلى بناء المراكب الكوكبية التى تدور الآن فى فلك الشمس كما تدور الأقمار حولها .

إن هذه الفتوحات العظيمة التى حققها العقل الإنسانى فى هذا العصر هى الشهاده التى لا ترد على أن الحياه الإنسانية تتجه دائما نحو الأمام ، وأنها تضيف كل يوم معارف جديدة إلى معارفها السابقة ، وأن رصيدها من المعرفه يزداد مع الأيام يوما بعد يوم ! فبقدر ما تزيد الأيام فى عمر الإنسانية يزيد رصيدها من العلم والمعرفه .

فإذا قلنا إن عصر النبوة كان هو العصر الذى بلغت الإنسانية فيه رشدها ، وتخطت فيه مرحلة الطفولة والصبا ، كان لقولنا هذا مستند من واقع عصرنا هذا الذى يعد امتداداً لعصر النبوة ! فإن أربعة عشر قرناً فى عمر الحياه الإنسانية لا تعد شيئاً إلى جانب عمرها الطويل . . وأن هذه الألف والأربعمائة سنة منذ عصر النبوه إلى اليوم ليست إلا مرحلة أو بعض مرحلة من حياة الإنسانية ، وطوراً من أطوار وجودها !

فما بلغته الإنسانية فى هذا العصر من تقدم فى مجالات العلوم والفنون ، وما أقامته من صروح للحضارة والمدنية هو فى الواقع من صنع هذا الطور الإنسانى الذى كان عهد النبوة إيذانا ببدئه ، والذى قلنا إنه كان الطور الذى بلغت به الإنسانية أول مراحل الرجولة .

يتحدث الجاحظ فى كتابه « حجج النبوه » عن طبيعة الرسالة الإسلامية ، وأنها تتجه إلى مجتمع يأخذ الأمور بمعيـار العقل ، وينظر فى أعقابها وما تؤول إليه . .

يقول : « كذلك وعيد « محمد » بنار الأبد كوعيد موسى بنى إسرائيل بالقاء

الهلاس على زرعهم ، والهم على أفئدتهـــم ، وتسليط الموتان على ماشيتهم ، وبإخراجهم من ديارهم ، وأن يظفر بهم عدوهم . .

« فكان تعجيل العذاب الأدنى ـ أى القريب ـ فى استدعائهم ، واستمالتهم وردعهم على مايرديهم(١) ، وتعديل طباعهم كتأخير العذاب الشديد على غيرهم.

« لإن التهديد المؤخر ـ من العذاب ـ لايزجر إلا أصحاب النظر فى العواقب وأصحاب العقول التى تذهب فى المذاهب(٢) » .

يريد الجاحظ أن يقول إن دعوة محمد كانت إلى مجتمع عاقل مدرك ، ينظر فى عواقب الأمور ، ولا كذلك كانت دعوة موسى التى تعامل مجتمعاً فى دور طفولى، لايأخذ الأمور من جانبها الواقعى المعجل .

تنتهى من هذه الحقيقة إلى حقيقة أخرى . وهى أن « النبى » الذى يجىء إلى الناس فى هذا الطور من حياتهم ينبغى أن يكون أكمل الأنبياء ، لأنه فى قمة الإنسانية فى طورها الذى بلغت فيه رشدها ! إذ كان النبى فى كل عصر ، وفى كل أمة هو ممثل الإنسانية فى هذا العصر ، وفى تلك الأمة ، وهو خلاصة كل طيب وجميل فيها ! وفى هذا يقول النبى الكريم : « بعثت من خير قرون بنى آدم، قرناً فقرنا ، حتى كنت من القرن الذى كنت فيه . . » .

على أننا لسنا فى حاجة إلى هذه المقايسات النظرية ، وتلك الاستدلالات اللفظية لنستند إليها فى الوصول إلى القول بأن نبى الإسلام هو « صفوة » الإنسانية، وهو منها بمكان الرأس من الجسد ، أو العقل من الإنسان » !

لسنا فى حاجة إلى هذا ، فإن نبى الإسلام فى حياته ، وفى سيرته ، وفيما ترك فى الحياة من آثار هو آية الآيات على الكمال ، الذى حوى الكمال البشرى كله ! وذلك ما شهد له به أعداؤه قبل أصدقائه ، فى كل عصر ، وفى كل أمة !

والحقائق التاريخية التى تتحدث عن سيرة الرسول حقائق ثابتة موثقة ،

---

(١) فى الأصل : يريد بهم : وهو لايستقيم مع سياق الكلام

(٢) من رسائل الجاحظ ٢٤١

لاتقبل الشك أو الجدل .. إذ كان نبى الإسلام فى المجتمع الذى ظهر فيه بالمكان الذى تحصى عليه فيه حركاته ، وتعد عليه فيه أنفاسه ، على صورة لم يعرف التاريخ لها مثيلا فى حياة إنسان من الناس ، أو حدث من الأحداث !

ولله فى هذا حكمة وتدبير !

فقد أراد الله سبحانه وتعالى لنبيه الكريم أن يكون فى هذه البيئة التى ينكشف الناس فيها كل شىء ، ويتعـــرى للحياة فيها كل شىء ! بيئة عارية من كل مايستر أو يكن ، فلاقصور ، ولا قلاع ، ولا حصون يستطيع من يعيش فيها أن يقيم له دنيا كما يشاء ويرضى ، دون أن يطلع الناس من أمره على دقيق أو جليل ! !

وإنما حياة البادية حياة عارية من كل هذا ، والناس فيها عراة أو شبه عراة . والخيام التى هى سكن الناس فى هذه المواطن لاتكتم سراً ، ولاترد سمعاً ولا بصراً .. إنها أشبه بالثياب التى يرتديها الناس .. قد تنفع فى اتقاء الحر أو البرد ، ولكنها لاتنفع شيئاً فى الاحتجاب عن الناس ، والتستر دونهم ! وكذلك تلك المدن الصغيرة التى قامت فى هذه البادية .. إنها لاتخرج عن كونها مجموعة من الخيام ، وإن كانت جدرانها من الأحجار ، وسقفها من سعف النخيل !

هذه واحدة .. وأخرى .. هى أن أهل البادية فى فراغ ممل ثقيل ، وخاصة سكان القرى الذين لايشتغلون بشىء ، حتى برعى الإبل والغنم ! أما أهل مكة - البلد الحرام - فقد فرغ أهله من كل عمل .. الرعى يقوم به عبيدهم ، وغلمانهم والتجارة قافلة فى الشتاء إلى اليمن ، وقافلة فى الصيف إلى الشام ، يندب لها جماعة منهم .. والحرب التى كانت شغل سكان البادية لم يكن لأهل هذا البلد شأن بها ، لأنهم أهل بيت الله ، لايعتدون ، ولا يعتدى عليهم !

فهذا الفراغ الذى يعيش فيه سكان البادية ، وسكان القرى بخاصة ، وأهل مكة بوجه أخص - هذا الفراغ الطويل الثقيل قد جعل الناس يشتغلون بالتافه من الأمور ، ليقطعوا به الوقت ، ويجعلوه مادة حية للحياة .. تمسك وجودهم فيها ، وتخيل إليهم أنهم جادون عاملون !

فإذا وقع فى القوم حدث جديد التفوا إليه جميعاً ، وقاموا له وقعدوا ، وإن يكن مثل هذا الحادث لا يلتفت إليه غيرهم من أهل الحياة الجادة العاملة ..

وشواهد هذه الحال قائمة فى حياة الريف ، وسكان القرى . . فالناس هناك يجتمعون وينفضون لأقل نبأة أو حدث يقع بينهم . . فإنك لترى الناس جميعاً مشتركين فى مداورة الأحاديث وتقليبها عن كل حدث يعنيهم أو لا يعنيهم .

فإذا ظهر فى صحراء العرب « نبى » فما ظنك بما يقع فى حياة الناس من هذا الحدث ! ؟ تصور الجبال تتبادل مواضعها . أو الشمس تغير مشرقها ومغربها .. أو تصور ماشئت من المذهلات والأعاجيب فى الأحداث ووقعها على الناس ، فإنك لن تدانى الصورة التى وقعت لقريش ومن حولها حين طلع عليهم « محمد » بقوله : إنه رسول . . رسول رب العالمين !

لقد وقع انقلاب شامل فى حياة الناس ، فأخلوا أنفسهم من هذا الفراغ الذى كانوا فيه ، وفرغوا بكل جوارحهم ، وعقولهم ، وقلوبهم لهذا الحدث العظيم :

والذى يعنينا أن نسجله هنا من هذه الظاهرة هو أن « محمداً » كان منذ اليوم الذى أعلن فيه عن نبوته ، وكشف للقوم عن كلمة السماء إليه ، وهو يملأ حياة الناس فى مكة ومن حولها . فرداً فرداً ، رجالا ونساء ؛ كباراً وصغاراً ، لم يستطع إنسان أن يخرج بنفسه من هذه السوق التى لا تنقض أبداً . والتى لا بيع فيها ولا شراء إلا تبادل الأحاديث فى « محمد » ، وتداول الآراء فيه . .

ولك أن تحصى عيون أهل مكة وما حولها عيناً عيناً ، وآذانهم أذناً أذناً ، وألسنتهم لساناً لساناً ، وأرجلهم رجلا رجلا ، وأيديهم يداً يداً ، ثم إن لك بعد ، هذا أن تضيفها كلها إلى حساب « محمد » مدة الثلاثة عشر عاماً التى عاشها فى مكة قبل الهجرة والسنوات العشر التى عاشها فى المدينة بعد الهجرة . إن هذه الجوارح جميعها لم تكن تعمل خلال تلك المدة إلا لحساب « محمد » ، ومن أجل « محمد » . له أو عليه . موالية أو معادية .

فهل تظن بعد هذا شيئاً يخفى على القوم من حياة « محمد » أو يفلت من بين أيديهم ؟

وهل تستطيع أن تقع على حدث فى الحياة ، أو على شخصية من الشخصيات وقعت تحت ملاحظة الناس ، وتحت أسماعهم وأبصارهم ، وفى قلوبهم وعقولهم مثل ما كان « لمحمد من أهل مكة والمدينة وما حولها .. لا أظن أحداً يجىء من التاريخ القريب أو البعيد بشاهد واحد يقوم إزاء هذا الحدث أو يدانيه !

فإذا أضفت إلى هذا ما كان من صحابة « محمد » . وامتزاجهم به هذا الامتزاج الروحى والمادى ، فى الحل والترحال ، فى الحرب وفى السلم ، فى المسجد وخارج المسجد ، فى يقظته ونومه ، فى طعامه وشرابه ، فى حديثه وصمته . . فى قيامه وقعوده ، فى مشيه وركوبه - كان من كل أولئك أعداد لاحصر لها من الوثائق والسجلات المتشابهة المطابقة ، التى تسجل حياة « محمد » لحظة لحظة ، ونفساً نفساً وحالا وحالا !

ومرة أخرى .. هل تستطيع الحياة أن تأتى بمثل هذا التسجيل الكاشف لحياة إنسان من الناس ، أو واقعة من الواقعات ؟ هيهات هيهات . . فإن ذلك لم يقع ، ولن يقع الإمرة واحدة من الناس . . هو رجل الانسانية وواحدها !

* * *

وما وجه الحكمة فى هذا ؟

نستطيع أن نجد لهذا التدبير السماوى فى شأن « محمد » على هذا الذى كان من كشف شخصيته للناس ، ووقوفهم على جميع أحواله - نستطيع أن نجد لذلك أكثر من وجه ، وأكثر من دلالة وحكمة . .

فأولا : هذا الكمال الإنسانى الذى اشتمل عليه « محمـــد » ينبغى أن يشهده الناس ، وأن يملأوا وجودهم به . إذ أنه ليس فى الحياة مثل هذا الكمال البشرى المتاح للناس أن يشهدوه ، وأن يأخذوا بحظوظهم كاملة معه ، فإذا أفلت منهم فلن يقعوا له مثال بعد هذا . وفى ذلك ما فيه تضييع لهذا الخير الكثير ، الذى يناله الناس من الاتصال به والأخذ منه !

أرأيت إلى الشمس كيف تسفر للناس ، بوجهها المشرق الوضيء من مطلع الصباح إلى مهبط الليل؟ ثم أرأيتها بعد ذلك تغذى القمر بأضوائها فتجعله خليفة لها بعد أن يحجبها الظلام ، ليبدو ظلمته ، ويزيل وحشة الحياة ؟

إنها ووليدها القمر آيتان من آيات الله للناس ، ورحمتان من رحمته بهم .. إنهما أكبر من أن يكونا لأمة من الأمم ، أو لجيل من الأجيال .. إنهما للأمم جميعاً ، وللأجيال جميعاً .. إنهما يسعان الحياة كلها فى أممها ، وأزمانها ، وفى كل ما من شأنه أن يحيا عليهما ، ويعيش بهما !

« ومحمد » فى ذاته هو للإنسانية آية كبرى من آيات الله ، ورحمة شاملة من رحمته ، ومن حق الناس فى هذه الآية الكبرى ، ومن حقهم فى هذه الرحمة الشاملة أن تنكشف لهم هذا الانكشاف التام ، وأن تسفر لهم هذا السفور المبين ، ليأخذوا بحظوظهم كاملة منها ، فيطلع فيهم طلوع الشمس ، يحيى الموات ويبدد الظلمات .. فإذا لحق بالرفيق الأعلى كانت سنته فيهم ، وسيرته معهم قمراً يؤنس وحشتهم ، ويكشف معالم الطريق لهم !!

وثانياً : من وجوه الحكمة فى كشف شخصية « محمد » وتجليتها للناس أن رسالة « محمد » كما قلنا من قبل رسالة عقلية ، تعتمد على الحجة الواضحة ، والمنطق القويم ، وأن « محمداً » وقف من هذه الرسالة وقفة المدافع عنها ، فى وجه خصومة عنيدة عنيفة ، قد اتخذ أصحابها من الكلام بضاعة وصناعة ، فكان لا بد أن يكون « محمد » قائماً من وراء رسالته ، يدفع كيد خصومها ، ويدحض باطلهم ، ويكشف عن سفههم وضلالهم !

ومن أجل هذا كانت الرسالة الإسلامية من بين الرسالات السماوية كلها رسالة « منجمة » .. لم تنزل مرة واحدة ، وإنما ظلت نحو ثلاثة وعشرين عاما . تتنزل آية آية ، أو سورة سورة ، حسب دواعى الموقف ، وحاجات الناس .

ولو نزل القرآن الكريم جملة واحدة لكانت مهمة الرسول سهلة ميسرة .. إذ تكون فى هذه الحالة على صورة متعارف عليها ، بين أوليائها وخصومها ، وتكون الخصومة فيها خصومة على واقع معروف ، وكان يكفى فى هذا أن يدفع

النبي بها كامله إلى الناس ، ويدعهم وشأنهم بها ، أو يعيد تكرارها عليهم مرة ومرة ، دون أن يجيئهم بجديد يفتح باباً جديداً للجدل والخصام .

وكان نزول القرآن على هذه الصورة المجزأة ، وفى هذا الزمن المتطاول ، مقتضياً أن يقف النبي دائماً فى يقظة وانتباه ، يتلقى اعتراضات الخصوم ، ويستمع إلى ادعاءاتهم فيديرها فى صدره ، ويرددها فى خاطره ، ويترقب فى لهفة وإشفاق كلمة السماء ، وما تلقى إليه من آيات ، يلقى بها القوم على الوجه الذى أراد الله سبحانه أن يلقاهم به وهكذا ظل الرسول طوال ثلاثة وعشرين عاما فى هذا الموقف ، بين السماء والأرض ، وبين الله والناس ، لم يفرغ لنفسه ساعة من ليل أو نهار !

مهمة شاقة عنيفة ، وموقف صعب عسير ، لايقوم على الوفاء به إلا من ربته العناية الربانية ، وأعدته الإعداد الكامل لهذا الأمر العظيم !

وطبيعة هذه المهمة تقتضى أن ينكشف حال « محمد » كله للناس ، وأن يكون كل وجوده فيهم ، فلا يلقاهم من وراء حجاب ، ولا يجعل بينه وبينهم آذناً يفتح الباب ويغلقه . وإنما هو للناس جميعاً ، يلقونه فى أى وقت ، وعلى أى حال يكون . . حتى لقد بلغ الأمر بالنبي وأهله أن أوذوا فى حياتهم الخاصة بما كان يطرقهم من الناس ، فلم يجدوا لحظة لطعام أو منام ، واستحيا النبي أن يرد الناس عن هذا الذى كان يؤذيه ، فتولى الله سبحانه وتعالى تنبيه الناس إلى هذا . فقال سبحانه :

« يأيها الذين آمنوا لاتدخلوا بيوت النبي إلا أن يؤذن لكم إلى طعام غير ناظرين إناه ، ولكن إذا دعيتم فادخلوا ، فإذا طعمتم فانتشروا ولا مستأنسين لحديث ، إن ذلكم كان يؤذى النبي فيستحى منكم ، والله لايستحى من الحق »(١)

وثالثاً : من وجوه الحكمة فى كشف شخصية « محمد » وتجليتها بين الناس أن الرسالة المحمدية ليس فيها معجزة من المعجزات المادية ، وإنما معجزته التى

---

(١) سورة الأحزاب آية ٥٣

بين يديه هى القرآن الكريم ، والمعجزة فيه شائعة بين آياته وسوره ، يعجز كثير من الناس عن إدراكها على وجه محقق . فإن ذلك يحتاج إلى نظر دقيق ، وبصر نافذ !.

فكان لابد لكى تتضح هذه المعجزة القرآنية من أن يكون الذى يقوم عليها هو فى ذاته معجزة ، فى كمالاته ، وفى مقررات دعوته التى يدعو إليها ! فإذا دعا إلى معروف ، أو نهى عن منكر ، رأى الناس فى حياته تطبيقاً كاملا واضحاً لما يأمر به أو ينهى عنه ، وبهذا يرى الناس الدعوة فى صورتها الكلامية ، وفى تطبيقها العملى .

هكذا كانت رسالة « محمد » .. تخير لها الله سبحانه من صور الكلام أصدقه وأروعه وأبلغه ، وهو « القرآن » ، وتخير لها من صور الأداء أتم صورة ، وأكملها . وأعدلها وهو « محمد بن عبد الله » .

وكثير من الناس آمنوا بمحمد قبل أن يتلو عليهم آيات الكتاب ، وقبل أن يسمعهم كلام الله ، . آمنوا بما آمن به ، وتابعوه دون أن يسألوه شيئاً عما عنده من دلائل النبوة ومعجزاتها .. لأنه هو عندهم آية الآيات ، ومعجزة المعجزات فى أمره كله .. ظاهره وباطنه . ، وإن الإنسان العاقل الذى يعرف مواطن الخير وينشد حظه منه لنفسه ليرى فى « محمد » الرائد الموفق لكل ما يدعو إليه ، فإنه لايدعو إلا إلى الخير ، ولا يهدى إلا إلى الرشاد !

وقد كان إيمان السيدة عائشة « بمحمد » هو إيمان متابعة له وتطبيقاً لما عرفت منه وخبرت من أحواله : وعاينت من صفاته .. فى أمانته وصدقه واستقامته ، وعزوفه عن دنيات الأمور وسفسافها .. وهى ـ لصلتها بمحمد وبمخالطتها له ـ أكثر الناس وأقدرهم على تعرف هذه الصفات واختبارها عن قرب ومداناة .

لما نزل جبريل على النبى صلى الله عليه وسلم فى غار حراء لأول مرة بالوحى اضطرب النبي لهذا الأمر وكرب له ، وذهب إلى خديجة وهو فى هذا الحال ؛ فسألته مابه ، فلما أخبرها الخبر ، وقال لها : « لقد خشيت على عقلى » .. قالت له : أبشر يابن عم ، فوالله لايخزيك الله أبداً .. إنك لتصل الرحم ، وتحمل

الكل وتكسب المعدم ، وتقرى الضيف ، وتعين على نوائب الحق »(١) .

فاستدلت بكمال عقلها وسلامة فطرتها ، أن الأعمال الصالحة ، والأخلاق الفاضلة ، والشيم الكريمة تناسب أشكالها ، من كرامة الله وتأييده ، وإحسانه ، ولا تناسب الخزى والخذلان »(٢) .

وكذلك كان إيمان أبى بكر . . وكثير غيره من العقلاء الراشدين :

ففى حديث الإسراء كثر لغط قريش ، وعلت صيحات سفهائها تتردد فى أرجاء مكة . ترمى (محمداً) بالزور والبهتان .. ولكن ألصق الناس به ، وأعرفهم بحاله ، لم يزدهم ما أرجف به المشركون ، وما تخرص به المتخرصون إلا إيماناً على إيمانهم ، من غير أن يسألوا النبى شيئاً ، أو حتى من قبل أن يتلقوا هذا الخبر منه .

روى عن عائشة رضى الله عنها . قالت : « لما أسرى بالنبى صلى الله عليه وسلم إلى المسجد الأقصى أصبح الناس يتحدثون بذلك . فارتد ناس ممن آمنوا به وصدقوه . . وسعوا إلى أبى بكر فقالوا : هل لك فى صاحبك ؟ يزعم أنه أسرى به الليلة إلى بيت المقدس ، وجاء قبل الصبح ! ! قال : نعم . إنى لأصدقه فيما هو أبعد من ذلك : أصدقه بخبر السماء فى غدوه أو روحه » .

وقد يقول بعض الناس فى إيمان السيدة خديجة : إنه إيمان حب وطاعة ، أدته المرأة المحبة المطيعة لزوجها !

ولكنهم لا يستطيعون أن يقولوا شيئاً مثل هذا فى إيمان أبى بكر ، الذى كان له من أصالة الرأى ، وعلو المكان فى قومه وأنفة العروبة التى تملأ صدره ، ما ينأى به عن أن يكون إمعة يتبع كل ناعق ، ويجيب كل داع . إن أبا بكر حين تابع « محمداً » عرف كثير من رجالات قريش وأولى الرأى فيهم أن أبا بكر لا يتابع محمداً إلا عن حق بان له ، وربما لم يستبن لغيره . وعن شواهد حال فى « محمد » جعلته يسلم له من أجلها بمقام النبوة ، من غير أن يطلب إليه شاهداً .

---

(١) الشفا ص ٧٠

(٢) زاد المعاد فى هدى خير العباد لابن القيم جزء ٢ ص ١١٤

أو دليلا .. لأن أبا بكر عند قومه - بالمكان الذى يجعله أهلا لأن يقضى فلا يرد قضاؤه ، ويحكم فلا تدفع حكومته ، ولا يخرج أحد عن حكمه ، ولو كان ذلك فى أعظم الأمور شأنا ، وأجلها خطراً . وما أن آمن أبو بكر وتابع محمداً ؛ حتى تابعه فى هذا الإيمان نفر ممن عرفوا فى قريش بالحكمة ، وسداد الرأى .

فمن آمن بدعوة أبى بكر من قبل أن يتعرف إلى دلائل النبوة ويثبت منها: عثمان بن عفان ، وطلحة بن عبيد الله ، وسعد بن أبى وقاص ، والزبير بن العوام ، وعبد الرحمن بن عوف .

وهؤلاء جميعهم من أهل الشورى الذين جعل « عمر » الخلافة من بعده فى واحد منهم ، وكانوا سبعة منهم على بن أبى طالب ، وعبد الله بن عمر ، على أن يكون شريكا فى الرأى لا فى الخلافة .

فإذا عرف أن هؤلاء السبعة الذين رشحهم عمر للخلافة من بعده هم الخلاصة الخالصة فى مجتمع الصحابة ، وكان خمسة منهم أسلموا على يد أبى بكر وبمتابعته عرف فضل أبى بكر وقدره بين الرجال .

نعم إن سيرة محمد كانت معروفة لهؤلاء النفر ، فهم أهله وعشيرته ، ولم يكن الذى عرف أبو بكر من أخلاق محمد بالذى اختص به دون قريش . فإن قريشا كانت تعرف من «محمد» مثل ما يعرف أبو بكر وغيره ، وكان يلقب فيهم بالصادق الأمين . ولكن أبا بكر كان أسبق إلى التصديق بنبوة محمد ، وأنفذ بصيرة فى ربط ماضى « محمد » بحاضره ، وفى استدناء النبوة من الكمال البشرى الذى كان لمحمد .

ولهذا الذى كان يعرفه أهل مكة من صفات الكمال فى « محمد » وجد أبو بكر لدعوته آذاناً تسمع بما يدعو إليه من أمر « محمد » ، إذ كان ذلك مسبوقا بما وقر عند الناس بما عرفوا من مكارم الأخلاق فى الصادق الأمين .

والقول بأن إيمان السيدة « خديجة » بمحمد كان إيمان حب للزوج المحب المطاع قوله ينقضه إيمان أبى بكر بمحمد إيمانا مستمداً من أخلاق « محمد » ، ومن سيرته

فى قومه خلال أربعين عاما مضت من حياته ، لم تجرب عليه كذبة ، ولم يؤخذ عليه فيها عيب ، أو تلحق به شائبة ...

ثم إن السيدة خديجة ، قد عرفت فى قومها بالعقل ، والحكمة ، والاعتزاز بشخصيتها ، واحترام نفسها ، وما كان لها أن تتابع « محمداً » عن هوى . وهى التى زهدت فى الزواج زمناً ، حين لم تجد الرجل الذى تراه كفئاً لها ، على كثرة من تقدم لخطبتها من سادات قريش وسراتها . ثم ما أن التقت « بمحمد » حتى رضيت به زوجا ، للصفات الطيبة الكريمة التى تحدث بها الناس عنه . وخبرتها هى فيه ، حين اتجر لها فى مالها ، فى رحلة من رحلات قريش إلى الشام !.

ولم يكن هذا شأن من خالطوا « محمداً » ، وعاشروه من أهل وصديق... بل إن ذلك كان شأن أهل النظر والبصيرة ممن يطالعون وجه « محمد » ، أو يلتقون أخبار محمد على السماع ، ويعرفون منها بعض الجوانب المشرقة من حياته ، وكل جوانب حياته مشرق وضىء !

حدث أبو سفيان بن حرب ـ على ما كان بينه وبين النبى من عداوة قبل أن يدخل فى الاسلام ، وما بقى فى قلبه من بقايا هذه العداوة بعد أن أسلم ـ حدث أبو سفيان هذا فقال :

« إن هرقل ـ ملك الروم ـ أرسل إليه فى ركب قريش ، وكانوا تجاراً بالشام ، فى المدة التى كان رسول الله صلى الله عليه وسلم ماد(١) فيها أبا سفيان وكفار قريش ، فأتوه وهم بإيليا(٢) ، فدعاهم فى مجلسه ، وحوله وجوه الروم ، ثم دعاهم . ودعا بترجمانه ، فقال : أيكم أقرب نسباً بهذا الرجل الذى يزعم أنه نبى قال أبو سفيان : فقلت أنا أقربهم نسباً . . فقال : أدنوه منى ، وقربوا أصحابه فاجعلوهم عند ظهره ، ثم قال لترجمانه : قل لهم إنى سائل عن هذا الرجل ـ أى النبى ـ فإن كذبنى » أى أبو سفيان ـ فكذبوه ـ .

---

(١) اى فى المدة التى كان قد جعلها صلح الحديبية فترة سلام بين المسلمين وكفار قريش! وهى عشر سنين .

(٢) بلد بأطراف الشام من جهة الجزيرة العربية .

قال أبو سفيان : فوالله لولا الحياء من أن يأثروا على كذبا لكذبت عنه[١] ، ثم كان أول ما سألنى عنه أن قال : كيف نسبه فيكم ؟ قلت : هو فينا ذو نسب . قال : فهل قال هذا القول منكم أحد قط قبله ؟

قلت : لا .

قال : فهل كان من آبائه من ملك ؟

قلت : لا .

قال : فأشراف الناس يتبعونه أم ضعفاؤهم ؟

قلت : بل ضعفاؤهم .

قال : أيزيدون أم ينقصون ؟

قلت : بل يزيدون ،

قال : فهل يرتد أحد منهم من سخطه لدينه ؟ قلت : لا .

قال : فهل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال ؟ قلت : لا .

قال : فهل يغدر ؟ قلت : لا ، ونحن معه فى مدة[٢] لا ندرى ما هو فاعل فيها ؟

قال : فهل قاتلتموه ؟ قلت نعم .

قال : فكيف كان قتاله إياكم ؟ قلت : الحرب بيننا وبينه سجال ، ينال منا وننال منه .

قال: ماذا يأمركم ؟ قلت : يقول: اعبدوا الله وحده ، ولاتشركوا به شيئاً ، واتركوا ما يقول آباؤكم ، ويأمرنا بالصلاة والصدق ، والعفاف ، والصلة . فقال لترجمانه : قل له ، سألتك عن نسبه فذكرت أنه ذو نسب فيكم ، وكذلك الرسل تبعث فى نسب قومها . . وسألتك : هل قال أحد منكم هذا القول ؟ فذكرت أن لا ، فقلت : لو كان أحد قال هذا القول قبله ، لقلت رجل يتأسى

(١) هكذا فى البخارى ؛ والفعل « كذب » يتعدى بعلى .

(٢) يقصد مدة الصلح

بقول قيل قبله .. وسألتك هل كان من آبائه من ملك ، فذكرت أن لا ، قلت : فلو كان من آبائه من ملك قلت رجل يطلب ملك أبيه . . وسألتك : هل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال ، فذكرت أن لا ، فقد أعرف أنه لم يكن ليذر الكذب على الناس . ويكذب على الله . وسألتك : أأشراف الناس اتبعوه أم ضعفاؤهم ، فذكرت أن ضعفاءهم اتبعوه ، وهم أتباع الرسل . . وسألتك : أيزيدون أم ينقصون ، فذكرت أنهم يزيدون ، وكذلك أمر الإيمان حتى يتم . وسألتك أيرتد أحد منهم سخطة لدينه بعد أن يدخل فيه ، فذكرت أن لا ، وكذلك الإيمان حين تخالط بشاشته القلوب . وسألتك : هل يغدر ، فذكرت أن لا ، وكذلك الرسل لا تغدر ، وسألتك : بم يأمركم ، فذكرت أنه يأمركم أن تعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً ، وينهاكم عن عبادة الأوثان ، ويأمركم بالصلاة والصدق والعفاف ، فإن كان ما تقول حقاً فسيملك موضع قدمى هاتين . وقد كنت أعلم أنه خارج[١] ، لم أكن أظن أنه منكم ، فلو أنى أعلم كيف أخلص إليه لتجشمت لقاءه ، ولو كنت عنده لغسلت عن قدميه[٢] . »

فهذا ما شهد به أبو سفيان — قبل أن يدخل فى الإسلام — من أحوال رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ومن صفاته وشمائله ، التى كان عليها قبل أن يوحى إليه ، وهى أحوال وشمائل قد استدل منها « هرقل » — على السماع — على أنها أحوال وشمائل لا تكون إلا لنبى !

وعن الترمذى أن عبد الله بن سلام قال : « لما قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة جئته لأنظر إليه ، فلما تبينت وجهه عرفت أن وجهه ليس بوجه كذاب » .

وعن أبى رمثة التيمى قال : أتيت النبى صلى الله عليه وسلم ، ومعى ابن لى ، فأريته ، فلما رأيته ، قلت هذا نبى الله ! .

وروى مسلم أن « ضماداً » لما وفد على النبى ، فقال النبى صلى الله عليه وسلم[٣]

---

(١) أى سيبعث نبى فى هذا الوقت

(٢) من صحيح البخارى

(٣) كان من سنة الوفود التى تفد على النبى لإعلان الاسلام أن يقوم خطباؤها وشعراؤها بين يديه ، يقولون ما أعدوا لهذه المناسبة . فيندب النبى من أصحابه من يرد عليهم ، وكان أحياناً يتولى هو ذلك — صلى الله عليه وسلم .

« إن الحمد لله ، نحمده ونستعينه ، من يهدى الله فلا مضل له ، ومن يضلل الله فلا هادى له ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأن محمداً عبده ورسوله ... » ، قال ضماد : « أعد على كلماتك هؤلاء ، فلقد بلغن قاموس البحر »(١) .. هات يدك أبايعك » .

وعن الجلندى — ملك عمان — لما بلغه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم يدعو إلى الإسلام، قال والله لقد دلنى على هذا النبى الأمى أنه لا يأمر بخير إلا كان أول آخذ به ، ولا ينهى عن شىء إلا كان أول تارك له ، وأنه يغلب فلا يبطر ، ويغلب فلا يضجر ، ويفى بالعهد ، وينجز الوعد ، وأشهد أنه نبى »

لو لم تكن فيه آيات مبينة كان منظره ينبيـــك بالخبر

محمد ... والوحى :

كان أكبرهم أولئك الذين صوبوا سهامهم إلى سيرة النبى أن يقطعوا صلته بالسماء ، وأن ينفوا عن القرآن أنه كلام الله . وأنه كتاب سماوى لشريعة الإسلام ! .

ثم لا حرج عندهم بعد هذا فى أن يسلموا « لمحمد » بكل شىء . ليكن مشرعاً عظيما... وليكن فاتحاً كبيراً . . وليكن مصلحاً ناجحاً ... وليكن كما يشاء ويشاء له أتباعه ؛ إلا أن يكون نبياً ، ورسولا ، وإلا أن يكون كتابه منزلا من السماء متلقى من رب العالمين .

وقد قلنا من قبل إن غاية هذا المكر الخبيث أن ينفى عن شريعة الاسلام صفة القداسة ، وأن ينزلها منزلة الشرائع والمذاهب الوضعية، ليكون ذلك داعية إلى الجرأة على العبث بها . وجعلها فى معرض التحريح والتعديل ...

هذا ويتخذ الغربيون من الحالات التى كانت تعترى النبى عند نزول الوحى

(١) قاموس الشىء عمقه .

ذريعة للطعن فى حقيقة الوحى ، والتشكيك فى الصلة التى يمكن أن تكون بين « محمد » وبينه .

ومن عجب أن يعول الغربيون فى دراستهم لأحوال النبى مع الوحى على الأحاديث والأخبار التى رواها الثقات من المسلمين عن الرسول أو شاهدوها منه عند الوحى — من عجب أن يكون هذا هو مصدر علمهم بالحالات التى كانت تعرض للنبى ، ثم يجعلون هذه الأحوال دليلا على نفى الوحى الذى كانت هذه الحالات أعراضاً له . وشواهد عليه .

وقد يكون من المستساغ أن يخلى هؤلاء الغربيون أيديهم من الأحاديث والأخبار التى تحدث عن الوحى ، وعن الأحوال التى كانت تعرض للنبى منه ، ثم لينسجوا من مقولاتهم ما يشاءون للطعن فى حقيقة الوحى ، وفى صحة ما يوحى به .. فذلك على ما فيه من تلفيق ، وتزييف أقرب إلى المنطق من معالجة الحقائق الثابتة ، وتحويلها إلى مخلوقات من الباطل الصريح ...

إن خلق الشىء ابتداء أيسر من إقامته على أنقاض شىء آخر ... هو بناء من أول الأمر ، ولو كان ذلك البناء على شفا جرف هار .. أما الخلق الآخر فهو هدم وبناء معاً .. يهدم ثم يبنى ؟ الأول عمل واحد ، والآخر عملان ؟

والغربيون كما عرفنا فى مواقف كثيرة يختارون دائماً فى محاربتهم للإسلام هذا الأسلوب فى خلق الأباطيل ، ورمى الإسلام بها .

فهم يعمدون إلى الحقائق الثابتة من أوثق المصادر الإسلامية ، ثم يتناولونها كما يتناول الحيوان فريسته بمخالبه وأنيابه ، حتى إذا سال دمها ، وخمدت أنفاسها وتناثرت أشلاؤها ، حاولوا أن يجمعوا من أشلاء هذه الحقائق كائناً آخر هو هذا « الباطل » الذى يريدون أن يقيموه مقام الحق !!

وهم هنا فى حقيقة الوحى يعمدون إلى الأحاديث المروية عن الرسول ، والأخبار المشاهدة من أحواله مع الوحى ، ثم يصوبون إلى هذه الأحاديث وتلك الأخبار سهاماً مسمومة ، يحرفون بها الكلم عن مواضعه ، ليفسحوا لباطلهم مكانا يشوه الحقائق ويشوش عليها .

فمن الأحاديث والأخبار المروية عن الوحى الذى كان ينزل على النبى ، والصور التى كان يأتى عليها ، والأحوال التى كانت تعرض للنبى منها . . من هذه الأحاديث :

ما يروى عن السيدة عائشة أن الحارث بن هشام سأل النبى صلى الله عليه وسلم : « كيف يأتيك الوحى ؟ فقال : أحياناً يأتينى فى مثل صلصلة الجرس ، وهو أشده على ، ثم ينفصم عنى وقد وعيته ، وأحياناً ملك(١) فى صورة الرجل ، فأعى مايقول(٢) » .

ويروى عن السيدة عائشة أيضاً أنها كانت تقول : « إن كان لينزل — أى يوحى — على رسول الله صلى الله عليه وسلم فى الغداة الباردة ، ثم تفيض جبهته عرقا(٣) .

وعن عبادة بن الصامت قال : كان نبى الله صلى الله عليه وسلم إذا أنزل عليه الوحى كرب لذلك وتربد وجهه » .

فالحالة التى كان يتلقى فيها النبى الوحى حالة تستدعى مجاهدة روحية ، ونفسية وجسدية ، كى تتيح له هذه المجاهدة حالا مناسبة للعالم الروحى الذى يتصل به . . إنه لقاء بين طبيعتين مختلفتين .. طبيعة بشرية ، وطبيعة ملكية . ولابد أن يحدث هذا اللقاء احتكاكا ، وتفاعلا ، وفوراناً .. فى الطبيعتين على السواء ..!

يقول ابن خلدون فيما يعرض للأنبياء عامة عند تلقى الوحى . . « وعلامة هذا الصنف — أى الأنبياء — من البشر أن توجد لهم فى حال الوحى غيبة عن الحاضرين معهم ، مع غطيط ، كأنها غشى أو إغماء فى رأى العين ، وليست منهما فى شىء ، وإنما هى فى الحقيقة استغراق فى لقاء الملك الروحانى ، بإدراكهم المناسب لهم ، الخارج عن مدارك البشر بالكلية ، ثم يتنزل إلى المدارك البشرية : إما بسماع دوى من الكلام فيتفهمه ، أو يتمثل له صورة شخص يخاطبه بما جاء

---

(١) فى البخارى : وأحياناً يتمثل لى الملك رجلا ، فيكلمنى فأعى مايقول .

(٢) صحيح مسلم — الجزء السابع ص ٨٢

(٣) صحيح مسلم — الجزء السابع ص ٨٢

به من عند الله ، ثم تنجلى عنه تلك الحال . وقد وعى ما ألقى إليه . . ويدركه أثناء ذلك من الشدة والغط مالا يعبر عنه . . ففى الحديث : «كان مما يعالج من التنزيل شدة» . وقالت عائشة : كان ينزل عليه الوحى فى اليوم الشديد البرد ، فيفصم عنه ، وإن جبينه ليتفصد عرقا . . » وقال تعالى : « إنا سنلقى عليك قولا ثقيلا » .

ولأجل هذه الحالة فى تنزل الوحى كان المشركون يرمون الأنبياء بالجنون، ويقولون : له رئى ، أو تابع من الجن ، وإنما لبس عليهم بما شاهدوه من ظاهر تلك الأحوال (١) .

ثم يقول ابن خلدون : « وهؤلاء الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم ، قد جعل الله لهم الانسلاخ من البشرية فى تلك اللمحة . فطرة فطرهم الله عليها ، وجبلة صورهم فيها ، ونزههم عن موانع البدن وعوائقه ماداموا ملابسين لها بالبشرية ، بما ركب فى غرائزهم من القصد والاستقامة التى يحاذون بها تلك الوجهة — أى الوجهة الملكية — وركز فى طبائعهم رغبة فى العبادة تكاشف بتلك الوجهة ، وتسيح(٢) نحوها . . فهم يتوجهون إلى ذلك الأفق بذلك النوع من الانسلاخ متى شاءوا — بتلك الفطرة التى فطروا عليها ، لا باكتساب ، ولا صناعة . . فلهذا توجهوا وانسلخوا عن بشريتهم ، وتلقوا فى ذلك الملأ الأعلى مايتلقونه ، وعاجوا به على المدارك البشرية منزلا فى قواها ، لحكمة التبليغ للعباد . . فتارة يسمع دوياً كأنه رمز من الكلام يأخذ منه المعنى الذى ألقى إليه ، فلا ينقضى الدوى إلا وقد وعاه ، وفهمه . وتارة يتمثل له الملك الذى يلقى إليه رجلا فيكلمه ويعى مايقوله . .

« والتلقى من الملك . والرجوع إلى المدارك البشرية . وفهمه ماألقى عليه — كله فى لحظة واحدة ، بل أقرب من لمح البصر ، لأنه ليس فى زمان ، بل كلها تقع جميعاً ، فتظهر كأنها سريعة ، ولذلك سميت وحياً ، لأن « الوحى » فى اللغة الإسراع .

---

(١) مقدمة ابن خلدون ص ٨٨

(٢) فى الأصل تكشف ، وسيغ ، وهو تحريف .

« واعلم أن الأولى وهى حالة الدوى هى رتبة الأنبياء غير المرسلين – على ماحققوه – أى العلماء – والثانية – وهى حالة تمثل الملك رجلا يخاطب – هى رتبة الأنبياء المرسلين ، ولذلك كانت أكمل من الأولى ، وهذا معنى الحديث الذى فسر فيه النبى صلى الله عليه وسلم الوحى لما سأله الحارث بن هشام ، وقال : كيف يأتيك الوحى ؟ فقال : « أحياناً يأتينى مثل صلصلة الجرس ، وهو أشده على ، فيفصم عنى وقد وعيت ما قال ، وأحياناً يتمثل لى الملك رجلا فيكلمنى ، فأعى مايقول . . » .

وإنما كانت الأولى أشد لأنها مبدأ الخروج فى ذلك الاتصال من القوة إلى الفعل ، فيعسر بعض العسر . ولذلك كان يحدث عنه فى تلك الحالة من الغيبة والغطيط ما هو معروف . . وسبب ذلك أن الوحى – كما قررناه – مفارقة البشرية إلى المدارك الملكية ، وتلقى كلام الملك ، فيحدث عنه شدة من مفارقة الذات ذاتها ، وانسلاخها عنها من أفقها إلى الأفق الآخر ، وهذا معنى الغط الذى عبر عنه فى مبدأ الوحى فى قوله : « فغطنى حتى بلغ منى الجهد ، ثم أرسلنى . فقال : اقرأ ، فقلت : ماأنا بقارىء وكذا ثانية وثالثة ، كما فى الحديث .. !

وقد يفضى الاعتياد بالتدريج فيه شيئاً فشيئاً إلى بعض السهولة بالقياس إلى ماقبله ، ولذلك كانت تنزل نجوم القرآن ، وسوره ، وآيه — حين كان بمكة — أقصر منها وهو بالمدينة .

« وانظر إلى ما نقل – أى روى – فى نزول سورة « براءة » فى غزوة تبوك ، وأنها نزلت كلها أو أكثرها عليه ، وهو يسير على ناقة ، بعد أن كان بمكة ينزل عليه بعض السوره من قصار المفصل فى وقت ، وينزل الباقى فى حين آخر . . وكذلك كان آخر ما نزل بالمدينة آية الدين وهى ماهى فى الطول بعد أن كانت الآية تنزل بمكة مثل آيات الرحمن ، والذاريات ، والمدثر ، والضحى ، والفلق ، وأمثالها . . »(١) .

---

(١) مقدمة ابن خلدون . . ص ٩٤ .

وواضح من هذا كله أن الأحوال التي كانت تظهر على النبي في وقت تلقي الوحي هي من مستلزمات هذا الاتصال الذي يقع بين إنسان وملك .. بين طبيعتين مختلفتين ؛ يراد منهما أن يتلاقيا ، وأن يتجاوبا ..

والجدير بالنظر هنا ما لاحظه ابن خلدون من التفرقة بين حالات الوحي التي أشار إليها النبي حين سئل : كيف يأتيه الوحي ، فقال : أحياناً يأتيني مثل صلصلة الجرس ، وهو أشده علي ، فيفصم عني . وقد وعيت ماقال ، وأحياناً يتمثل لي الملك رجلاً فيكلمني فأعي مايقول . » فالحالة الأولى وهي حالة الدوي هي رتبة الأنبياء غير المرسلين — كما يقـــول ابن خلدون — والثانية ، هي حالة تمثل الملك رجلا يخاطب هي رتبة الأنبياء المرسلين ، ولذلك كانت أكمل من الأولى . .

هذه بعض الأحاديث والأخبار التي روتها كتب السيرة في شأن الوحي واتصال النبي به ، والتي اتخذ منها الغربيون مادة لخلق المفتريات والأكاذيب ، للطعن في رسالة الرسول ، والتشكيك في صدق ماجاء به ، إذ كان عندهم أن ذلك الذي نطق به النبي وسماه قرآناً ، ليس إلا هذيان محموم ، وإلا تقيآت مصروع ، أو مجنون .

وشاهدهم على هذا ؛ تلك الأحوال التي كانت تعرض للنبي حين ينزل عليه الوحي ، ويلقى بما أمر الله به أن يلقيه إليه ! .

وأعجب مافي هذا الموقف من أولئك القائلين بهذا القول أنهم يلتقطون من الآيات والأحاديث والأخبار كلمات يقتطعونها من الكيان الكلي للحقيقة . ويعزلونها عن السياق الذي تجرى فيـــه . ثم يبنون عليها مايبنون من أوهام وأكاذيب !

والذي كان يقتضيه الأسلوب العلمي في البحث عن الحقيقة هنا هو التثبت أولا من هذه الآثار ، والوصول إلى حكم قاطع فيها وفي مصادرها .. أهي صادقة أم كاذبة .. ؟ ثم يأتي بعد ذلك دور التطبيق لها ، والتعامل بها . . فإما أن تقبل

جميعا ، أو ترد جميعاً . . أما أن يؤخذ من الخبر بعضه ، ويترك بعضه ، فذلك هو التلفيق الذى لاتقوم به حقيقة أبداً ،

فهذه الأحاديث والأخبار التى يأخذ هؤلاء الكتاب شاهدهم منها . ماراًيهم فيها ؟ ومامقدار اطمئنانهم إليها ؟ أهى من الوثائق التاريخية المحررة فى نظرهم ؟ أم هى أحاديث موضوعة مكذوبة ؟ فإن كانت الأولى كان المنطق يقضى بأن يأخذوا بها ، وبكل ماجاء فيها ، وإن كانت الثانية طرحوها ، وبحثوا عن وثائق أخرى ، يجدون فيها الصدق الذى يطمئنون إليه . . أماأن يجعلوا هذه الأخبار بهذا المكان الذى تتلاعب به عواصف الأهواء ، فيؤمنون ببعضها ويكفرون ببعضها ، ويأخذون بعضاً ويدعون بعضاً ، حسب ماتدعو دواعى الهوى من أنفسهم فذلك أسوأ موقف يقفه عالم أو باحث .. وقد أنكر الله سبحانه هذا الموقف الخبيث من اليهود ، وتوعدهم الخزى فى الدنيا : والعذاب الشديد فى الآخرة .

فقال تعالى : « أفتؤمنون ببعض الكتاب ، وتكفرون ببعض ؟ فما جزاء من يفعل ذلك منكم إلا خزى فى الحياة الدنيا ، ويوم القيامة يردون إلى أشد العذاب وما الله بغافل عما تعملون »(١) .

والخزى الذى توعد الله به اليهود فى الدنيا بسبب فعلتهم هذه ، هو خزى يصيب كل من يقف هذا الموقف فى مواجهة الحق ، حين يقيم استدلالات الباطل على مايختلس من معالم الحق .

الحق والباطل :

ولو أننا تركنا هذه المفتريات جانباً ، وضربنا صفحاً عنها ، دون أن نلتفت إليها أو نلفت الأنظار إلى زيفها وزورها لما وقع عندنا أن أحداً يعقل — مجرد العقل — ويفهم — أدنى الفهم — يأخذ بهذه المقولات ، ويضيف شيئاً منها إلى سيرة النبى الكريم .

(١) سورة البقرة آية ٨٥

فإن أدنى درجات النظر إليها تفضحها ، وتكشف عوارها ..

وذلك ، أنها إنما استمدت حياتها ووجودها من مصادر إسلامية ، تؤمن بالنبي ، وتؤمن بالرسالة التي جاء بها من عند الله ..

وليس يصح في عقل عاقل أن تجيء المصادر الإسلامية بما يتهم الرسول بالصرع والجنون ! ثم إنه من جهة أخرى ما كان للتاريخ أن يحتفظ في صدره بهذا السجل الضخم من الأخبار والأعمال لمصروع أو مجنون ؟ وما كان لجماعة من الجماعات الإنسانية أن تتعلق بمجنون أو مصروع هذا التعلق ، وتفتديه بالمهج وبالمال والولد !

يكفي هذا وحده في فضح هذا الزور . وإلباس أهله لباس الخزى والذى ألبسه الله اليهود الذين آمنوا ببعض الكتاب وكفروا ببعضه !

« وماصاحبكم بمجنون » .

لقد استخزى بعض من كتاب الغرب أن يقف هذا الموقف الأحمق ، وأن يبدو للناس عارياً لايستره شيء في ضوء الشمس وفي رابعة النهار .. فإن الذى يجعل القرآن أوالحديث دليله ومستنده ثم يعود إلى هذا الدليل والمستند فيمزقه ، ويلقى به في عرض الطريق أشبه بمن يلبس حلة زاهية معجبة يخرج بها على الناس ثم ينزعها عن جسده ، ويرمى بها في التراب ، ولو أنه خرج إلى الناس عارياً من أول الأمر لكانت فعلته تلك أقل شناعة ، وأهون خطباً .. ولوجد . . على أقل تقدير ـ من يعتذر له أىعذر .. كأن يقول قائل : مسكين ! ليس عنده مايستره! أو خائف مذعور أعجله الخوف والذعر عن أن يرتدى مايستره !! أما أن يكون وملابسه تأخذ مكانها من جسده ، ثم ينزعها ، وينخلع عنها ، لالشيء إلا لأنه لايريدها ـ فذلك هو الضلال البعيد ، والخزى المبين !

وإذا كان كثير من كتاب الغرب قد استبدت به حمى الكراهية للإسلام ، فلم يبال أن يضحى بحيائه ، ولم يستنكف أو يتجرد من ملابسه على أعين الناس ؛ فإن بعضاً من الكتاب الغربيين لم يجدوا في قلوبهم الجرأة على أن يقفوا هذا الموقف،

وأن يدعوا على رسول الإسلام أنه مصاب بالصرع والجنون . فأين شهودهم على هذا الادعاء من كتاب الله وسنة رسول الله !.

فهذا الكاتب الفرنسى : « إميل درمنجم » يقول فى كتاب « حياة محمد » فى معرض الحديث عن الصرع أو الجنون الذى يرميه به إخوانه من كتاب الغرب — يقول :

« غفل المشتغلون بأمور النفس الحضريون الذى افترضوه — أى القرآن — من الصرع ، والاستيحاء ، والخيال المتقد — غفلوا عن حياة الخيام فى الصحراء ، وعما يجب أن يبديه الرجل فيها من الحذق والدهاء ليبقى زعيما بسيطاً لعصبة من الأعراب .

« فحياة محمد منتظمة ، موزونة . قبل بعثته بما يشمل النظر — أى فى جميع أموره كلها التى تقع تحت الملاحظة والنظر — وما انفكت تكون كذلك بعدها إلا فى حالات الوحى » .

ثم يجىء الكاتب بشاهد من التوراة ، لحال نبى من الأنبياء فى حال الوحى وما كان يعتريه فى تلك الحالات من تغيرات جسدية ونفسية .. يقول :

« قال أرميا » : « انسحق قلبى فى وسطى ، ارتخت كل عظامى ، صرت كإنسان سكران ، ومثل رجل غلبته الخمر ، ومن أجل الرب ، ومن أجل كلام قدسه » . ومثل هذا ماقاله « عاموس » المدثر ببردته كمحمد » .

ثم يقول :

« ولم تنشأ رؤى محمد ووحيه عن مرض فيه ، بل كانت تبدو عليه علائم المرض بسبب الرؤى والوحى » .

ويقول :

« وهناك عوارض مشتركة بين مريض الأعصاب أو المهووس ، وبين الموحى إليه الصادق : الأول منفعل غير فاعل . والآخر مبدع فاعل ..

ويقول :

« والحق أن « محمداً » كان مبرأ من مثل هذه الأمراض على الدوام ، فقد كان تام الصحة إلى أن بلغ سن الكمال ، ولم تبدأ العوارض عليه بعد هذه السن إلا عند تقبل الوحى .

« وكان لمحمد بالوحى آلام كبيرة . وكان لمحمد بالوحى حالات مؤثرة ، كره أن يطلع الناس عليها ... ولاحظ أبو بكر ذات يوم – والحزن ملء قلبه – بدء الشيب فى لحية النبى ، فقال له النبى : « شيبتنى هود وأخواتها : الواقعة ، والحاقة ، والقارعة » .

وكان النبى يشعر بعد الوحى بثقل فى رأسه ، فيطبه بالمراهم . وكان يتدثر حين الوحى فيسمع له غطيط وأنين »(١) .

هذا مايقوله إميل درمنجم فى كتابه « حياة محمد » ... !

ولا تحسبن أنه يكتب عن محمد بعاطفة من عواطف الحب والولاء لهذا النبى العظيم ، بل إنه لايقل عن غيره من كتاب الغرب تعصباً على الإسلام ونبى الإسلام ، فإن كتابه هذا ملىء بالغمزات المسمومة ، والوخزات المخدرة . ولكنه هنا أمام هذه الحقيقة السافرة لم يستطع أن يخفى تحت أضوائها شيئاً . .

ولا نريد أن نعيد القول مرة أخرى فى دفع هذه المفتريات التى افتراها الغربيون على رسول الله . وصوروا بها الحال التى كانت تعرض له عند الوحى . فإن هذه المفتريات كما قلنا ، لاتتماسك عند تقليبها والبحث فيها ، بل إنها لتنهار كما ينهار بناء من الرمل على الرمل .

أمجنون مصروع يبنى دولة ، وينشىء نظاما ، ويقيم ديناً يعيش فى أجيال الناس ، منذ قام إلى اليوم ، دون أن يصاب بنكسة أو خلل ؟ أمجنون مصروع يثبت لهذه العواصف العاتية المزمجرة وحيداً فى وجه أمة صحراوية النفوس ، صخرية الطباع ، ثم لايكون منه فى حال من الأحوال تخاذل أو ضعف حتى يحول هذه العواصف إلى أنسام عليلة ، وريح رخاء ؟

---

(١) حياة محمد لأميل درمنجم . . ترجمة عادل زعيتر . ص ٢٨٢

أمجنون مصروع ذلك الذى يحمل تلك الشعلة السماوية المقدسة بين يديه ، ثم يلقى بها الأعاصير الهوج .. هكذا أكثر من عشرين عاما حتى تهدأ العاصفة ، وتسكن ، ويجتمع الناس على أضواء تلك الشعلة ، ويقبسون منها ؟

ثم !

ثم أمجنون مصروع مختلط هذا الذى يأسر قلوب معاشريه ، ويملك أنفسهم ، فإذا القلوب خافقة بحبه ، وإذا النفوس لا تعرف غذاءها إلا من ينابيع الحب والولاء ، والتفانى ... ؟؟

إن التاريخ لا يذكر فى سجله يوما أن إنسانا كان له فى الناس رصيد من الحب والولاء ما كان لمحمد من ولاء وحب !

فى بيعة الرضوان ، ومعسكر الرسول بالحديبية ، يريد دخول مكة ؛ زائراً للبيت الحرام - بعثت قريش عروة بن مسعود الثقفى ، ليجد مع النبى سبيلا إلى الخروج من هـــذا الموقف .. فالنبى والمسلمون معه يريدون دخول مكة ، وقريش تأبى عليهم ذلك .. وقد التقى عروة بالنبى ، وتحدث إليه ، ورأى عن قرب ما للرسول الكريم عند أصحابه ، وما فى نفوسهم من حب وولاء . لا يتوضأ النبى إلا ابتدروا وضوءه ، ولا يبصق بصاقا إلا تسابقوا إليه ، ولا يسقط من شعره شىء إلا تهافتوا عليه ، رأى عروة هذا رأى العين .. فلما عاد إلى قريش ، قال : يامعشر قريش : إنى قد جئت كسرى فى ملكه ! وقيصر فى ملكه ؛ والنجاشى فى ملكه ، وإنى والله ما رأيت ملكا فى قوم قط مثل « محمد » فى أصحابه ولقد رأيت قوما لا يسلمونه لشىء أبدا .. فروا رأيكم »(١) .

وخذ هذا الحادث شاهداً مع الألوف المؤلفة من أمثاله :

وقع خباب بن عدى فى يد قوم من أعداء المسلمين قبل الفتح ، وأراد هؤلاء القوم(٢) أن يتقربوا إلى قريش بهذا الأسير ، وبصاحب(٣) له ، ليكون

(١) السيرة لابن هشام جزء ٣ ص ٥٦

(٢) هؤلاء القوم هم حى « عضل والقارة » من قبيلة فزارة ، ويضرب المثل بغدرهم .

(٣) صاحبه هو زيد بن الدثنة .

فى ذلك بعض الشفاء لما فى قلوبهم من موقعة بدر ، وصرعاهم فيها . . وحين قدم خباب للقتل ، قال له أبو سفيان : « أيسرك أن « محمداً » هنا ، تضرب عنقه ، وأنك فى أهلك ؟

فقال خباب :

لا ، والله مايسرنى أنى فى أهلى ، وأن « محمداً » فى مكانه الذى هو فيه ، تصيبه شوكة تؤذيه(١) » .

فانظر إلى هذا الحب الذى لم تعرفه الحياة من قبل ! .

رجل بين النطع والسيف ، يهيج فيه أبوسفيان غريزة الحب للأهل والولد فى تلك الساعة ، والموت منه بمرصد ؛ على أن يكون « محمد » مكانه فى ساحة الموت ، فيندفع خباب يهدر فى غيظ وحنق : لا ، والله . . لا أرضى أن يكون محمد فى مكانه وتصيبه شوكة تؤذيه .

أهذا هو ميزان المجانين والصرعى فى حساب الإيثار والتضحية ؟ إن يكن ذلك هو الواقع فمرحى بالجنون وبالصرع .

ثم هناك شاهداً آخر ، ربما كان أكبر فى دلالته على معنى الإيثار والحب مما فعل « خباب » وإن كان المبذول هناك النفس ، والمبذول هنا حركة من حركات النفس المنطوية على أسمى معانى الإيثار ، والحب ، والولاء .

فهذه « أم حبيبة » زوج النبى ، وبنت أبى سفيان ، يلقاها أبوها فى منزل الرسول بالمدينة ، قبل أن يدخل الإسلام ، وقد جاء موفداً من قريش ليوثق الهدنة التى كانت بين قريش وبين المسلمين ، وليزيد فى أمدها .

وليس هذا هو المهم فى الأمر ... وإنما المهم هو الآتى :

عندما دخل أبو سفيان على ابنته أم حبيبة ، زوج النبى ، أراد أن يجلس ، ولم يكن غير فراش الرسول شىء يمكن أن يصلح للجلوس — فهم أن يجلس

(١) زاد المعاد — جزء ٢ ص ٢٧ .

على هذا الفراش ، ولكن ابنته ردته عنه وطوته دونه ، فقال : يابنية .. ما أدرى ... أرغبت بى عن هذا الفراش ، أم رغبت به عنى ؟ قالت : بل هو فراش رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأنت رجل مشرك .. نجس ! ولم أحب أن تجلس على فراش رسول الله صلى الله عليه وسلم . قال : والله لقد أصابك يابنية بعدى شر(١) ؟ » .

أفهذا إخلاص وحب تبذله امرأة لزوج مختلط أو مجنون ! ألا تمكن أحداً أن يجلس على فراشه ؟ ومن هذا الأحد ؟ إنه أبوها ، ومن هـذا الأب ؟ إنه أبو سفيان ، سيد سادات قريش ، وصاحب عيرها ، ونفيرها ! .. ثم بعد هذه الغيبة الطويلة التى لم تر فيها الإبنة أباها ، السيد المطاع ! إن حرارة اللقاء بين الإبنة والأب لم تذهلها عن هذا الذى يقوم فى نفسها من فارق كبير بين إيمانها بالرسول الزوج ، وحبها لأبيها الزعيم !

وخذ مثلا ثالثاً ، وما أكثر الأمثال هنا .. ولكن هذا المثل فريد فى بابه ، ولا نظن أنه يقع على تلك الصورة إلا فى هذه الحالة التى وقع فيها .

فالمرأة هى المرأة دائماً فى موقفها من ضرتها ، لاترجع فى خصومتها لضرتها أو ضراتها إلى عقل ، ولا تحتكم إلا منطق ، ولا تفىء إلى حق .. وإنما هى عداوة دائمة بسبب وبلا سبب ، وخصام منعقد بحق ، وبغير حق .. إن المرأة هنا تدافع عن وجودها بكل سلاح ... فمن غير المعقول أن تستجلب المرأة ضرة لها تشاركها حظها من زوجها .. ولكن هذا هو الذى حدث .. وقد حدث على نحو غريب فريد .. أشبه بالخوارق من الأمور .

وأم حبيبة ، زوج النبى وبنت أبى سفيان هى صاحبة هذه الواقعة !

جاءت إلى النبى صلى الله عليه وسلم تعرض عليه أن تزوجه من أختها (رملة) بنت أبى سفيان ! .. فقالت : يارسول الله .. هل لك فى أختى .. بنت أبى سفيان ؟ فيقول الرسول الكريم : « أفعل ماذا ؟ » فتقول : « تتزوجها » !

(١) السيرة لابن هشام جزء ٤ ص ٢٢٨ .

فيقول صلوات الله وسلامه عليه : « أو تحبين ؟ » فتقول: « ليست بمخلية »[١] وأحب من يشاركنى فى الخير أختى ؟ فيجيبها : « فإنها لا تحل لى »[٢] .

إنه خير كثير يتلقاه بغير حساب من يعيش فى صحبة الرسول ، ويسكن إلى جواره ... وقد سعدت أم حبيبة بهذا الخير الموفور ، وفاض بين يديها ، وملأ عليها وجودها ، وهى واحدة من نساء تسع كن يشاركنها هذا الخير ، إلى جانب هذا المجتمع الكبير من صحابة رسول الله ، الذين كانوا يردون موارده العذبة الصافية ويرتوون منها . . ومع هذا فقد كان فى هذا الخير الغدق متسع لهؤلاء جميعاً ولغيرهم . . فأرادت أم حبيبة أن يكون لأختها نصيب من هذا الخير ، وحظ من تلك السعادة

وليس الخير الذى تريد أم حبيبة أن تنال أختها منه هو من حظوظ الحياة المادية ومتعها . . فقد كانت الحياة المادية فى بيت الرسول حياة قاسية فيها جوع ، وحرمان كثير . . وكان ما فى بيت أبى سفيان من مطالب الحياة شىء كثير ، وليس فى بيت النبى شىء منه . و « أم حبيبة » عرفت الحالين . . حالها فى بيت أبيها ، وما ذاقت فيه من ألوان الحياة الرخية الناعمة . . فهل كانت تطلب لأختها التى تود لها حياة أطيب وأكرم من حياة أبيها — هل كانت تطلب لها إلا هذا الغذاء الروحى الذى ذاقته هى عن قرب ، وعرفت ما يجد الإنسان فيه من سعادة غامرة ، ونعيم سابغ ؟

وهل يجد أحد فى جوار مجنون أو مختلط شيئاً يستريح له ويهنأ به ؟ أيعرف الناس شيئاً من هذا قد وقع فى الحياة على تلك الصورة من مجنون أو مصروع[٢] ؟

نعم . . إن علماء الغرب قد أفتاهم علمهم بهذا فى موقفهم من نبى الإسلام ، ودراستهم لأحواله فى أصفى ساعات حياته — وكل حياته صفاء — وهى ساعة اتصاله بالوحى ، وتلقيه كلمات رب العالمين . . !

---

(١) أى أنها لا تخل مكانها ، بل تظل حيث هى فى مكان الزوج للرسول .
(٢) زاد المعاد جزء ١ — ص ٥٦ .

ثمار الصرع والجنون :

وإذا غفرنا لعلماء القرون الماضية أخطاءهم المتعمدة أو غير المتعمدة — فى تخريجاتهم للعوارض الجسدية التى تعرض للمحانين والصرعى ، وفى خلطهم بين حالات الصرع والجنون ، والحالات التى تشرق فيها النفس حين تلمسها لمسة من لمسات العبقرية والذكاء — إذا غفرنا لأبناء القرون الوسطى هذا الخلط . فإنا لا نجد سبيلا يتجه به الغفران لأبناء هذا العصر ، حين يجرون على ما جرى عليه أسلافهم فى هذا الشأن . . إذ قامت الدراسات النفسية فى العصر الحديث بكشف أعماق النفس ، ورصد أحوالها حالا بعد حال ، وقد أعان التقدم العلمى الحديث — وخاصة علم التشريح ووظائف الأعضاء — أعان هذا إلقاء أضواء كثيرة على النفس الإنسانية ، والتعرف على كثير من أسرارها .

على أن الأمر هنا لا يحتاج إلى تعمق فى الدراسات النفسية ، ولا إلى استدعاء لكل المقررات الحديثة فى علم النفس ، ليعرف الفرق بين عوارض الصرع والجنون وبين حالات الإشراق النفسى ، والصحو الوجدانى . .

وللمسيح — عليه السلام — كلمته المأثورة : « من ثمارهم تعرفونهم » . . ويكفى هنا أن يلقى المرء نظرة على الحصاد الذى تحصده الحياة من عالم الصرعى والمجانين ! إنه حصاد نكد ، ليس فيه شىء ينتفع به . . إنه أشبه بالنار ترعى فى هشيم كل ما يتولد منها دخان . لا حرارة فيه ، ولا نور معه . . !

ماذا يجرى على أفواه المحانين والصرعى ، وماذا يخرج من بين أيديهم ؟ عبث وهراء . لا يقف عنده أحد ، ولا تلتقطه أذن !

وحسب من يطلب شاهداً حياً لهذا أن يغشى مصحاً للأمراض العصبية ، ويعيش مع أهله ساعة من نهار ! إنه سيعود موقراً بما ثقل حمله ، ورخص ثمنه ، من ترهات قد لصقت به ، وارتسمت فى رأسه . من هذا الضجيج والصخب ، ومن هذا الهذيان والعبث ! هذا ، فى حين أننا نجد أعمالا رائعة خالدة لأناس كانت تلبسهم حالات من العوارض الجسدية التى تخيل إلى من يراهم أنهم على حال غير الحال المألوفة فى حياة الناس !

إن كثيرا من أصحاب العبقريات وأرباب الفنون تعرض لهم أحوال يضطرب لها كيانهم الجسدى، ويعتريهم فيها نوبات أشبه بنوبات الصرع. ولكنهم مع هذا تجدهم فى أصفى أحوالهم الذهنية، وفى ألمع حالاتهم العقلية. إنهم فى تلك الحال يعانون حالا من أحوال «الإنتاج» الفكرى الرفيع، الذى لا يلبث أن يتمخض عن مولد رائعة من روائع الفن، أو عروساً تجلوه من عرائس الفكر!

وإن الفرق واضح أشد الوضوح بين تخبطات المجانين والصرعى، وبين تهويم الفنانين والعباقرة ورنحاتهم!

يذكر تاريخ الأدب العربى عن «البحترى» أنه كان إذا أنشد شعره فى مجلس يستمع إليه الناس فيه، استبد به الطرب، وغلبته النشوة، وجعل يغدو ويروح، ويتمايل يمينا وشمالا، ويهدر كما يهدر البعير، وهو يقول لسامعيه: مالكم لا تعجبون؟ مالكم لا تطربون؟

منظر عجيب.. لا يشك من لم يكن يعرف «البحترى» من قبل، أنه فى حضرة رجل مجنون أو معتوه!

ولكنها حال من الوجد أشبه بحال من لعبت برأسه الخمر، واستبد به السكر!

إنها حال — كما قلنا — تتألق فيها ملكات الإنسان، فتصفو نفسه، ويصحو وجدانه! ولا تقاس هذه الحال — مهما تبلغ من الكمال والاعتدال — إلى ما يكون عليه النبي فى حال الاتصال بالوحى والتلقى عنه..

إن النبي فى حال الوحى فى نشوة روحية غامرة.. إنه يعب عباً من أنوار السماء.. إنه يشرب من خمر لا لغو فيها ولا تأثيم!

إن التفرقة بين تخبطات المجانين والصرعى، وبين هزات الانتشاء الروحى والإشراق النفسى — ليست بالأمر العسير الذى يحتاج إلى علم غزير، وإلى دراسات عميقة. إذ أن شقة الخلاف بين الحالين بعيدة، ومدى التفاوت بينهما طويل ممتد، وبأدنى نظر يستطيع المرء أن يعرف الحق والباطل، ويميز بين السليم والسقيم!

ابن صياد واختبار النبي له :

وقد كانت للنبي الكريم تجربة كاشفة لحال من الهوس الذي يركب بعض الناس ، ويلقى على ألسنتهم أخلاطاً من القول ، يختلط فيها العقل بالجنون ، والحكمة بالهوى ، والحق بالضلال . فيحسب بعض الناس أن ذلك عن تلقيات غيبته ، ويلتمسون لذلك تفسيرات وتخريجات ، يقيمون عليها ما اعوج من القول ، وما اضطرب من الرأى !

و «ابن صياد» هذا يهودى ، كان من أصحاب الشطحات والتخرصات فى زمن النبي ، وقد لفتت حاله أنظار كثير من الناس ، وأرتهم فيه رأيا . وتحدث كثير من المسلمين أنه المسيح الدجال ، . وكثر القول فيه ، والاختلاف عليه بين معتقد فيه ، ومتهم له ، أو متوقف فى أمره !

وقد رأى النبي صلى الله عليه وسلم أن يختبر حاله ، ويبلو ماعنده... ليكشف حقيقة أمره للمسلمين .

ففى صحيح مسلم : أن النبي صلى الله عليه وسلم مر بصبيان فيهم ابن صياد ، ففر الصبيان : وجلس ابن صياد ! . فكأن رسول الله صلى الله عليه وسلم كره ذلك . فقال له صلى الله عليه وسلم : تربت يداك ... أتشهد أنى رسول الله ؟ فقال : لا ، بل تشهد أنى رسول الله ! فقال عمر بن الخطاب : ذرنى يا رسول الله حتى أقتله ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إن يكن الذى ترى (١) ، فلن تستطيع قتله » .

وفى رواية أخرى : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم مر بابن صياد ، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : قد خبأت لك خبيئاً فقال : « دخ » فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : اخسأ ، فلن تعدو قدرك ، فقال عمر يا رسول الله : دعنى فأضرب عنقه ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم دعه

---

(١) الذى ترى : أى الذى تظن ، وكان عمر يحسب أنه الدجال .

فإن يكن الذى تخاف لن تستطيع قتله» .. وعن عبد الله بن عمر أن عمر بن الخطاب انطلق مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فى رهط قبل ابن صياد ، حتى وجده يلعب مع الصبيان عند أطم بنى مغالة(١) وقد قارب ابن صياد يومئذ الحلم ، فلم يشعر حتى ضرب رسول الله صلى الله عليه وسلم ظهره بيده ، ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لابن صياد : أتشهد أنى رسول الله ، فقال : أشهد أنك رسول الأميين ، ثم قال ابن صياد : أتشهد أنى رسول الله ؟ فرفضه رسول الله صلى الله عليه وسلم . وقال: آمنت بالله وبرسله ، ثم قال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : ماذا ترى ؟ قال ابن صياد : يأتينى صادق . وكاذب . فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : خلط عليك الأمر ، ثم قال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : إنى قد خبأت لك خبيئاً ، فقال ابن صياد هو الدخ ، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : اخسأ فلن تعدو قدرك ، فقال عمر بن الخطاب : يارسول الله . أضرب عنقه ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم . إن يكنه (٢) فلن تسلط عليه ، وإن لم يكنه فلا خير لك فى قتله» .

« وعن سالم بن عبد الله ، قال سمعت عبد الله بن عمر يقول : انطلق بعد ذلك — أى بعد الحال التى رآها الرسول من ابن صياد — رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأبى بن كعب الأنصارى إلى النخل التى فيها ابن صياد ، حتى إذا دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم النخل ، طفق — أى الرسول — يتقى بجذوع النخل ، وهو يختل (٣) أن يسمع من ابن صياد شيئاً قبل أن يراه ابن صياد ، فرآه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهو مضطجع على فراش فى قطيفة ، له فيها زمزمة (٤) ، فرأت أم ابن صياد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهو يتقى بجذوع النخل فقالت لابن صياد « يا صاف » وهو اسم ابن صياد : هذا محمد ،

(١) الأطم بناء مرتفع ، وبنى مغالة بطن من الأنصار .
(٢) أى إن يكن هو الدجال .
(٣) أى يخفى أمره عليه ، ويجيئه من حيث لا يشعر به .
(٤) الزمزمة : الصوت الخفى . لا يكاد يسمع .

فثار (١) ابن صياد ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لو تركته بين ... » .

قال سالم ، قال عبد الله بن عمر ، فقام رسول الله صلى الله عليه وسلم فى الناس ، فأثنى على الله بما هو أهله ، ثم ذكر الدجال فقال « إنى لأنذركموه ، ما من نبى إلا وقد أنذره قومه ، لقد أنذره ، نوح قومه ، ولكن أقول لكم فيه قولا لم يقله نبى : تعلموا — أى اعلموا — أنه أعور ، وأن الله تبارك وتعالى ليس بأعور (٢) » .

وابن صياد هذا دعى كاذب ، قدر ركبته جنة ، فجعل يخبط ، ويخرف ، فتند منه بعض كلمات ، تبرق فيها بوارق يحسبها كثير من الناس من متنزلات الغيب ، وما هى فى حقيقتها إلا من لمعات الخبل والجنون ؛ وكم للخبل والجنون من لمعات ولكنها لمعات أشبه بلمعان السراب ، يحسبه الظمآن ماء حتى إذا جاءه لم يجده شيئاً .

وقد فتن الناس على عهد الرسول بابن صياد هذا ، لما كان يأتى من ضروب الخلط التى تبرق منها بروق كواذب ، وحسبوا أنه هو الدجال الذى أنذرهم الرسول به وحذرهم إياه .

وسرعان ما انكشف أمر هذا الدعى ، واعتزله الناس خوف الفتنة ، واتقاء الشر ، الذى قد يلقاهم منه .

وأحس ابن صياد بهذا ، وضاقت به السبل ، حتى لقد حدثته نفسه بأن يطلب الموت لها ، فيستريح وتستريح . وسعى إلى الناس ينفى أنه الدجال الذى كشف الرسول للمسلمين عن صفاته !

عن أبى سعيد الخدرى قال : صحبت ابن صائد إلى مكة ، فقال لى : أما قد لقيت من الناس ؟ يزعمون أنى الدجال ! ؟ ألست سمعت رسول الله صلى الله عليه

---

(١) أى هب مذعوراً .

(٢) ذلك أن مما يدعيه الدجال أنه إله ، والعور نقص ، والله تعالى منزه عن النقص ، وله الكمال كله .

وسلم يقول : إنه لا يولد له ؟ قال : قلت : بلى . قال : فقد ولد لى ! أو ليس سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : لا يدخل المدينة ولا مكة ؟ قلت : بلى ! قال : فقد ولدت بالمدينة ، وهذا أنا أريد مكة . ! »

« وعن أبى سعيد الخدرى أيضاً قال : قال لى ابن صائد : مالى ولكم يا أصحاب محمد ؟ ألم يقل نبى الله صلى الله عليه وسلم : إنه — أى الدجال — يهودى ، وقد أسلمت ! وقال — أى النبى — ولا يولد له ، وقد ولد لى وقال : إن الله قد حرم عليه مكة وقد حججت ! ؟ (١) »

وهكذا مصير كل باطل ، يبرق بارقة ثم يخبو ويصير رماداً . « كذلك يضرب الله الحق والباطل . فأما الزبد فيذهب جفاء ، وأما ما ينفع الناس ، فيمكث فى الأرض » .(٢)

الغرانقة العلى :

قدر الطاعنون فى نبوة « محمد » ، وفى اتصاله بالسماء ، وتلقيه القرآن عن طريق الوحى من رب العالمين — قدروا أن مفترياتهم التى حاولوا أن يطمسوا بها معالم هذه الحقيقة لن تلقى من العقلاء أذنا صاغية ، ولا تجد فى مجال النظر الصحيح ركناً تأوى إليه .. إذ أن هذه الحقيقة الضخمة الراسخة أشبه بجبل تحاول جماعة من النمل أن تخفى معالمه عن الأنظار . . قدر الطاعنون فى نبوة « محمد » هذا الموقف ، ودخل فى حسابهم هذه النهاية المخزية التى ينتهى إليها تدبيرهم فى هذا المجال .. فتحوا جبهة أخرى يحاربون فيها القرآن ، على فرض أنه وحى سماوى ، وأنه من عند الله ، وأن « محمداً » نقل إرادة السماء — كما يقول — على لسانه !

وسلاحهم فى هذا الميدان الجديد يعتمد على إدخال اللبس والتشكك فى صحة القرآن ، من حيث أن النبى — كما يقولون — كانت تعتريه أحوال نفسية وجدية فى حال الوحى ، فيختلط عليه الأمر ، ويخلط بين ما يلقى إليه الملك ، وبين ما يجرى فى نفسه من خواطر وتصورات ، وبهذا يكون القرآن الذى

---

(١) انظر صحيح مسلم / الجزء الثامن / ٩٨١ وما بعدها .

(٢) سورة الرعد آية ١٧ .

يقال إنه كتاب سماوى — يكون فى تلك الحال كتاباً مختلطا ، جمع ما نزل من السماء ، وما نبع من خواطر النبى وتصوراته !!

ومن عادة الناقدين الغربيين دائماً اعتمادهم على مصادر إسلامية ، يتخذون منها شواهد لمقولاتهم ، ومستندات لمدعياتهم ، حين يعمدون إلى الأخبار السقيمة ، والروايات المزيفة التى دخلت على المصادر الإسلامية فى غفلة من جامعى الأخبار ، ونقلة الأحاديث ، الذين يأخذون من كل فم ، دون تمحيص ، أو تحقيق ، غير مقدرين أن هناك من يقف بالمرصاد لتلقف هذه الأخبار ، واعتمادها ، وجعلها حجة على الإسلام ، وأدلة قاطعة فى مقام الاتهام .

والذى يرجع إلى كتب السنة — مثلا — يجد كثيراً من الأحاديث المروية عن رسول الله ، محملة بكثير من غبار الكذب والدس على رسول الله . . فإن الذين نصبوا أنفسهم لهذه المهمة الجليلة لجمع أحاديث الرسول كانوا إزاء هذه الأحاديث التى تشم منها رائحة الدس والكذب — كانوا بين أمرين : إما أن يحكموا عليها بما يمليه علمهم ، فيردوها على أصحابها ، ويدعوها هملا يضيع فى متاهات الحياة ، ويطوى فى أدراج الزمن ، وإما أن يسجلوها كما سمعوها ، ويدعو لكل ذى نظر أن ينظر إليها ، ويقول رأيه فيها !

وقد كان الرأى الأول هو الذى أخذ به بعض جامعى السنة ، فلم يتحرجوا هذا التحرج الذى كان من بعضهم — فى البحث والتنقيب ، ومقابلة الأخبار ، وغربلة المشكوك فيها ، وفى من تؤخذ عنهم . . وإنما كان يكفيهم فى هذا أن يسمعوا من رجل مسلم خبرا يقول إنه يروى عن رسول الله ، وأنه سمعه من فلان عن فلان ، إلى آخر السلسلة من الرواة ، التى تنتهى إلى رسول الله — وكان عذرهم عند أنفسهم فى هذا ، أنهم لو تركوا مثل هذه الأحاديث المشكوك فيها كان ذلك حكما قاطعاً منهم بإعدامها ، وقد يكون فيها نظر لناظر ، وربما كان فيها تأويل لمتأول ! ممن يأتى بعدهم من العلماء . .

وعن هذا الإحساس قبل كثير من رواة الأحاديث أحاديث ليست موثقة عندهم ، ولا فى موضع الاطمئنان منهم ، وجعلوا أمر الفصل فيها والحكم عليها

لجماعة المسلمين جميعاً . وليس لجامع الأحاديث وحده ، الذى — مهما يكن حظه من العلم والفقه — لن يحيط بكل شيء علما !

° ° °

اتخذ الغربيون من هذه الأخبار الضعيفة حجة يقيمونها على ادعاءاتهم الكاذبة على الإسلام ، ينفثون منها سمومهم ، ويكيدون بها كيدهم !

فمن ذلك ما روى من أن النبى صلى الله عليه وسلم قرأ مرة سورة « النجم » وحين بلغ قوله تعالى : « أفرأيتم اللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى » أتبع ذلك بقوله : « تلك الغرانيق(١) العلا ، وإن شفاعتها لترتجى » ، وفى رواية : « إن شفاعتها لترتجى ، وإنها لمع الغرانيق العلا » وفى رواية ثالثة أنه قال: « والغرانقة العلا ، تلك الشفاعة ترتجى » .

فهذه ثلاث روايات فى هذه الواقعة :

الرواية الأولى هكذا : « أفرأيتم اللات والعزى ، ومناة الثالثة الأخرى ، تلك الغرانيق العلى ، وإن شفاعتها لترتجى » .

والرواية الثانية تجيء هكذا : « أفرأيتم اللات والعزى ، ومناة الثالثة الأخرى ، إن شفاعتها لترتجى ، وإنها لمع الغرانيق العلى »

والرواية الثالثة : « أفرأيتم اللات ، والعزى ، ومناة الثالثة الأخرى » ، والغرانقة العلا ، تلك الشفاعة ترتجى » .

والقرآن الكريم يقول : « أفرأيتم اللات والعزى ، ومناة الثالثة الأخرى ، ألكم الذكر ، وله الأنثى ، تلك إذن قسمة ضيزى(٢) . . إن هى إلا أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان »(٣) .

---

(١) الغرانيق : جمع غرنيق ، أو غرنوق ، أو غرانق وهو طائر مائى يشبه الكركى ، ويطلق على الشاب الأبيض الجميل .

(٢) أى قسمة جائرة اذا جعلوا لهم الذكور ، ولله الإناث ، والذكور فى عرفهم غير الإناث حتى أنهم لقد كانوا يئدون البنات .

(٣) سورة النجم آية ١٩ — ٢٢

ومدلول الروايتين الأولى والثانية ينبىء عن أن رسول الله قد ذكر فى تلاوته لسورة النجم آلهة قريش بخير، وجعل لها عند الله مكاناً علياً، حتى إنها لتشفع عنده، لمن يلتمس الشفاعة، ويستأهلها منها . .

وتقول الرواية . . إن النبى حين بلغ آخر السورة سجد، وسجد معه المسلمون والكفار لما سمعوه أثنى على آلهتهم » ! !

وقد تداخلت مع هذه الروايات روايات أخرى، وكأنها تريد أن تفسر هذه الواقعة، وتجد لها مخرجاً تتجه إليه .

فتقول بعض الروايات : إن الشيطان ألقى على لسان النبى هذا القول الذى قاله فى حق تلك الآلهة — اللات، والعزى، ومناة — وأنه صلى الله عليه وسلم كان قد ألم به ضيق وحزن شديد لما بينه وبين قومه من هذا الخلاف المستحكم، وتلك العداوة الصارخة، فتمنى فى تلك الحال أن لو نزل عليه شىء يقارب بينه وبين قومه، أو ألا ينزل عليه شىء ينفرهم عنه، ويباعد شقة الخلاف بينه وبينهم .. ! ولهذا فإن النبى حين تلا سورة النجم، وبلغ فيها الموضع الذى تذكر فيه تلك الآلهة ألقى الشيطان إليه بهذه الكلمات، التى ترفع من شأنها، وتجعل لها مكان الشفاعة عند الله . . ثم تستطرد الرواية فتقول : إن جبريل عليه السلام جاء النبى، فعرض عليه السورة، فلما بلغ الكلمتين اللتين أدخلهما الشيطان عليه، قال له : ما جئتك بهما ! ! فحزن لذلك النبى صلى الله عليه وسلم، فنزل قوله تعالى تسلية له : « وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبى، إلا إذا تمنى ألقى الشيطان فى أمنيته، فينسخ الله ما يلقى الشيطان، ثم يحكم الله آياته والله عليم حكيم[1] »، وقوله : « وإن كادوا ليفتنونك عن الذى أوحينا إليك لتفترى علينا غيره، وإذن لاتخذوك خليلا، ولولا أن ثبتناك لقد كدت تركن إليهم شيئاً قليلا، إذن لأذقناك ضعف الحياة وضعف الممات ثم لا تجد لك علينا نصيراً »[2] إلى قوله : « إلا رحمة من ربك، إن فضله

(١) سورة آية ٥٢ .

(٢) سورة الإسراء آية ٧٦ — ٨٨

كان عليك كبيراً ، قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن ، لا يأتون بمثله ، ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً »(١) .

وقد كانت هذه الروايات مثار بحث وجدل ، بين علماء المسلمين أنفسهم ، ثم بينهم وبين غيرهم ، ممن يتربصون بالإسلام ، ويتمنون له العثرات !

وقبل أن نقول رأينا فى هذه القصة ، وما تفرع لها من ذيول .. نعرض رأياً للقاضى « عياض » فى كتابه « الشفا » .

فقد كان للقاضى « عياض » نظر عميق دقيق فى هذه المسألة . فيه عقل ، وفيه فقه ، وفيه لون واضح مشرق ، من ألوان النقد ، والفحص .

يقول القاضى « عياض » :

« إن لنا فى الكلام على مشكل هذا الحديث مأخذين :

أحدهما : توهين أصله (فى سنده ، وفى معناه) .

والثانى : على تسليمه — أى على فرض التسليم بصحته .

المأخذ الأول

(١) توهين اصل الحديث :

« أما المأخذ الأول ، وهو توهين أصل الحديث — فيكفيك أنه حديث لم يخرجه أحد من أهل الصحة ، ولا رواه ثقة بسند سليم متصل .. وإنما أولع به ، وبمثله ، المفسرون والمؤرخون ، المولعون بكل غريب ، المتلقفون من الصحف كل صحيح وسقيم ، وصدق القاضى بكر بن العلاء المالكى حيث قال : لقد بلى الناس ببعض أهل الأهواء ، والتفسير ، وتعلق بذلك الملحدون ، مع ضعف نقلته(٢) ، واضطراب رواياته وانقطاع إسناده ، واختلاف كلماته ..

---

(١) سورة الإسراء آية ٨٨ .

(٢) أى نقلة حديث الغرانيق .

فقائل يقول إنه فى الصلاة(١) ، وآخر يقول : قالها فى نادى قومه ، حين أنزلت عليه السورة ، وآخر يقول . قالها ، وقد أصابته سنة ، وآخر يقول : بل حدث نفسه فسها ، وآخر يقول : إن الشيطان قالها على لسانه ، وأن النبى صلى الله عليه وسلم لما عرضها على جبريل قال : ما هكذا أقرأتك ، وآخر يقول : بل أعلمهم الشيطان أن النبى صلى الله عليه وسلم قرأها ، فلما بلغ النبى صلى الله عليه وسلم ذلك قال : والله ماهكذا نزلت.. إلى غير ذلك من اختلاف الرواه ، ومن حكيت هذه الحكاية عنه من المفسرين ، والتابعين ، لم يسندها أحد منهم ، ولا رفعها إلى صاحب(٢) .. وأكثر الطرق عنهم فيها ضعيفة واهية .

(ب) توهين معنى الحديث :

ثم يقول القاضى عياض : « هذا توهينه — أى الحديث — من جهة النقل ، فأما من جهة المعنى فقد قامت الحجة وأجمعت الأمة على عصمته صلى الله عليه وسلم ، ونزاهته عن فعل هذه الرذيلة ، إما من تمنيه أن ينزل عليه مثل هذا من مدح آلهة غير الله ، وهو كفر ، أو أن يتسور عليه الشيطان ويشبه عليه القرآن حتى يجعل فيه ما ليس منه ، ويعتقد النبى أن من القرآن ما ليس منه حتى ينبهه جبريل عليه السلام ، وذلك كله ممتنع فى حقه صلى الله عليه وسلم . . أو أن يقول ذلك فى نفسه من قبل نفسه عمداً ، وذلك كفر .. أو سهواً ، وهو معصوم من هذا كله .. وقد قررنا بالبراهين والإجماع عصمته صلى الله عليه وسلم من جريان الكفر على قلبه أو لسانه ، لا عمداً ، ولا سهواً ، أو أن يشتبه عليه ما يلقيه الملك بما يلقى الشيطان ، أو يكون لشيطان عليه سبيل ، أو أن يتقول على الله ، لا عمداً ولا سهواً ، ما لم ينزل عليه .. وقد قال تعالى : « ولو تقول علينا بعض الأقاويل ، لأخذنا منه باليمين ، ثم لقطعنا منه الوتين »(٣) .

---

(١) يشير الى بعض الروايات التى تقول ان النبى قرأ سورة النجم وذكر ما ذكر عن الغرانيق فى أثناء الصلاة .

(٢) أى صاحب لرسول الله « صحابى » .

(٣) سورة الحاقة آية ٤٥ ، ٤٦ .

ووجه ثان .. وهو استحالة هذه القصة ، نظراً ، وعرفاً . . وذلك أن هذا الكلام لو كان كما روى ، لكان بعيد الالتئام ، متناقض الأقسام ، ممتزج المدح بالذم ، متخاذل التأليف والنظم ، ولما كان النبى صلى الله عليه وسلم ، ولا من بحضرته من المسلمين ، وصناديد المشركين ممن يخفى عليه ذلك ، وهذا لا يخفى على أدنى متأمل ، فكيف بمن رجح حلمه ، واتسع فى باب البيان ومعرفة فصيح الكلام عليه ؟ ؟

ووجه ثالث : أنه قد علم من عادة المنافقين ، ومعاندى المشركين ، وضعفة القلوب والجهلة من المسلمين نفورهم لأول وهلة ، وتخليط العدو على النبى صلى الله عليه وسلم لأقل فتنة ، وتعييرهم المسلمين والشماتة بهم الفينة بعد الفينة ، وارتداد من فى قلبه مرض ممن أظهر الإسلام — لأدنى شبهة . .

ولم يحك أحد فى هذه القصة شيئاً سوى هـــذه الرواية الضعيفة الأصل ، ولو كان ذلك لوجدت قريش بها على المسلمين الصولة ، ولأقامت بها اليهود عليهم الحجة ، كما فعلوا — مكابرة — فى قصة الإسراء ، حتى كانت فى ذلك لبعض الضعفاء ردة ، وكذلك ماروى فى هذه القصة ، ولا فتنة أعظم من هذه البلية لو وجدت(١)، ولا تشغيب للمعادى حينئذ أشد من هذه الحادثة لو أمكنت ! ! فما روى عن معاند فيها كلمة ، ولا عن مسلم بسببها بنت شفة ، فدل — ذلك — على بطلها ، واجتثاث أصلها ، ولا شك فى إدخال بعض شياطين الإنس والجن هذا الحديث على بعض مغفلى المحدثين ، ليلبس به على ضعفاء المسلمين .

ووجه رابع . . ذكر الرواة لهذه القضية أن فيها نزلت — الآية — « وإن كادوا ليفتنونك عن الذى أوحينا إليك ، لتفترى علينا غيره ، وإذن لاتخذوك خليلا ، ولولا أن ثبتناك لقد كدت تركن إليهم شيئاً قليلا »(٢) . . وهاتان

---

(١) أى أنه لو وقعت حادثة « الغرانيق » على الوجه الذى رويت به لكانت أعظم فتنة تحب فيها قريش وتضع . ويقول فيها اليهود ويتقولون .

(٢) سورة الإسراء آية ٧٣ ، ٧٤ .

الآيتان تردان الخبر الذى رووه ، لأن الله تعالى ذكر أنهم كادوا يفتنونه حتى يفترى ، وأنه لولا أن ثبته — الله — لكاد يركن إليهم .

« فمضمون هذا ومفهومه أن الله تعالى عصمه من أن يفترى ، وثبته ، حتى لم يركن إليهم قليلا ، فكيف كثيراً ؟

وهم — أى الرواة — يروون فى أخبارهم الواهية أنه زاد على الركون والافتراء بمدح آلهتهم ، وأنه قال صلى الله عليه وسلم : افتريت على الله وقلت ما لم يقل . . وهذا ضد مفهوم الآية ، وهى تضعف الحديث لو صح . فكيف ولا صحة له ؟ وهذا مثل قوله تعالى فى الآية الأخرى : « ولولا فضل الله عليك ورحمته لهمت طائفة منهم أن يضلوك وما يضلون إلا أنفسهم ، وما يضرونك من شىء »[1] ، وقد روى عن ابن عباس — أنه قال — « كل ما فى القرآن « كاد » فهو لا يكون »[2] قال الله تعالى :« يكاد سنا برقه يذهب بالأبصار » ولم يذهب.. و « أكاد أخفيها» [3] ولم يفعل !

قال القشيرى القاضى : « ولقد طالبته — أى النبى — قريش وثقيف إذ مر بآلهتهم أن يقبل بوجهه إليها ، ووعدوه الإيمان به إن فعل ، فما فعل ، وما كان ليفعل » .

المآخذ الثانى

التسليم بصحة الحديث :

يقول القاضى عياض : « وأما المأخذ الثانى فهو مبنى على تسليم الحديث لو صح ، وقد أعاذنا الله من صحته . . ولكن على كل حال ، فقد أجاب عن ذلك أئمة المسلمين بأجوبة ، منها الغث والسمين . . فمنها :

---

(١) سورة النساء آيه ١١٢ « كاد » .

(٢) أى ماجاء من القرآن بلفظ « كاد » فمعناه أنه لايقع ، ولايكون .

(٣) أى « الساعة » فى قوله تعالى : « إن الساعة آتية أكاد أخفيها » .

١ — ما روى عن قتادة ومقاتل .. « أن النبي صلى الله عليه وسلم أصابته سنة عند قراءته هذه السورة ، فجرى هذا الكلام على لسانه بحكم النوم » !

وهذا لا يصح ، إذ لا يجوز على النبي مثله ، فى حالة من أحواله ، ولا يخلقه الله على لسانه ، ولا يستولى الشيطان عليه فى نوم ، ولا يقظة ، لعصمته فى هذا الباب من جميع العمد والسهو .

٢ — وفى قول « الكلبى » إن النبي صلى الله عليه وسلم حدث نفسه ، فقال ذلك الشيطان على لسانه .. وفى رواية «ابن شهاب» عن أبى بكر بن عبد الرحمن ، قال : وسها — أى النبي — فلما أخبر بذلك قال : إنما ذلك من الشيطان » .

ويرد القاضى عياض هذه الروايات بقوله :

وكل هذا لا يصح أن يقوله النبي صلى الله عليه وسلم ، لا سهواً ولا قصداً ، ولا يتقوله الشيطان على لسانه .

٣ — وقيل : لعل النبي صلى الله عليه وسلم قاله — أى هذا القول — أثناء تلاوته ، على تقدير التقرير والتوبيخ للكفار ، كقول ، إبراهيم عليه السلام : « هذا ربى » (١) على أحد التأويلات (٢) .. (وأن النبي حين قال ذلك قاله) بعد السكت ، وبيان الفصل بين الكلامين ، ثم رجع إلى تلاوته » .

يقول القاضى عياض : وهكذا يمكن مع بيان الفصل وقرينة تدل على المراد ، وأنه ليس من المتلو — أى ليس من القرآن — ..

ولا يعترض على هذا بما روى أنه كان — أى هذا القول — فى الصلاة ، فقد كان الكلام قبل فيهـا غير ممنوع (٣) . . . والذى يظهر ويترجح فى

---

(١) يشير إلى ما حكاه القرآن عن إبراهيم فى قوله تعالى : « فلما رأى القمر بازغاقال هذا ربى ، فلما أفل قال : لا أحب الآفلين » .

(٢) من التأويلات التى يذهب إليها المفسرون فى قول إبراهيم عن القمر « هذا ربى » ، وعن الشمس : « أهذاربى » أنه قال ذلك على طريق الاستفهام المراد به السخرية والاستهزاء أى « أهذا ربى » ؟ استصغاراً لشأنه !

(٣) أى كان الكلام أول ما فرضت الصلاة مباحا فيها ، ثم حرم بعد ذلك .

هذا التأويل عند المحققين على تسليمه — أى التسليم بصحة الحديث — أن النبى صلى الله عليه وسلم كان كما أمره ربه يرتل القرآن ترتيلا ، ويفصل الآى تفصيلا فى قراءته ، كما رواه الثقات عنه ، فيمكن ترصد الشيطان لتلك السكتات ودسه فيها ما اختلقه من تلك الكلمات ، محاكيا نغمة النبى صلى الله عليه وسلم بحيث يسمعه من دنا إليه — إلى النبى — من الكفار ، فظنوها من قول النبى صلى الله عليه وسلم وأشاعوها ، ولم يقدح ذلك عند المسلمين لحفظ السورة قبل ذلك على ما أنزلها الله ، وتحققهم من حال النبى صلى الله عليه وسلم فى ذم الأوثان وعيبها كما عرف منه .

وقد حكى موسى بن عقبة فى « مغازيه » نحو هذا ، وقال : إن المسلمين لم يسمعوها ، وإنما ألقى الشيطان ذلك فى أسماع المشركين ، وقلوبهم . . ويكون ما روى من حزن النبى صلى الله عليه وسلم إنما لهذه الإشاعة والشبهة وسبب هذه الفتنة . . وقد قال الله تعالى : « وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبى إلا إذا تمنى ألقى الشيطان فى أمنيته ، فينسخ الله ما يلقى الشيطان ، ثم يحكم الله آياته والله عليم حكيم » (١) فمعنى « تمنى » تلا ، قال الله تعالى : « لا يعلمون الكتاب إلا أمانى » أى تلاوة . وقوله سبحانه : « فينسخ الله ما يلقى الشيطان » أى يذهبه ، ويزيل اللبس به ، ويحكم آياته .

٤ — مما يظهر فى تأويله — أى هذا الحديث — أن مجاهداً روى هذه القصة . . « والغرانقة العلا » . .

يقول القاضى عياض : فإن سلمنا القصة ، قلنا لا يبعد أن هذا كان قرآناً (٢) والمراد « بالغرانقة العلا ، وأن شفاعتهن لترتجى » الملائكة (٣) على هذه الرواية ، وبهذا فسر الكلبى « الغرانقة » أنها الملائكة ، وذلك أن الكفار كانوا يعتقدون

(١) سورة الحج آية ٥٢ .

(٢) أى يقرأ على هذا الوجه : « أفرأيتم اللات والعزى . ومناة الثالثة الأخرى » ، والغرانقة العلا ، تلك الشفاعة ترتجى » .

(٣) يقول الله سبحانه وتعالى : « وكم من ملك فى السموات ، لا تغنى شفاعتهم شيئاً ، إلا من بعد أن يأذن الله لمن يشاء ويرضى » .

الأوثان ، والملائكة بنات الله ، كما حكى الله عنهم (١)، ورد عليهم فى هذه السورة بقوله « ألكم الذكر وله الأنثى » ، فأنكر الله كل هذا من قولهم . . . ورجاء الشفاعة من الملائكة صحيح . . فلما تأوله المشركون على أن المراد بهذا الذكر آلهتهم ، ولبس عليهم الشيطان ذلك ، وزينه فى قلوبهم ، وألقاه إليهم نسخ الله ما ألقى الشيطان ، وأحكم آياته ورفع تلاوة تلك اللفظتين اللتين وجد الشيطان بهما سبيلا للإلباس ، كما نسخ كثير من القرآن ، ورفعت تلاوته ، وكان فى إنزال الله تعالى لذلك حكمة وفى نسخه حكمة ، ليضل به من يشاء ، ويهدى من يشاء ، وما يضل به إلا الفاسقين ، و « ليجعل ما يلقى الشيطان فتنة للذين فى قلوبهم مرض ، والقاسية قلوبهم ، وإن الظالمين لفى شقاق بعيد ، وليعلم الذين أوتوا العلم أنه الحق من ربهم فيؤمنوا به فتخبت له قلوبهم ، وإن الله لهادى الذين آمنوا إلى صراط مستقيم » (٢).

٥ — وقيل : إن النبى صلى الله عليه وسلم لما قرأ هذه السورة ، وبلغ ذكر « اللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى » خاف الكفار أن يأتى بشىء من ذمها ، فسبقوا إلى مدحها بتينك الكلمتين . ليخلطوا فى تلاوة النبى صلى الله عليه وسلم ويشنعوا عليه ، على عادتهم . وقولهم : « لاتسمعوا لهذا القرآن ، والغوا فيه لعلكم تغلبون » ونسب هذا العمل إلى الشيطان ، لحمله لهم عليه .. وأشاعوا ذلك ، وأذاعوه ، وأن النبى صلى الله عليه وسلم قاله ، فحزن لذلك من كذبهم ، وافترائهم عليه ، فسلاه الله تعالى بقوله : «وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبى إلا إذا تمنى ألقى الشيطان فى أمنيته فينسخ الله ما يلقى الشيطان ، ثم يحكم الله آياته ، والله عليم حكيم » (٣) .. وبين للناس الحق من الباطل ، وحفظ القرآن ، وأحكم آياته ، ودفع ما لبس به العدو ، كما ضمنه تعالى فى قوله : « إنا نحن نزلنا الذكر ، وإنا له لحافظون »(٤).

---

(١) فى قوله تعالى : « وإنهم ليسمون الملائكة تسمية الأنثى » .

(٢) سورة الحج آية ٥٣ ، ٥٤ .

(٣) سورة الحج آية ٥٢ .

(٤) من كتاب الشفا بتعريف حقوق المصطفى ، للقاضى عياض ص ١١٩ .

تلك هى القصة التى جاءت فى بعض كتب السيرة ، ونقلها بعض المفسرين ، وهى كما ترى أشبه برواية مهلهلة النسج ، متهدمة البناء ، أراد مخرجوها أن يخفوا عوارها ، ويستروا هزالها فألقوا إليها كثيراً من الرقع ، حتى لىكاد يختفى الأصل ، ولا يرى إلا تلك المرقعات التى أضيفت إليها ! .

فالمادة التى قامت عليها القصة مادة فاسدة ، لا يتخلق منها شىء يصلح أن يعيش فى الحياة ، وأن يكتب له بقاء مع الأحياء .

إن فيصل الرأى فى هذه المسألة هو فى كلمة واحدة : نبى ، أو غير نبى .

فإن كان « محمد » غير نبى .. فهذا موقف له حسابه وتقديره ، وللكلام الذى يقال هنا حساب وتقدير .. فإذا كان « محمد » عند بعض الناس ليس نبياً ، فليس لنا مع من يرى هذا كلام .. فيما ينسب إلى « محمد » من أخطاء ، وما يلقى إليه من تهم .. إنه والحال كذلك يتحدث عن إنسان ، مجرد إنسان يجوز عليه ما يجوز على الناس من أخطاء ! .

أما إن كان « محمد » نبياً ، فإن الذى يعتقد هذا ، ثم يلحق به ما يجرى فى حياة الناس من أخطاء وعثرات ، وتخبطات ، فهذا مما لا يستقيم بحال أبداً مع صفة النبوة فإن النبى مبلغ عن الله ، وهو بهذه الصفة معصوم من الخطأ والنسيان فيما يتصل برسالته ، وما هو من أصول شريعته أو فروعها ، إذ أن أى انحراف فى هذا معناه سوق الناس إلى سبل معوجة مليئة بالعثرات والحفر ، على حين أن دعوة السماء إنما تدعوهم إلى صراط مستقيم ، صراط الله الذى له ما فى السموات وما فى الأرض ! .

ذلك هو ما يجب أن يتأكد ، ويتقرر أولا عند من يؤمن بالأنبياء . . إنهم لن يكونوا على غير تلك الحال التى توجب لهم العصـــمة ، وتحمى الرسالة التى يحملونها من أية شائبة تعلق بها !

وإن من الضلالة ، والجهل ، وسوء الفهم للنبوة ـــ أن يقول قائل إن « النبى » ويقولها هكذا « النبى » ـــ حين قرأ سورة النجم ، « سها » أو أخذته سنة أو غلبه خاطر قوى فى نفسه ، أو ألقى إليه الشيطان ، فذكر الأصنام التى كانت تعبدها

قريش ، وأثنى عليها ، ورفع منزلتها ، وجعل لها شفاعة عند الله !! أهذا كلام يلتقى أوله مع آخره ؟

نبى يقرأ قرآناً منزلا من السماء .. ثم تعدو عليه عوادى الشر فتغير من آيات الله ، وتبدل من شريعته ! ؟

أهذا قول يقول به عاقل ؟ وماذا يترك للمجانين بعد هذا ؟

قد يكون سائغاً أن تنفى عن محمد صفة النبوة ، على سبيل المكابرة ، أو من باب الكفر والإلحاد ، ثم يقال إنه قال فى معبودات قريش ما قال !! إن ذلك يكون من شأنه هو ، ولحسابه هو ، وليس للسماء فيه شأن أو حساب !

أما وأن محمداً نبى فإنه فى عصمة .. فوق الخطأ ، وفوق النسيان !

عن عبد الله بن عمر — رضى الله عنهما — قال : قلت يارسول الله .. أأكتب عنك كل ما أسمع منك ؟ قال : « نعم » .. قلت : فى الرضا والغضب : قال : نعم، فإنى لاأقول فى ذلك كله إلا حقاً »[1] .

ولاتسأل بعد هذا عما فتح ذلك الباطل من حديث « الغرانيق » وأمثاله — على المستشرقين ومن إليهم ؛ من مجالات فسيحة يصولون فيها ويجولون ويغمزون ويلمزون .. إذ اتخذوا من هذا الحديث المختلق الملفق حجة لإدانة الإسلام ، وسلاحاً لتجريح القرآن ، ووصفه بالصفة التى تجعله أحاديث متصيدة من هنا وهناك . بعضها من السماء ، وبعضها من الشيطان !

فأى كتاب هذا الذى تتنازعه تلك القوى ، وتتوزعه تلك الجهات ؟ وأى شريعة تقوم على هذا البناء الذى تعمل فيه يدان متغايرتان .. يد تبنى والأخرى تهدم؟ وأى نبى هذا الذى يدعو إلى عبادة الله ، وإلى عبادة معبودات من دون الله ؟

هكذا يريد المستشرقون أن تكون شريعة الإسلام ، وعلى تلك الصورة يودون أن يكون مفهوم القرآن .. دستور الشريعة . وترجمان أحكامها .. !

« يريدون ليطفئوا نور الله بأفواههم والله متم نوره ولو كره الكافرون[2] » .

---

(١) الشفا ص ٥ ١ ٥ (٢) سورة الصف آية ٨

الباب السادس

الداعي وموطن الدعوة

مفارقات ، ومقابلات :

داعية أمى .. ماقرأ كتاباً ، ولا خط بيمينه سطرا . .

وقوم أميون .. أعراب بادية ورعاة إبل وشاه . .

وموطن مقفر جدب .. لايمسك ماء ، ولايخرج حباً . .

ماذا يقع فى حسبانك من دعوة الداعى فى هذا الموطن القفر ، ومع هؤلاء الرعاة الأجلاف ؟

ولا تنظر فى حسابك هذا إلى أن الداعى هو « محمد » ، ولا أن الموطن هو الجزيرة العربية ، ولا أن القوم هم أمة العرب !

واجعل نظرتك هذه لأية داعية أمى ، فى أى بلد قفر ، وفى أى مجتمع يعيش عيش البادية ، ويحيا حياة الصحراء ! !

وانظر حينئذ ماذا يقع فى تقديرك لدعوة هذا الداعى . . فى بيئته تلك ، وفى أقوامه هؤلاء ؟

أيخرج بك التقدير لهذه الدعوة — فى أحسن أحوالها — عن أن تكون نسمة عليلة بليلة هبت فى أعقاب يوم طويل من أيام السموم ، فاستروحت بها النفوس ساعة ، ثم ذهبت وذهب ريحها ! ؟

أو أن تكون نغما شجياً مؤنساً فى وحشة الليل ، وفى هجمة سواده الحالك . . ثم لايلبث هـذا النغم أن يذوب ، ويغرق فى هذا السكون المطبق العميق ؟!

أو أن يكون دوحة ظليلة ينزل بها السفر المتعبون ساعة من نهار ، يتقون لفح الهاجرة ووهج الهجير ثم يتركونها ليستقبلوا هواجر الشمس المحرقة ، ولفح السموم المستعر !

إنه لن يكون لهذا الداعي في هذه الأحوال وفي تلك المواطن إلا هذا الأثر المحدود الموقوت ، الذي يلمع البرق في سواد ليل حالك ، ثم ينطفىء في فحمة هذا الليل ، ويغوص في ظلامه الدامس !

أرأيت الشعراء ، والمغنين والحداة ، وأرباب الآداب والفنون . . ماذا بقي في هذه المواطن من آثارهم ؟ وماذا خلد في الحياة من أعمالهم ؟ ذكريات عابرة ، ووقفات قصـــيرة يقفها المعجبون بتلك الآثار كما يقفون على الدمن والأطلال !

حساب غير هذا الحساب :

ولكن الأمر يختلف أشد الاختلاف ، ومحصل النظر يجيء بما لم يقع في التقدير والحسبان حين يستقبل الإنسان بنظره مطلع « النبوة » في الأمة العربية .. في الصحراء العربية !

هنالك نجد الداعي على غير ماعرف الناس من الدعاة .

وهنالك نجد الصحراء ، وساكني الصحراء على غير ماعرفت الحياة من الصحاري وساكني الصحاري !

ومن ثم كان هذا « المحصول » الموفور من معطيات الخير ، وثمراته ، فيما غرس الداعي من غراس وفيما أخرجت الأرض من طيبات ، وفيما حصل الناس من خير ، وفيما بلغوا من كمال .. كل ذلك قد جاء على أتم وأكمل ما قدر للبشرية في هذه الحياة من تمام وكمال .

وندع كل أمي غير محمد .

وندع كل صحـــراء ، وكل من يسكن الصحراء . . غير صحراء العرب ، وسكان صحراء العرب .. ندع هذا كله ، ولا نطيل الوقوف عنده . ولا نردد النظر إليه .. فإنا لن نحصل هناك على شيء ذي بال مهما طال وقوفنا ويرداد

نظرنا . إذ لا جديد بعد النظرة الأولى فى هذا القفر .. الذى يضم كيانه كل شىء ، ويحوى الداعى ومن دعا .. !

وليكن وقوفنا كله عند هذا الداعية العربى الأمى ، وعند هؤلاء العرب الأميين .. فى هذا الموطن القفر الذى استوطنوه .

ماذا هناك ؟

هناك آيات بينات ، ومعجزات قاهرات ، وأحداث خطيرة مثيرة ، وانقلاب شامل فى ماديات الحياة ومعنوياتها جميعا .

نبى أمى .. وقوم أميون .. وأرض مجدبة .. وحياة غليظة جافية .

ومع هذا فإنه من كل هذه « الأميات » مجتمعات ، تلد الحياة أكرم مواليدها ، وتخرج فى الناس أطيب ثمراتها .. فتتفجر ينابيع الحكمة من فم هذا النبى الأمى ، وتقع فى عقول الناس وفى قلوبهم موقع الماء الغدق فى الأرض القفر ، فإذا الناس غير الناس ، وإذا الحياة غير الحياة ... وإذ أعراب البادية ، ورعاة الإبل شامة فى الناس ، وأساتذة فى العلم ، وساسة للأمم ، وإذ هذا البلد القفر مطلع النور ، ومشرق الهدى ، ومهوى الأفئدة ، وقبلة أنظار العالم ، وموضع اهتمامه ... من عدو وصديق .

ما معنى هذا التوافق ؟

وإنه لمن غير الطبيعى أن تجتمع هذه « الأميات » كلها فى موطن واحد ، وتلتقى كلها على غاية واحدة ، ثم يكون منها هذا الفتح المبين ، فى ميادين الخير والفلاح كلها ... فى العلم ، وفى الخلق ، وفى السياسة ، وفى الاجتماع ، وفى كل ما يسمو بالإنسان ويرفع قدره ، ويحفظ عليه وجوده الكريم فى الدنيا ، ويفتح له الطريق إلى رضوان الله فى الآخرة .

من غير الطبيعى أن يكون لهذه « الأميات » من الخير ، والكمال والسمو فى اجتماعها ما لم يكن لأضدادها مجتمعة أو متفرقة ..

فما كان لداعية غير أمى ، بلغ ما بلغ فى العلم والحكمة . . فى أمة متحضرة تزخر بالمدارس والجامعات ، وتفيض بالخيرات والثمرات ـ أن يجىء بمثل ماجاء به النبى الأمى من علم وحكمة ، ولا أن تثمر دعوته هذا الثمر الطيب المبارك ، الذى أخرجته الجزيرة العربية من بين صخورها ورمالها ، وأنضجته على سمومها وزمهريرها !

هذا هو واقع الحياة التى يحياها الناس : فلا يستوى الخصب والجدب ، ولا يتعادل الحضر والبدو ، ولا يتوازن القارىء والكاتب والأمى الذى لا يقرأ ولا يكتب !.

ذلك إذا جرت الحياة فى طريقها المرسوم .. ولكن حين يصطفى الله من يصطفى من خلقه ، تنتصب لذلك أسباب خفية لا نعلمها ، فتهيىء لهذا المصطفى سبيل الخير ، وتمهد له طريق الفلاح ، من حيث لا يتوقع الناس ، ولا ينتظرون !

ولقد اصطفى الله « محمداً » لأعظم رسالة ، واختصه بأفضل دعوة ، فجعله مبعوثه إلى الناس كافة ، بل إلى الثقلين من الإنس والجن ؛ وجعل رسالته خاتمة الرسالات ، والكلمة الأخيرة بين السماء والأرض !

ولم تكن تلك النفحة السماوية التى اختص الله بها نبيه الكريم محجوبة عن موطن هذا النبى وقومه ، فكان لهم من هذه النفحة ميراث القريب من قريبه ، وحق الجار على جاره !

وعلى هذا ، فاننا إذ نجد فى « النبى » الأمى ما نجد من جلال النبوة وعظمة النبى . . نجد كذلك عروقاً طيبة كريمة ممتدة من هذا الجلال وتلك العظمة إلى هذه المواطن وأهلها ، فان رحمة الله واسعة ، وفضله عظيم (والله يختص برحمته من يشاء ، والله ذو الفضل العظيم) .

وسنرى كيف التقى النبى الأمى بقومه الأميين ، فى تلك الصحراء القاحلة ، فكان هذا اللقاء مقدوراً بقدر ، موقوتاً بميقات ، ليجمع بين أمية الرسول ، وأمية المرسل إليهم ، وجدب الموطن وفقره ، وكان من هذا اللقاء الخير كله ، والنور كله ، والهدى كله .. وذلك لا شك شاهد عدل من شواهد صدق الرسالة ، وآية ناطقة من بينات آياتها . . !

هذا النبى الأمى :

إنسان موطنه الصحراء ، ومرباه فى اليتم والفقر ، ونشأته على الأمية والبداوة ، ومسرحه ومراحه بين الجبال وعلى الرمال !

هذا هو « محمد » بن عبد الله فيما كان يراه الناس ، وفيما كان يرى هو من نفسه قبل أن يختاره الله لدينه ، ويصطفيه لرسالته !

فما كان « محمد » فى مولده ، وفى نشأته ، وفى صباه ، وفى شبابه واكتهاله إلا واحداً من آحاد قومه ، وإلا نبتة من نبت الصحراء فى هذا البلد القفر ، وفى هذا الموطن الصحراوى الجديب .

ولكن ما يكاد هذا الإنسان يبلغ الأربعين من عمره حتى يصبح حديثاً عالياً فى فم الوجود كله ، ثم لا ينقطع هذا الحديث أبداً . . إلى اليوم وإلى ما بعد اليوم . . فسيظل « محمد » حديثاً متصلا فى أوليائه وأعدائه جميعاً ، ما دامت الحياة ، وما عاش الناس فى الحياة ،

نعم .. قد كانت فى حياة « محمد » قبل الأربعين شواهد ومخايل ترفع مقامه فى قومه ، وتعلى منزلته فيهم ، وتفرض احترامه عليهم . . ولكن لم يكن ذلك بالقدر الذى يعزله عنهم ، ويقطع الصلة بينه وبينهم . .

فان « محمدا » — على ما كان فيه من صفات كريمة بارزة ، وأخلاق رضية عالية قبل بعثته — لم تأخذ هذه الأخلاق وتلك الصفات لونا صارخاً فى حياته ، ولم يتخذ هو منها موقفاً حادا فى قومه . . فعاشت فيه هذه الصفات وتلك الأخلاق كما يعيش اللؤلؤ الكريم فى أعماق البحر ، إلى أن يلقاه القدر بمن يكشف عنه ، ويجليه . . بهجة للناظرين ، وعجباً معجباً للمتوسمين !

ونعم .. كان « محمد » - قبل البعثة - حديثاً طيباً فواحاً بالحمد ، نفاحاً بالثناء ، من كل من خالطه ، واتصل به من قرب أو بعد . . فلقد كان فى خلقه السمح الرضى ، وفى لسانه العف الطهور ، وفى سيرته المحمودة المستقيمة . . كان فى كل هذا المثل الذى يتمثله أصحاب المثل الفاضلة ولايحققونه ، وكان القدوة التى ينزع إليها أصحاب الهمم العالية ولا يستطيعونها . . . ومع ذلك فقد كان هذا

الحديث الطيب عن «محمد» يجرى على ألسنة الناس ، فى هينة ورفق ، ويدور فى خواطرهم على ترفق ومهل ، فلم يجتمع له الناس يوماً اجتماع المتفرجين على أمر عجب ، أو حدث غريب .. وإنما ظل «محمد» يلق الناس ويلقونه ، دون أن يروا فيه إلا مايرون من نسمة عطرة ، تنشرح الصدور وتنعش النفوس ! وإلا ما يتوسم المتوسم من روض أنيق معجب ، فى صحراء قاحلة !

النبأ العظيم :

ولكن ما إن تلقى «محمد» رسالة السماء وأذن فى الناس أنه رسول رب العالمين حتى وقع هذا الانقلاب الشامل ، الذى لم تشهد الحياة له مثيلا، ولم يعرف له الناس شبيها ، فيما حدث من أحداث !

وحين تلقى أهل مكة هذا النبأ أول ما تلقوه وجموا له ، وجمدوا .. شأنهم فى هذا شأن من طالع عليه أمر مذهل لم يكن فى حسبانه ، فتتبلد معه مشاعره ، وتخمد له أنفاسه ، ثم لا يلبث أن يضطرب كيانه ، وتعلوه رعدات ورعشات ، وكذلك كان أهل مكة .. فما أن زايلتهم صدمة المفاجأة حتى اضطربوا وماجوا ، وركبتهم رعدة حمى خبيثة راعشة ، كان منها تلك الأصوات المجلجلة لتكسر العظام ، وتصادم الأسنان ! حتى لقد تجاوز صداها حدود مكة إلى من حولها من العشائر والقبائل !

وشيئا شيئا تجمع من أبخرة هذه الحمى ما جعل مراجل الحقد والحسد تغلى فى الصدور ، وتئز بين الأضلاع ، ثم لم تلبث أن تصدعت تلك الصدور ، وأخذت تتفجر !

وبدأت أصوات الانفجار تسمع متقطعة .. هنا وهناك .. من السباقين إلى الشر ، والمسارعين إلى داعى السفاهة والغى .. ثم تتابعت تلك الانفجارات وتمازجت ، حتى لكأنها بركان عظيم فتح فوهته ، وجعل يرمى باللهب والحمم !

هدوء العاصفة :

وككل شىء .. له غاية ونهاية .. فقد انتهى هذا الغليان إلى غايته ، وبلغ مداه ، فهدأت العاصفة ، وسكن البركان !

فلقد حرس الله الدعوة السماوية أن تحترق بلهب هذا البركان وتتحول إلى رماد ، كما عصم نبيه أن ينتقم لنفسه من قومه ، فيدفع هذه النار الممتدة إليه من ألسنتهم وأيديهم ، فتأخذهم ، وتدمدم عليهم . . بل صبر وصابر ، واحتمل من الشدائد ما احتمل ، حتى سكنت ثورة البركان وبرد حممه !

وقد صنع الله للدعوة الإسلامية من هذه المحنة ما صنع من خير . . فلو أن هذه الشرور البادية الصارخة التى ألقت بها قريش فى وجه هذا النبى الكريم جرت على طبيعتها وامتدت إلى غايتها لكان حريا بها أن تفسد ما بين النبى وقومه ، كما أفسدت مثل هذه الشرور بين كثير من الأنبياء وأقوامهم ، ولكان نصيب هذه الرسالة الكريمة الضياع وكانت خاتمة هؤلاء القوم الهلاك ، كما ضاعت كثير من رسالات الأنبياء ، وكما هلك كثير من أقوامهم ، لما كان منهم عن عناد وإعنات . وإنه لمعجزة أخرى من معجزات الدعوة الإسلامية ، وآية من آياتها أن تثمر هذا الثمر الطيب الكريم على فوهة هذا البركان ، وأن تمتد جذورها ، وتسمق فروعها فى هذه الأرض المتحجرة الصلدة ، التى كان من شأنها ألا تمسك ماء ، ولا تخرج نباتاً . . والله سبحانه وتعالى يقول وهو أصدق القائلين « ألم تر أنا نسوق الماء إلى الأرض الجرز ، فنخرج به زرعا تأكل منه أنعامهم ، وأنفسهم أفلا يبصرون » ! ؟ (١) .

مولد النبى :

تحدث كثير من كتاب السيرة النبوية ورواتها عن عجائب كثيرة ، ومشاهد مثيرة ، صحبت مولد النبى ، ليجعل منها هؤلاء الكتاب وأولئك الرواه شواهد على تأكيد نبوه النبى ، وليقيموا منها دلائل على أنه مؤيد بالمعجزات من قبل أن يأتيه الوحى !

ولقد وقع فى تفكير هؤلاء الذين تصدوا لكتابة سيره الرسول ، أو تحملوا رواياتها — وقع فى تفكيرهم أن من كمال النبوة وشرفها ألا يكون النبى محكوماً بضرورات الحياة الإنسانية ، وألا يجرى عليه ما يجرى على الناس فى شأن هذه

---

(١) سورة السجدة آية ٢٧ .

الضرورات ، ومخالطته لها . . وإلا فما الفرق - حسب تقديرهم - بين النبى وغير النبى ؟

ولو استطاع تفكير هؤلاء أن يجد مخرجا يخرج به النبى عن أن يولد لأبوين كما يولد الناس ، وأن يجوع كما يجوع الناس ، ويظمأ كما يظمأ الناس ، ويألم كما يألمون ، ويفرح ويحزن كما يفرحون ويحزنون - لو استطاع تفكيرهم أن يجد مخرجاً يخرج به النبى من هذه الضرورات وما إليها ، لما وقف عند شىء منها ، ولما جعل للنبى حالا من أحوالها .

وإذ لم يكن من المستطاع إنكار هذا الواقع الذى قامت الحياة شاهدة عليه ، مسجلة أن النبى قد حملت به أمه جنيناً . وولدته طفلا ، ثم كان له رضاعة وفطام ، وكان له صبى ، وشباب ، واكتهال ، وكان له فى كل هذه الأدوار نوم ويقظة ، وطعام وشراب ، وغدو ورواح . . إلى أن بلغ الكتاب أجله ، وجاءه رسول السماء ينبئه أنه نبى الله ورسوله - نقول إنه إذ لم يكن من المستطاع إنكار هذا الواقع الذى عاش فيه النبى وشهدت به الحياة ، فقد كان من المستطاع أن يدخل الداخلون على هذا الواقع بما يسعفهم به الرأى من إضافة وحذف ، ومن تعديل وتبديل بما يرضى نفوسهم ، ويسعد مشاعرهم . .

وقد كان للخيال هنا دوره فى تلوين هذه المشاهد بلمسات فيها الحذق والمهارة أحياناً ، كما يظهر عليها الغباء والبلادة فى كثير من الأحيان .

ولا بأس أن نقف هنا وقفة مع هذه المرويات والأخبار التى تتحدث عن العجائب والمفارقات التى تناقلها الرواه والمؤرخون عن مولد النبى ، وما قام بين يدى المولد أو سبقه منها . . ثم نعرض هذه الأخبار على الوثائق التاريخية المحققة ، من جهة ، وعلى طبيعة النبوة ومناحى جلالها وكمالها من جهة أخرى . . فما استقام من تلك الروايات وهذه الأخبار على هذا العرض رضينا به وقبلناه ، وما لم يستقم على هذا العرض أعرضنا عنه ورفضناه .

على أننا نستطيع أن نسبق هذا العرض كله ، وأن نصدر حكما قاطعاً فى هذه المرويات المحملة بالغرائب والعجائب من سيرة النبى قبل البعثة ، فنقول :

إن هذه المرويات ماصح منها وما لم يصح ، وما وقع وما لم يقع — ليس لها كبير شأن فى مقام النبوة . ، فى أى جانب منها .

وسواء أضيفت هذه المقولات جميعها إلى النبى ، أو ذهبت جميعها من سيرته ، فإن « مؤشر » ميزانه فى مقام العظمة والسمو والجلال لايتحرك يمنة أو يسرة ! . بل ربما لو رفعت هذه المعجبات من حياة النبى لكان ذلك أرفع لمنزلته ، وأكرم لذاته . . عند من يبحثون عن مواقع العظمة فى العظماء . . أما مقام الرسول الكريم فى ذاته فقد جل عن أن يتأثر بشىء من هذا ، فقد رفعه ربه ، وأعلا مقامه بما لايخطر على قلب بشر . . فما منزلة فوق هذه المنزلة التى يخاطبه الحق جل وعلا بها ، فيقول له سبحانه : (ولسوف يعطيك ربك فترضى) ، . . فبهذا العطاء الموعود من رب العالمين يعلو النبى فوق كل مقام ، ويرتفع فوق كل منزلة .

وها نحن أولاء نقف وقفتنا تلك التى أشرنا إليها من قبل ، مع ما يروى من معجزات النبى الكريم ، ويضاف إليه .

الباب السابع

الرسول .. ومعجزات الرسالة

١ ـ أصحاب الفيل

قبل مولد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قاد « أبرهة » (١) إلى مكة جيشاً جراراً يريد أن يهدم الكعبة ، إذ كان قد بنى له « بيعة » فى « نجران » ، وأراد أن يحول إليها الشهرة العظيمة التى كانت للكعبة ، وأن يحمل الناس على الحج إلى بيعته ، فلما لم ير لبيعته شيئاً ولاشأنا ، إلى جانب ما كان للبيت الحرام ، لم يجد طريقاً إلى بلوغ غايته إلا هدم الكعبة ، وإزالة معالمها من الوجود ، فإنه إذا خلا مكانها من الأرض لايلبث الزمن أن يعمل عمله فى إخلاء مكانها من القلوب. وإذا فرغت قلوب الناس من متعلق دينى يتعلقون به التمسوا غيره ، وصار من الميسور الدخول إلى قلوبهم الفارغة بأى شيء يملأ هذا الفراغ ، ولو كان حجراً ! !

ولما بلغ جيش « أبرهة » مشارف مكة ، فزع أهلها فزعا شديداً لما بلغهم من أنباء « أبرهة » ، وهو فى طريقه إليهم ، وما فعل بمن وقفوا فى طريقه ، وما حل بهم وبديارهم ! . ثم لما شاهدوه عيانا من أبهة « أبرهة » وكثرة عدد جيشه وعدده ، واتخاذه « الفيل » مركباً ، الأمر الذى لم تعرفه العرب من قبل هذا !

وكان جيش أبرهة قد ساق ما صادفه فى طريقه من ماشية قريش ، دون أن يقف أحد فى وجهه ... وكان فيما حوى الجيش مئتا بعير لعبد المطلب بن هاشم ! جد النبى .. ثم إن أبرهة بعث رسله يقدمون عليه بسيد مكة ، وصاحب

---

(١) كان أبرهة حاكما على اليمن من قبل النجاشي ، وكان على دين النصرانية الذى كان يدين به النجاشي .

كلمتها . فجاءوه بعبد المطلب .. وكان فخماً ، رائع الطلعة ، مهيباً .. فلما رآه «أبرهة» أكبره ، ولكن أبى عليه كبرياؤه أن يجلسه على كرسيه كما أبت عليه عظمة عبد المطلب أن يجلسه دونه ، فنزل عن عرشه ، وجلس على البساط ، وأجلس عبد المطلب إلى جانبه ! وكان فيما قال لعبد المطلب : إنه لا شأن لى بكم إذا أنتم خليتم بينى وبين الكعبة حتى أهدمها ، فإن لم تفعلوا ، فها أنت ذا وما ترى !! ..

فأجابه عبد المطلب : « دونك البيت ولكن رد علينا ما أخذت من ماشيتنا» ! . .

وعجب «أبرهة» لعبد المطلب . . يسأله فى شأن الماشية ، ويدع البيت الذى يقوم عليه دينه . ! ؟ وخيل إليه أن عبد المطلب إنما يفتدى الماشية بالبيت ، فاهتزت منزلته عنده ، وصغر فى نظره ، ثم قال لعبد المطلب : قد كنت أعجبتنى حين رأيتك ، ثم زهدت فيك حين كلمتنى ! أتكلمنى فى مئتى بعير أصبتها لك ، وتترك بيتاً هو دينك ودين آبائك قد جئت لهدمه . . لا تكلمنى فيه ؟ ! فقال له عبد المطلب : أنا رب الإبل ، وأن للبيت رباً سيمنعه ! فقال أبرهة : ما كان ليمتنع منى ! قال عبد المطلب : أنت وذاك !!

ثم إن عبد المطلب عاد إلى مكة فأخبر قريشاً بما كان بينه وبين أبرهة ، وأشار على الناس أن يخرجوا من مكة ، وأن يتحرزوا فى شعف الجبال والشعاب ، تخوفا عليهم من معرة الحبش . . ثم قام عبد المطلب فأخذ بحلقة باب الكعبة ، وقام معه نفر من قريش ، يدعون الله ويستنصرونه على أبرهة وجنده ، وقال عبد المطلب وهو آخذ بحلقة باب الكعبة :

لاهم إن العبـــد يمـ	ـنع رحله فامنع حلالك[1]
لا يغلبن صليبهم	ومحالهم غدواً محالك[2]
جروا جموع جموعهم	والفيل كى يسبوا عيالك
عمدوا حماك بكيدهم	جهلا ، وما رقبوا جلالك

---

(١) لاهم : أى يا الله ، والحلال : القوم المجتمعون ، والمراد بهم هنا أهل البيت الحرام.
(٢) المحال : من الحول والقوة ، وغدواً : يريد به غداً ، أى ما بعد اليوم .

ثم أرسل عبد المطلب حلقة الباب ، وانطلق هو ومن معه من قريش إلى شعف الجبال ، فتحرزوا فيها . ينتظرون ما أبرهة فاعل بمكة إذا دخلها .

فلما أصبح أبرهة تهيأ لدخول مكة ، وهيأ فيله ، وعبأ جيشه، وأمر بالتحرك إلى مكة ، فحرن الفيل ، وأرسل الله عليهم طيراً ترميهم بحجارة من سجيل ، لا تمس أحداً إلا هلك .. وأصيب أبرهة فى جسده ، وخرجوا به معهم ، يسقط أنملة أنملة ، حتى قدموا به صنعاء وهو مثل فرخ الطائر ، فما مات حتى انصدع صدره عن قلبه (١) .

هـذه قصة « الفيل » كما يرويها أصحاب السير على اختلاف فى التفاصيل فيما بينهم ! وقد كانت أحداث هـذه القصة مادة خصبة ، ومرعى ممرعا للعواطف والخيالات .. وكان الفيل ، والطير ، والحجارة ، ركازة قوية لمن أراد أن يسبح بخياله ، أو يروى ظمأ عاطفته .

فالفيل يحرن لأنه قد أسر إليه بعض العرب (٢) بكلمة حذره فيها من أن يشارك فى هذا العمل الآثم ، ويزحف مع الزاحفين إلى هدم البيت ، فيعقل الفيل هذا القول الذى أسر له به ، وتعجز كل المحاولات والحيل عن أن تخطو به خطوة تجاه البيت الحرام !

والطير تتخذ فى قصص القصاص صوراً شتى . . فتارة تكون طيراً بحرية مثل الخطاطيف والبلسان ، وتارة تكون طيراً برية مثل النسور والعقبان ، وتارات أخرى هى ذباب أو بعوض ..

وكذلك الحجارة ، تختلف أحجامها ، وصفاتها ، وأفعالها . . فهى العدس أو الحمص ، أو هى خمائر أوبئة وجراثيم أمراض .. ومن يدرى ؟ فقد يجىء بعض مفسرى القرآن فى هذا العصر فيجعلها من بنات « الذرة » ومركباتها ! !

---

(١) انظر سيرة ابن هشام : الجزء الأول ص ٤٨ وما بعدها .

(٢) يقال إن نفيل بن حبيب هو الذى أسر إلى الفيل بألا يقرب البيت الحرام . ونفيل هذا هو الذى جعله أبرهة دليله فى الطريق إلى مكة على كره منه .

أما أصل القصة فثابت ثبوتا لاشك فيه بشهادة القرآن الكريم ، حيث أوردها القرآن فى سورة خاصة هى سورة «الفيل» فقال تعالى : « ألم تر كيف فعل ربك بأصحاب الفيل ؟ ألم يجعل كيدهم فى تضليل ؟ وأرسل عليهم طيراً أبابيل ، ترميهم بحجارة من سجيل ، فجعلهم كعصف مأكول »(١) .

وأنت ترى أن القرآن قد أجمل القصة إجمالا ، يبدو منه فى وضوح المعنى الذى ضمت عليه القصة ، وهو أن الله قد امتن على أهل مكة ، وأكرمهم بكرامة البيت الحرام ، وحفظه من أن تمتد إليه يد معتد !

ولم يلتفت القرآن إلى الفيل ، ولا إلى صاحبه ، ولا إلى الطير وما تحمل من مهلكات . . وإنما الذى أبرزه القرآن هو تلك القوة القوية الضاربة التى جاءت إلى البيت الحرام فى صورة مفزعة تريد أن تأتى عليه ، فردها الله بقوة قهرتها ، ودمدمت عليها . . !

ولعلك تقف من هذا المشهد الحربى موقف المعجب والمدهش حين ترى فيلة ضخاماً لا تنفذ السيوف فى جلودها ، ولا تعمل الحراب فى أجسامها . . هذه الفيلة تلقاها طيور صغيرة أشبه بالعصافير فتصرعها ، وتصرع من عليها من أبطال ! .

كل هذا قد جمعته خمس آيات من القرآن الكريم . . هن آيات السورة الكريمة «سورة الفيل» .

ولعلك تسأل : ما شأن قصة الفيل فى المعجزات التى تضاف إلى الرسول ؟ . والجواب على هذا أن الله سبحانه وتعالى قد دفع عن البيت الحرام هذا السوء الذى كان يراد به ، ليظل هذا البيت قائماً يستقبل نبى الإسلام ، وليكون قبلة صلاة المسلمين ، ومنسكا يؤدى عنده ركن من أركان الإسلام الخمسة ، وهو « الحج » ! .

فالمعركة إذن لم تكن لحساب قريش . ولا كان هذا الطير المحمل بالصواعق

---

(١) سورة الفيل .

نجدة من السماء لها ، وإنما كان ذلك لحساب الدين الجديد الذى تنفس صبحه بمولد النبى هذا العام ، « عام الفيل » ، وما كان هذا الطير إلا طلائع لقوى السماء التى ستمد — فيما بعد — وصحبه فى هذا الصراع الذى سيقع وتمتد أيامه ، وتتسع ميادينه ، بين المسلمين وأعداء الإسلام ! .

إن هذا المدد السماوى من الطير الأبابيل لهو نجدة سماوية بلا شك ، وفيها دلالة واضحة على أنها تقاتل فى جانب الحق ، وتنتصر له . .

وطبيعى أن جانب الحق كان مع البيت الحرام الذى تهيأ لاستقبال الإسلام ، وهو دين الله ، الذى أراد أن يظهره على الدين كله . .

فهذه المعركة هى انتصار للإسلام ، وإعداد له ، وليست انتصاراً لقريش ، ولا إمداداً من السماء لها . . إذ لو كان الأمر بين قريش وأبرهة . وكانت هناك أمداد من السماء لأحد الفريقين لكان ذلك لأبرهة ، لأنه يدين بدين سماوى هو «النصرانية» على حين كانت قريش على دين أو أديان فاسدة (١) .

ونخلص من هذا إلى أن «حادثة الفيل» وقد وقعت فى السنة التى ولد فيها النبى صلى الله عليه وسلم — قد كانت من غير شك آية من الآيات القائمة بين يدى النبوة ، وبشيراً من السماء يضع أول راية من رايات النصر للإسلام فى مركز الدعوة الإسلامية وفى مطلع الأفق الذى بزغ منه نبى الإسلام ! .

ولهذا كان الخطاب فى سورة الفيل موجهاً إلى النبى فى مقام التذكير بنعمة الله عليه ، ورعايته للإسلام ، قبل أن يحمل الرسول عبء الدعوة ، ويتولى الدفاع عنها .. « ألم تر كيف فعل ربك بأصحاب الفيل ؟ .. » .

ففى هذا الخطاب امتنان على الرسول بهذا الفضل الذى أسبغه الله على نبيه من قبل أن يكون له مع السماء شأن ، ومن قبل أن يحمل رسالة الله إلى الناس ، وفيه أيضاً مدد عظيم من الطمأنينة التى يجدها الرسول من ريح هذا الفصل السماوى الذى لابد أن يمتد ويتصل ، ويصحب الرسول فى كل أدوار حياته ،

---

(١) انظر تفسير ابن كثير الجزء الرابع « سورة الفيل » .

وهذا مما يزيد عزم الرسول ، ويثبت أقدامه فى مراقب الضيق والعنت الذى كان يلقاه من قريش ! حين يلتفت إلى الوراء فيرى كيف كانت عناية الله وحمايته لبيته . . فكيف تكون إذن عنايته ورعايته لصاحب رسالته ؟

أما قريش فقد كان من فضل الله عليها ببركة النبى ، وبحرمة البيت الحرام هذا الإيلاف الذى ألفوه فى رحلتى الشتاء والصيف . . إلى الشام ، صيفا ، وإلى اليمن شتاء ، يتجرون ، ويتبادلون المنافع بينهم وبين هذين الإقليمين ، آمنين مطمئنين فى خفارة البيت الحرام ، لأنهم سدنته والقائمون على شئونه ؛ وفى هذا يقول الله تعالى : « لإيلاف قريش إيلافهم رحلة الشتاء والصيف ، فليعبدوا رب هذا البيت ، الذى أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف » .

ونخلص من هذا كله أيضا إلى القول بأن حادثة الفيل كانت إرهاصاً لبعثة النبى ، وإيذانا بأول صدام بين دعوة الإسلام والمتربصين بها ، والضالين عنها . . يقول ابن قيم الجوزية : « وكان أمر الفيل تقدمة قدمها الله لنبيه وبيته ، وإلا فأصحاب الفيل كانوا نصارى أهل كتاب ، وكان دينهم خيراً من دين أهل مكة إذ ذاك ، لأنهم كانوا عباد أوثان (١) » .

٢ — فداء الذبيح

تحدث كتب التاريخ عن واقعة لعبد المطلب جد النبى غير واقعة الفيل التى أشرنا إليها منذ قليل . . تلك هى خلاص ابنه « عبد الله » والد النبى من الذبح ، ليقدم قربانا فى نذر نذره أبوه « عبد المطلب » .

وللقصة حديث طويل يبدأ بحفر زمزم على يد « عبد المطلب » امتثالا لهاتف هتف به فى منامه ثلاث ليال متواليه !

وقد وقفت قريش من عبد المطلب موقفا متعنتا عندما هم بحفر البئر وبعد تحفره . وفى هذا الموقف شعر عبد المطلب بحاجته إلى الرجال من الأولاد

(١) زاد المعاد جزء أول ص ٣٢ .

والأحفاد ، فنذر لئن أكمل الله له عشرة ذكور حتى يراهم ليذبحن أحدهم .

فلما تكاملوا عشرة جمعهم ثم أخبرهم بنذره ، ودعاهم إلى الوفاء لله به . فامتثلوا أمره ، وتركوا إليه أن يختار من يشاء منهم ، فضرب القداح بينهم فوقع الأمر على «عبد الله» وكان — فيما يروى — أحب أولاد عبد المطلب إليه !

ولم يجد عبد المطلب بداً من أن يقود ابنه الحبيب إلى المذبح . . فلما هم بذبحه قامت إليه قريش من أنديتها ، وقالوا : والله لا تذبحه أبدا حتى تعذر فيه . . لئن فعلت هذا ، لا يزال الرجل يأتي بابنه حتى يذبحه ، فما بقاء الناس على هذا ؟

وتتحرك أحداث القصة فى اتجاهات كثيرة ، وعبد المطلب يدور معها فى كل اتجاه ، وينتهى المطاف بأن يفدى عبد المطلب ابنه بمئة من الإبل . . تبدأ بعشرة ، ثم عشرين ، ثم ثلاثين إلى مئة . . لأنه كان فى كل مرة تضرب القداح بين «عبدالله» وبين الإبل يخرج سهمه . فيزاد عدد الإبل عشرة ، وهكذا . حتى كانت المئة ، فخرج السهم على الإبل . . وعد هذا العدد مقبولا عند الله ، وفيه رضى له عن «عبد الله» !

هذا هو ملخص القصة . . وقد رواها كثير من المؤرخين الثقاة ! وعلى رأسهم شيخهم «ابن إسحق» الذى قرن روايته لها بقوله : «فيما يزعمون ، والله أعلم» ، فلم ينفها ، ولم يحققها ، بل جعلها مما يزعم أصحاب الأخبار ونقلتها .

وعن «ابن إسحق» أخذ «ابن هشام» فى تاريخه «السيرة» (١) ، وكذلك أثبتها «ابن سعد» فى تاريخه : «الطبقات الكبرى» (٢) ...

ولم يرد فى القرآن الكريم ما يشير إلى هذه الواقعة فيما امتن الله به على نبيه ولكن قد ورد فى الحديث عنه صلى الله عليه وسلم قوله : «أنا ابن الذبيحين» . . .

---

(١) انظر الجزء الأول ص١٤١ وما بعدها من كتاب السيرة لابن هشام .
(٢) انظر الجزء الأول القسم الأول ص ٥٣ من الطبقات لابن سعد .

والحديث ضعيف ، لم يوثقه رواة الحديث .

ويستند رواة الأخبار على هذا الحديث فى واقعة عبد المطلب هذه مع ابنه عبد الله ، كما يستندون إليها من جهة أخرى على أن « إسماعيل — الجد الأعلى للنبى — هو الذبيح لا أخوه « إسحق » !

وقد نازع كثير من العلماء فى أن يكون « إسماعيل » هو الذبيح الذى أراد أبوه « إبراهيم » أن يذبحه امتثالا لأمر الله فيما أوحى إليه فى منامه .

وقد ذكر القرآن هذه الرؤيا فى قوله تعالى : « فلما بلغ معه السعى قال يابنى انى أرى فى المنام أنى أذبحك . فانظر ماذا ترى ؟ قال ياأبت أفعل ماتؤمر ، ستجدنى إن شاء الله من الصابرين . فلما أسلما ؛ وتله للجبين ، وناديناه أن ياإبراهيم قد صدقت الرؤيا ، إنا كذلك نجزى المحسنين ، إن هذا لهو البلاء المبين ؛ وفديناه بذبح عظيم [١] » .

نقول إن كثيرا من العلماء وخاصة المتعصبين على الإسلام من علماء أوربا نازعوا فى أن يكون إسماعيل هو الذبيح المفدى من السماء ، وإنما المفدى هو « إسحق » .

ومن عجب أن نجد رجلا « كالجاحظ » يذهب إلى هذا الرأى ويقول به [٢] وهذا مايدل على شدة تأثر الجاحظ بالثقافات الأجنبية من يونانية وفارسية ، كما يدل على كثرة مخالطته للعلماء غير الإسلاميين من نصارى ويهود !

والحق أن إسماعيل عليه السلام هو الذبيح ، وليس أخاه إسحق كما يظن خطأ بعض متفلسفة المسلمين ، وكما يقول زورا وبهتانا المنحرفون من غير المسلمين .

ولا نجد حجة أبلغ ولا أقوى من تلك الحجج القاطعة التى قدمها الإمام « ابن تيمية » فى تحقيق القول بأن إسماعيل . . هو الذبيح المفدى من السماء بذبح عظيم !

---

(١) سورة الصافات آية ١٠٢ — ١٠٧

(٢) انظر البيان والتبيين للجاحظ : جزء أول ص ٢٤٨ (طبعة السندوبى)

ولا يستمد ابن تيمية حججه من نصوص الكتاب الكريم وحده، إذ الذين لايدينون بالإسلام لا يأخذون أنفسهم بنصوص كتابه . . ولهذا يعمد ابن تيمية إلى الواقع التاريخي لإبراهيم عليه السلام وذريته ، وللظروف التي عاش فيها هو مع زوجيه — سارة وهاجر — . ويقيم على ذلك شواهد من التوراة نفسها . .

يقول ابن تيمية رحمه الله ،

« هذا القول — أي القول بأن إسحق هو الذبيح — متلقى من أهل الكتاب مع أنه باطل بنص كتابهم ، فإن فيه : « إن الله أمر إبراهيم أن يذبح ابنه ، بكره » . . ولا ينك أهل الكتاب مع المسلمين أن « إسماعيل ، هو بكر أولاده !

« والذي غر أصحاب هذا القول — أي القول بإسحق — : أن في التوراة التي بأيديهم : « ادع ابنك إسحق » . . وهذه زيادة من تحريفهم وكذبهم، لأنها تناقض قوله : « أدع بكرك ووحيدك »

« ولكن اليهود حسدت بني إسماعيل على هذا الشرف ، وأحبوا أن يكون لهم ، وأن يسوقوه إليهم ، ويختاروه لأنفسهم دون العرب ، وأبى الله إلا أن يجعل هذا لأهله .

وكيف يسوغ أن يقال : إن الذبيح إسحق، والله تعالى قد بشر أم إسحق به، وبابنه يعقوب ؟ فقال تعالى عن الملائكة : إنهم قالوا لإبراهيم لما أتوه بالبشرى: « لا تخف ، إنا أرسلنا إلى قوم لوط، وامرأته قائمة فضحكت ، فبشرناها بإسحق، ومن وراء إسحق يعقوب »(١) فمحال أن يبشرها بأنه يكون لها ولد ثم يأمر بذبحه !

ولا ريب أن يعقوب عليه السلام داخل في البشارة ، فتتناول البشارة إسحق ويعقوب في لفظ واحد ، وهذا ظاهر الكلام وسياقه . .

ويقال أيضاً : إن الله سبحانه لما ذكر قصة إبراهيم وابنه الذبيح في سورة الصافات قال . « فلما أسلما وتله للجبين ، وناديناه أن يا إبراهيم قد صدقت

---

(١) سورة هود ٧١ .

الرؤيا ، إنا كذلك نجزى المحسنين ، إن هذا لهو البلاء المبين ، وفديناه بذبح عظيم ، وتركنا عليه فى الآخرين ، سلام على إبراهيم ، إنا كذلك نجزى المحسنين ، إنه من عبادنا المؤمنين[١] » . ثم قال تعالى : « وبشرناه بإسحق نبيا من الصالحين[٢] » . . فهذه بشارة من الله تعالى له ، شكراً على صبره على ما أمر به ؛ وهذا ظاهر جداً فى أن المبشر به غير الأول ، بل هو كالنص فيه .

« فإن قيل : فالبشارة الثانية وقعت على نبوته ، لما صبر الأب على ما أمر به وأسلم الولد لأمر الله ؛ جازاه الله على ذلك بأن أعطاه النبوة !

قيل : البشارة وقعت على المجموع : على ذاته ، ووجوده ، وأن يكون نبيا ، ولهذا نصب « نبيا » على الحال المقدر ، أى مقدراً نبوته ، فلا يمكن إخراج البشارة أن تقع على الأصل ، ثم تخص بالحال الجارية مجرى الفضيلة . هذا محال من الكلام ، بل إذا وقعت البشارة على نبوته فوقوعها على وجوده أولى وأحرى

« وأيضا : فلا ريب أن الذبيح كان بمكة ، ولذلك جعلت القرابين يوم النحر بها ، كما جعل السعى بين الصفا والمروة ورمى الجمار تذكيرا لشأن إسماعيل وأمه ، وإقامة لذكر الله . . ومعلوم أن إسماعيل وأمه هما اللذان كانا بمكة ، دون إسحق وأمه ، ولهذا اتصل مكان الذبح وزمانه بالبيت الحرام الذى اشترك فى بنائه إبراهيم وإسماعيل ، وكان النحر بمكة من تمام حج البيت الذى كان على يد إبراهيم وابنه إسماعيل زمانا ومكانا ، ولو كان الذبح بالشام كما يزعم أهل الكتاب ومن تلقى عنهم لكانت القرابين والنحر بالشام ، لا بمكة .

أيضا : فان الله سبحانه وتعالى سمى الذبيح « حليما » لأنه لا أحلم ممن أسلم نفسه للذبح طاعة لربه ، ولما ذكر إسحق سماه « عليما » فقال تعالى :

---

(١) سورة الصافات : ١٠٣ — ١١١

(٢) سورة الصافات : ١١٢

« وبشروه بغلام عليم[1] » وهذا إسحق بلا ريب ، لأنه من امرأة إبراهيم، وهى المبشرة به ، وأما اسماعيل فمن السرية !

« وأيضا : فإنهما — إبراهيم وامرأته — بشرا به — بإسحق — على الكبر واليأس من الولد ، وهذا بخلاف إسماعيل ، فإنه ولد قبل ذلك .

« وأيضاً : فإن الله سبحانه أجرى العادة البشرية أن يكون بكر الأولاد أحب إلى الوالدين ممن بعده ، وإبراهيم عليه السلام لما سأل ربه الولد ، ووهبه له تعلقت شعبة من قلبه بمحبته ، والله وتعالى قد اتخذه خليلا ، والخلة منصب يقتضى توحيده المحبوب بالمحبة . وألا يشارك بينه وبين غيره فيها . . فلما أخذ الولد شعبة من قلب الوالد جاءت غيرة الخلة تنتزعها من قلب الخليل ، فأمره بذبح المحبوب ، فلما أقدم على ذبحه — وكانت محبة الله أعظم عنده من محبة الولد — خلصت الخلة حينئذ من شوائب المشاركة ، فلم يبق فى الذبح مصلحة ، إذ كانت المصلحة إنما هى فى العزم وتوطين النفس عليه .

ومعلوم أن هذا الامتحان والاختبار إنما يكون قد حصل عند أول مولود ولم يكن ليحصل فى المولود الآخر دون الأول ، بل لم يحصل عند المولود الآخر من مزاحمة الخلة مايقتضى الأمر بذبحه . . وهذا فى غاية الظهور

وأيضا . فان « سارة » امرأة الخليل صلى الله عليه وسلم غارت من « هاجر » وابنها أشد الغيرة ، فإنها — أى هاجر — كانت جارية عندما ولدت إسماعيل ، وأحبه أبوه . واشتدت غيرة سارة ، فأمره الله سبحانه أن يبعد عنها هاجر وابنها ، ويسكنها فى أرض مكة لتبرد عن « سارة » حرارة الغيرة ، وهذا من رحمته تعالى ورأفته — فكيف يأمره سبحانه بعد هذا أن يذبح ابنها ويدع ابن الجارية بحاله ! هذا مع رحمة الله لها ، وإبعاد الضر عنها ، وجبره لها ! فكيف يأمر بعد هذا بذبح ابنها دون ابن الجارية ، بل حكمته البالغة اقتضت أن يأمر بذبح ولد السرية ، فحينئذ يرق قلب السيدة عليها وعلى ولدها !

---

(١) سورة الداريات آية ٢٨

وتتبدل قسوة الغيرة رحمة ! ويظهر لها بركة الجارية وولدها ، وأن الله لا يضيع بيتا هذه وابنها منهم ، وليرى عباده جبره بعد الكسر ، ولطفه بعد الشدة . وأن عاقبة صبر هاجر وابنها على البعد ، والوحدة والغربة ، والتسليم إلى ذبح الولد — آلت إلى ما آلت إليه من جعل آثارها ومواطىء أقدامها مناسك لعبادة المؤمنين ، ومتعبدات لهم إلى يوم القيامة(١) » .

وليس وراء هذا البيان شيء يقال فى الكشف عن حقيقة الذبيح من ولدى إبراهيم ، وأن إسماعيل هو الذبيح المفدى من السماء لا إسحق !

فالأب الأعلى للنبي صلى الله عليه وسلم ذبيح من غير شك !

فهل والده الأدنى « عبد الله » ذبيح أيضا ؟

لا نستطيع أن نجىء على هذه الواقعة بشاهد من الواقع الحى كهذا الشاهد الذى يشهد لواقعة إسماعيل .. فقد شهد لهذه الواقعة الكتب السماوية ، وإن اختلف المؤمنون بهذه الكتب فى تفسير محامل الألفاظ ومفاهيمها ، فاختلف تبعا لذلك القول بأن الذبيح هو إسماعيل أو إسحق .. ولكن القرآن يكاد يقول صراحة بأنه « إسماعيل » كما أن الأضاحى التى يقدمها المسلمون فى عيد الأضحى هى شاهد متصل على متابعة المسلمين أباهم إبراهيم فى هذا الفداء الذى جعله الإسلام منسكا من مناسكه ، وقربة من قرباته .

هذا عن « إسماعيل » الأب الأعلى للنبى !

أما عن « عبد الله » آخر آبائه ، فإن الأمر فى حقيقة « الذبح » بالنسبة له يختلف عنه فى « إسماعيل » . . وذلك من وجوه :

منها أن أخبار « عبد الله » وعرضه على الذبح ليست إلا روايات نقلها المؤرخون للسيرة نقلا لا يسنده رواة ثقاة ، وإنما الذى نقله ابن إسحق عن هذه

---

(١) زاد المعاد الجزء الأول ص٢٧ وما بعدها .. وقد نسبنا هذا الرأى إلى ابن تيمية لأن تلميذه ابن القيم يقول هذا عن شيخه ، وواضح أن الشيخ والتلميذ قد اشتركا معاً فى تحقيق هذا الموضوع .. الشيخ بفكرته والتلميذ بقلمه وأسلوبه .

الواقعة كان أشبه بتسجيل لشائعة تدور فى الناس ، فصدر روايته تلك بما يفيد الشك ، فقال عند تسجيل هذه الحادثة : « فيما يزعمون » ! ! فجعلها مزعماً من المزاعم ، « والزعم مطية الكذب » ، كما يقولون !

فلا تقف هذه الواقعة إزاء واقعة « إسماعيل » التى ذكرت فى الكتب المقدسة ، واتخذت صورة عملية فى حياة المسلمين منذ قام الإسلام !

ومنها أيضاً : أن واقعة « إسماعيل » لها دلالتها على تكريم إسماعيل وافتدائه من السماء . . وأن هذه الواقعة جرت فى طريق الطاعة لله ، والامتثال لأمره ، من كل من الأب والابن — إبراهيم وإسماعيل — وأن الجزاء المعجل لهذه الطاعة وذلك الامتثال كان فى هذا الفداء السماوى الذى كشف به الله الضر عن الولد والوالد معاً . . أما واقعة « عبد الله » — إن صحت — فإنها لم تجر فى طريق ينبئ عن أنها كانت امتحاناً من الله ، وبلاء لعبد من عباده . . فإن ما حدث لعبد المطلب — على حسب ما جاء فى الرواية — لم يكن إلا ثمناً لما أخذ . . فإنه قد تمنى على الله عشرة أولاد ، وأنه إذا صحت أمنيته ، وتحققت ، قدم أحد أبنائه العشرة قرباناً لله !

فإذا كان فى اختيار أحد هؤلاء العشرة ليكون القربان المطلوب — إذا كان فى هذا الاختيار دليل على فضل الولد المختار ، واعتباره الطيب المؤهل ليكون قرباناً لله — فإن هذا الاختيار لم يكن بوحى سماوى ، ولا برؤيا صادقة وإنما جاء عن عملية أشبه بعملية القمار ، وعلى يد كاهن اقترع بقداحة بين الأبناء العشرة فوقع الاختيار على « عبد الله » ، وكذلك كان الشأن فى عملية الفداء . . لم يكن الفداء سماويا ، ولا عن وحى من السماء ، ولا عن رؤيا صادقة ، وإنما كان عملية ضرب بالقداح ، ولعب بها كما يلعب بالقمار !

وعلى هذا فإننا نستطيع أن نقول إن قصة « عبد الله » الذبيح — إن تكن صحيحة — فإنها لا تدل على شىء تدخل به فى باب المعجزات التى وقعت تكريما للنبى ، وإعلاناً بمطلع صبحه المشرق ! . وأنها — إن صحت — فلا تتجاوز أن تكون صدفة من الصدف التى تدفع عن الإنسان يد المنية وقد علقت به ، وكادت تنشب أظفارها فيه .

والذى أراه فى هذه القصة أنها من الإضافات الكثيرة التى وضعها القصاصون فى السيرة النبوية ، اعتقاداً منهم أن ذلك مما يرفع فى قدر النبى ونبوته ، كما أشرنا إلى ذلك من قبل ، وكما سنشير إلى ذلك فيما بعد . .

٣ — ماذا فى جبين عبد الله ؟

ويتحدث الرواة والمؤرخون أيضا عن فلقة من النور كانت تتألق فى جبين « عبد الله » والد النبى !

ولا يتحدث الرواة والمؤرخون عن القطعة النورانية المتلألئة فى جبين عبدالله — لايتحدثون عنها حديثا يكشف عن مشاهدات الناس لها ، ولا عن التفاتهم إليها ، واهتمامهم بها كما لايكشفون فى حديثهم هذا عن الزمن الذى صحبت فيه هذه الشامة النورانية صاحبها عبد الله . . أهى معه منذ مولده ؟ أم عند بلوغه مبلغ الرجال ؟ أم أنها ظهرت فى يوم ما ثم غربت كما تغرب الشمس ليومها ؟

والذى يفهم من مساق الرواية أن هذا « النور » كان كامناً فى كيان عبد الله ، ثم تحرك فظهر على جبينه ، والذى يفهم أيضاً أن هذا النور لم يكن ملحوظا إلا عند تلك المرأة « الخثعمية » التى دعت عبد الله إلى نفسها فأبى عليها ذلك . .

ونورد هنا ماروى المؤرخون عن هذه الواقعة :

« فقد روى محمد بن سعد فى طبقاته . . قال : إن عبد الله بن عبد المطلب تزوج آمنة وهو ابن ثلاثين سنة ، وقيل بل كان يومئذ ابن خمس وعشرين سنة (١) .

« وعن محمد بن السائب الكلبى عن أبيه عن أبى الفياض الخثعمى قالا : لما تزوج عبد الله آمنة أقام عندها ثلاثة ، وكانت تلك السنة عندهم(٢) .

---

(١) الطبقات : جزء ١ ص ٥٨ .

(٢) نهاية الأرب جزء ١٦ ص٥٧ .

وروى ابن هشام عن ابن إسحق قال : « ثم انصرف عبد المطلب آخذاً بيد ابنه عبد الله ـ بعد أن نجا من الذبح بما افتداه به من إبل ـ فمر ـ فيما يزعمون ـ على امرأة من بنى أسد بن عبد العزى ـــ وهى أخت ورقة بن نوفل ـــ وهى عند الكعبة ، فقالت له حين نظرت إلى وجهه . أين تذهب ياعبد الله ؟ قال : مع أبى ؟ قالت : لك مثل الإبل التى نحرت عنك ؛ وقع على الآن !! قال : أنا مع أبى ، ولا أستطيع خلافه ، ولافراقه ! !

« فخرج به عبد المطلب حتى أتى به وهب بن عبد مناف بن زهرة بن كلاب ابن مرة بن كعب بن لؤى بن غالب بن فهر ، وهو يومئذ سيد بنى زهرة نسباً وشرفاً ، فزوجه آمنة بنت وهب ، وهى يومئذ أفضل امرأة فى قريش ، نسباً ، وموضعاً .. فزعموا أنه دخل عليها ـــ حين أملكها(١) مكانه ، فوقع عليها ، فحملت برسول الله صلى الله عليه وسلم . . ثم خرج من عندها فأتى المرأة التى عرضت عليه ماعرضت فقال لها : مالك لا تعرضين على اليوم ما كنت عرضت على بالأمس ؟ قالت له : فارقك النـــور الذى كان معك بالأمس ، فليس لى بك اليوم حاجة !

ويروى ابن إسحق لهذه الواقعة رواية أخرى ينقلها عنه ابن هشام أيضاً .. هكذا :

« قال ابن إسحق : وحدثنى أبى ـــ إسحق بن يسار ـــ أنه حدث أن عبدالله إنما دخل على امرأة كانت له مع آمنة بنت وهب ، وقد عمل فى طين له ، وبه آثار من الطين ، فدعاها إلى نفسه فأبطأت عليه لما رأت مابه من أثر الطين ! ، فخرج من عندها ، فتوضأ (! ! ؟) وغسل ما كان به من ذلك الطين ، ثم خرج عامداً إلى آمنة فمر بها ـــ أى بتلك المرأة ـــ فدعته إلى نفسها فأبى عليها ! ! وعمد إلى آمنة فأصابها ، فحملت بمحمد صلى الله عليه وسلم ، ثم مر بامرأته تلك ، فقال

---

(١) أملكها ـــ أي تزوجها ، وملك أمرها .

لها هل لك ؟ قالت : مررت بى وبين عينيك غرة بيضاء : فدعوتك فأبيت على ودخلت على آمنة فذهبت بها ! !

قال ابن إسحق : فزعموا أن امرأته تلك كانت تحدث أنه مر بها وبين عينيه غرة مثل غرة الفرس . ! (١) » .

« ونقل ابن سعد فى طبقاته عن الواقدى : أن هذه المرأة هى قتيلة بنت نوفل أخت ورقة بن نوفل . .

« قال الواقدى : كانت — أى هذه المرأة — تنظر وتعتاف(٢) ، فمر بها عبد الله ، فدعته يستبضع منها أى يقع عليها ، ولزمت طرف ثوبه ، فأبى عليها وقال : حتى آتيك ، وخرج مسرعاً حتى دخل على آمنة ، فوقع عليها فحملت برسول الله صلى الله عليه وسلم(٣) .

وقيل إن المرأة التى مر بها عبد الله هى امرأة من « خثعم » يقال لها فاطمة بنت مر وكانت من أجمل النساء ، وكانت متهودة من أهل تبالة قد قرأت الكتب (٤) » .

وواضح من كل هذه الروايات ذلك التناقض والتهافت الذى يذهب بكل قيمة تاريخية لها . . فقد اختلف الرواة فى المرأة التى دعت عبد الله إلى نفسها ، فهى تارة أخت ورقة بن نوفل ، وهى تارة أخرى امرأة من خثعم تدين باليهودية ، وتنظر فى كتب الأديان ! أو هى امرأة أخرى له إلى جانب امرأته « آمنة » !

وينظر شيخ المؤرخين « ابن إسحق » إلى هذه الواقعة نظرة باردة فاترة فيلبسها لباس « الزعم » ويلقى عليها ظلالا من الشك فى كل طرف من أطرافها . . بما يقدم بين يدى كل خبر من أخباره عنها بقوله . زعموا ، وقالوا ، ويقال !! .

---

(١) السيرة لابن هشام : جزء أول ص ٤٧١ .
(٢) أى أنها كانت صاحبة نظر وفراسة ، ولها خبرة فى عيافة الطير وزجرها .
(٣) الطبقات لابن سعد جزء ١ ص ٥٩ « قسم اول » .
(٤) نهاية الأرب جزء ١٦ ص ٦٠ .

ثم إن التلفيق والصنعة يبدوان للعيان فى أى رواية من هذه الروايات . . وحسبنا أن نشير إلى ماجاء فى بعض هذه الروايات من أن «عبد الله» ذهب ليتوضأ ويزيل الطين الذى علق به ! فهل كان عبد الله مسلماً قبل أن يظهر نبى الإسلام ، وقبل أن تظهر كلمة «الوضوء» فى لسان العرب بهذا المعنى ؟ ثم من أين تستدل المرأة أو المرأتان من هذا النور الذى يقال إنه كان على جبين عبد الله — على أنه نور النبوة ، وأن من تتصل بعبد الله ، وتحمل منه سيتصل بها هذا النور ، وستلد النبى المنتظر ؟

الواقعة مزعومة بلا شك ، وهى من وضع القصاصين الذين كانوا يتخذون من المساجد ندوات يجتمع إليهم فيها الناس ، ليسمعوا منهم بما عندهم من أحداث الإسلام الأولى ما يغذى مشاعرهم ، من هذا الزاد الطيب الذى لم يكن لهم حظ شهوده ، والمشاركة فيه.. فاستجاب القصاص لهذا الظمأ الشديد ، فقدموا للظامئين ماعندهم من ماء أو سراب !

ولم يكتف القصاص بالوقوف عند هذا الحد فى شأن هذه الحادثة ، فنقلوها إلى ميدان الشعر ، وأداروها على ألسنة الشعراء .. فقالوا : إن عبد الله حين عرضت عليه المرأة ماعرضت ، فأبى عليها ، وقال — فيما قال لها — شعراً جرى على لسانه ، فإذا هو :

أما الحرام فالممات دونه   والحل ، لا حل فأستبينه
فكيف بالأمر الذى تنوينه ؟

وكان لابد أن تقول المرأة شعراً ، أو يقال فيها شعر حتى تتم حبكة القصة ! وقد كان ، فزعم الرواة أن شباب قريش حينما بلغهم ما كان من أمر المرأة وعرضها نفسها على عبد الله ، وتأبيه عليها — شنعوا عليها ، وأكثروا المقالة فيها فقالت تدفع عن نفسها ، وكان موقفها حسبما تخيله الرواة أشبه بامرأة العزيز مع النسوة اللاتى جرن ألسنتهن بالحديث فيما كان بينها وبين فتاها «يوسف» عليه

السلام . . فقالت هذه المرأة تسمع فتيان قريش ، وتدفع عن نفسها اللائمة فيما كانت تطلب من عبد الله . . .

إنى رأيت مخيلة عرضت	فتلألأت بحناتم القطر[1]
فلمأتها نـــوراً يضىء له	ماحوله كإضاءة الفجر[2]
ورأيتـــه شرفاً أبوء به	ما كل قادح زنده يورى
لله ما زهـــرية سلبت	منك الذى سلبت وما تدرى[3]

ثم لا تمسك عند هذا القدر من الشعر ، بل ترسل أشعاراً أخرى تمزج فيها بين الحكمة وضرب المثل[4] .

ولا حاجة بنا إلى القول بأن هذا الشعر مولد ، من صنع القصاص ، أو من وحى قصصهم ، فذلك من الوضوح بحيث لايحتاج إلى من يشير إليه .

٤ ــ حلم آمنة !

ويذكر الرواة عن « آمنة » أنها حين حملت بالنبى صلى الله عليه وسلم رأت أحلاماً ورؤى عجيبة . كانت تحدث بها من معها فى تخافت وحذر !

فمن ذلك مايرويه ابن ســـعد فى طبقاته رواية عن محمد بن عمر بن واقد الأسلمى ، قال ــ أى ابن واقد ــ حدثنى على بن زيد بن عبد الله بن وهب ابن زمعة عن أبيه عن عمته قالت : كنا نسمع أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما حملت به آمنة بنت وهب كانت تقول : « ماشعرت أنى حملت به ، ولا وجدت له ثقله كما يجد النساء ، إلا أنى أنكرت رفع حيضتى ، وربما كانت ترفعنى وتعود ، وأتانى آت وأنا بين النائمة واليقظى ، فقال : هل شعرت أنك حملت ؟

---

(١) المخيلة بضم الميم السحابة التى يخال أنها ممطرة ، وعرضت لاحت وظهرت . والحناتم جمع حنتم ، والحنتم جرار مستديرة أشبه بالحمص يصبغ به الشعر ، والقطر : المطر .

(٢) فلمأتها : أبصرتها .

(٣) زهرية : تقصد بها آمنة بنت وهب أم النبى ، لأنها من بنى زهرة .

(٤) انظر نهاية الأرب جزء ١٩ ص ٩١

فكأنى أقول ما أدرى ، فقال : إنك حملت بسيد هذه الأمة ونبيها ، وذلك يوم الاثنين (! !) قالت : فكان ذلك مما يقن عندى الحمل . ، ثم أمهلنى — أى هذا الآتى — حتى إذا دنت ولادتى أتانى ذلك الآتى فقال : « قولى أعيذه بالواحد الصمد ، من شر كل حاسد ، قالت فكنت أقول ذلك »[١] .

ومنها ما روى ابن هشام صاحب السيره عن أبى إسحق ، قال : ورأت حين حملت به أنه خرج منها نور رأت به قصور بصرى من أرض الشام . قد تواترت الأخبار الصحيحة بذلك[٢] .

ونقل شهاب الدين الدينورى فى كتابه نهاية الأرب قال : وحكى الشيخ الإمام أبو عبد الله محمد بن أحمد القرطبى فى كتابه « الأعلام » عن ابن عباس رضى الله عنهما أنه قال : « كان من دلائل حمل آمنه برسول الله صلى الله عليه وسلم أن كل دابة نطقت تلك الليلة ، وقالت : حمل بمحمد ورب الكعبة ! وهو إمام الدنيا ، وسراج أهلها ، ولم تبق كاهنة فى قريش ، ولا فى قبيلة من قبائل العرب إلا حجبت عن صاحبها ، وانتزع علم الكهنة منهم ، ولم يبق سرير الملك من ملوك الدنيا إلا أصبح منكوساً .

قال : وقال كعب الأحبار[٣] : أصبحت أصنام الدنيا كلها منكوسة مدمومة فيها شياطينها .

قال : وقال ابن عباس رضى الله عنهما : وأصبح كل ملك أخرس لا ينطق يومه ذلك ، وفرت وحوش المشرق إلى وحوش المغرب بالبشارات . وكذلك أهل البحار صار يبشر بعضهم بعضاً ، وله — أى للنبى — فى كل شهر من شهوره — أى شهور حمله — نداء فى الأرض ، ونداء فى السماء : أن أبشروا ، فقد آن لأبى القاسم أن يخرج إلى الأرض ، ميمونا مباركا . . . » .

---

(١) الطبقات لابن سعد جزء ١ ص ٩٠ (القسم الأول)

(٢) السيرة لابن هشام جزء ١ ص ٦٢

(٣) كعب الأحبار هذا يهودى دخل فى الإسلام ليكيد له ولأهله ، وليفسد على المسلمين دينهم كما فعل « بولس » وكان يهوديا فدخل فى النصرانية وأدخل فيها عقيدة الأب والابن وروح القدس .

وفى السيرة الحلبية : قالت فاطمة بنت عبد الله أم عثمان بن العاصى ، وكانت شهدت ولادة النبى صلى الله عليه وسلم — قالت : « حين وضعته أمه ، وذلك ليلا . فما شىء أنظر إليه من البيت إلا نور ، وإنى لأنظر إلى النجوم تدنو ، حتى لأقول لتقعن على » .

وفى السيرة الحلبية أيضاً : عن آمنة قالت : لما ولدت محمداً — صلى الله عليه وسلم — ثم خرج من بطنى نظرت إليه ، فإذا هو ساجد لله عز وجل ، رافع يديه إلى السماء كالمتضرع المبتهل ، ثم رأيت سحابة بيضاء قد أقبلت تنزل من السماء حتى غشيته ، فغيبته عن عينى برهة ، فسمعت قائلا يقول : طوفوا بمحمد مشارق الأرض ومغاربها ، وأدخلوه البحار كلها ليعرف جميع الخلائق كلها باسمه ، وصفته ، ويعرفوا بركته ، إنه حبيب لى ، لايبقى شىء من الشرك إلا ذهب به ! . قالت : ثم انجلت عنى فى أسرع من طرفة عين ، فإذا أنا به مدرج فى ثوب أبيض ، أشد بياضاً من اللبن ، وتحته حريرة خضراء ، قد قبض على ثلاثة مفاتيح من اللؤلؤ الرطب الأبيض ، وإذا قائل يقول : قد قبض محمد صلى الله عليه وسلم مفاتيح النصرة ، ومفاتيح الدنيا ، ومفاتيح النبوة »(١) .

وهذه الأخبار — ما صح منها وما لم يصح — لا تستند إلى مصادر تاريخية موثوق بها وإنما هى نقول متهافتة ، ينسبها ناقلوها إلى شخصيات معروفة بالرواية والحفظ كابن عباس . ليكون هذا الاسم شفيعاً لهذه الأخبار أن تقبل بما فيها من أسقام وعلل !

وليس بمنكور أن يكون شىء من هذه الأخبار قد وقع فعلا . . مثل الذى قيل عن آمنة إنها حين حملت بوليدها أنها لم تشعر به . . فذلك جدير به أن يقع لها ، لأنها تضم فى كيانها الرحمة كلها ، الرحمة المرسلة للعالمين جميعا ، فلا عجب أن يكون نصيبها من هذه الرحمة هذا اليسر الذى وجدته فى حمله . وفى ولادته .

---

(١) السيرة الحلبية جزء ١ ص ٥٤ طبعة مصر سنة ١٣٢٠ هـ .

وليس بمنكور أيضاً ما يروى عن آمنة أنها ولدت « محمدا » حين ولدته ؛ « ولدته طيباً نظيفا كما يولد السخل » .. فإن النبوة كلها طهر ونظافة مادية ونفسية معاً . . ومحمد خاتم النبيين ، قد خصه الله سبحانه بالكمالات كلها ، وأذهب عنه الرجس والخبث ، ومجيء ميلاده على تلك الصفة هو بعض ما ينبغى أن يكون له فى مولده .

وكذلك من المتوقع كثيراً أن ترى آمنة رؤوى وأحلاماً تملأ قلبها سعادة ورضى بما فى بطنها ، وقد احتوى الخير كله ، واشتمل عليه . . بل إنه لمن المحقق أن تجد ريح النبوة يملأ عليها حياتها طمأنينة ورضى ، ويفيض عليها الروح والراحة فى يقظتها ونومها !

ذلك وكثير على شاكلته بعض ماينبغى أن يعبق من طيب النبوة وأن يفوح من عبير الأنبياء ، وهم أجنة فى بطون أمهاتهم ، أو مواليد فى مهد الطفولة . . فهم أكمل خلق الله ، وأفضلهم ، وأولاهم عند الله بكل فضل وكمال . .

وإذا كان هذا فى أنبياء الله ورسله أجمعين ، فإنه فى محمد صلى الله عليه وسلم أتم وأكمل ، إذ كان خاتم النبيين ، وجامعة الحق الذى دعوا إليه ، والنور الذى أرسلوا به !

ليس لأحد إذن أن يدفع هذه النفحات الطيبة التى يجدها أولئك الذين اتصلوا بالأنبياء . . اتصال حياة كالآباء والأمهات ، أو اتصال مخالطة كالزوجات ، أو اتصال مصاحبة كالأتباع !

أما الذى يفسد هذه الصورة الكريمة التى يتصورها أناس — وخاصة المؤمنين — فهو هذه الأخبار التى يصطنعها الرواة ويخلقونها خلقاً ممسوخاً مشوهاً ، قد يبلغ أحياناً من التفاهة وسوء الصنعة ما يقزز النفس ، ويستهجن العقل !

فأى عقل لا يقف موقف المتهم لهذا الخبر الذى يروى عن آمنة « أنها حين حملت بالنبى رأت نوراً خرج منها فرأت به قصور بصرى بأرض الشام » ! !

ولا نسأل عن هذا النور، ولا عن مدى قوته وامتداده.. ولكن السؤال الذى يرد هو: لماذا كان اتجاه النور إلى «بصرى» هذه؟ ولم لم تكن الرؤيا فى دائرة متكاملة على جميع الجهات؟ وإذا كان وجهة النور هى الشمال إلى «بصرى» فلم لا ينكشف لها بيت المقدس وهو ثانى قبلتى «محمد»، وفيه المسجد الأقصى؟

كذلك يقف العقل موقف المتهم لذلك الخبر الذى يحدث عن وحوش الأرض وسباعها، وأنه قد مشى بعضها إلى بعض بالبشرى، بأن آمنة قد حملت «بمحمد!!».. فمن كان يرصد حركات الوحوش وحالاتها تلك الليلة التى حملت فيها آمنة بمحمد؟ وهل يقع ذلك فى حيز الإمكان؟ وإذا كان ممكناً فما دلالته فى هذا الوقت الذى لم يكن للنبى دعوة بعد، وهل انتفعت الدعوة بهذه الحادثة العجيبة؟ وهل اتخذها النبى حين حمل الرسالة — هل اتخذها آية على صدقها، وجعلها معجزة من معجزاتها؟ ثم من ترجم لغة الحيوانات وعرف ما نطقت به، إن كان لها فى هذه الليلة منطق!؟

إن هذه الأخبار المجافية للمنطق، البعيدة عن التصور، الفارغة من كل معنى طيب — هى فى الواقع شهادات زور ضد الإسلام ونبى الإسلام.. فإنها حين تلقى بهذا الركام من الزيف السخيف المفضوح على سيرة الرسول، تفتح أبواباً واسعة يدخل منها مرضى القلوب، وسفهاء الأحلام، للنيل من مقام النبوة فى صفاتها الرفيعة، وسيرتها المطهرة.. إن هذه الأخبار الغثة الباردة حين يطالعها المطالع لسيرة النبى، يجد لها ريحاً ثقيلة، تفسد عليه الجو الطيب الروحى الذى كان حرياً به أن يجده فى لقائه مع الحق الثابت، من سيرة النبى المبعوث هدى ورحمة للعالمين.

٥ ـ قصة الختان

ذكر كثير من مؤرخى السيرة روايات — إن اختلفت سنداً فقد اتفقت متناً — أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ولد «مختوناً» ، «مسروراً»(١) !

وقد وقف ابن قيم الجوزية من واقعة «الختان» هذه موقف المتشكك فى أمر غير ذى خطر إذ لا يرى فيه دلالة ذات أثر فى سيرة الرسول صلى الله عليه وسلم، إن صح أو لم يصح !

يقول ابن القيم :

احتلف فيه — أى فى الختان — على ثلاثة أقوال :

أحدها أنه ولد — أى النبى — مختونا مسرورا . . وروى فى ذلك حديث لا يصح . . ذكره أبو الفرج بن الجوزى فى الموضوعات — أى فى الأحاديث الموضوعة .

وليس فيه — أى فى الختان — حديث ثابت !

وليس هذا — أى الختان — من خواصه — أى من خواص النبى ! — فإن كثيراً من الناس يولد مختونا ! ..

« وحدثنى صاحبنا أبو عبد الله محمد بن عثمان الخليلى المحدث ببيت المقدس : أنه ولد كذلك ، وأن أهله لم يختنوه !

« والناس يقولون لمن ولد كذلك ، ختنه القمر ! وهذا من خرافاتهم

القول الثانى : أنه ختن صلى الله عليه وسلم يوم شق قلبه الملائكة ، عند ظئره حليمة !

القول الثالث : أن جده عبد المطلب ختنه يوم سابعه ، وصنع له مأدبة ،

---

(١) أى مقطوع السرة .

وسماه محمدا .. ويروى فى هذا حديث غريب . . عن عكرمة ، عن ابن عباس : « أن عبد المطلب ختن النبى صلى الله عليه وسلم يوم سابعه ، وجعل له مأدبة ؛ وسماه محمدا — قال يحيى بن أيوب : طلبت هذا الحديث فلم أجده عند أحد من أهل الحديث ممن لقيته إلا عند أبى السرى — الذى نقل عنه عكرمة ، الذى يقال إنه رواه عن ابن عباس —

« وقد وقعت هذه المسألة - مسألة الختان - بين رجلين فاضلين : صنف أحدهما مصنفاً فى أنه ولد - أى النبى - مختوناً - وأجلب فيه الأحاديث التى لا خطام لها ولا زمام ، وهو كمال الدين بن طلحة . . فنقضه عليه كمال الدين ابن العديم ؛ وبين فيه أنه صلى الله عليه وسلم ختن على عادة العرب ، وكان عموم هذه السنة عند العرب مغنياً عن نقل معين فيها . . والله أعلم[1] » .

وهكذا يقضى ابن القيم فى مسألة الختان ، وأنها كانت عادة عامة للعرب ، وإذن فلا حاجة إلى نقل أحاديث تشهد لرسول الله بخصوصية فيها .

٦ - قصة شق الصدر !

وقصة شق صدر الرسول قصة مثيرة ، كانت مثار إعجاب لكثير من المسلمين ، كما أنها كانت مصدر تهكم وسخرية من كثير من غير المسلمين !

وقد وقعت هذه الحادثة للنبى - كما يقول الرواة - بعد السنة الثانية من عمره ، وهو لا يزال فى حضانة حليمة السعدية ، فى بنى سعد بن بكر !

وقد روى عن حليمة السعدية خبر هذا الحادث . . قالت : إنى لفى يوم لما خلف بيوتنا إذ أتانا أخوه - من الرضاعة ، وهو ابن حليمة - يشتد ، فقال لى ولأبيه : ذاك أخى القرشى . قد أخذه رجلان عليهما ثياب بيض . فأضجعاه فشقا بطنه فهما يسوطانه[2] . قالت : فخرجت أنا وأبوه نحوه ، فوجدناه قائماً

---

(١) زاد المعاد جزء ١ ص ٣٥

(٢) يسوطانه : أى يتلقفانه بأيديهما فيما بينهما

منتقعاً وجهه ، فالتزمته ، والتزمه أبوه ، فقلنا له : مالك يابنى ؟ قال : جاءنى رجلان عليهما ثياب بيض ، فأضجعانى وشقا بطنى ، فالتمسا شيئاً لا أدرى ما هو ! قالت : فرجعنا إلى خبائنا ، وقال لى أبوه : يا حليمة ، لقد خشيت أن يكون هذا الغلام قد أصيب ، فألحقيه بأهله ، قبل أن يظهر ذلك به — قالت: فاحتملناه فقدمنا به على أمه . . فقالت : ما أقدمك به ياظئر ؟ وقد كنت حريصة عليه ، وعلى مكثه عندك ، قالت : فقلت نعم ! قد بلغ الله بابنى ، وقضيت الذى علىّ ، وتخوفت الأحداث عليه ، فأديته عليك كما تحبين ! قالت : ماهذا شأنك ، فأصدقينى خبرك ! قالت : فلم تدعنى حتى أخبرتها ! قالت : أفتخوفت عليه الشيطان ؟ قلت : نعم ! قالت : كلا ، والله ما للشيطان عليه من سبيل . . وإن لابنى لشأناً ! ! أفلا أخبرك خبره ؟ قلت بلى . . قالت : رأيت حين حملت به أنه خرج منى نور أضاء لى قصور بصرى من أرض الشام . . ثم حملت به ، فوالله مارأيت من حمل قط كان أخف ولا أيسر منه ، ووضع حين ولدته ، وإنه لواضع يديه بالأرض ، رافع رأسه إلى السماء . . دعيه عنك ، وانطلقى راشدة(١) ! » . .

ويروى ابن هشام لهذه الحادثة طريقاً آخر من طرق الرواية . . يقول ابن هشام : قال ابن إسحق : وحدثنى ثور بن يزيد عن بعض أهل العلم (! !) ولا أحسبه إلا عن خالد بن معدان الكلاعى أن نفراً من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قالوا له : أخبرنا يارسول الله عن نفسك ، قال : نعم . . أنا دعوة إبراهيم(٢) ، وبشرى عيسى(٣) ، ورأت أمى حين حملت بى أنه خرج منها نور أضاء لها قصور الشام ، واسترضعت فى بنى سعد بن بكر . . فبينا أنا مع أخ لى خلف بيوتنا نرعى بهما لنا إذ أتانى رجلان عليهما ثياب بيض

(١) السيرة لابن هشام : جزء /١ ص ١٥٥ /

(٢) هى الدعوة التى ذكرها القرآن على لسان ابراهيم : «ربنا وابعث فيهم رسولاً منهم يتلو عليهم آياتك ، ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم ، إنك أنت العزيز الحكيم » (البقرة ١٢٩)

(٣) وهى البشرى التى ذكرها القرآن الكريم فى قوله تعالى على لسان عيسى « ومبشراً برسول يأتى من بعدى اسمه احمد » (الصف/٦)

بطست من ذهب ، مملوءة ثلجاً ، فأخذاني فشقا صدري ، واستخرجا قلبي ، فشقاه فاستخرجا منه علقة سوداء فطرحاها ، ثم غسلا قلبي وبطني بذلك الثلج حتى أنقياه . . ثم قال أحدهما لصاحبه : زنه بعشرة من أمته ، فوزنني بهم فوزنتهم — أي زدت عليهم — ثم قال : زنه بمئة من أمته ، فوزنني بهم فوزنتهم ، ثم قال : بألف من أمته ، فوزنني بهم فوزنتهم . . فقال : دعه ، فوالله لو وزنته بأمته لوزنها »(١) .

وموقفنا من هذه القصة هو موقفنا من جميع القصص التي رويت عن حياة النبي قبل البعثة . أي أننا لا ننظر إليها بحسابها من دلالات النبوة ، ومعجزات النبي ، وإنما ننظر إليها جميعها على أنها — إن صحت — لم تكن لتزيد في قدر النبوة ، ولا في عظمة النبي ، وأنها إن لم تصح لم تكن لتنقص شيئاً من قدر النبوة ، ولا من عظمة النبي !

وقصة شق الصدر هـذه لم يقم عليها دليل قطعي من الكتاب أو السنة ، والحديث المروى عن رسول الله لم يضبط سنده ، إذ أسنده ثور بن يزيد إلى بعض أهل العلم (! !) ويقول ابن إسحق في بعض أهل العلم هؤلاء : لاأحسبه إلا خالد ابن معدان الكلاعي . . ثم إن خالد بن معدان هذا يسند روايته إلى نفر من أصحاب رسول الله ، ولا يحقق واحداً منهم .

فهذا الحديث مضطرب السند ، لا يؤخذ به .

ثم إن عملية شق الصدر إذا نظر إليها من جانبها العملي . . أتعطى الأثر الذي أريد لها أن تحققه في هذا الخبر ، وهو تنقية صدر رسول الله صلى الله عليه وسلم من الوسواس ، بانتزاع تلك النقطة السوداء التي قيل إنها انتزعت من قلبه حين شق ، وغسل ؟ وهل فعل ذلك بجميع الأنبياء حتى تخلى قلوبهم من وساوس الشياطين ؟ فإنه لاشك أن أنبياء الله جميعاً قد عصموا من هذه الوساوس . .

---

(١) السيرة لابن هشام . جزء ١ / ص ١٥٥ .

وإذا كان لرسول الله فضل على الأنبياء — وهو كائن فعلا — أفتحتاج قدرة الله حين يفيض عنايته على عبد من عباده إلى هذه العمليات الجراحية فى وضح النهار، وعلى ملأ من الناس، وإذا احتاج الأمر إلى عملية جراحية — وهو مالا يكون — أفلا يكون ذلك فى حال لا يشعر بها أحد حتى النبي نفسه.. كأن يكون ذلك فى حال النوم مثلا؟!..

ولعل واضع هذه القصة قد استلهم موحياتها من قوله تعالى مخاطباً نبيه: «ألم نشرح لك صدرك.» وسوغ له خياله أن يجعل هذا الشرح المعنوى للصدر شرحا بدنياً، تتولاه الملائكة بعملية جراحية كاملة، كما يفعل الطبيب بمبضعه.

٧ — إرهاصات بين يدى النبوة

فى النفس البشرية قوى استطلاعية متخفية، لا يدرى أحد من أمرها شيئا، فلا تخضع لاستدعاء الإنسان لها ولا تعطى حين يطلب إليها أن تعطى مما عندها، وإنما هى فى الإنسان ذات سلطان لا سلطان عليه.. تظهر حيث تشاء، وتعطى كيف تشاء! ومتى تشاء!

هذه القوة يجد كل إنسان بعض آثارها فى حياته، على اختلاف فى هذه الآثار..، كثرة، وقوة، ووضوحا.

ولو رصد الإنسان — أى إنسان — معطيات هذه القوة الخفية فيه، لوجد فيها أسرارا عجيبة. تحار لها العقول، وتعجز عن الوقوع على تفسير صحيح لها!

فكم مرة يلقى فى روع الإنسان أن أمراً ما. قد وقع، أو سيقع على صفة ما، دون أن يكون هذا الأمر — فى تلك الحالة — منظوراً له، أو جاريا فى تفكير.. ثم يقع على تلك الصورة التى استشعرها استشعارا!

وكم من مرة ترتسم لعينى الإنسان صورة شخص ما، من غير أن يكون له مكان فى خاطره، أو مدار تفكيره.. ثم إذا بهذا الشخص يطلع عليه، على غير انتظار!!

وكم وكم من مثل هذه الرؤى اليقظى ترتمع صورها . فيراها الإنسان رأى العين ، أو يجد مسها فى خفقات قلبه ، أو مسارب تفكيره !

ولهذه القوة الاستطلاعية فترات تستيقظ فيها ، كما أن لها فترات أخرى تخمد فيها جدوتها ، ويفتر نشاطها .

والأحداث التى تنتظر الإنسان فى خاصة نفسه، أو تنتظره مع الناس فى دائرة أوسع وأشمل — لهذه الأحداث أثرها فى تحريك هذه القوة ، وفى ابعاثها من مكانها !

فإذا كانت تلك الأحداث ذات طابع ثورى تنقلب به الأوضاع القائمة فى الحياة ، ويتحول به سير الأمور على غير الوجهة التى هى عليها — فإن ذلك مما يهيج هذه القوة المتدسية فى الناس ، ويحرضها تحريضا قويا على أن تنسم بروق هذه الأحداث ، وتتنسم أرواحها ، وتفتح خياشيمها على مهابها ، فتجدها ، قبل أن تولد فى الواقع الذى يعيش فى الناس ، وتتعرف إليها قبل أن تقع عليها عين، أو تلمسها يد !

ولك أن تسمى هذه القوة حاسة غير الحواس الخمس المعروفة — حاسة خفية مهمتها أن تستقبل ـ أحيانا ـ مالا تستطيع الحواس المعروفة استقباله من أنباء وأحداث !

ففى المراصد — مثلا — أجهزة تنبىء عن العاصفة قبل أن تجىء ، وعن الهزات الأرضية قبل أن تقع . . وإنها فى هذه الأحوال ، لا تخلق العاصفة ، ولا تصنع الهزات ، وإنما كل مافى الأمر أنها أدق حسا ، وأسرع تأثيرا من تلك الأجهزة الكائنة فى الإنسان . وعملها هنا أشبه بما يسمى السبق الصحفى فى عمل الصحافة اليوم . . !

نقول إن الأحداث إذا كانت ذات طابع ثورى فى الحياة هيجت هذه القوة الاستطلاعية الكامنة فى الإنسان ، ودعتها إليها ، فرأت مالا يرى الناس، وعرفت مالا يعرفون. ثم عادت فألقت إلى الناس بأنباء وأخبار، يعجبون لها، ويدهشون بها ، ويقفون منها بين مصدق ومكذب . حتى تلتقى بحواسهم وتقع تحت مدركاتهم.

والنبوة أمر عظيم. وحدث عجب، قلما تشهد الحياة مثلا له، إلا حين يظهر نبي، وتظهر فى الحياة دلائل نبوته. !

إن النبوة صلة مباشرة بين السماء والأرض ! فحين يظهر نبي يكون معناه أن السماء قد التقت بالأرض، أو أن الأرض قد تلاقت مع السماء على يد إنسان من الناس.. إنسان يتناول من السماء بعض ما فيها من رحمة ونور، ليأخذ الناس بحظهم من هذه الرحمة، ومن هذا النور !

ونبوة «محمد» آية الآيات فى النبوات.. ولها من الآثار فى الحياة بقدر ما تفرق فى النبوات كلها.. إنها ليست لشعب، أو قبيلة أو بلدة، وإنها ليست لجيل أو جيلين أو ثلاثة من أجيال الناس.. بل هى للإنسانية كلها، والأجيال جميعها.. منذ ظهور هذه النبوة إلى أن ينتهى دور الإنسانية على هذه الأرض !

فإذا آن أوان هذه النبوة، وأطل زمانها، وحان مولدها — كان لها فى كيان تلك القوى الاستطلاعية الكامنة فى الناس دوى عظيم، يكاد يحيل هذه القوى إلى كائنات حية، تحدث عن استطلاعاتها بلسان قوى مبين !

وقد حدث هذا أو ما يقاربه حين بدأت الخيوط الأولى من أشعة الفجر تظهر فى آفاق الجزيرة العربية مؤذنة بأن مطلع شمس النبوة سيجىء بعد هذا الفجر الوليد !

فلقد استيقظت فى الناس قوى روحية تتلمس مواقع هذا النور، وتهتدى إليه، واتقدت فى صدور كثير منهم شرارة الإيمان، فأوقدت فى صدورهم جذوة مضطربة قلقة، لم يستطيعوا معها صبرا على معتقداتهم الفاسدة التى وجدوا ريحها العفن، حين طلعت عليهم ريح النبوة، واستطابوا شميمها الزكى العطر !

وتسجل صحف التاريخ لهذه الفترة التى قامت بين يدى النبوة أنباءا وأحداثا كثيرة مستفيضة. قد بلغت حدا من الكثرة والغرابة دعا بعض الناس إلى إنكارها وتكذيبها جملة وتفصيلا، كما دعا بعضا آخر إلى قبول بعضها، والتوقف عند بعض، وإنكار بعض !

والذى نراه فى هذه الأخبار، ونكاد نقطع به هو أن الأصول التى قامت عليها هذه الأخبار أصول صحيحة سليمة.. فإن ظهور النبي؛ بل خاتم الأنبياء،

لا يمكن أن يقع دون أن يقوم بين يدى موكبه من يعلن فى الناس نبأه ، ويفسح الطريق لهذا الموكب الجليل المهيب .

أرأيت إلى الشمس ؟ أتراها تطلع فى أفق من الآفاق دون أن تسبقها أضواء الصباح ، ودون أن تقوم بين يديها أنسام الفجر لتوقظ الأحياء لها ، وتهيئهم لاستقبالها ، وتملأ عيونهم نوراً هاديا مترفقا قبل أن يغمرهم ضوؤها ، ويغشى أبصارهم شعاعها ! ؟

ثم أرأيت إلى صنيع الناس وتدبيرهم مع ملوكهم ورؤسائهم ؟ أتراهم يلقون هؤلاء الملوك والرؤساء فجاءة وعلى غير انتظار ؟ أم تراهم يتخذون لذلك من الوسائل ما يوقظ الناس ويلفتهم إلى لقائهم قبل أن يطلعوا عليهم ، وتلتقى أعينهم بهم ؟

وما الشمس فى جلالها وعظمتها ؟ . وما الملوك والرؤساء فى سلطانهم وهيبتهم؟ إنهم أرض والنبوه سماء ! وإنهم رعية والنبوة راعية . ! وإنهم جند والنبي قائد! وإنهم صغار والنبي قيم على هؤلاء الصغار ! !

فهذه الأخبار التى تروى عن الذين شاهدوا أنوار النبوة قبل أن تبزغ ، وشاموا مخايل النبي قبل أن يظهر — هذه الأخبار تستند — كما قلنا — إلى أصول صحيحة ، وتقوم على واقع لا شك فيه ... ولكن الذى يؤخذ على هذه الأخبار هو ما دخل عليها من إضافات ، وما تلبس بها من عواطف ومشاعر ، وما زحف عليها من مفتريات وأكاذيب ! ..

فلقد زين لكثير من القصاص أن يجعلوا من هذه اللمحات الخاطفة ، ومن هذه الرؤى العابرة ، التى وجدها بعض ذوى النفوس الصاحية ، والمشاعر المتوفزة من ريح النبوة — « خمائر » لخلق ملاحم ذات طول وعرض . كان لها أثر كبير فى أن جرأت بعض الكذابين والمنافقين ، وأعداء الإسلام ، أن يتزيدوا ، وأن يختلقوا من الباطل صوراً شائهة كادت تفسد بهاء تلك الصور الجميلة ، التى وجدها أولئك الرواد الذين سبقوا إلى مطالعة أنوار النبوة ، قبل أن تبزغ شمسها ، والتى سلم بعض ما نقل إلينا من أخبارها .

والأخبار التى بين أيدينا كثيرة — كما قلنا — ، وقد اجتمع فيها الصحيح إلى السقيم ، واختلط الحق بالباطل ! . غير أن التفرقة بين الصحيح والسقيم ، والفصل بين الحق والباطل أمر هين فى هذه الأخبار ، فإن أدنى نظر يكشف الزائف منها ويفضحه ، إذ كان الكذب فيها يكاد — لشناعته وسوء تصويره — ينبىء عن نفسه ، ويدل على من ألقى به فى هذا الوجه الأسود المشوه فى موكب النبوة ، الفياض بالنور ، والجلال ! ! .

صور من الحق :

ونذكر هنا بعضاً من هذه الأخبار التى نطمئن إليها ، ونرى أنها كانت جديرة بأن تقع ، وإن لم تكن قد وقعت فعلا ، لأنها أقرب شىء إلى النبوة ، وأمس نسباً بها :

١ — دين الحمس

فى العام الذى ولد فيه النبى أو قبيله أو بعده بقليل ظهرت فى قريش موجة من الأفكار الدينية ، ذات الطابع الحماسى،المتجه إلى فرض أعباء ثقيلة على النفس، وحملها على الجانب الوعر العنيف من الحياة . .

فلقد تنبه فى قريش شعور قوى بالدين ، فأوقد فى نفوسهم ذلك الحماس القوى للحياة الدينية فى كيانهم . . وخيل إليهم — إن حقاً وإن باطلا — أن من كمال العقيدة الدينية وتمامها أن تكثر فيها التكاليف ، وتتضاعف القيود ، وأن الإنسان بقدر ما يحمل من تكاليف ، وما يحتمل من قيود يكون حظه من الدين ومكانه بين المتدينين ! .

وحديث « الحمس » كما يرويه « ابن هشام » فى سيرته عن ابن إسحق هو :

« قال ابن إسحق : « وقد كانت قريش — لا أدرى قبل الفيل أو بعده — ابتدعت رأى الحمس . . رأيا رأوا رأوه ، فقالوا : « نحن بنو إبراهيم ، وأهل الحرمة ، وولاة البيت ، وقطان مكة ، فليس لأحد من العرب مثل حقنا ، ولا مثل منزلتنا ، ولا تعرف له العرب مثل ما تعرف لنا »

هذه هى حيثيات القضية التى اجتمعت قريش لبحثها ، وإصدار حكم يرتضونه فيها . .

فهم يعرفون لأنفسهم هذه المكانة التى شرفوا بها ، واستحقوا من أجلها الإجلال والتعظيم من العرب قاطبة .

إنهم أبناء إبراهيم ، وولد إسماعيل .

وهذا النسب ، وإن شاركهم العرب فيه ليس كل مالهم من شرف . . . إذ هم إلى هذا النسب ولاة البيت ، وقطان مكة التى شرفت بالبيت الحرام ، ورفعت منزلتها فوق منازل القبائل العربية كلها ، فكانوا من أجل هذا موضع احترام العرب قاطبة ، يرحلون رحلتى الشتاء والصيف .. إلى اليمن وإلى الشام فى تجاراتهم آمنين ، لا يعرض أحد لهم بسوء . . ! حتى جاء الإسلام وهم على تلك الحال .. وفى هذا يقول الله سبحانه وتعالى مذكراً قريشاً بهذه النعمة : « أو لم يروا أنا جعلنا حرماً آمناً ، ويتخطف الناس من حولهم ! » ويقول سبحانه : « لإيلاف قريش إيلافهم رحلة الشتاء والصيف ، فليعبدوا رب هذا البيت ، الذى أطعمهم من جوع ، وآمنهم من خوف » .

نقول : إن هذا الذى وقع فى نفس قريش من إحساسها بالميزات التى لها ، والتى سلم العرب لهم بها — إن هذا كان داعية لهم أن يجتمعوا هذا الاجتماع الكبير ، وأن يديروا فيه وجوه النظر فيما ينبغى أن يكون عليهم إزاء هذا الفضل الذى كان لهم .

وقد انتهى هذا المؤتمر إلى مقررات . . كان على قريش أن تلتزم بها ، وأن تقوم على تنفيذها ، تنفيذاً صارماً لا هوادة فيه . .

وأهم هذه المقررات :

أولا : ألا يعظموا شيئاً من الحل كما يعظمون الحرم . .

ثانيا : لا ينبغى لهم — وهم الحمس — أن يأتقطوا الإقط [1] أو يسلأوا [2] السمن وهم حرم .

ثالثا . ألا يدخلوا بيتا من شعر ، وألا يستظلوا إذا استظلوا إلا فى بيوت الأدم [3] ما كانوا حرما .

رابعاً : لا ينبغى لأهل الحل أن يأكلوا من طعام جاءوا به معهم من الحل إلى الحرم ، إذا جاءوا حجاجا ، أو عمارا .

خامسا : لا ينبغى لأهل الحل إذا جاءوا حاجين أو عمارا أن يطوفوا بالبيت إذا قدموا إلا فى ثياب الحمس ، فإن لم يجدوا منها شيئا طافوا بالبيت عراة ! فإن تحرج منهم — أى من أهل الحرم — رجل أو امرأة من الطواف عريانا فطاف فى ثيابه — ألقاها إذا فرغ من طوافه ، ثم لم ينتفع بها ، ولم يمسها هو أو أحد غيره أبداً . . وكانت العرب تسمى هذه الثياب « اللقى » [4] .

ويقول « ابن إسحق » فى رواية ابن هشام عنه : إن هذه المقررات لم يصدرها المؤتمرون دفعة واحده ، ولكنها جاءت تباعاً ، واحده إثر واحدة . . كلما ألزموا العرب أمرا منها جاءوا بغيره ، وهكذا !

وليس يعنينا أن نقف عند هذه الملاحظة التى نبه إليها ابن إسحق ، من أن هذه المقررات لم تصدر مرة واحدة . . وإنما الذى يعنينا هو تلك المقررات نفسها . وما حملت من دلائل وأمارات .

وأهم ما يلقانا من هذه الدلائل أن قريشا قد عزلت نفسها عزلا روحيا عن القبائل العربية كلها . . فجعلوا البيت الحرام وحده هو مكان تقديسهم واحترامهم . . أما ما عداه من الشعائر الأخرى التى كان يعظمها العرب جميعا ومنهم قريش فقد أحلوا أنفسهم منها . . فتركوا الوقوف على عرفة ، والإفاضة منها ، وهم يعرفون حق المعرفة أنها من المشاعر ، والحج ، ودين إبراهيم ، ويرون

---

(١) يأتقطوا : أى يأكلوا ، والإقط شىء يتخذ من مخيض الغنم .

(٢) يسلأوا السمن : يطبخونه . (٣) الأدم : الجلد المدبوغ

(٤) كتاب السيرة لابن هشام : الجزء الأول ص ١٨٩ وما بعدها .

لسائر العرب أن يقفوا عليها وأن يفيضوا منها ، إلا أنهم قالوا : « نحن أهل الحرم ، فليس ينبغى لنا أن نخرج من الحرمة ، ولا نعظم غيرها . . نحن الحمس ! » (١)

وهذه العزلة الروحية لاشك أنها دليل يقظة ، وأمارة تنبه لهذا الأمر العظيم ، الذى ستتكشف عنه الأيام بعد قليل ، والذى ستكون وجهته — أول ماتكون — الجانب الروحى فى الناس ، وأن قريشاً هى أول من تلتقى بهذا الأمر العظيم .. وحى السماء ، على لسان رجل من قريش .. هو محمد بن عبد الله ! عليه صلوات الله وسلامه !

٢ — رجال فى الطليعة

وهذه الدفعة من الحماس الروحى التى حملت قريشاً على أن تتخذ هذا الموقف — الذى أشرنا إليه — والذى انتهى بها إلى أن تفرض على نفسها وعلى الناس ما فرضت من مقررات — نقول إن هذه الموجة من الحماس الروحى كان لها عند بعض ذوى العقول الناضجة ، والمشاعر الحية أصداء بعيدة لم تقف بها عند هذه المقررات ، بل دفعت بها إلى آفاق أبعد مدى ، وأرحب ساحة من هذا الأفق الذى وقفت قريش عنده !

ويحدث ابن إسحق ، فيما يروى ابن هشام عنه ، فيقول : « اجتمعت قريش يوما عند صنم من أصنامهم ، كانوا يعظمونه ، وينحرون له ، ويعكفون عنده ، ويديرون به ، وكان ذلك عيداً لهم ،فى كل سنة ، يوما . . فخلص منهم أربعة نفر نجياً ، ثم قال بعضهم لبعض : تصادقوا ، وليكتم بعضكم على بعض ! قالوا أجل .. وهم : ورقة بن نوفل ، وعبيد الله بن جحش ، وعثمان بن الحويرث ، وزيد بن عمرو بن نفيل ..

« وقال بعضهم لبعض : « تعلموا (٢) . . والله ما قومكم على شىء . . لقد

---

(١) السيرة : جزء أول ص ١٨٩ .

(٢) أى اعلموا ..

أخطأوا دين أبيهم إبراهيم . . ! ما حجر نطيف به . ؟ لا يسمع ولا يبصر ، ولا يضر ولا ينفع . . ؟ يا قوم : التمسوا لأنفسكم . . فإنكم والله ما أنتم على شيء !! . .

فتفرقوا فى البلدان يلتمسون الحنيفية ، دين إبراهيم(١) » .

ويقول ابن إسحق عن هؤلاء الأربعة : أما ورقة بن نوفل فاستحكم فى النصرانية واتبع الكتب من أهلها ، حتى علم علماً من أهل الكتاب .

وأما عبيد الله بن جحش فأقام على ما هو عليه من الالتباس، حتى جاء الإسلام فأسلم، ثم هاجر مع المسلمين إلى الحبشة ، ومعه امرأته أم حبيبة بنت أبى سفيان (٢) مسلمة ، فلما قدم الحبشة تنصر ، وفارق الإسلام حتى هلك نصرانياً !

وأما زيد بن عمر بن نفيل فوقف ، فلم يدخل فى يهودية ، ولا نصرانية، وفارق دين قومه واعتزل الأوثان ، والميتة والدم ، والذبائح التى تذبح على الأوثان ، ونهى عن قتل الموءودة ، وقال : اعبدوا رب إبراهيم وبادى (٣) قومه بعيب ما هم عليه .

قال ابن إسحق : « وحدثنى هشام بن عروة عن أبيه عن أمه أسماء بنت أبى بكر رضى الله عنهما ، قال : لقد رأيت زيد بن عمرو بن نفيل شيخاً كبيراً مسنداً ظهره إلى الكعبة ، وهو يقول : يا معشر قريش ، والذى نفس زيد بن عمرو بيده ما أصبح منكم أحد على دين إبراهيم غيرى ! ثم يقول : اللهم ، لو أنى أعلم أى الوجوه أحب إليك عبدتك به ، ولكنى لا أعلم ، ثم يسجد على راحته » (٤) .

---

(١) السيرة جزء ١ ص ٢٠٥ .

(٢) أم حبيبة هذه هى أم المؤمنين زوج النبى ، وقد تزوجها بعد أن طلقت من زوجها عبيد الله ابن جحش الذى تنصر فى الحبشة ، وكان النجاشى ، هو الذى تولى عقد تزويجها للنبى ، وأصدقها عنه .

(٣) بادى قومه : أعلنهم وصرح لهم .

(٤) السيرة : جزء ١ ص ٢١٦ .

ثم لا يزال زيد بن نفيل هذا يتقلب فى البلاد باحثاً عن الدين الذى يستريح إليه حتى ينتهى به المطاف إلى الشام ، فيلتقى براهب ينصحه أن يلتمس الحنيفية، دين إبراهيم عند نبى سيبعث فى بلاده وأن زمانه قد أظل ، فخرج من الشام سريعاً يريد مكة حتى إذا توسط بلاد لخم عدوا عليه فقتلوه » (١)

وأما عثمان بن الحويرث ، فقد تضاربت أخباره ، ولم يعرف المصير الذى صار إليه .

ولا نظن أن هذا الأمر قد وقف عند أولئك الأربعة الذين حفظ التاريخ ذكرهم . إذ لا بد أن يكون هناك كثير غيرهم قد وقع فى نفوسهم ما وقع فى نفوس هؤلاء وأنهم التمسوا ما التمس هؤلاء . ولكن لم يقدر لهم أن يكون أمرهم فى سجل التاريخ ، وأن يكون حديثاً يروى ، وخبراً يحدث به .

وشاهدنا على هذا ، أولئك الذين سبقوا إلى الإسلام ، واستجابوا لأول دعوة من الرسول دون توقف أو تردد . كأبى بكر، وعلى ، وعثمان ، والزبير بن العوام ، وعبد الرحمن بن عوف ، وسعد بن أبى وقاص ، وطلحة بن عبيد الله ، وزيد بن حارثة . . ، وأبو عبيدة بن الجراح ، وأبو سلمة بن عبد الأسد ، والأرقم بن أبى الأرقم .... وكثير غيرهم من السابقين الأولين (٢) . فهؤلاء السابقون إنما سبقوا بما وقع فى نفوسهم قبل النبوة من إرهاصات ومشاعر بها .

٣ — الرهبان . . والكهان

وإذا كان فى الناس من يسبق إلى موارد الروح ، ويتهدى إلى مواطنها ، فإن أكثر الناس استعداداً فى هذا المجال ، وأقدرهم عليه هم الرهبان والكهان . . إذ كان الرهبان قد وضعوا أقدامهم على أول الطريق منذ سلكوا مسلك الرهبنة ، فكانت الروح هى مطلبهم ، وكان الانقطاع عن الدنيا ، واعتزال

---

(١) السيرة : جزء أول ص ٢٢٢ .

(٢) انظر السيرة : جزء ١ ص ٢٣٧ .

مافيها هو زادهم الذى يتزودون به لقطع مراحل هذا الطريق الطويل.. ولا شك أن هذه الرياضة الروحية التى تقوم عليها حياة الرهبان ذات أثر كبير فى صفاء النفس ، وشفافية الروح ، وتهيئتها لاستقبال الرؤى عن الأحداث ، والإحساس بها قبل أن تقع فى مواطن الحس عند الناس .

وكذلك الشأن فى أصحاب الكهانة ، فإنهم قد اتجهوا بأنفسهم إلى استكشاف ما وراء الحس، ووجهوا قلوبهم وعقولهم إلى عالم الغيب ، لعلهم يصيبون شيئاً منه . . وإنه لغير مستبعد أن يلتقط بعضهم بين الحين والحين إشارة من هذا العالم ، تنبىء عن الأحداث قبل أن تصير فى واقع الناس ، بزمن .. قد يطول ، وقد يقصر ، بحسب ما عند المستطلع من استعداد للتلقى والاستقبال !

وعلى هذا فكل ما يروى من أخبار الرهبان والكهان من استطلاعات فى عالم الغيب ، وتنبؤات عن المستقبل هى من قبل السبق فى الرؤية بعين البصيرة للأمر قبل أن يقع فى متناول العين المبصرة ؟

وكذلك ما نقل الرواة والمؤرخون من أحاديث الرهبان والكهان عن مبعث الرسول إنما يضاف إلى هذا الحساب ، ويقدر بهذا التقدير .

ويرى « ابن إسحق » أن مصدر علم الرهبان والأحبار من اليهود والنصارى فى الإخبار بمبعث النبى — يرجع إلى ما عرفوا من كتبهم ، وما فيها من صفة النبى ، وأوصافه زمانه ، وما كان من عهد أنبيائهم إليهم فيه.

ولا منافاة بين هذا الذى يقول به ابن إسحق ، وما نراه من تنبه الإحساس الروحى عندهم وتهيئهم للرؤى التى تسبق واقع الأمور والأحداث.ولا بأس من أن يكون هذا العلم الذى علمه الأحبار والرهبان من كتبهم عن مبعث النبى ، مجتمعاً إلى تلك الرياضة الروحية فيكون لهذا العلم أثره فى حمل النفس على التطلع والبحث فى ثقة ، وفى يقين من أنها تبحث عن شىء لابد من أن تجده وتقع عليه ، وأنها إن أخطأته يوماً ، فذلك لأنها لا تملك القدرة على الوصول إليه ،لا لأنه غير موجود .. كما يكون لهذه الرياضة الروحية أثرها فى الإمساك بالنفس على النظر والتطلع ، دون أن يغلبها اليأس أو يستنفد طاقة صبرها القلق !!

قال « ابن إسحق » وكانت الأحبار من يهود ، والرهبان من النصارى والكهان من العرب قد تحدثوا بأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل مبعثه ، لما قرب من زمانه :

« أما الأحبار من اليهود ، والرهبان من النصارى ، فمما وجدوا فى كتبهم من صفته ، وصفة زمانه ، وما كان من عهد أنبيائهم إليهم فيه ، وأما الكهان من العرب فأتتهم به الشياطين من الجن ، فيما تسترق من السمع ، إذ كانت وهى لا تحتجب عن ذلك بالقذف من النجوم . وكان الكاهن والكاهنة لا يزال يقع منهما ذكر بعض أموره — أى النبى — ، لاتلقى العرب لذلك فيه بالا حتى بعثه الله تعالى ، ووقعت تلك الأمور التى كانوا يذكرون فعرفوها ! » (١)

من أحبار الأحبار والرهبان :

كان أهل المدينة — وهم الأنصار من الأوس والخزرج — أسبق العرب إلى الإسلام .. فهم الذين بايعوا الرسول على الإيمان به ، وبما نزل عليه من الكتاب ، كما بايعوه على نصرة الدين الذى جاء به . . وكان ذلك فى بيعتى العقبة — الأولى والثانية — بمكة .. وهم الذين كانت إليهم هجرة الرسول ، ومن موطنهم — المدينة — ارتفع لواء الإسلام ، وبسيوفهم وسيوف من هاجر إليهم من المسلمين انتصر الإسلام وعز المسلمون !

وهذا السبق إلى الإسلام الذى كان من أهل المدينة قد مهدت له أسباب ، ودعت إليه أحوال وملابسات لما أراد الله لهذا الحى من العرب من خير ، وعز وكرامة ، فى الدنيا والآخرة ! .

أما هذه الأسباب وتلك الملابسات فهى ما كان عند اليهود بالمدينة من علم بمبعث نبى عربى ، بشرت به التوراة ، وكشفت لهم صفته وصفة زمانه ، وكان اليهود من أجل هذا العلم ينذرون الأوس والخزرج — وهم الأنصار فيما بعد — ينذرونهم بالنبى المبعوث الذى سيكونون له أتباعا وحواريين ، وأنهم فى جانبه

(١) السيرة : جزء ١ ص ١٩٤

هذا النبي سينالون عزا وقوة، تأخذ لهم من الأوس والخزرج بحقهم، وتبدل من ضعفهم قوة، ومن خذلانهم نصراً ..

قال ابن اسحق: وحدثني عاصم بن عمر بن قتادة عن رجال من قومه - الأوس والخزرج - قالوا: مما دعانا إلى الإسلام مع رحمة الله وهداه لما كنا نسمع من رجال يهود .. كنا أهل شرك. أصحاب أوثان، وكانوا أهل كتاب، عندهم علم ليس لنا .. وكانت لاتزال بيننا وبينهم شرور ..

« فإذا نلنا منهم بعض ما يكرهون، قالوا لنا: إنه قارب زمان نبي يبعث الآن، نقتلكم معه قتل عاد وإرم، فكنا كثيرا ما نسمع ذلك منهم، فلما بعث الله رسوله صلى الله عليه وسلم أجبناه حين دعانا إلى الله تعالى، وعرفنا ماكانوا يتوعدوننا به، فبادرناهم إليه، فآمنا به، وكفروا هم به، ففينا وفيهم نزل هؤلاء الآيات من « البقرة »: « ولما جاءهم كتاب من عند الله مصدق لما معهم، وكانوا من قبل يستفتحون على الذين كفروا، فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به! فلعنة الله على الكافرين » (١)

ويروى ابن هشام عن ابن اسحق خبراً آخر من أحبار اليهود، وما كان عندهم من علم في شأن النبي العربي ..

يقول ابن إسحق: عن سلمة بن سلامة بن وقش - وكان سلامة من أصحاب بدر - قال: كان لنا جار من يهود، فخرج علينا يوما من بيته ... فذكر القيامة، والبعث، والحساب، والميزان، والجنة - والنار .. قال ذلك لقوم أهل شرك، أصحاب أوثان، لا يرون أن بعثا كائن بعد موت .. فقالوا له: ويحك يا فلان! أو ترى هذا كائنا .. أن الناس يبعثون بعد موتهم إلى دار فيها جنة ونار، يجزون فيها بأعمالهم؟ قال: نعم، والذي يحلف به، لوددت أن حظي من تلك النار أعظم تنور في الدار يحمونه، ثم يدخلونني إياه، فيطنونه علي وأن أنجو من تلك النار غدا!! فقالوا له: ويحك يا فلان! فما آية ذلك؟ قال نبي مبعوث من نحو هذه البلاد، وأشار بيده إلى مكة واليمن، قالوا ومتى نراه؟ قال - سلمة - فنظر إلى

---

(١) السيرة لابن هشام ج ١ ص ٢٠١.

وأنا من أحدثهم سناً فقال : إن يستنفد هذا الغلام عمره يدركه ! قال « سلمة » فوالله ماذهب الليل والنهار حتى بعث الله محمداً صلى الله عليه وسلم ، وهو - أى اليهودى - حى بين أظهرنا ، فآمنا به ، وكفر به ، بغياً وحسداً .. قال فقلنا له : ويحك يافلان !

ألست الذى قلت لنا فيه ماقلت ؟ قال : بلى ! « ولكن ليس به[1] » .

وتحدث كتب السيرة عن كثير من أحبار الرهبان ، كانوا يرصدون مطلع النبوة فى الجزيرة العربية ، لما عندهم فى التوراة من أخباره ، وصفاته ، وصفات زمانه ، والأفق الذى يطلع منه .. قال تعالى : « الذين يتبعون الرسول النبى الأمى الذى يجدونه مكتوباً عندهم فى التوراة والإنجيل ، يأمرهم بالمعروف ، وينهاهم عن المنكر ، ويحل لهم الطيبات ، ويحرم عليهم الخبائث ، ويضع عنهم إصرهم ، والأغلال التى كانت عليهم[2] » .

وهذه الأخبار المروية عن اليهود فى بعثة النبى إنما تستند إلى هذا العلم ، يظاهرها ما كان عند أحبار اليهود من استعداد نفسى وروحى لاستقبال أول أنسام النبوة . والتهدى إليها ! . . ولكن ليس كل من يعرف الخير ينتفع به . . فحين ظهر النبى ، ودعا الناس إلى ما أمره الله به أن يدعوهم إليه أصموا آذانهم ، وأعرضوا عنه ، . بغياً وحسداً . . ولم يدخل فى الإسلام منهم إلا جماعة قليلة ، أراد الله لها الخير ، وذلل لها الطريق إليه .

ولنا هنا أن نلتفت إلى استيطان اليهود المدينة وتجمعهم حولها . . فما كانت بلاد العرب بالموطن الذى يعيش فيه غير أهله العرب ، ولا كان اليهود خاصة يستطيبون الحياة فى هذه البلاد القفر . وهم أبداً طلاب صيد ، لايمسكهم شىء إلا إذا وجدوا منه ربحاً عاجلا . . فماذا حمل اليهود على أن يحيوا هذه الحياة القاسية فى هذه البلد القفر ، غرباء مستضعفين ؟

---

(١) السيرة ج ١ ص ٢٠٢ ، نهاية الأرب جـ ١٦ ص ١٤٣

(٢) سورة الأعراف آية ١٥٧

والرأى الذى نستريح إليه فى تعليل هذه الواقعة هو أن اليهود بما عندهم من علم من التوراة فى شأن النبى العربى الذى بشرت به التوراة ، وذكرت أوصافه وأوصاف زمانه ومكانه — هذا العلم قد دعا كثيرا من اليهود إلى التطلع إلى البلاد العربية ، وترقب ظهور هذا النبى ، كما حمل هذا العلم كثيراً منهم إلى الهجرة إلى بلاد العرب ليكونوا فى استقبال النبى عند ظهوره . وكانت المدينة أول بلد يلقاه اليهودى فى وجهته إلى الجزيرة العربية من أرض الشام . وكان من الطبيعى أن تكون المدينة محط رحال هؤلاء اليهود الوافدين على الجزيرة ، انتظارا لبعثة النبى . وكان أن ازداد عدد اليهود مع الزمن بالتوالد والتوافد حتى صار لهم فى المدينة مجتمع ، له آثاره ومكانته فى حياة المدينة . . الاجتماعية والاقتصادية والسياسية ! حتى جاء الإسلام فوقفوا منه هذا الموقف اللئيم العنيد ، فأذن الله لرسوله والمؤمنين أن يجلوهم عن هذا البلد الطيب ، وأن يطهروا منهم مواطن الإسلام .

٤ — من أخبار الكهان

والكهانة ضرب من الرجم بالغيب ، وادعاء بالكشف عن أحداث المستقبل ومايتوقع من أمور !

وقد عرف العرب الكهانة ، وحفظ التاريخ أسماء كثير من الكهان والكاهنات .

وكان للكهان والكاهنات مكانة مرموقة بين القبائل ، تجىء إليهم الناس من كل جهة ، يستفتونهم فى كثير من الشئون ، ويتوافدون إليهم ، للحكم بينهم فيما يختصمون فيه ، من نسب ، أو شرف ، أو غير ذلك من شئون الناس فى الحياة .

وقد لعب الكهان دوراً كبيراً فى حياة الأمة العربية ، وفى تحديد اتجاهات أفكارها فى الحياة .

ويغلب على الكهنة أن يكونوا من الزمنى وذوى العاهات ، الناجمة عن نقص فى الخلقة ، أو شذوذ فى الطبيعة . فان غرابة الخلق فى إنسان من الناس توقع

فى نفس من يراه أن هذا الخروج على الطبيعة فى تكوينه لابد أن يكون وراءه أسرار وعجائب ، تظهر أكثر ماتظهر فى الجانب الروحى منه ، وفى اقتداره على الاتصال بالملأ الأعلى ، والتلقى منه . . كما يغرى هذا الخلق العجيب صاحبه بأن يكون شيئاً فى الحياة ، وأن يجىء إلى الناس بما لم يجيئوا به ، إذ جاء هو إلى الحياة على غير الصورة البشرية التى جاءوا هم بها ! ونشهد نحن هذا فى جماعات «المجاذيب» وفى اعتقاد كثير من الناس فيهم . . فإن الذى يغلب عليهم هو هذا الشذوذ فى الخلقة . . من نقص ، وتشويه !

وقد كان للكهان دور كبير قبيل البعثة النبوية . . إذ كثر لغطهم ووسواسهم بهذا الأمر العظيم ، الذى سيطلع على الناس من قريب !

وكان الكهان يسندون علمهم هذا الذى يلقونه فى آذان الناس إلى الجن الذين هم أقدر من الناس على التقاط أنباء السماء ، وما تصدر إلى الناس من أحداث ! فكان لكل كاهن أو كاهنة ، رئى ، أو رفيق من الجن ، تتوثق بينه وبين صاحبه أواصر الصداقة على طول الصحبة ، وامتداد الأيام !

ويذكر القرآن ماكان للجن من استطلاعات للغيب ، ومحاولات فى استراق السمع . . فقال تعالى عن الجن واستراقهم السمع ، «وأنا كنا نقعد منها مقاعد للسمع ، فمن يستمع الآن يجد له شهاباً رصداً ، وأنا لاندرى أشر أريد بمن فى الأرض أم أراد بهم ربهم رشدا» (١) .

يقول ابن هشام : فلما تقارب أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وحضر مبعثه حجبت الشياطين عن السمع ، وحيل بينها وبين المقاعد التى كانت تقعد لاستراق السمع فيها ، فرموا بالنجوم ، فعرفت الجن أن ذلك لأمر حدث من أمر الله فى العباد !» (٢) .

وهذه المستمعات التى كان يسترقها الجن إنما ليوسوسوا بها فى صدور بعض

---

(١) سورة الجن آية ٩ ، ١٠ .

(٢) السير جزء أول ص ١٩٥ .

الناس ، وليجعلوا منهم متنبئين يفتنون الناس بهم ، ويلبسون عليهم أمورهم ، بما يخلطون بين الحق والباطل من تلك الأنباء التي يلقون إليهم بها .

عن ابن عباس عن نفر من الأنصار أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لهم : « ما كنتم تقولون في هذا النجم الذي يرمى به ؟ قالوا : يانبي الله .. كنا نقول حين رأيناها يرمى بها : مات ملك .. ملك ملك .. ولد مولود مات مولود ! » فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ليس ذلك كذلك .. ولكن الله تبارك وتعالى كان إذا قضى في خلقه أمراً سمعه حملة العرش ، فسبحوا ، فسبح من تحتهم ، فسبح لتسبيحهم من تحت ذلك .. فلا يزال التسبيح يهبط حتى ينتهي إلى السماء الدنيا فيسبحوا ، ثم يقول بعضهم لبعض : مم سبحتم ؟ فيقولون سبح من فوقنا فسبحنا لتسبيحهم ! فيقولون : ألا تسألون من فوقكم مم سبحوا ؟ فيقولون مثل ذلك ، حتى ينتهوا إلى حملة العرش ، فيقال لهم مما سبحتم ؟ فيقولون : قضى الله في خلقه كذا وكذا .. للأمر الذي كان .. فيهبط به الخبر من سماء إلى سماء حتى ينتهي إلى السماء الدنيا ، فيتحدثوا به ، فيسترقه الشياطين بالسمع ، على توهم واختلاف . ثم يأتوا به الكهان من أهل الأرض فيحدثوهم به . فيخطئون ويصيبون ، فيتحدث به الكهان فيصيبون بعضاً ويخطئون بعضاً .. ثم إن الله عز وجل حجب الشياطين بهذه النجوم التي يقذفون بها ، فانقطعت الكهانة اليوم .. فلا كهانة[1] » .

ويقول ابن إسحق فيما يرويه عنه ابن هشام : « وأما الكهان من العرب فأتتهم به — أي بما تحدثوا به من بعثة النبي — الشياطين من الجن فيما تسترق من السمع ، إذ كانت وهي لا تحتجب عن ذلك بالقذف من النجوم .. وكان الكاهن والكاهنة لايزال يقع منهما ذكر بعض أموره — أي أمور النبي — لاتلقى العرب لذلك فيه بالا ، حتى بعثه الله تعالى ، ووقعت تلك الأمور التي كانوا يذكرون فعرفوها[1] » .

---

(١) السيرة ج ١ ص ١٩٤ .

ويرى ابن خلدون أن انقطاع الكهانة ، كان موقوتاً فى زمن النبوة ، إذ أن ضوء النبوة أشبه بضوء الشمس يخفت فيه كل ضوء ! ثم لما انتهى زمن النبوة لم يكن هناك مايحول بين الكهانة وبين أن تظهر ، إذ غربت الشمس التى كانت تلزمها أجحارها ! وأنه وإن كان قد بطل الاستراق الذى كانت تسترقه الجن وتلقى به فى صدور الكهان ، فإنه قد بقى للكهان ما فى نفوسهم من استطلاعات خاصة ليست لغيرهم من الناس ، وهم بهذه الاستطلاعات يلقون الناس ، ويلقون إليهم بما عندهم ، وبما ليس عندهم ، من مزاعم وأكاذيب .

يقول ابن خلدون : « وقد زعم بعض الناس أن الكهانة قد انقطعت منذ زمن النبوة بما وقع من شأن رجم الشياطين بالشهب بين يدى البعثة ، وأن ذلك كان لمنعهم من خبر السماء ، كما وقع فى القرآن . . والكهان إنما يتعرفون أخبار السماء من الشياطين ، فبطلت الكهانة من يومئذ !

« ولا يقوم من ذلك دليل . . لأن علوم الكهان كما تكون من الشياطين ، تكون من نفوسهم أيضاً .

« فالآية إنما دلت على منع الشياطين من نوع واحد من أخبار السماء ، وهو ما يتعلق بخبر البعثة ، ولم يمنعوا مما سوى ذلك .

« وأيضاً ، فانما كان ذلك الانقطاع بين يدى النبوة فقط ، ولعلها عادت بعد ذلك إلى ما كانت عليه ، وهذا هو الظاهر . . لأن هذه المدارك كلها تخمد فى زمن النبوة كما تخمد الكواكب والسرج عند وجود الشمس ، لأن النبوة هى النور الأعظم الذى يخفى معه كل نور .

« وقد زعم بعض الحكماء أنها إنما توجد بين يدى النبوة ثم تنقطع ، وهكذا مع كل نبوة وقعت ! لأن وجود النبوة لابد له من وضع فلكى يقتضيه ، وفى تمام ذلك الوضع تمام تلك النبوة التى دل عليها . ونقص ذلك الوضع عن التمام يقتضى وجود طبيعة — مع ذلك النوع الذى يقتضيه — ناقصة ، وهو معنى الكاهن . . فقبل أن يتم ذلك الوضع الكامل يقع الوضع الناقص ، ويقتضى

وجود الكاهن ، إما واحداً أو متعدداً ، فاذا تم الوضع تم وجود النبي بكماله ، وانقضت الأوضاع الدالة على مثل تلك الطبيعة ، فلا يوجد منها شيء بعد[١] » .

ونظرة الحكماء هذه التي يرويها ابن خلدون عنهم في تعليل ظهور الكهنة بين يدي النبوة وإضافة ذلك إلى أوضاع فلكية هي على حسب ما كان مقرراً في الفلسفة القديمة عن تحكم الأفلاك في مصائر الأمور ، وقيام كل فلك على حال من أحوال الوجود !

ويمكن أن نجعل هذه النظرة في وضع آخر غير مستند إلى هذا النظام الفلكي . . وهو — كما قلنا من قبل — : أن الأحداث العظيمة . لابد أن تقوم بين يديها شواهد ودلالات ، هي أشبه بالضوء الذي يحمله الفجر بين يديه ، مؤذناً بطلوع الشمس . . فهذه الرؤى ، والاستطلاعات التي تقع للناس بين يدي الأحداث العظيمة هي من هذا القبيل . . !

وفي القرآن مايكشف عن شيء من هذا . . فقد ذكر القرآن عن فرعون مصر تلك الرؤيا التي رآها في نومه ، وكانت تحمل في طياتها تصويراً كاملا لهذا الحدث العظيم الذي ستلده الأيام بعد بضع سنين ، والذي سيكون له أثره القوي في حياة الشعب الذي يقوم هذا الملك على تدبير أموره .

« وقال الملك إني أرى سبع بقرات سمان يأكلهن سبع عجاف . . ، وسبع سنبلات خضر وأخر يابسات . . . يا أيها الملأ أفتوني في رؤياي إن كنتم للرؤيا تعبرون ، قالوا أضغاث أحلام ، وما نحن بتأويل الأحلام بعالمين »[٢] .

ولم تكن هذه الرؤيا أضغاث أحلام ، ولكنها كانت استطلاعاً صادقاً لما سيقع من أحداث . ولم يكن عند فرعون ، ولا عند كهنته وسحرته من يحسن قراءة هذا الكشف الذي استقبلته نفس فرعون من العالم العلوي ! وكان لابد

---

(١) مقدمة ابن خلدون ص ٩٧ .

(٢) سورة يوسف : ٤٣ ، ٤٤ .

من نفس مشرفة تكشف عن هذه الرموز ، وتقيم منها حروفا ، وتبنى منها كلمات وجملا واضحة مقروءة . . فكان يوسف عليه السلام هو الذى تولى هذا الأمر ، وأحسن القيام عليه . . وكانت قراءته لهذه الرموز هى ما ذكره القرآن الكريم عنه فى قوله تعالى : « قال تزرعون سبع سنين دأبا ، فما حصدتم فذروه فى سنبله . . إلا قليلا مما تأكلون . . ثم يأتى من بعد ذلك سبع شداد يأكلن ما قدمتم لهن إلا قليلا مما تحصنون ، ثم يأتى من بعد ذلك عام فيه يغاث الناس ، وفيه يعصرون »(١).

وأنت ترى أن حكمة يوسف وتدبيره لم تقف به عند تفسير هذه الرؤيا على وجهها الصحيح وحسب ، بل إنه جاء بالتدبير الذى ينبغى أن يواجه به هذا الحدث الذى تكشفت عنه الرؤيا . . فلم يقل يوسف للملك ومستشاريه من حوله : إنكم ستعيشون فى خصب ، وفى زرع وحصاد سبع سنين ، ثم يأتى بعد ذلك سبع سنين من الجدب والقحط . بل قال هذا الذى ذكره القرآن عنه، وفيه السياسة الحكيمة التى ينبغى أن يستقبل بها هذا الحدث العظيم . .

* * *

ونعود إلى الكهانة والكهان ، وما كان لها ولهم من حديث فى شأن البعثة ! لقد حفظ تاريخ السيرة كثيراً من أخبار الكهنة ، من رجال ونساء — عن النبى المبعوث . وما يكون له من شأن فى الناس ، وفى أوضاع الحياة !

شق وسطيح :

وكان « شق وسطيح » أشهر كاهنين فى الجزيرة العربية قبيل مبعث النبى ، وإليهما كان المفزع فى كل أمر ذى خطر !

وقد أبى مؤرخو السيرة أن يكون « شق وسطيح » بمعزل عن هذا الحدث العظيم الذى استيقظ له الوجود كله ! فجعلوا لهما مشاركة فى أحداث النبوة ، وأقوالا مأثورة فيها !

(١) سورة يوسف : ٤٧ ، ٤٩ .

ولا نستبعد أن يكون شق وسطيح استطلاعات فى موكب النبوة . .
ولكن الذى نقف منه موقف الشك والحذر هو تلك القصص المثيرة التى يرويها الرواة عنهما فى هذا الأمر، والتى يظهر فيها التلفيق والاصطناع ! وأقرب شاهد على ذلك ما يروى عن ربيعة بن نصر ملك اليمن ، وما كان بينه وبين هذين الكاهنين .. ! فقد حملت هذه القصة صوراً أشبه بالأساطير ، فى تناول الأحداث وتدبير تحركها وانطلاقها على مسرح الحياة !

قال محمد بن إسحق : كان ربيعة بن نصر ملك اليمن بين ملوك التتابعة . . فرأى رؤيا هالته ، وفظع بها ، فلم يدع كاهناً ولا ساحراً ، ولا عائفاً ، ولا منجما من أهل مملكته إلا جمعه إليه ، فقال لهم : إنى قد رأيت رؤيا هالتنى ، وفظعت بها . . فأخبرونى بها ، وبتأويلها . . قالوا له : اقصصها علينا نخبرك بتأويلها ! قال : إنى إن أخبرتكم بها لم أطمئن إلى خبركم عن تأويلها ! فإنه لا يعرف تأويلها إلا من عرفها قبل أن أخبره بها .

فقال له رجل منهم : فإن كان الملك يريد هذا ، فليبعث إلى « سطيح وشق » . . فإنه ليس أحد أعلم منهما ، فإنهما يخبرانه بما سأل .

فبعث إليهما ، فقدم عليه سطيح قبل شق ؛ فقال له : إنى رأيت رؤيا هالتنى وفظعت بها ، فأخبرنى بها . فإنك إن قصصتها أصبت تأويلها : قال : أفعل . . قال الملك :

« رأيت حممة (١) . . خرجت من ظلمة . . فوقعت بأرض تهمة (٢) . . فأكلت منها كل ذات جمجمة(٣) فقال الملك ما أخطأت منها شيئاً يا سطيح ؛ فما عندك فى تأويلها ؟ قال :

« أحلف ما بين الحرتين (٤) من حنش . . لتهبطن أرضكم الحبش »

---

(١) قطعة نار .
(٢) أى أرض منخفضة .
(٣) يريد الرأس .
(٤) الحرة أرض فيها حجارة سود .. والبيت الحرام واقع بين حرتين ..

فليملكن ما بين أبين إلى جرش (١) .

فقال الملك : وأبيك يا سطيح .. إن هذا لنا لغائظ موجع . . فمتى هو كائن؟ أفي زماني أم بعده ؟ قال : لا بل بعده بحين . . أكثر من ستين أو سبعين . . يمضين من السنين ! » قال : أفيدوم ذلك من ملكهم أم ينقطع ؟ قال : لا بل ينقطع لبضع وسبع من السنين ، ثم يقتلون ويخرجون منها هاربين » .

قال : ومن يلى ذلك من قتلهم وإخراجهم ؟

قال : يليه إرم ذم يزن . يخرج عليهم من عدن ، فلا يترك منهم أحداً باليمن !

قال : أفيدوم ذلك من سلطانه أم ينقطع !

قال : بل ينقطع ؟

قال : من يقطعه ؟

قال : نبي زكى ، يأتيه الوحى من قبل العلى !

قال : وممن هذا النبي ؟

قال : رجل من ولد غالب بن فهر بن مالك بن النضر ، يكون الملك فى قومه إلى آخر الدهر .

قال : وهل للدهر من آخر؟

قل : نعم ، يوم يجمع فيه الأولون والآخرون ، يسعد فيه المحسنون ، ويشقى فيه المسيئون

قال : أحق ما تخبرني ؟

قال : نعم ، والشفق والغسق ، والفلق إذا اتسق ، إن ما أنبأتك به لحق !

ثم قدم عليه شق ! فقال له كقوله لسطيح ، وكتمه ما قال سطيح ، لينظر أيتفقان أم يختلفان ؟

قال شق : نعم . . رأيت حممة . . خرجت من ظلمه ، فوقعت بين روض وأكمة ، ، أكلت منها كل ذات نسمة » .

---

(١) أبين ، وجرش : الأولى بلد باليمن ، والثانية مخلاف بها .

فلما قال ذلك عرف أنهما قد اتفقا ، وأن قولهما واحد ، فقال له الملك : ما أخطأت يا شق منها شيئاً ... فما عندك فى تأويلها ؟

فقال : أحلف بما بين الحرتين من إنسان لتنزلن أرضكم السودان ، فليغلبن على كل طفلة (١) البنان ، وليملكن ما بين أبين إلى نجران !»

فقال له الملك : وأبيك يا شق . إن هذا لنا لغائظ موجع ! فمتى هو كائن ، أفى زمانى أم بعده ؟ .

قال : لا بل بعده بزمان .. ثم يستنقذكم منهم عظيم ذو شأن ، ويذيقكم أشد الهوان ! » .

قال : ومن هذا العظيم الشأن ؟

قال : ليس بدنى لامدن ... يخرج عليهم من بيت ذى يزن !

قال : أفيدوم سلطانه أم ينقطع !

قال : بل ينقطع برسول مرسل ، يأتى بالحق والعدل ، بين أهل الدين والفضل يكون الملك فى قومه إلى يوم الفصل ! »

قال : وما يوم الفصل ؟

قال : يوم نجزى فيه الولاة . . . يدعى فيه من السماء بدعوات . . . يسمع فيها الأحياء والأموات .. ويجمع فيها الناس للميقات ... يكون فيه لمن اتقى الفوز الخيرات !

قال : أحق ما تقول ؟

قال : أى ورب السماء والأرض ، وما بينهما من رفع وخفض ، إن ما أنبأتك به لحق ما فيه أمض (٢) .

---

(١) الطفلة : الناعمة الرخصة من النساء .
(١) الأمض : الشك والباطل .

قال ابن إسحق : فوقع فى نفس ربيعة بن نصر ماقالا ، فجهز بنيه وأهل بيته إلى العراق بمايصلحهم ، وكتب إلى ملك من ملوك فارس يقال له سابور . فاسكنهم فى الحيرة . فمن بقية ولد ربيعة بن نصر النعمان بن المنذر » (١) .

هذا دور « شق وسطيح » فى أخبار السيرة النبوية ! وهو دور كان لابد لهم أن يؤدوه إذا كان للكهان مكان فى أحداث السيرة النبوية وأنبائها .

ويروى « النويرى » فى كتابه « نهاية الأرب » دورا آخر لكاهنة ، شبيها بما كان من « شق وسطيح » .. يقول :

« يروى أن سفيان بن مجاشع بن دارم احتمل ديات دماء كانت من قومه ، فخرج يستعين فيها ، فدفع إلى حى من تميم ، فإذا هم مجتمعون إلى كاهنة تقول :

« العزيز من والاه ، والذليل من خالاه (٢) والموفور من مالاه (٣) والموتور من عاداه » .

قال سفيان : من تذكرين .. لله أبوك ؟

فقالت : صاحب حل وحرم ، وهدى وعلم .. وبطش وحلم ، وحرب وسلم ، رأس رءوس ، ورائض يسوس ، وماحى بوس (٤) ، وماهد وعوس (٥) ..

قال سفيان : من هو ؟ .. لله أبوك ؟

قالت : نبى مؤيد ، قد آن حين يوجد ، ودنا أوان يولد ، يبعث إلى الأحمر والأسود بكتاب لا يفند ، اسمه محمد »

قال سفيان : لله أبوك ! أعربى هو أم عجمى ؟

---

(١) السيرة : لابن هشام جزء أول ص١٤ ــ نهاية الأرب ج١٦ ص ١٥٤

(٢) أى تركه وتخلى عنه .

(٣) أى مالأه ، واجتمع إليه .

(٤) أى بؤس .

(٥) أى ممهد الصعاب .

قالت : أما والسماء ذات العنان ، والشجر ذات الأفنان . إنه لمن معد ابن عدنان ، فقدك (١) ياسفيان ، .

فأمسك سفيان عن سؤالها . . ثم إن سفيان ولد له غلام فسماه محمداً ، لما رجاه من أن يكون النبي الموصوف ! (٢) »

ويروى صاحب السيرة الحلبية خبراً بمجلس رسول الله صلى الله عليه وسلم .. قال :

« روى عن لهيب بن مالك اللهبي قال : حضرت عند رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فذكرت الكهانة ، فقلت : بأبي أنت وأمي يا رسول الله نحن أول من عرف حراسة السماء وزجر الشياطين ، ومنعهم من استراق السمع عند القذف بالنجوم .. وذلك أنا اجتمعنا إلى كاهن لنا يقال له « خطر بن مالك » ، وكان شيخا كبيراً ، قد أتت عليه مئة سنة وثمانون سنة ، وكان أعلم كهاننا ، فقلنا له : يا خطر .. هل عندك علم من هذه النجوم التي يرمى بها ! فإنا قد فزعنا لها ، وخفنا سوء عاقبتها ؟

فقال : ائتوني بسحر (٣) ، أخبركم الخبر ، بخير أم ضرر ، وأمن أم حذر !

فانصرفنا عنه يومنا . فلما كان من غد في وجه السحر أتيناه ، فاذا هو قائم على قدميه ، شاخص إلى السماء بعينيه . . فناديناه : ياخطر . . فأومأ إلينا أن أمسكوا ، فأمسكنا ... فانقض نجم من السماء عظيم !

فصرخ الكاهن : أصابه إصابه (٤) ، خامره عقابه ، عاجله عذابه ، أحرقه شهابه ، زايله جوابه ... ياويله ما حاله ، بلبله بلباله ، عاوده خباله ، تقطعت حباله ، وغيرت أحواله . . »

ثم أمسك طويلا ... ثم قال :

---

(١) قدك : أي كفاك .

(٢) نهاية الأرب : جزء ١٦ ص ١٦١ .

(٣) أي وقت السحر ، وهو قبيل الفجر .

(٤) أي أصابه داؤه الذي فيه رداه .

« يا معشر بنى قحطان ، أخبركم بالحق والبيان ، أقسمت بالكعبة ذات الأركان والبلد المؤتمن السدان (١) ، قد منع السمع عتاة الجان ، بثاقب بكف ذى سلطان ، من أجل مبعوث عظيم الشان ، يبعث بالتنزيل والقرآن ، وبالهدى وفرقان الفرقان ، تبطل به عبادة الأوثان .. »

قال . قلنا ياخطر ، إنك لتذكر أمراً عجباً ، فماذا ترى لقومك ؟ فقال :

أرى لقومى ما أرى لنفسى — أن يتبعوا خير بنى الإنس

برهانه مثل شعاع الشمس — يبعث من مكة دار الحمس

بمحكم التنزيل غير اللبس

قلنا : يا خطر ، وممن هو !

فقال : والحياة والعيش ، إنه لمن قريش ، ما فى حكمه طيش ، ولا فى خلقه هيش ، يكون فى جيش ، وأى جيش ، من آل قحطان وآل ريش (٢) .

قلنا : بين لنا : من أى قريش هو ؟

قال : والبيت ذى الدعائم ، والركن والأحائم (٣) ، وإنه لمن نجل هاشم من معشر أكارم ، يبعث بالملاحم ، وقتل كل ظالم .

ثم قال : هذا هو البيان ، أخبرنى به رئيس الجان .

ثم قال : الله أكبر ، جاء الحق وظهر ، وانقطع عن الجن الخبر .

ثم سكت فأغمى عليه ، فما أفاق إلا بعد ثلاث .. فقال : لا إله إلا الله ..

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «لقد نطق عن مثل نبوة ، وإنه ليبعث يوم القيامة أمة وحده » . والله أعلم (٤)

---

(١) أى سدنة البيت الحرام ، جمع سادن .

(٢) آل ريش : قبيلة من الجن

(٣) الأحائم : جمع الجمع لحوم ، وهى طيور مكة .

(٤) السيرة الحلبية ج ١ ص ٢٠٩ .

معجزات الرسول .. بعد البعثة

وإذا كانت حياة النبي صلى الله عليه وسلم قبل البعثة قد صحبها ، بل وسبقها ، هذا الدوى العظيم فى قلوب الناس وفى عقولهم ، فتخلق من هذا الدوى تلك الأنباء التى جاءت تسبق مولده ، وتذيع فى الناس البشائر بقرب مبعث النبى الأمى العربى !

وإذا كانت سيرة النبى قبل مبعثه جعلت لكثير من رواة الأخبار والقصاص سبيلا إلى اصطناع الأخبار وتوليدها . وإلى الاستكثار بغير حساب من كل عجيبة وعجيب ، كما كان ذلك مدخلا ممهداً لأصحاب الأهواء والضلالات يدخلون منه إلى سيره الرسول بمخارقات الأخبار التى ينطبق ظاهرها بتمجيد الرسول ورفع منزلته ، بينما تطوى فى باطنها تشويه سيرته وتعكير مواردها الصافية ، وإلقاء ظلال كثيفة عليها من الشكوك !

نقول — إذا كان هذا فى سيرة النبى قبل بعثته فماذا يكون فى هذه السيرة العظيمة بعد أن حمل بين يديه الكتاب الكريم ، وجرت على لسانه كلمات السماء ؟ وماذا يكون فى هذا النبى السيرة بعد أن يرى الناس رأى العين أنوار السماء تتصل بالأرض ، ويشهدون رسول السماء يغدو ويروح بآيات الكتاب يلقيها إلى النبى على مرأى ومسمع منهم ، ماذا يكون فى هذه السيرة والأمر على هذا الوجه ؟

ونحن هنا من أخبار السيرة بعد البعثة فى موقف غير موقفنا من تلك التى تروى عما قبل البعثة ، وعما قبيل المولد !

فإذا كان من الممكن أن يسلم - عقلا - بأن تخلو سيرة الرسول إلى مبعثه من غير إشارات ودلالات تشير إلى النبوة ، وتحدث عنها ، وأن يمسى الناس ويصبحون فإذا هم بين يدى نبوة ، وفى مواجهة نبى فجاءة على غير انتظار - إذا كان من الممكن أن يسلم بهذا ، وهو مالا يمكن أن يسلم به أو يقبل بحال أبداً - فإن إمكان عدم التسليم بهذا فى الفترة السابقة من حياة النبى قبل مبعثه يرتفع إلى درجة المستحيل أن تخلو سيرة النبى خلال فترة النبوة من آيات ومعجزات ،

تشهد له بأنه ذلك الإنسان الذى اختاره الله واصطفاه . ورفع منزلته على منازل الناس جميعاً . . فى الدنيا والآخرة !

إن النبوة التى يحملها النبى فى كيانه هى طاقة عظيمة من نفحات السماء وبركاتها وهى حيث تكون لا تمضى دون أن تترك أثراً من آثار نفحاتها وبركاتها فى كل من يتصل أو مايتصل بها !

إن أى إنسان من الناس له امتياز فى علم أو فن لا تمضى حياته دون أن ترى الحياة أثراً من آثار علمه أو فنه .. وإلا فماذا يدل على أنه عالم أو فنان . ثم ماقيمة علمه ، وماجدوى فنه إن لم تتفتق أكمامه ، وتطلع ثمراته ، وتصبح زاداً طيباً على مائدة العلوم والفنون !

فما بالك بالنبوة والنبى . وماظنك بهذا الثمر الذى يطلع من شجرة النبوة .

إنه لثمر طيب موفور ، لن تعرفه الحياة إلا فى عهود النبوات ، ولن تجد ثماره إلا فى حياة الأنبياء !

فإذا كان الحديث فى نبوة النبى « محمد » فلك أن تجمع ما تفرق فى النبوات كلها من خير ، وماكان فى النبيين جميعاً من كمال ، ثم تضيف كل هذا الخير ، وكل هذا الكمال إلى محمد ، وإلى نبوة محمد ، ثم لا يدخل عليك ظن أنك قد بلغت به وبنبوته ماهو له من كمال ، ومافى نبوته من خير .. فإن كمال محمد فوق كل كمال ، وإن الخير الذى حملته نبوته أكثر وأعظم من كل خير .

° ° °

لقد كان هناك إذن معطيات كثيرة متدفقه تفيض بها يد محمد كل حين بإذن ربها .. فحيث كان النبى كانت البركة ، وكان الخير ، وكان لأصحابه ما استطاعوا أن يحملوا من هذا الخير ، وماشاءوا أن يصيبوا من هذه البركة .

ونحن ننظر إلى ماوقع من معجزات النبى فى فترة النبوة على أنها أمور لا تعدو أن تكون نفحة من نفحات النبوة ، وشذى طيباً من شذاها العطر ، وأنها ليست من باب المعجزات التى تجىء للتحدى وتعجيز الناس عن الإتيان بمثلها ، وليعترفوا للنبى بنبوته .

فأولا : إن جميع هذه المعجزات التى ذكرها مؤرخو السيرة — ما صح منها وما لم يصح — لم يقل واحد من هؤلاء المؤرخين عن أية معجزة منها أنها كانت موضع التحدى ، وإعلان الناس بها ، ومطالبتهم الإتيان بمثلها ، أو الإذعان لها ، وذلك هو شأن معجزات الأنبياء ، وهو الشأن فى معجزة النبى الخالدة ، التى قامت منذ قيامها على تحدى الإنس والجن أن يأتوا بمثلها .. وتلك هى القرآن ، معجزة الرسول ، ولا معجزة أخرى غيره ، وفى هذه المعجزة يقول الله تعالى : « قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ، ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا[١] » . . ويقول سبحانه : « أم يقولون افتراه . . قل فأتوا بعشر سور مثله مفتريات ، وادعوا من استطعتم من دون الله إن كنتم صادقين ..[٢] » بل ذهب فى التحدى إلى أن يكون بسورة واحدة ، فقال تعالى : « وإن كنتم فى ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله ، وادعوا شهداءكم من دون الله إن كنتم صادقين . . فإن لم تفعلوا ، ولن تفعلوا فاتقوا النار التى وقودها الناس والحجارة ، أعدت للكافرين[٣] » .

وثانياً : لم يقع بين النبى وبين الكفار من قريش أو غيرهم حديث حول هذه « المعجزات » ، فلم يكن من النبى إلفات لهم إليها ، ولم يكن من الكفار تكذيب لها أو امتراء فيها . . ولو أن هذه « المعجزات » كانت ذات طابع يراد به التحدى لذكرها القرآن ، أو ذكر بعضها . أو أشار إلى موقف من مواقف الكافرين حيالها ، أو حيال واحدة منها !!

ولكن الذى ذكره القرآن فى هذا المقام هو القرآن الكريم وحده . وما دار حوله من تكذيب وتلبيس !

فإنه حين وقفت قريش ومن معها من المكابرين المعاندين — عاجزة أمام هذا التحدى عن أن تأتى بسورة أو بعض سورة ، ذهب بها العناد ، ولج بها الكفر

---

(١) سورة الإسراء آية ٨٨ .

(٢) سورة هود آية ١٣ .

(٣) سورة البقرة آية ٢٣ ، ٢٤ .

أن تقول فى القرآن أقوالا متخاذلة متهافتة ، تستر بها صمغها ، وتمسح بها العرق المتصبب من خزيها . . وكان من حصيلة هذه الأقوال المنكرة ماذكره القرآن عنهم فى قوله تعالى : «وقال الذين كفروا إن هذا إفك افتراه ، وأعانه عليه قوم آخرون . . . فقد جاءوا ظلماً وزوراً . . وقالوا أساطير الأولين اكتتبها فهى تملى عليه بكرة وأصيلا »(١) . . وفى قوله تعالى «إنما يعلمه بشر !.. لسان الذى يلحدون إليه أعجمى ، وهذا لسان عربى مبين »(٢) ويقول سبحانه عن الوليد ابن المغيرة ، وقد استمع إلى رسول الله وهو يتلو عليه من آيات الكتاب ما ملأ قلبه عجباً ودهشاً ، وأبى عليه كبره وعناده أن يلقى إليه السلم وينقاد . . يقول سبحانه وتعالى : «إنه فكر وقدر .. فقتل .. كيف قدر ! ثم قتل .. كيف قدر ! ثم نظر ، ثم عبس وبسر ، ثم أدبر واستكبر . . فقال إن هذا إلا سحر يؤثر . . إن هذا إلا قول البشر !(٢) .

وقد رد القرآن مفترياتهم هذه فى شأن القرآن ، وتخرصاتهم فيه .. فقال تعالى : «إنه لقرآن كريم . فى كتاب مكنون ، لا يمسه إلا المطهرون ، تنزيل من رب العالمين . . »(٤) وقال سبحانه: «وما هو بقول شاعر .. قليلا ما تؤمنون ، ولا بقول كاهن .. قليلا ما تذكرون .. تنزيل من رب العالمين »(٥) وقال جل شأنه: «وما كان هذا القرآن أن يفترى من دون الله »(٦) .

وهكذا تجىء آيات الكتاب تدافع عن معجزة الرسول ، وتدمغ الكافرين المتقولين بالكذب والبهتان .. ذلك على حين لم تكن فى القرآن كله آية تكشف عن موقف من مواقف هؤلاء الكافرين إزاء خارقة أخرى ، مما جرى على يد الرسول من خوارق !

وعلى هذا ، فإن الذى نذكره من الأخبار التى تحدث عن هذه الخوارق إنما نذكره لا على أنه من معجزات الرسول ، ولا أنه كان من مقصد الرسول أن يجعل منه معجزة ، يؤمن عليها الناس ، وإنما كل ماذكر فى هذا الباب مما نذكره هنا

---

(١) سورة الفرقان آية ٥ .

(٢) سورة المدثر آية ١٨ — ٢٠ .

(٣) سورة النحل آية ١٣ .

(٤) سورة الواقعة ٧٧ — ٨٠

(٥) سورة الحاقة آية ٤١ ، ٤٢

(٦) سورة يونس آية ٣٧

أو لا نذكره هو من نفحات النبوة ، ومن شذاها العطر الذى لا ينفصل عنها بحال .. وكما أن المسك ينم عن طيبه حيث كان ، فكذلك طيب النبوة ، وهو فوق كل طيب !

وها نحن أولا نذكر بعض ما روى من هذه الخوارق :

١ — نبع الماء :

الماء عزيز نادر فى صحراء العرب ، وكثيراً ما يعرض لساكنى الصحراء حالات يطلبون فيها الماء فلا يجدونه ، وكثيراً ما يهلك بعضهم عطشاً ، وخاصة إذا نفد الزاد فى السفر ! حيث يغرق المسافرون فى متاهات الصحراء !

فإذا التمس الناس الماء حين الحاجة الداعية إليه ، وحين اليأس المستحكم منه كان لعثورهم عليه ، ولإسعافهم به هزة رضى وحمد ، وكانت الجهة التى يجىء منها هذا الغائب العزيز بموضع الحب والإعزاز منهم !

والرسول الكريم حين يكون فى صحابته ، وحين تطرقهم حال من تلك الأحوال التى تشتد فيها حاجتهم إلى المـاء ، تتعلق آمالهم برسول الله ، وتفزع نفوسهم إليه ، كما يفزع الصغار إلى آبائهم عند الحاجة ، وحين الشدة والبأس ؟

وقد أكرم الله نبيه ، وأكرم الناس به . . فجعله نوراً يهتدى به الضالون ، وحمى يفزع إليه الخائفون ، وغيثاً يغاث به الملهوفون !

عن ابن مسعود قال : « بينما نحن مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وليس معنا ماء ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : اطلبوا من معه فضل ماء ، فأتى بمـاء فصبه فى إناء ، ثم وضع كفه فيه ، فجعل المـاء ينبع من بين أصابع رسول الله صلى الله عليه وسلم » (١) .

وعن سالم بن أبى الجعد عن جابر رضى الله عنه قال : « عطش الناس يوم الحديبية ، ورسول الله صلى الله عليه وسلم بين يديه ركوة (٢) ، فتوضأ منها ، وأقبل الناس نحوه ، وقالوا ليس عندنا ماء إلا ما فى ركوتك، فوضع النبى صلى الله

---

(١) الشفا جزء ١ ص ٢٤١ .

(٢) الركوة : إناء من جلد ، يشرب فيه الماء أشبه بالقربة .

عليه وسلم يده فى الركوة فجعل الماء يتفجر من بين أصابعه كأمثال العيون .. قيل كم كنتم : قال : لو كنا مائة ألف لكفانا .. كنا خمس عشرة مائة ! (١)

ويقول القاضى عياض : « ومما يشبه هذا من معجزاته ، تفجير الماء ببركته ، وابتعاثه بمسه ودعوته ، فيما روى مالك فى الموطأ عن معاذ بن جبل ، فى قصة غزوة « تبوك » وأنهم وردوا العين وهى تبض بشىء من ماء مثل الشراك ، فغرفوا من العين بأيديهم حتى اجتمع فى شىء ، ثم غسل رسول الله صلى الله عليه وسلم فيه وجهه ويديه وأعاده فيها ، فجرت بماء كثير فاستقى الناس . . قال فى حديث ابن اسحق فانخرق من الماء ماله حس كحس الصواعق .. ثم قال : ـ أى الرسول ـ يوشك يامعاذ إن طالت بك حياة أن ترى ماهاهنا قد ملىء جنانا » (٢)

ولا نريد أن نذكر هنا كل ما نقل فى هذا الباب ، فهو كثير . وحادثة واحدة تكفى فى الدلالة على ما للرسول عند الله من كرامة وفضل وإحسان ..

ووقوع مثل هذه الآيات من الرسول أمر طبيعى — كما قلنا — لاينكره عقل ، ولا يأباه عاقل . . وشواهد الحال كلها تشهد بوقوع هذه الآيات إذ كانت على ملأ من الناس ، وفى مواجهة جموع غفيرة ، ليس فيها واحد فى غفلة عن الوقوف عليها ، والمشاركة فيها ، إذ كانت حاجته إلى الماء ولهفته عليه هى المسئولية على كيانه فى تلك الحال ..

يقول القاضى عياض :

« ومثل هذا فى هذه المواطن الحفلة ، والجموع الكثيرة لا تتطرق التهمة إلى المحدث به ، لأنهم كانوا أسرع شىء إلى تكذيبه ، لما جبلت عليه النفوس من ذلك ، ولأنهم كانوا ممن لا يسكت على باطل .. فهؤلاء قد رووا هذا ، وأشاعوه ونسبوا حضور الجماء الغفير له ، ولم ينكر أحد من الناس عليهم ماحدثوا به عنهم أنهم فعلوه وشاهدوه ، فصار كتصديق جميعهم له » .

---

(١) الشفا جزء ١ ص ٢٤٢ .

(٢) الشفا جزء ١ ص ٢٤٣ .

(٣) الشفا جزء ١ ص ٢٤٣ .

يريد أن يقول إن المحدث بمثل هذه الأخبار التى شهدها أعداد كثيرة من الناس لايمكن أن يقبل خبره إلا إذا كان صادقاً ، وإلا وجد فى هـــذا العدد الكثير من يكذبه ويرد عليه خبره ، إلا كان مشاركا له فى الكذب ومواطأته عليه بسكوته عن تكذيبه ، وهذا لايمكن أن يكون من جمع كثير بحال أبدا ، وإن صح أن يكون من آحاد الناس ، فلن يصح أن يكون من المئـــات والألوف منهم .

٣ — تكثير الطعام :

وشأن الطعام فى البادية شأن الماء .. قليل دائما ، ومفقود أحيانا .. وكان للرسول مع صحابته مواقف يندر فيها الطعام أو يقل ، فتكون يد الرسول المباركة هى التى تمدهم بما يشبع ويغنى !

عن سلمة بن الأكوع قال : « أصابت الناس مع النبى صلى الله عليه وسلم مخمصة فى بعض مغازيه ، فدعا ببقية الأزواد (١) ، فجاء الرجل بالحثية (٢) ، من الطعام وفوق ذلك ، وأعلاهم الذى أتى بالصاع من التمر .. فجمعه على نطع .. قال سلمة فحزرته — أى قدرته — كربضة العنز (٣) ، ثم دعا الناس بأوعيتهم ، فما بقى فى الجيش وعاء إلا ملؤوه ، وبقى منه » (٤)

وعن على رضى الله عنه قال : جمع رسول الله صلى الله عليه وسلم بنى عبد المطلب وكانوا أربعين .. منهم قوم يأكلون الجذعة (٥) ، ويشربون الفرق (٦) ، فصنع لهم مداً من طعام ، فأكلوا حتى شبعوا ، وبقى كما هو ، ثم دعا بعس (٧) فشربوا حتى رووا ، وبقى كأنه لم يشرب منه » .

---

(١) جمع زاد وهو ما يتزود به المسافر .
(٢) الحثية : الغرفة باليد .
(٣) أى فى حجم العنز الرابضة .
(٤) الشفا جزء ١ ص ٢٤٨ .
(٥) الجذعة الشاة بنت سنتين ، ومن البقر بنت ثلاث ومن الإبل بنت خمس .
(٦) الفرق : مكيال يسع ستة عشر رطلا . (٧) العس : القدح الكبير يشرب فيه —

ويروى عن جابر رضي الله عنه ، أن النبي صلى الله عليه وسلم أطعم يوم الخندق ألف رجل من صاع شعير ، وعناق (١) » وقال جابر : أقسم بالله لأكلوا حتى تركوه وانحرفوا .. »

وعن أنس أن النبي صلى الله عليه وسلم ، حين ابتنى بزينب أمره أن يدعو له قوما سماهم ، وكل من لقيت .. حتى امتلأ البيت والحجرة ، وقدم تورا (٢) فيه قدر مد من تمر جعل حيساً (٣) ، فوضعه قدامه ، وغمس ثلاث أصابعه ، وجعل القوم يتغذون ويخرجون ، وبقى التور نحواً مما كان ، وكان القوم أحداً أو اثنين وسبعين » .

والأخبار كثيرة هنا فى هذا الباب ، وواحد منها له دلالة العدد الكثير .

نطق الحيوان ، والنبات ، والجماد :

وإذا كان لنبع الماء وتكثير الطعام عند الحاجة إليهما ، وتعلق النفوس بهما فى ساعة العسرة ، وعند الشدة - ما يبرر صنع معجزة لها بيد النبى ، يتحقق بها أمل أصحابه فيه ونظرتهم إليه ، فهل نجد لنطق بعض الحيوان أو النبات أو الجماد بين يدى الرسول حكمة ، كتلك التى نجدها فى نبع الماء وتكثير الطعام بين يديه .

لاشك أن فرقاً كبيراً بين الحالين ، وأننا إذا استطعنا فى الحالة الأولى أن نخرج هذه الخوارق من باب المعجزات ، وأن نضيفها إلى ماعند الرسول من نفحات وبركات ، حيث تسلم بها نفوس ، وتستمسك بها حياة كثير من الناس — فإنا لانستطيع أن نجد للحالة الثانية ، من نطق الحيوان وما إليه ، وجهاً نتجه إليه إلا جهة المعجزة ، التى تقوم شاهداً على صدق الرسول ، وصدق ماجاء به ، ودعا إليه !

ويحسن أن نعرض هنا بعض هذه الحالات ، ثم ننظر فيها من وجهها الإعجازى . إن كان لها وجه تتجه به إلى الإعجاز ..!

---

(١) العناق : الأنثى من أولاد البقر .
(٢) التور : إناء يشرب فيه .
(٣) الحيس : التمر يخلط بالسمن .

٣ — شجرة تتكلم :

عن ابن عمر قال : «كنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فى سفر . فدنا منه أعرابى ، فقال : يا أعرابى . . أين تريد ؟ قال إلى أهلى ؟ قال هل لك إلى خير ، قال : وماهو ؟ قال : « تشهد أن لا إله إلا الله وحده لاشريك له ، وأن محمداً عبده ورسوله » . قال : من يشهد لك على ماتقول : قال : هذه الشجرة السمرة (١) — وهى بشاطىء الوادى — فأقبلت تخد الأرض حتى قامت بين يديه صلى الله عليه وسلم ، فاستشهدها ثلاثا ، فشهدت أنه كما قال . . ثم رجعت إلى مكانها »

وواضح أن هذه معجزة مستكملة كل ما للمعجزة من صفات . فهذا ! نبى الله يدعو إلى الإيمان بالله وبالرسول .. ويأبى المدعو أن يؤمن للرسول إلا إذا قدم بين يديه شاهدا يشهد له ، وهذا الشاهد كان ممكنا أن يكون فى هذا الجمع الذى مع الرسول فى سفره هذا ، من المؤمنين فكلهم يشهد أنه رسول الله .. ولكن الرجل يريد شاهداً لايرد ، ولاتحوم حوله مظنة ممالأة ، أو متابعة عن غاية .. ولايكون ذلك إلا ببرهان ساطع يعجز الناس عن الوقوف له ، وهو مايجرى على يد الرسل من معجزات .. فكان أن دعا الرسول تلك الشجرة القائمة على شاطىء الوادى لتشهد أنه رسول الله ، فأجابت مسرعة ، ونطقت بلسان مبين : أنه رسول الله !

ولم يجد الأعرابى إلا أنه أمام نبى ، سخر الله له مالم يسخر لأحد من الناس فآمن ، إيمانا ملأ قلبه طمأنينة ويقينا !

إننا هنا أمام معجزه لاشك فيها ! معجزة وقفت أمام هذا التحدى ، عالية متشامخة .. تتساقط أمامها كل حيلة وحول للناس جميعاً ، أفراداً وجماعات ! ولكن لنا أن نسأل .. أتقوم معجزة من أجل إنسان فرد ! وأى إنسان هذا ، أعرابى من عرض الطريق .. تائه فى الصحراء .. التقطه النبى التقاطا عابرا !

فما كان هذا الأعرابى ملكا يؤمن بإيمانه أمة من الأمم ! ولم يكن زعيم قبيلة تتابعه قبيلته على إيمانه .. وإنما كان — كما قلنا — إنسانا من الناس .. فهل تقوم لأجل إنسان فرد من عامة الناس معجزة ؟

---

(١) السمرة : بضم الميم .. شجرة الطلح ، وهو الموز ، أو الشجرة الضخمة .

والنظرة إلى هذا الأعرابى بهذا التقدير نظرة خاطئة من وجوه :

فأولا : هو إنسان قبل كل شىء .. له وجوده . وله حياته التى تدعو الرسالات السماوية إلى استنقاذها من الهلاك .. فهو من هذه الجهة يتساوى مع أى ملك وأى زعيم .. !

ثانياً : لا تنظر الرسالات السماوية إلى الناس نظرة عددية مادية .. تحفل لذوى الغنى ، والجاه ، والسلطان . ما ليس للفقير ، الضعيف ، المهين ! بل إن الناس فى شريعة السماء إنما يوزنون بميزان الروح ، وما فيـــه من استعداد لتلقى الخير والانتفاع به .. ولقد عوتب النبى الكريم من ربه فى شأن ابن أم مكتوم ، الأعمى ، الفقير . وقد استكثر من الحديث مع الرسول فى التفقه فى الدين ، والرسول فى مواجهة جماعة من زعماء العرب ، جاءوا يجادلونه ، وهو يطمع فى أن يسلموا له ، ويستجيبوا لدعوته ، فأعطى ابن أم مكتوم ظهره ، وشغل عنه بهؤلاء القوم .. فكان هذا العتاب الرقيق الكريم : «عبس وتولى ، أن جاءه الأعمى .. وما يدريك لعله يزكى ، أو يذكر فتنفعه الذكرى . أما من استغنى فأنت له تصدى ! وما عليك ألا يزكى ، وأما من جاءك يسعى ، وهو يخشى . فأنت عنه تلهى ! كلا .. إنها تذكرة .. »(١)

فهذا الأعرابى قد يوزن بالألوف من الناس فى صفاء من روحه ، وفى تقبله للخير ، وانتفاعه به ، وإن لم يكن فى مرأى العين ذا وجاهة وسلطان !

وثالثاً : هذه المعجزة ، وإن تكن قد جاءت من أجل هذا الأعرابى ، فإنها لاشك قد كان لها أثرها القوى فيمن شهدها من صحابة رسول الله ، فزادتهم إيماناً على إيمانهم . ويقيناً فوق يقينهم .. شأنها فى هـــذا شأن المعجزات أو الخوارق التى جاءت لغير التحدى ، ولغير الدعوة إلى الإيمان .. فى تكثير الطعام ، ونبع الماء !

ورابعاً : لعلك تلحظ فى هذا الخبر المروى عن ابن عمر قوله : « فدنا منه أعرابى » فإن دنو الأعرابى من النبى يستشف منه أن هذا الأعرابى قد استجاب

---

(١) سورة عبس الآيات من ١ ــ ١١ .

لداع خفى فى كيانه ، يدعوه إلى مداناة النبى ليتشمم منه أرواح الخير ، كما يتنسم طير الصحراء مواقع الماء ، وقد كشف الرسول ببصيرته المشرقة ما فى كيان هذا الأعرابى من المشاعر التى تتهدى إلى الخير ، فدعاه إليه ، وأضاء له الطريق بتلك المعجزة الباهرة .

٤ — معجزة النبى للنبى :

والنبى إنسان قبل كل شىء . . يعترض نفسه أحياناً ما يعترض النفوس البشرية ، من ضيق ، ومن ضعف !

وأعباء الرسالة أعباء ثقال ، لا يستقل بحملها غير الأنبياء ، ولا يجرى بها إلى غايتها إلا أولو العزم منهم .

وقد حمل الرسول الكريم أعباء الرسالة العظمى ، وواجه بها الناس جميعاً ، وكانت جولاته الأولى مع أقرب الناس إليه وآثرهم عنده ، فكانوا أشد الناس عداوة له . وخلافاً عليه . . !

ولهذا كانت أمداد السماء لا تنقطع عنه ، لتشد من عزمه ، وتثبت من أقدامه ، وتمسك به قوياً راسخاً أمام هذه العواصف المزلزلة العاتية .

فإذا تجمعت فى نفسه سحب الأسى واليأس . . هبت عليه نسمة رقيقة رفيقة من السماء ، تزيح هذه السحب ، وتكشف عن نفسه الهم ، والحزن ، واليأس . . قال تعالى « فاصبر كما صبر أولو العزم من الرسل[1] . . . فلا تذهب نفسك عليهم حسرات[2] » . . « قد نعلم إنه ليحزنك الذى يقولون ، فإنهم لا يكذبونك ، ولكن الظالمين بآيات الله يجحدون[3] » . . . « وقال الذين كفروا لولا نزل عليه القرآن جملة واحدة ! كذلك لنثبت به فؤادك[4] » . . . « ولولا أن ثبتناك لقد كدت تركن إليهم شيئاً قليلا[5] » . . « فلعلك تارك بعض ما يوحى إليك وضائق به صدرك ، أن يقولوا لولا أنزل عليه كنز ، أو جاء معه ملك » .

(١) سورة الأحقاف آية ٣٥
(٢) سوة فاطر آية ٨
(٢) سورة الأنعام آية ٣٣
(٤) سورة الفرقان آية ٣٢
(٥) سوة الإسراء آية ٨٤
(٦) سورة هود آية ١٢

وهكذا تتنزل آيات الرحمن على رسول الله ، فتسكب فى نفسه من مشاعر السكينة والاطمئنان ، ما يجلى عنه غواشى القلق والضيق !

وبين الطمأنينة والقلق ، والسكينة والضيق يجد الرسول نفسه فى حاجة إلى الكشف على سلامة النبوة فى كيانه ، وعلى مدى فاعليتها عنده ، وهل كان لهذه الحالات العارضة التى عرضت لها مايؤثر على مكانته كنبى يحمل رسالة السماء ، ويتولى قيادة الإنسانية إلى الله ، وهدايتها إلى الحق ، وإلى طريق مستقيم ، أم أنه لايزال النبى المصطفى ، والرسول المجتبى ، وأن مابينه وبين السماء لن تقطعه هذه العوارض ، ولن تحجبه تلك القطع الممزقة من السحب .

ويمد الرسول بصره ، ويتجه بقلبه إلى السماء يطلب لنفسه آية من ربه . يرى فيها دلائل نبوته ، وشواهد صلته بالسماء ، ويستوثق أنه على الحق المبين .

وتجىء الآية ، واضحة بينة ، يراها الرسول رأى العين فتقر عينه ، ويطمئن قلبه ، وتشيع فى كيانه مشاعر الغبطة والرضا .

عن على رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم نظر إلى شجرة من وراء الوادى .. ثم قال : اللهم أرنى آية لا أبالى من كذبنى بعدها .. ثم دعا الشجرة فأتت حتى وقفت بين يديه .. ثم قال : ارجعى .. فرجعت » !

وعن الحسن أنه صلى الله عليه وسلم شكا إلى ربه من قومه ، وأنهم يخوفونه ، وسأله آية يعلم بها ألا مخافة عليه ، فأوحى إليه ربه : أنائت وادى ـ كذا ، فيه شجرة ، فادع غصناً منها يأتك ، ففعل ، فجاء الغصن يخط الأرض خطاً ، حتى انتصب بين يديه ، فحبسه ماشاء الله ، ثم قال له ارجع كما جئت ، فرجع ، فقال : يارب .. علمت ألا مخافة على »(١) .

إنك على الحق المبين

وليس بمستغرب أن تجيش فى نفس النبى مثل هذه الخواطر ، وأن يستمد العون من السماء فى تجليتها وكشفها .. وقد ذكر القرآن الكريم عن زكريا عليه

---

(١) الشفا جزء ١ ص ٢٥٦ .

السلام ، وقد جاءه نداء الحق باستجابة دعائه ، حين طلب من ربه أن يهب له غلاماً — ذكر القرآن عن زكريا أنه طلب من ربه آية يستوثق بها من أن الصوت الذى سمعه هو صوت الله ، وأنه ليس قذفة شيطان ، أو هجسة خاطر متلهف إلى الولد .. ولم تضن عليه السماء بما طلب ، فجاءته الآية كاشفة محلية .. استمع إلى قوله تعالى فى هذا :

« هنالك دعا زكريا ربه .. قال رب هب لى من لدنك ذرية طيبة إنك سميع الدعاء ، فنادته الملائكة ، وهو قائم يصلى فى المحراب أن الله يبشرك بيحيى ، مصدقا بكلمة من الله ، وسيداً ، وحصوراً ، ونبياً من الصالحين . قال : رب أنى يكون لى غلام ، وقد بلغنى الكبر ، وامرأتى عاقر .. قال : كذلك الله يفعل مايشاء ! قال رب اجعل لى آية .. قال آيتك ألا تكلم الناس ثلاثة أيام إلا رمزاً واذكر ربك كثيراً ، وسبح بالعشى والإبكار(١) » .

فكانت آية زكريا أن احتبس لسانه ثلاثة أيام لم يستطع النطق فيها بكلمة ! فكان هذا الاحتباس آية ، كما كان صوماً وقرباناً لله ، ورزقاً ساقه الله إلى زكريا مع ماساق من فضل البشرى بالولد على الكبر !!

فإذا طلب النبى الكريم آية لنفسه ، يستوثق بها لحال من أحواله — وخاصة إذا كان هذا الحال متصلا بالدعوة وبالرسالة — فإن ذلك إن دل على شىء فإنما يدل على ماعند النبى من حرص على هذا الفضل الذى آتاه الله إياه وأكرمه به ، من أن يلم به شىء يفسده أو يغير من طبيعته ، أو يذهب به !

* * *

ولا نريد أن نعيد القول هنا فيما يدور فى هذه المعجزات من جدل ، حول وقوعها أو عدم وقوعها على الوجه الذى رويت به ، وعلى تلك الكثرة الكثيرة التى تكاد تجعل حياة النبى ، وأعماله كلها خوارق ومعجزات . وحسبنا فى هذا أن نقرر — كما قررنا من قبل أيضاً — أن النبى مشتمل على طاقات روحية

---

(١) سورة آل عمران : ٣٨ — ٤١ .

لا حدود لها ، وأن اتصاله بهذا الوجود ، واتصال الوجود به على غير ما ألف الناس وعرفوا !

فإذا تكلم الطير ، وسبح الحجر ، ومشى الشجر ، وشكا البعير ، وحن الجذع — بين يدى الرسول — فذلك ما لا ينكر أو يدفع . ونحن نرى كثيراً من الناس لهم قدرة روحية على قراءة الأفكار ، وعلى الإيحاء والتأثير فى أنفسهم أو فى غيرهم ، من غير أن يكون لهم صلة خاصة بالسماء كصلة الرسل والأنبياء ..

* * *

ونعود فنقرر مرة أخرى أن كل هذه المعجزات والخوارق التى رويت عن نبى الإسلام لم تكن — إن كانت — إلا شرارات من جذوة النبوة ، وإلا شعاعات من شموسها المشرقة .. أما معجزة النبى الكبرى وآيته الخالدة فهى القرآن الكريم ، كما سنبين ذلك فيما بعد إن شاء الله .

بقيت لنا وقفة هنا مع معجزتين من تلك المعجزات ، ورد لهما ذكر فى القرآن دون غيرهما مما روى فى سيرة الرسول من معجزات .. وهما انشقاق القمر ، والإسراء ! .

انشقاق القمر :

فى القرآن سورة سميت « القمر » وقد بدئت بهذه الآيات : اقتربت الساعة وانشق القمر ، وإن يروا آية يعرضوا ، ويقولوا سحر مستمر ، وكذبوا واتبعوا أهواءهم .. وكل أمر مستقر .. ولقد جاءهم من الأنباء ما فيه مزدجر حكمة بالغة ، فما تغنى النذر »(١) .

ويكاد المفسرون يجمعون على أن انشقاق القمر الذى ذكر فى الآية الأولى من هذه السورة قد وقع فعلا ، كمعجزة شاهدة على صدق النبى ، وهو فى مكة ، قبل هجرته إلى المدينة .

يقول القاضى عياض فى تفسير هذه الآية : «أخبر الله تعالى بوقوع انشقاق القمر

---

(١) سورة القمر آيات ١ — ٧ .

بلفظ الماضى ، وإعراض الكفرة عن آياته ـ أى ما فى انشقاقه من آيات ـ وأجمع المفسرون وأهل السنة على وقوعه »[١] .

وروى البخارى عن ابن مسعود رضى الله عنه قال : انشق القمر على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم فرقتين ، فرقة فوق الجبل ، وفرقة دونه ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : اشهدوا »[٢] .

« وروى عن أنس قال : سأل أهل مكة النبى صلى الله عليه وسلم أن يريهم آية . فأراهم انشقاق القمر فرقتين ، حتى رأوا حراء بينهما »[٣] .

وروى البخارى عن عبد الله بن مسعود ـ من رواية مسروق عنه ـ قال : انشق القمر على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقالت قريش هذا سحر ابن أبى كبشة ـ يقصـــدون النبى ـ فقالوا انظروا ما يأتيكم به السفار ، فإن محمدا لايستطيع أن يسحر الناس كلهم . . قال فجاء السفار فقالوا ذلك .

وروى ابن جرير عن ابن عباس فى قوله تعالى : « اقتربت الساعة وانشق القمر ، وإن يروا آية يعرضوا ويقولوا سحر مستمر »[٤] قال : قد مضى ذلك ، كان قبل الهجرة ، انشق القمر حتى رأوا شقيه » .

ويعلق القاضى عياض على هذه الأحاديث المروية فى انشقاق القمر فيقول : وأكثر طرق هذه الأحاديث صحيحة .. والآية مصرحة .. ولا يلتفت إلى اعتراض مخذول بأن لوكان هذا لم يخف على أهل الأرض ، إذ هو شىء ظاهر لجميعهم !

ويدفع القاضى عياض هذا الاعتراض بقوله : لم ينقل إلينا عن أهل الأرض أنهم رصدوه تلك الليلة فلم يروه انشق ، ولو نقل إلينا عمن لايجوز تمالؤهم على الكذب لكثرتهم لما كانت علينا به حجة ، إذ ليس القمر فى حد واحد لجميع أهل

---

(١) الشفا جزء ١ ص ٢٣٧ .

(٢) رواه البخارى ومسلم .

(٣) رواه مسلم .

(٤) سورة القمر آية ١ ، ٢ .

الأرض ، فقد يطلع على قوم قبل أن يطلع على الآخرين ، وقد يكون من قوم بضد ما هو من مقابليهم من أقطار الأرض ، أو يحول بين قوم وبينه سحاب أو جبال ، ولهذا نجد الكسوفات فى بعض البلاد دون بعض ، وفى بعضها جزئية وفى بعضها كلية ، وفى بعضها لا يعرفها إلا المدعون لعلمها .. ذلك تقدير العزيز العليم » ..

ويستطرد فيقول : وآية القمر كانت ليلا ، والعادة من الناس بالليل الهدوء والسكون ، وإيجاف الأبواب ، وقطع التصرف ، ولا يكاد يعرف من أمور السماء شيئاً إلا من رصد ذلك واهتبل به ، ولذلك مايكون الكسوف القمرى كثيراً فى البلاد وأكثرهم لا يعلم به حتى يخبروا ، وكثيراً مايحدث الثقات بعجائب يشاهدونها من أنوار ونجوم طوالع عظام تظهر فى الأحيان بالليل فى السماء ، ولا علم عند أحد منها »(١) .

هذا ملخص ما قيل فى تفسير الآية : « اقتربت الساعة ، وانشق القمر » ..

وقد رأينا أن القاضى عياض يؤكد إجماع المفسرين وأهل السنة ـ أى رواة الحديث ـ على وقوع انشقاق القمر للنبى ، كمعجزة دالة على نبوته ؟

ويتخذ القاضى عياض من الإخبار عن انشقاق القمر بلفظ الفعل الماضى « وانشق القمر » دليلا على أن الانشقاق حدث فعـــلا ، وأن الآية نزلت مخبرة عنه ..

ونحن لانرى فى الإخبار عن انشقاق القمر بلفظ الماضى قرينة قاطعة على وقوعه ، فكما يدل الفعل الماضى على حدوث الفعل فعلا ، ويخبر عن وقوعه ، فى الماضى ، كذلك يعبر بالفعل الماضى عن الأمر الذى سيقع مستقبلا ، وذلك لغرض بلاغى ، وهو أن هذا الفعل محقق الوقوع لا محالة ، وأن وقوعه فى المستقبل أشبه بوقوعه فى الماضى ، فإن لم يكن وقع ، فكأنه قد وقع ، لتحقق وقوعه ..

والقرآن الكريم يستخدم هذا الأسلوب كثيراً فى الأمور ذات الخطر التى

---

(١) الشفا جزء ١ ص ٢٤٠ .

يقف كثير من الناس إزاءها موقف الشك والارتياب .. فلا يلقاهم القرآن اللقاء الذى ينتظرونه فى شأن هذا الأمر الخطير ، ويجعل لقاءهم معه معلقاً بالمستقبل بل يجذبهم إليه جذباً قوياً ، فإذا هم فى مواجهة هذا الأمر وجها لوجه !

يقول سبحانه وتعالى فى شأن البعث: «ونفخ فى الصور فصعق من فى السموات والأرض».(١) ويقول سبحانه فى يوم القيامة : «وأشرقت الأرض بنور ربها ، ووضع الكتاب ، وجىء بالنبيين والشهداء ، وقضى بينهم بالحق وهم لايظلمون ، ووفيت كل نفس ما عملت ..»(٢) .. وأكثر ماورد فى القرآن من صور البعث والجزاء والحساب قد جاء فى صورة الماضى ، الذى وقع وعاش فى الناس ، وعاش الناس فيه !

وإذن فليس فى التعبير عن انشقاق القمر بالفعل الماضى دليل على أنه وقع ، بل ربما كان هذا التعبير بالماضى داعية إلى توكيد وقوعه فى المستقبل ، وقياسه على كثير من الأفعال التى جاءت على تلك الصورة .. فإن انشقاق القمر حدث عظيم ، والناس فى تصور انشقاقه بين مؤمن ومكذب وشاك .. فكان التعبير عنه بالفعل الماضى أنسب شىء لتلك الحال ، بوضعه فى صورة الواقع المحقق !

ثم من ناحية أخرى نجد القرآن الكريم يحدث عن أحداث القيامة فيذكر صوراً عما يعترى الوجود من تغيرات فى هذا اليوم العظيم .. «يوم تبدل الأرض غير الأرض والسموات»(٣) .. ففى هذا اليوم تتغير معالم الأشياء وتتحول أحوالها .

وقد ذكر القرآن الكريم فى هذا ، انشقاق السماء ، «إذا السماء انشقت ، وأذنت لربها وحقت ..»(٤) .. كما تحدث عن خسوف القمر ، واجتماع الشمس والقمر فى فلك واحد .. «فإذا برق البصر ، وخسف القمر ، وجمع الشمس والقمر ، يقول الإنسان يومئذ أين المفر»(٥) كذلك تحدث عن انتثار الكواكب ،

---

(١) سورة الزمر آية ٦٨ .
(٢) سورة الزمر آية ٨ .
(٣) سورة إبراهيم آية ٤٩ .
(٤) سورة الانشقاق آية ١ ، ٢ .
(٥) سورة القيامة آيه ٨—١٠ .

وتشقق السماء ، وتفجر البحار . . « إذا السماء انفطرت وإذا الكواكب انتثرت وإذا البحار فجرت . . »(١)

كما يذكر مايقع للشمس والنجوم ، والجبال ، . « إذا الشمس كورت وإذا النجوم انكدرت ، وإذا الجبال سيرت . . »(٢)

فانشقاق القمر ظاهرة من الظواهر التى تعترى الوجود يوم القيامة ، وكما تتكور الشمس فى هذا اليوم كذلك ينشق القمر ، وتتناثر النجوم ؛ وتسير الجبال وتنفجر البحار !

وقد جاء انشقاق القمر فى الآية الكريمة مصاحباً لاقتراب الساعة : « اقتربت الساعة ، وانشق القمر » . . وهذه المصاحبة تقوى الرأى الذى نذهب إليه ، من أن انشقاق القمر سيقع حين تقترب الساعة ، وأن اقترابها هذا سيؤذن بتغيرات كثيرة فى مظاهر الوجود السماوى والأرضى ، كما جاء ذلك فى كثير من آيات الكتاب ، التى أشرنا إلى بعضها من قبل .

وقد تكون هذه الأحاديث المروية ـ إن صدقت ـ تفسيراً للآية الكريمة ، فى ظل كسوف وقع للقمر فى عهد النبى ، وربما كان كسوفاً كلياً ، رأى فيه الناس يومئذ ظاهرة عجيبة ، فأضافها المؤمنون إلى معجزات الرسول ، وصورها كل إنسان حسب إحساسه بها !

ومما يعضد هذا الاتجاه عندنا مايروى عن ابن عباس ، فى إحدى الروايات عنه فى هذا الأمر ـ أن القمر كسف على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقالوا : سحر القمر !

فلابن عباس هنا ـ فيما روى عنه ـ قولان . . قول بانشقاق القمر ، وقول بكسوفه .

والقول الأول يرويه ابن عتبة ، وابن أبى طلحة عن ابن عباس ، والقول الثانى يرويه عنه عكرمة(٣) .

---

(١) سورة الانفطار آية ١ـ٣ . (٢) سورة التكوير آية ١ـ٣ .

(٣) انظر تفسير ابن كثير ـ سورة القمر ـ الجزء الرابع .

وليس بمستبعد أن يكون القولان لابن عباس . وأن كسوف القمر وانشقاقه بمعنى واحد !

فإذا كان القمر قد كسف على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ـ وكسوف القمر ظاهرة فلكية تحدث كثيراً ، وقل من الناس من لم يرها فى عمره مرات ذوات عدد — إذا كان ذلك قد حدث قبل هجرة الرسول ، وبعد نزول الآية ، فانه من الطبيعى أن يتخذ المؤمنون — إذ ذاك . من هذه الظاهرة آية مؤيدة للرسول !

وأمر آخر . . كسف القمر على عهد الرسول بالمدينة يوم مات إبراهيم ، فقال الناس . . كسف القمر لموت إبراهيم ، فدعا الرسول الناس إليه ثم خطبهم فقال : « إن الشمس والقمر آيتان من آيات الله . لا يخسفان لموت أحد ، ولا لحياته ، فاذا رأيتم ذلك فافزعوا إلى ذكر الله ، وإلى الصلاة » .

ولو ترك الرسول هذا الأمر يمضى من غير أن ينبه له ، ويكشف عنه لكان للناس فيه أقوال ومنقولات .

قصة الإسراء :

وفى القرآن الكريم سورة سميت « الإسراء » وفيها حديث هذه الرحلة العجيبة ، التى دبرتها السماء لرسول الله ، بعد مبعثه ، وقبل هجرته إلى المدينة . .

وحدود الرحلة كما يذكر القرآن · من المسجد الحرام بمكة ، إلى المسجد الأقصى ببيت المقدس .

وزمانها لحظة من لحظات الليل كما يقول القرآن الكريم فى الآية الأولى من سورة الإسراء .

قال تعالى : « سبحان الذى أسرى بعبده ليلا . . من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى الذى باركنا حوله . . لنريه من آياتنا إنه هو السميع البصير »(١) .

---

(١) سورة الإسراء آية ١ .

والآية صريحة فى « الإسراء » ، وفى أنه كان فعلا للنبى الكريم .. وأنه واقعة حقيقية ، وليس رؤيا منامية ؛ وإلا لما كان لها ذكر خاص فى سورة خاصة !

والذى يقف بحديث الإسراء عند هذا الذى نطقت به هذه الآية ، يجد أن تلك الإضافات الكثيرة ، والذيول الطويلة التى علقت بحديث الإسرام لاتستدعيها غاية الإسراء ، ولا يحتاج إليها الكمال الذى ينبغى أن تكون عليه .

« فالإسراء » على ماتشهد به الآية لم يكن للإعجاز ، وإنما هو رحلة روحية إلى بيت المقدس ، مجمع الأنبياء ، وأول قبلة للإسلام .

ولا عجب أن تكون للرسول رحلة روحية كهذه الرحلة ، فى تلك المرحلة الحرجة من مراحل الرسالة النبوية .

فقد كان الرسول إذ ذاك فى وجه خصومة عنيفة ظالمة من قومه .. يدعوهم إلى الرشاد والخير فيلقونه بالتكذيب والبهت ، ويرمونه بالسوء والأذى .. وهو رحيم بهم ، حريص عليهم .. فتمتلىء نفسه حسرة وألما .، إذ يراهم يتمزقون شعباً ، وينقطعون أوصالا .. !

وليس حال أدعى من هذه الحال للخروج من هذا الجو الثقيل الخانق ، إلى جو آخر فيه راحة للصدر ، واسترواح للنفس !

وإلى أين المذهب لنبى قائم على دعوة السماء ، موجه برسالتها ، إنه لامفر للنبى ـ إن أراد أن يظل فى سجل الأنبياء ـ من أن يثبت فى موقفه ، لايتحول عنه أبداً .. وإن هلك ! .. وقد قالها النبى الكريم لعمه أبى طالب ، « والله ياعم ، لو وضعوا الشمس فى يمينى ، والقمر فى يسارى على أن ترك هذا الأمر ماتركته أو أهلك دونه » .

ولكن الأحداث تزداد حدة ، والشر يشتد اشتعالا .. وللنفس البشرية حدود للاحتمال ، وإن كانت نفس نبى ، وإن كان هذا النبى محمداً ، خاتم النبيين وصفوة المرسلين .. إنه — مهما يكن — بشر .. وللبشرية حدود تنتهى إليها ، وتقف عندها !!

لقد كان فى النبيين من اشتد به الكرب فى موقف الدعوة ، أو ضاقت نفسه عن الاحتمال أكثر مما احتمل ، فزايل موقفه . وكادت تسقط رسالته من يمينه ، لولا أن تداركه لطف اللطيف ، ورحمة الرحيم .

ويقص القرآن الكريم عن يونس عليه السلام موقفاً مثل هذا الموقف . . فيقول سبحانه وتعالى « وإن يونس لمن المرسلين . إذ أبق إلى الفلك المشحون ، فساهم فكان من المدحضين ، فالتقمه الحوت ، وهو مليم ، فلولا أنه كان من المسبحين للبث فى بطنه إلى يوم يبعثون . . فنبذناه بالعراء وهو سقيم ، وأنبتنا عليه شجرة من يقطين ، وأرسلناه إلى مئة ألف أو يزيدون . فآمنوا»(١)

وانظر إلى تدبير ربك مع هذا النبي . . يونس عليه السلام .

لقد تعجل الفرار من الميدان الذى أقامه الله فيه .

وتلك فعلة ما كان للنبي أى يفعلها لأول بادرة سوء تصل إليه من قومه . وكان لابد من درس يتلقاه النبي ، لكى يتقوى على احتمال هذا الموقف ويصبر على شدائده !

وكان هذا الدرس أن يخرج من ضيق إلى ضيق أشد وأقسى . . خرج من جوف مدينته التى ترمى بالشر ، وتقذف بالسوء — إلى جوف الحوت الذى سيتحول فيه بعد بضع ساعات إلى طعام مهضوم !

إن يكن يونس وجد ضيقاً فى قومه ، فهناك ألوان من الضيق أشد وأقسى ، وفى جوف الحوت وجد المثل الماثل ، والتجربة الواقعة !

ثم تجىء رحمة الله ، فتجعل ليونس طريقاً فى بطن الحوت . . إلى جوف البحر . ثم إلى اليابسة !

وهنا يجد يونس كل شىء أرحب من جوف الحوت وأرحم . . وأن مدينته التى فر منها هى رحمة واسعة بالنسبة لما كان فيه . فيعود إلى مدينته تلك ، وكأنها وما ينتظره فيها من شدائد ومحن — كأنها جنة تبسط له كلتا يديها بالطيب

---

(١) سورة الصافات آية ١٣٩-١٤٧ .

الموفور من الثمرات ! وهناك تثبت أقدامه فى موطن الدعوة ، فيمضى برسالته إلى غايتها . . ويستجيب له قومه . . مؤمنين بالله رب العالمين !

ونظرة أخرى فى معطيات هذه القصة تطلعك على مدى ماعند الأنبياء من صبر واحتمال ، وما لديهم من قوة وعزم ، وما فى كيانهم من طاقات نفسية وروحية وجسدية ، ليكون من هذا الرصيد الكبير مايقوم بأعباء الرسالة ، وسد مطالبها !

فهذا النبى الكريم « يونس » قد احتمل من قومه مالا طاقة لإنسان ـ غير نبى ـ باحتماله . . ولكن الأمر كان يقتضيه أن يحمل أكثر مما حمل ، ولو كان من أصحاب العزم من الرسل لصمد فى موقفه ، فأريدت له هذه التجربة لتشد من عزمه ، ولتخرج به أكثر قوة واحتمالا .

وما كان لغير نبى أن يدخل فى هذه التجربة ثم يخرج سليماً معافى كما كان ، بله أكثر مما كان . . فإن أى إنسان غير نبى لو وقع فى هذه التجربة ، وقدر له أن يخرج من جوف الحوت ، وأن ينجو من البحر والموت فيه غرقاً ، ثم قدر له أن يضع قدميه على اليابسة ويعيش مع الناس ـ لو حدث هذا الإنسان من الناس لذهب ذلك بكثير من عقله ، وبكثير من ملكاته وطاقاته الروحية والنفسية ، ولعاش — إن عاش — فى الناس ، إنساناً « مهزوز » الشخصية ، مضطرب السلوك ، مختلج الخطا .

ولكن ها أنت ذا ترى تلك التجربة فى نبى من أنبياء الله ، ثم تراه وقد عاد بعدها أقوى قوة ، وأثبت ثباتاً ، وأحكم سياسة وتدبيراً !

أفليس ذلك إلا لأن الأنبياء — وهم بشر — هم أيضاً فى حال فوق أحوال البشر ؟ بلى ! فالأنبياء ناس غير الناس ، وبشر فوق البشر !

* * *

ونعود إلى تجربة « الإسراء » فى تلك الفترة التى أشرنا إليها من حياة « محمد » صلوات الله وسلامه عليه .

ونحب هنا أن نبسط القول شيئاً ما فى الحال التى كان عليها النبى قبيل

« الإسراء » فذلك مما يعين على إدراك بعض ما للإسراء من حكمة ، وماله من داعية فى الوقت الذى وقع فيه .

فأولا : كان عناد قريش ، ودفعها لدعوة الرسول ، قد بلغ غايته ، فاشتد البلاء على المسلمين الذين لم يستطيعوا الفرار من وجه هذا الطغيان وتسلط الأقوياء على الضعفاء ، حتى لقد مات بعضهم تحت سياط العذاب ، من ضرب مبرح ، وكى بالنار ، وشى بالحجارة الملتهبة فى الهجير . . والرسول الكريم يرى هذا البلاء ينصب صباً على الرجال والنساء من أصحابه ، ويرى الموت يدنو منهم رويداً رويداً ، فلا يملك أكثر من الألم والأسى ، ولا يجد لأولئك المعذبين إلا أن يدعوهم إلى الصبر ، وأن يرغبهم فى الاستشهاد ، لينالوا ما أعد الله للشهداء فى سبيله من الفوز بجنات النعيم ، فكان صلى الله عليه وسلم إذا مر بعمار بن ياسر وأبويه وهم يعذبون فى وهج الشمس ، ولفح الهجير - يقول : « صبراً آل ياسر فان موعدكم الجنة » !

وثانياً : بعد أن امتنع رسول الله بقومه . من آل هاشم ، وآل عبد المطلب من أن تناله قريش بما أرادت أن تناله به من أذى ، ورأت أنها إن فعلت هذا كان ذلك هلاكا لقريش ، وإفناء بعضها بعضاً ، وبعد أن فرغ كيدها ، وبطل تدبيرها فى أن تلحق بالنبى ما أرادت به من سوء - اتجهت إلى أسلوب آخر يسوق الأذى إلى النبى ، وإلى آله الذين اجتمعوا على نصرته . حمية وتعصباً ، وإن لم يجتمعوا على دعوته عقيدة وإيماناً . . وكان هذا الأسلوب هو تلك الدعوة الظالمة إلى مقاطعة آل عبد المطلب ، مقاطعة كاملة ، وحصارهم حصاراً اقتصادياً ، واجتماعياً ، فلا يتعامل أحد من قريش معهم فى شىء أبداً . . لا يزوجونهم ، ولا يتزوجون منهم ، ولا يأخذون منهم ، ولا يعطونهم .

وواجه بنو هاشم وبنو عبدالمطلب هذه الحرب بشجاعة ، وصبر ، وأبوا أن يعطوا الدنية فى هذا الامتحان الذى تعرف فيه معادن الرجال . . فجمع أبو طالب - عميد آل هاشم - أهله ، وانحاز بهم إلى شعب أبى طالب[1] - ليرى قريشاً

(١) شعب أبى طالب : هو محلة انحاز إليها بنو هاشم مدة الحصار فسمى بهذا الاسم .

أنه قادر على أن يلتقى معها على الأمر الذى أرادت ، وأنها إن أرادت اعتزاله واعتزال آله ، فليس هو بالحريص على أن يصل الحبل الذى قطعت . !

وقد استمر هذا الحصار لآل عبد المطلب ، وآل هاشم نحو ثلاث سنين ، بلغ بهم الجهد غايته ، حتى سمع أصوات صبيانهم — يتضاغون جوعا — من وراء الشعب(١) » .

وطبيعى أن النبى كان خلال هذه المحنة يحمل فى نفسه كل مالقى آل عبدالمطلب وآل هاشم من جهد ومشقة . فكل ما كان يقع فى محيط أفرادهم ، فرداً فرداً ، وفى جماعاتهم ، أسرة أسرة ، كان يقع فى مشاعر النبى ، ويهيج خواطر الألم ، والإزعاج فى نفسه ، قبل أن يصل إليهم — أضعاف ماكانوا يجدون من ألم وإزعاج !! ذلك لأنه ـ وهو النبى ـ يألم لآلام الناس جميعاً ، ويود لو يحملها عنهم ، أو يرمى بها فى مكان سحيق . فكيف بما يقع فى نفسه من هذا ، للآلام التى فى أهله وذوى قرابته ، والقائمين على نصرته ؟ ثم هو من جهة أخرى يرى أن مانزل بقومه من آلام وشدائد ، إنما كان بسببه هو . . وأن ذلك الذى احتملوه من أجله كان بدافع القرابة والدم ، ولم يكن بسبب العقيدة والدين ، ولو كان من أجل العقيدة لهان الأمر بعض الشىء ، ولكان على أصحاب العقيدة أن يؤدوا ضريبة الدفاع عن عقيدتهم ، لقاء الثواب العظيم الذى ينتظرهم . أما والمحتملون إنما احتملوا من أجل القرابة والدم ، فماذا ينتظرون من جزاء ؟ إنه لاشىء ! ، وإن يكن شىء فهو إرضاء لنداء العصبية . ذلك النداء الذى لايلبث أن تذهب أصداؤه . بعد أن تذهب الحال التى تلبس بها !

إن الآلام النفسية والروحية بل والجسدية التى احتملها النبى خلال هذه المحنة التى عاش فيها أهله ، كانت أقسى مالقى النبى فى طريق دعوته من آلام . إنه حمل آلام آل بنى هاشم كلها ، وإن ذهب كل منهم بنصيبه منها . فمن أجله كانت هذه التجربة القاسية ، وفى سبيل حمايته ، والدفاع عنه ، واجه بنو هاشم هذه القطيعة المرة ، واحتملوا عبء هذا الحصار المحكم الظالم . ثلاث سنين !

---

(١) زاد المعاد جـ ٢ ص ١٢٢ .

وثالثاً : حين بلغ الأمر من الشدة والضيق مداه فى نفس « النبى » ، وأصبح جو مكة ثقيلا خانقاً — أراد أن يلتمس له متنفسا حول مكة ، لعله يجد أعواناً وأنصاراً يستمعون له ، ويستجيبون لدعوته ، فربما وجد فيما حول مكة نفوساً تمسك هذا الخير الذى بين يديه ، وتنتفع به ، وتخرج منه ثمراً طيباً مباركا .

كان لابد للرسول من أن يلتمس لنفسه ولدعوته مجالا آخر ، خارج مكة ، بعد أن لقى هو وأهله الأدنون ما لقوا من هذا البلاء الشديد .. ومما ضاعف من وقع هذه الآلام فى نفس الرسول أن سقط الجناحان اللذان كانا يرفان عليه رحمة وحنانا . . فما أن كادت تنتهى محنة الحصار ويفسد تدبير قريش ، وتنقض صحيفتها التى أبرم فيها هذا العقد الذى عقدته بينها لمقاطعة آل هاشم بعد أن سلط الله عليها الأرضة ، فأكلتها جميعاً ، إلا ما ورد فيها من ذكر الله عز وجل — ماكادت تنتهى هذه المحنة حتى مات أبو طالب بعد خروجه بقومه من الشعب بستة أشهر . . ثم لحقت به « خديجة » بعد موته بثلاثة أيام . . !

فانظر كيف ابتلى النبى الكريم هذا الابتلاء .، فى عمه ، وفى زوجه ؟ وكيف تفرغ يده من كل قوة مادية كانت تسانده فى دعوته ، وتشد من أزره ؟ ومتى يكون ذلك ؟ إنه فى أحرج مواقف الدعوة . . وبعد أن بلغ الأمر من الشدة مداه بين قريش وبين النبى !

إنها عشر سنوات كاملة ، منذ أن تلقى الرسول الكريم أول إشارة من السماء ، إلى ذلك اليوم الذى فقد فيه الرسول زوجه ، وعمه ، كما فقد فيه الأمن والسلامة فى مكة . مع قومه من قريش .. فقد روى عن جابر بن عبد الله قال : لبث رسول الله صلى الله عليه وسلم عشر سنين يتبع الناس فى منازلهم فى الموسم ، ومجنة وعكاظ(١) ، ويقول : من يؤمنى ، ومن يؤوينى ، ومن ينصرنى حتى أبلغ رسالة ربى . . فله الجنة . . فلا يجد أحداً ينصره ويؤويه حتى إن الرجل ليرحل من

---

(١) مجنة وعكاظ : سوقان من أسواق العرب الموسمية .

مضر أو اليمن إلى ذى رحمه ، فيأتيه قومه فيقولون له : احذر غلام قريش ، لا يفتننك »(1) .

إن ذلك كله من ألوان الشدائد والمحن التى مرت بالرسول خلال تلك السنوات العشر كانت تربية وإعداداً للجولة التالية من الدعوة ، واستعدادا لاستقبال الطور الجديد من أطوارها . . حيث ستشهد الأيام التالية أحداثا ضخاما فى حياة هذا الدين الجديد . . سيلتقى الرسول الكريم بوجوه كثيرة من قبائل مختلفة ، وسيسمع أحاديث متباينة . وسيتلقى أجوبة مختلفة لما يلقى على الأسماع من آيات دعوته . . وسيهجر النبى موطنه ويهاجر إلى موطن آخر ، وأقوام آخرين غير قومه ، وستدور معارك ، وتسيل دماء ، ويبتلى النبى فى نفر كريم عزيز من أصحابه ، يسقطون فى هذه المعارك . . وسيقوم الرسول على توجيه مجتمع إسلامى ضخم ، بعد أن يجيئه نصر الله ، ويفتح مكة ، ويدخل الناس فى دين الله أفواجا ! ! .

إن هـذا البلاء العظيم الذى ابتلى به الرسول هو — كما قلنا — إعداد لما سيستقبل من تلك الأحداث الكبرى . . وإن هذا البلاء أشبه بما تعمل المحاريث والفئوس فى شق الأرض وتقليب تربتها قبل أن يبذر فيها البذر . فذلك هو الذى يتيح لها الجو الصالح لأن تعطى خير ما فيها من عناصر الإنبات لما يلقى فيها من حب ! .

نقول : فى هذا الجو الثقيل الخانق الذى كان يضيق به صدر الرسول فى مكة — خرج إلى الطائف يلتمس النصرة من ثقيف ـ والمنعة بهم من قومه . . وكان معه مولاه زيد بن حارثة ...

ولما انتهى الرسول الكريم إلى الطائف، عمد إلى سادة ثقيف وأشرافهم، فدعاهم إلى الله ، وكلمهم بما جاءهم له . . من نصرته ، والقيام معه على من خالفه من قومه . فلم ير منهم إلا إعراضا ، وتكذيباً ، واستهزاءاً . . وكان فيما قال له قائلهم :

---

(1) زاد المعاد جزء ٢ ص ١٣٢ .

« والله لا أكلمك أبدا !! لئن كنت رسولا من الله كما تقول لأنت أعظم خطراً من أن أرد عليك السلام ! ولئن كنت تكذب على الله ما ينبغى لى أن أكلمك !! » إنها سفسطة أحمق ، وضلالة ظلوم جهول .

فقام رسول الله من عندهم ، وقد يئس من خيرهم . . وقال لهم : « إذ فعلتم ما فعلتم فاكتموا عنى . . . » وكره رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يبلغ ذلك قومه عنه فيذئرهم(١) » ذلك عليه . . فلم يفعلوا ، وأغروا به سفهاءهم وعبيدهم ، فوقفوا له سماطين(٢) ، وجعلوا يرمونه بالحجارة حتى دميت قدماه . . وزيد ابن حارثة يقيه بنفسه ، حتى أصابه شجاج فى رأسه . . !

ترك الرسول الطائف على تلك الحال ، وقد امتلأت نفسه أسى فوق أسى ، وألماً فوق ألم ..

وإلى أين ؟ وهل هناك غير مكة ؟ إنه على أية حال لا يزال يمسك منها على شيء من الأمل والرجاء ، ولا يزال يطمع فى خير من أهل أو صديق فيها .

وقبل أن يتخذ الرسول سبيله إلى مكة وجه وجهه إلى السماء يناجى ربه ، ويطلب العون والمدد ! تخفق قلبه بهذا النداء الدافئ العميق ، وتحركت شفتاه بهذا الدعاء الندى ، المعقود بأنفاس الأمل والرجاء فى مالك الملك ، ومن بيده ملكوت السموات والأرض . . يقول رسول الله مناجياً ربه :

« اللهم أشكو إليك ضعف قوتى ، وقلة حيلتى وهوانى على الناس ...

« يا أرحم الراحمين . . أنت رب المستضعفين ، وأنت ربى .

« إلى من تكلنى ؟ .. إلى بعيد يتجهمنى ؟ أم إلى عدو ملكته أمرى ؟ (٣)

« إن لم يكن بك غضب على فلا أبالى . !

« غير أن عافيتك هى أوسع لى . !

---

(١) يذئرهم عليه : أى يغريهم به ، ويحرضهم عليه .

(٢) أى فى صفين.

(٣) يشير بالبعيد إلى ثقيف ، وبالعدو إلى قريش .

« أعوذ بنور وجهك الذى أشرقت له الظلمات ، وصلح عليها أمر الدنيا والآخرة أن يحل علىّ غضبك ، أو أن ينزل بى سخطك .

« لك العتبى حتى ترضى . .

« ولا حول ولا قوة إلا بك »(١)

بهذه الكلمات المشحونة بالإيمان الوثيق بالله ، والمخلقة من أنفاس النبوة الطاهرة ، اتجه الرسول إلى ربه ، متضرعا ، متوجعاً ، طالباً رضا ربه ورحمته ، فى صبر وحمد .. على السراء والضراء .

مدد غير منتظر :

وفى طريق الرسول من الطائف إلى مكة نزل منزلا بمكان يسمى « نخلة » ، ثم قام من جوف الليل يصلى ، فصرف إليه نفر من الجن ، فاستمعوا قراءته ، ولم يشعر بهم رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى نزل عليه قوله تعالى : « وإذ صرفنا إليك نفراً من الجن يستمعون القرآن ، فلما حضروه ، قالوا : أنصتوا ، فلما قضى ، ولوا إلى قومهم منذرين . . قالوا : ياقومنا ، إنا سمعنا كتاباً أنزل من بعد موسى مصدقاً لما بين يديه ، يهدى إلى الحق ، وإلى طريق مستقيم .. ياقومنا . أجيبوا داعى الله ، وآمنوا به ، يغفر لكم من ذنوبكم ، ويجركم من عذاب أليم ، ومن لايجب داعى الله ، فليس بمعجز فى الأرض ، وليس له من دونه أولياء ، أولئك فى ضلال مبين »(٢).

ولعلك تذكر من هذه الحادثة ما يقع فى نفس الرسول الكريم منها من أنس ، وما يشيع فى كيانه من رضى . . إنه ليس وحده . . إن صوت السماء متصل به ، وإن جنوداً من جنود الله ، — لا يراهم — يحفون به ، ويستمعون له ، ويصدقون بما نزل عليه .

ومن هذا الذى يستمع إلى كلام الله ، ويستجيب لرسوله ؟ إنهم جماعة من

---

(١) زاد المعاد جزء ٢ ص ١٢٣ .
(٢) سورة الحديد : آيات ٢٩ ، ٣٠ ، ٣١ ، ٣٢ .

الجن . . الجن الذى يضرب به المثل فى الخروج على كل نظام ، والتأبى على كل نداء . . !

فكيف لا يكون لهذا القرآن فى نفس الناس ما له فى نفوس الجن ؟ وكيف يقبل الجن من إنسان ، ويؤمنون له ؟ على حين يأبى الناس الاستماع إليه ، والاستجابة لدعوته ؟ إن ذلك يكشف عن فساد فى طبيعة تلك النفوس الإنسانية فساد خرج بها إلى أن تكون أكثر من الجن ضلالا وعناداً !

ثم لعلك تلتفت إلى ما امتلأت به نفس هؤلاء النفر من الجن من إيمان ، حتى لقد تحولوا إلى دعاة ، يبشرون فى قومهم بهذا الدين ، ويدعون له: «يا قومنا أجيبوا داعى الله ، وآمنوا به .. يغفر لكم من ذنوبكم ، ويجركم من عذاب أليم» ففى هذا الصنيع من أولئك النفر من الجن تحريض قوى لأولئك النفر الذين استجابوا للرسول من الناس ، أن يبشروا بدعوة الإســلام فى الناس ، ويدلوهم عليها . .

وفى هذا كله قدر كبير من التنفيس عن نفس الرسول ، والتطييب لخاطره ، بعد هذه التجربة القاسية ، التى مرت به فى الطائف . !

وكان الرسول قد أقام بنخلة أياماً ، قبل أن يتخذ سبيله إلى مكة .

وربما كان هذا التوقف منه — صلوات الله وسلامه عليه — فى هذا المكان مراجعة لنفسه ، وتقليباً لوجوه الرأى فى اختيار الجهة التى يتجه إليها .. أهى مكة ؟ أم غيرها من بلاد العرب ومضارب خيامهم ؟ . إنا لا نجد تفسيراً لتوقف الرسول الكريم فى هذا المكان ، ومكثه فيه أياما ، أقرب من هذا التفسير ، الذى يناسب ما كان فى نفس الرسول من ضيق بمكة وبأهلها . . لقد خرج منها مكروبا مهموما ، والعودة إليها ستكون أنكى وأشد من قبل أن يخرج منها . . ولكن بعد أن نزل عليه وحى السماء ، بما كان من أمر أولئك النفر من الجن ، انزاح عن نفسه كثير من الضيق والهم ، ووجد من إيمان الجن به ما يطمعه فى إيمان قريش .. فإنها مهما تكن،ومهما يكن من التوائها وعنادها ليست أكثر

من الجن عناداً ، والتواء ! وأن هـذا القرآن الذى لانت به قلوب الجن ، واستجابت له ، سيؤثر هذا الأثر ، وربما أكثر منه ، فى قلوب العتاة المكابرين من قريش ! ! قال تعالى :

« قل أوحى إلى أنه استمع نفر من الجن ، فقالوا إنا سمعنا قرآناً عجباً ، يهدى إلى الرشد ، فآمنا به ، ولن نشرك بربنا أحداً ، وأنه تعالى جد ربنا ، ما اتخذ صاحبة ولا ولداً ، وأنه كان يقول سفيهنا على الله شططا »(١).

وهنا ، يخرج الرسول من «نخلة» ميمما وجهه شطر مكة ، وقد زايله كثير من الألم والهم . فأسرع الخطا إليها ، ليرى ماذا أحدثت الأيام فى قريش ، وفى موقفها الظالم منه ؟ وهل كانت غيبته تلك الأيام المعدودة عن موطن الأحداث — هل كان ذلك داعية للقوم أن يردوا ما عزب من أحلامهم ، وأن يستمعوا إلى صوت العقل فيما يدعوهم إليه رجل منهم ، لا يريد الملك ، ولا المال ولا الجاه ولا السلطان . . وإنما يريد كشف ما فى عقولهم من ضلال ، وشفاء ما فى قلوبهم من مرض . . إنه يتعامل مع الجانب الروحى منهم .. يتعامل مع الروح والعقل والنفس . . أما جانبهم المادى فلا شأن له به ، إلا فيما تقتضيه سلامة العقل ، وترتضيه طهارة النفس ، ويدعو إليه صفاء الروح !

فهل ترى غيرت هـذه الغيبة شيئاً من سير الأحداث التى تركها الرسول منذ أيام ، وهى تغلى وتفور ؟ أما فى قريش من ناس يدخلون فى دين الله وينصرون نبيه ؟ . يا لظلام العقول ، ويا لقسوة القلوب !

على أن الرسول الكريم ما كاد يبلغ مشارف مكة ، حتى تلوح له تلك الوجوه المنكرة البشعة ، التى وقف أصحابها فى وجه الرسول ، وامتدت أيديهم وألسنتهم بالسوء إليه ، وإلى أصحابه الذين اتبعوه .

وربما قلب الرسول تلك الوجوه وجهها ، لعله يلمح فيها من يقوم إلى جانبه بعض مقام عمه أبى طالب ، الذى مات منذ قليل ! !

(١) سورة الجن : ١ — ٤

وكان المطعم بن عدى هو الذى اختاره الرسول ليقوم منه هذ المقام . .

« فأرسل رجلا من خزاعة إلى « مطعم بن عدى » يقول له : أأدخل فى جوارك ؟ .

«فقال : نعم.. ودعا بنيه وقومه ، فقال: البسوا السلاح ، وكونوا عند أركان البيت . فإنى قد أجرت محمداً » . فدخل رسول الله صلى الله عليه وسلم مكة ، ومعه زيد بن حارثة ، حتى انتهى إلى المسجد الحرام ، فقام المطعم بن عدى على راحلته ، فنادى: يامعشر قريش . إنى قد أجرت محمداً ، فلا يهجه أحد منكم (١) . . فانتهى رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الركن ، فاستلمه ، وصلى ركعتين ، وانصرف إلى بيته ، ومطعم بن عدى وولده محدقون به بالسلاح ، حتى دخل بيته» (٢) .

وكانت قريش على عهدها الذى تركها الرسول عليه من عداوة غليظة ، وشر صراح .

لقد ظل الرسول الكريم عشر سنوات ، ينادى قومه ويراوحهم بآيات الكتاب وبالدعوة إلى سبيل الله بالحكمة والموعظة الحسنة ، فما ازدادوا على الأيام إلا عداوة له ونقمة عليه ، وتربصاً به !

ولقد خرج الرسول من مكة بعد أن ضاق بها — خرج إلى الطائف لعل مافيها من زروع وكروم قد ألقى فى نفوس أهلها نسمة رطبة ، تنعش الأرواح وتشرح الصدور . فتهش لجمال الحق وجلاله ، وتستجيب له . . ولكن أهل الطائف كانوا أقسى قلوباً من قريش" . وقد سجل التاريخ هذا اللقاء الذى لقوا رسول الله به .. فكان أسوأ صفحة سجلها التاريخ لنخوة العربى ومروءته .

وفقد الرسول الكريم مع هذا زوجه الوفى «السيدة خديجة ، وعمه أبا طالب درعه الحصينة .

ثم بعد هذا كله يعود الرسول إلى قريش ، ويدخل عليها مكة ليبدأ دوراً عنيفاً حاداً مع الصراع معها فى سبيل دعوته ، وتبليغ الرسالة التى بين يديه ؟؟

---

(١) يهيجه : أى يثيره ويغضبه .

(٢) زاد المعاد جزء ٢ ص ١٢٤ .

ولا يجد الرسول خلال هذه المحن من عزاء إلا فيما ينزل عليه من آيات الكتاب ، وفيما يقص عليه القرآن من قصص الأنبياء مع أقوامهم ، وفيما يدعوه الله إليه من الصبر والثبات على موقفه : « فاصبر كما صبر أولو العزم من الرسل » « فتوكل على الله ، إنك على الحق المبين » .

فكانت آيات الكتاب هى روح الرسول وريحانه خلال هذا الضيق الذى نزل به . . وكان استماع الجن إليه واستجابتهم له اختباراً ناجحاً للكتاب الذى بين يديه ، وللقوة الروحية المشتمل عليها ، وذلك مما يبعث الأمل ، ويقوى الرجاء فى استجابة القلوب القاسية له ، وتأثرها به .

ومع هذا كله ، فقد كان الرسول الكريم فى حاجة إلى مزيد من المدد الروحى ، وإلى التزود بزاد عتيد من الملأ الأعلى ، حتى يقوى على مواصلة الجهاد والصمود فى وجه المعاندين ، والكائدين ، والمتربصين .

ولقد أبلى الرسول بلاءه فى الأرض ، واستنفد كل مايعطى أو يأخذ منها . ومن أهلها . فكان لابد من عالم آخر يتعامل معه ، ويتزود منه بزاد روحى ، يشيع فى كيانه قوى مجددة ، لاتنفد على كثرة ماينفق منها فى هذا النضال المتصل بينه وبين قومه ، حتى يحكم الله بينه وبينهم بالحق ، وحتى يدخل الناس فى دين الله أفواجاً .

وفى الإسراء إلى العالم العلوى . . يجد الرسول من آيات الله ، ومن دلائل قدرته وعجائب ملكوته ما تذوب فى عباب محيطاته كل شرور العالم الأرضى وآلامه .

فلم يكن الإسراء فى صميمه إلا رحلة روحية لرسول الله فى عالم النور ، وإلا استدناء له من مواطن الرحمة واللطف . وإنه لهو الجزاء الحسن للرسول على جهاده الصادق فى سبيل الله ، وقيامه على أداء الرسالة التى أرسل بها ، واحتماله ما احتمل من أجلها .

وماذا يكون للرسول من جزاء فى هذه الدنيا على ما لقى فى سبيل الدعوة من عنت وإرهاق ؟ إن كل ما فى الأرض لايقوم ببعض هذا الجزاء . . وإن

الرسول لزاهد فى كل ما فى الأرض ، وما عليها من مال وحطام .. فلم يكن إلا ما فى السماء هو الذى يناسب حال الرسول ، ويليق به .

ثم إن الإسراء إلى العالم العلوى شهادة للرسول عند نفسه أنه فى موضع الرضا والإحسان من ربه ، وأنه أدى واجبه على الوجه الأكمل فى تبليغ رسالة ربه .. وأن هذا النجاح الضئيل الذى صادفته مهمته خلال عشر السنوات التى مضت عن بعثته — لم يكن عن تقصير أو تهاون منه ، وإنما هو ابتلاء لرسول الله ، وتمحيص لما فى صدور الناس .. ليميز الله الخبيث من الطيب .

وقد ذكر القرآن الكريم حادثة الإسراء فى آيتين من أول سورة الإسراء : فقد قال تعالى : «سبحانه الذى أسرى بعبده ليلا .. من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى الذى باركنا حوله لنريه من آياتنا ، إنه هو السميع البصير » .

والذى تذكره الآيتان من أمر الإسراء أنه وقع ليلا ، وأن حدوده كانت من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى ، وأن غايته كانت اطلاع الرسول على ما فى ملكوت الله من آيات « ولنريه من آياتنا » .

يقول ابن إسحق : «وكان فى مسراه ، وما ذكر منه ، بلاء وتمحيص ، وأمر من أمر الله فى قدرته وسلطانه ، فيه عبرة لأولى الألباب ، هدى ، ورحمة ، وثبات لمن آمن به وصدق ، وكان من أمر الله على يقين .. فأسرى به كيف شاء ، ليريه من آياته ما أراد ، حتى عاين ما عاين من أمره وسلطانه العظيم ، وقدرته التى يصنع بها ما يريد »[1].

وطلع الرسول على قريش بهذا الخبر ، وأنه قد أسرى به فى ليلته تلك من مكة إلى بيت المقدس ، فبهتوه وكذبوه ، وأطلقوا ألسنتهم بالقول السيء فيه ، وقال أكثرهم : هذا والله الإمر البين[2] .. والله إن العير لتطرد شهراً من مكة إلى الشام مدبرة وشهراً مقبلة .. أفيذهب إلى ذلك « محمد » فى ليلة واحدة ويعود

---

(١) السيرة لابن هشام جزء ٢ ص ٢ .
(٢) الأمر — بالكسر — العظيم الشنيع . « لقد جئت شيئاً إمراً » .

إلى مكة ؟! » .. ولم يقف الأمر عند كفار قريش بل تجاوزه إلى ضعاف الإيمان من أسلموا . فارتدوا عن الإسلام . وذهب الكفار إلى أبي بكر ليطلعوا على هذا النبأ المثير ، ولعلهم يجدون عنده ما وجدوا عند ضعاف الإيمان ، فقالوا له : هل لك يا أبا بكر في صاحبك ؟ يزعم أنه قد جاء هذه الليلة بيت المقدس . وصلى فيه . ورجع إلى مكة ؟ فقال لهم أبو بكر أنتم تكذبون عليه ! فقالوا : بلى .. ها هو ذاك في المسجد يحدث به الناس . فقال أبو بكر لئن كان قاله لقد صدق.. فما يعجبكم من ذلك ؟ فوالله إنه ليخبرني أن الخبر ليأتيه من السماء إلى الأرض في ساعة من ليل أو نهار فأصدقه .. فهذا أبعد مما تعجبون منه ! »(١) .

قال ابن إسحق : وأنزل الله تعالى فيمن ارتد عن إسلامه لذلك الحادث : «وما جعلنا الرؤيا التي أريناك إلا فتنة للناس ، والشجرة الملعونة في القرآن ، ونخوفهم ، فما يزيدهم إلا طغياناً كبيراً »(٢) ..

والإسراء — كما قلنا — إنما كان شأناً خاصاً بالنبي ، ورحلة روحية تشرح صدره . وتنعش نفسه ، وتذهب بكثير مما ألم به من ضيق وحزن بموت زوجه وعمه ، وبتألب قريش عليه وعلى آله ، وبما لقى من أهل الطائف من لقاء بارد غث ورد سمج قبيح .

وفي مضمون هذا المعنى ينبغي أن نحدد نظرتنا إلى الإسراء .. فهو بهذا المعنى ليس معجزة للتحدى ، تقف من الناس موقف المتحدين لهم ، والتحدى بالإتيان بمثلها .. وإنما هي إخبار بأمر شهده الرسول وحده ، فإذا حدث به كان حديثه الصدق كله .. لا ينبغى لمن آمن بأنه نبي أن يكذبه في شيء مما يقول .. ولهذا كان جواب أبي بكر على من أراد أن يغريه بتكذيب النبي ذلك الجواب الحكيم : « والله لئن كان قاله لقد صدق .. إنه ليخبرني أن الخبر يأتيه من السماء في ساعة من ليل أو نهار فأصدقه .. فهذا أبعد مما تعجبون منه » .. إنه أمين السماء .. لا يكذب أبداً . هذا مبدأ .. يجب أن يسلم به كل من يدخل في هذا

(١) زاد المعاد جزء ٢ ، والسيرة لابن هشام جزء ٢ ص ٤ .

(٢) سورة الإسراء آية ١٠ .

الدين ، ويؤمن بالله وبرسوله .. قال تعالى : « وما آتاكم الرسول فخذوه ، وما نهاكم عنه فانتهوا »(١) .

ولا على المسلم أن يرد أو يقبل كل ماروى عن الاسراء من أحاديث ، وماذكر من قصص ، وحسبه أن يؤمن بأن الإسراء برسول الله من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى أمر لاشك فيه ، كما نص على ذلك القرآن الكريم فى قوله تعالى « سبحان الذى أسرى بعبده ليلا من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى الذى باركنا حوله .. لنريه من آياتنا .. إنه هو السميع البصير » .

هذا مايجب على المسلم الإيمان به من حديث الإسراء .. أما ما وراء ذلك مما اتصل بالإسراء ، وكان مثار جدل وخلاف ، كالخلاف حول الإسراء: أكان بالروح أو الجسد ؟ وكالخلاف فى مواطن الإسراء : وهل انتهى عند بيت المقدس أم أن الرسول قد صعد فى رفقة جبريل إلى السموات السبع ، ثم انتهى إلى سدرة المنتهى ؟ كل ذلك إن صح على وجهيه ، أو على وجه واحد منه ، فإنه لايزيد من قدر الإسراء : ولا ينقص من قيمته .. فالإسراء كما قلنا رحلة روحية للرسول وقد تطول هذه الرحلة أو تقصر ، فليست العبرة فى طولها أو قصرها ، وإنما فى الآيات الكبرى التى رآها الرسول من آيات ربه . . وقد يطوى الوجود كله فى لحظة واحدة للرسول فيرى فيه ما شاء أن يرى ، وقد تطول الرحلة وتمتد ، دون أن يشهد ما شهد فى تلك اللحظة الواحدة .

ومع هذا ، فان آيتى الإسراء تحددان مبدأ الإسراء ومنتهاه .. « من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى » .. ولاتذكران شيئاً عن « المعراج » إلى السموات العلا ..

والذى يقرأ القصص التى صورت فيها « رحلة المعراج » يشم منها ريح الصنعة والتلفيق ، وتبرز فى أثنائها انعكاسات عجيبة ، لما يدور فى بعض العقول ، من تصورات خاطئة لكمال النبوة وجلالها ..

فمثلا زواج رسول الله صلى الله عليه وسلم من زينب بنت جحش . مطلقة متبناه زيد بن حارثة ـ هذا الزواج كان لحكمة عالية ـ أرادتها السماء لإبطال التبنى .

---

(١) سورة الحشر آية ٧ .

محافظة على الأنساب . فقد كان التبني شائعاً عند العرب .. يلحق الابن بغير أبيه، ممن يريد إلحاقه به ، فيأخذ فى الحياة حكم الابن الحقيقى . . وقد كان زيد بن حارثه متبنى للنبي ، وكان يدعى زيد بن محمد ، فأراد الله إبطال هذه العادة بتشريع سماوى فقال تعالى : « ما جعل الله لرجل من قلبين فى جوفه ، وما جعل أزواجكم اللائى تظاهرون منهن أمهاتكم ، وما جعل أدعياءكم أبناءكم ذلكم قولكم بأفواهكم ، والله يقول الحق ، وهو يهدى السبيل ، ادعوهم لآبائهم ، هو أقسط عند الله ، فان لم تعلموا آباءهم فإخوانكم فى الدين ومواليكم »(١) .

وقد أراد الله سبحانه أن يرى المسلمين تجربة عملية لإبطال هذا التبنى ، فأمر نبيه أن يتزوج مطلقة متبناه زيد .. « فلما قضى زيد منها وطراً زوجناكها لكى لايكون على المؤمنين حرج فى أزواج أدعيائهم إذا قضوا منهن وطرا »(٢).

ولعلك تلمح فى قوله تعالى: « فلما قضى زيد منها وطراً زوجناكها . . » أن التزويج كان عن أمر الله سبحانه وتعالى إلى نبيه صلى الله عليه وسلم وهذا مايدل عليه الفعل « زوجناكها » .

هذه هى واقعة زواج الرسول من « زينب بنت جحش » مطلقة متبناه زيد ابن حارثة .. وقد كان هذا الزواج مثار غمز ولمز من المشركين ، والمنافقين ، وداعية فتنة لمن كان فى قلبه مرض ، ممن دخلوا فى الإسلام .

وقد انتهز واضع قصة المعراج المجال الفسيح للأحداث فى هذا العالم الروحانى ، الذى لاحدود له ليجعل لزيد بن حارثة ولزواجه مكاناً هناك ، ليقال إن السماء هى التى دبرت أمر هذا الزواج والطلاق .. وحسب أنه فى هذا يدفع باطل المشركين والمنافقين الذى نسجوه من هذه الواقعة .

يقول واضع — أو واضعوا — قصة « المعراج » فيما يروى عن رسول الله: « ثم دخل بى — أى بالرسول — إلى الجنة فرأيت فيها جارية لعساء ، فسألتها لمن أنت ؟ وقد أعجبتنى حين رأيتها . فقالت لزيد بن حارثة . فبشر بها رسول الله صلى الله عليه وسلم زيد بن حارثة(٣) ! » .

---

(١) سورة الأحزاب : ٤ ، ٥ . (٢) سورة الأحزاب آية ٣٧ .

(٣) السيرة لابن هشام جزء ٢ ص ١٥ .

أهذا قول يقبله العقل ويطمئن إليه القلب فى مسرى رسول الله إلى الملأ الأعلى ؟ وهل لمثل هذا كانت رحلته صلى الله عليه وسلم إلى عالم النور والحق ؟ وهل خلت الجنة من مظاهر الجمال والجلال فيقف الرسول عند تلك الجارية اللعساء ويسألها هذا السؤال : لمن أنت ؟ كأنما يريدها لنفسه؟ وهل خلت الجنة من الحور العين . أشكالا ، وألوانا ، حتى يقف ويطيل الوقوف عند هذه الجارية اللعساء ؟ .

لقد كانت لحظات الرسول خلال الإسراء مشحونة بالأحداث المثيرة المذهلة، التى تبهر الأنفاس فلا تدع مجالا لمثل هذه التوافه من الأمور .

ثم إن كان لقصة زيد وزواجه بزينب صدى فى مستقبل الأيام ، فهل يقتضى ذلك أن يكون بحيث يبشر به ، وتنصب له الأعلام قبل أن يقع ببضع سنين ؟ . إن ذلك من إملاء الفهم الخاطىء للحكمة من زواج الرسول الكريم بزينب بنت جحش طليقة متبناه زيد بن حارثة — أولا ، ثم للفهم الخاطىء ثانيا للحكمة من الإسراء برسول الله ، تلك الحكمة التى صرح بها القرآن الكريم فى قوله تعالى: « لنريه من آياتنا » . . وبعيد أن تكون رؤية الرسول لهذه الفتاة اللعساء فى عرصات الجنة آية أبداً ..

هذا ، ويرى بعض أهل العلم أن الإسراء كان بين المسجد الحرام والمسجد الأقصى دون عروج إلى السماء كما قلنا ، وبعض أهل العلم أيضاً يرى أن الإسراء كان بالروح لا بالجسد وأنه كان رؤيا منامية . ورؤيا الأنبياء حق تنزل منزلة الوحى ، وقد جعلها إبراهيم عليه السلام وحياً أوحى به الله سبحانه وتعالى إليه فى ذبح ابنه إسماعيل : « قال يا بنى إنى أرى فى المنام أنى أذبحك فانظر ماذا ترى؟ قال يا أبت افعل ما تؤمر.. ستجدنى إن شاء الله من الصابرين .. فلما أسلما وتله للجبين، وناديناه أن يا إبراهيم قد صدقت الرؤيا إنا كذلك نجزى المحسنين »(١) . وهل كان الوحى يحمل إبراهيم على أكثر من هذا ؟ لقد قدم ابنه للذبح بيده ، واستجاب الابن لدعوة أبيه ، لأنه يعلم كما يعلم أبوه أن هذا أمر من الله . وأن الرؤيا تنزل منزلة الوحى عند الأنبياء .

(١) سورة الصافات آية ١٠٥ .

وحدث ابن إسحق قال : حدثنى بعض آل أبى بكر أن عائشة رضى الله عنها كانت تقول : « ما فقد جسد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولكن أسرى بروحه »[1] .

وقال ابن إسحق : « حدثنى يعقوب بن عتبة بن المغيرة بن الأخنس أن معاوية ابن أبى سفيان كان إذا سئل عن مسرى رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « كانت رؤيا من الله تعالى ، صادقة .. » فلم ينكر ذلك من قوله ، لقول الحسن إن هذه الآية أنزلت فى ذلك ، وهى قول الله تعالى : « وما جعلنا الرؤيا التى أريناك إلا فتنة للناس » ، ولقول الله تعالى فى الخبر عن إبراهيم اذ قال لابنه : « يابنى : إنى أرى فى المنام أنى أذبحك » ، فمضى ذلك ، فعرفت أن الوحى من الله يأتى الأنبياء أيقاظاً ونياماً » .. ثم يقول ابن إسحق : والله أعلم أى ذلك كان قد جاءه ، وعاين فيه ما عاين من أمر الله ، على أى حاليه كان ، نائماً أو يقظان ، كل ذلك حق ، وصدق »[2]

وقد فصل القاضى عياض فى كتابه « الشفا » مذاهب القول فى الإسراء ، والمعراج . . وهل كان مع الإسراء معراج . وهل كان الإسراء بالروح أو بالروح والجسد . قال . « اختلاف السلف والعلماء : هل كان إسراؤه بروحه أو جسده على ثلاث مقالات . فذهبت طائفة إلى أنه إسراء بالروح ، وأنه رؤيا منام . مع اتفاقهم أن رؤيا الأنبياء حق ، ووحى ، وإلى هذا ذهب معاوية ، وحكى عن الحسن ، والمشهور عنه خلافه ، وإليه أشار محمد بن إسحق ، وحجتهم قوله تعالى : « وما جعلنا الرؤيا التى أريناك إلا فتنة للناس » وما حكوه عن عائشة رضى الله عنها : « ما فقدت جسد رسول الله صلى الله عليه وسلم »[3] .

---

(١) السيرة لابن هشام جزء ٢ ص ٥ .

(٢) السيرة لابن هشام جزء ٢ ص ٦ .

(٣) الذى يروى عن عائشة أنها كانت تقول ما فقدت جسد رسول الله ، ولكن أسرى بروحه ، وهذا هو الذى يمكن أن يستقيم عليه القول ، لأن الإسراء كان قبل الهجرة بنحو ثلاث سنوات ، والرسول لم يدخل بعائشة الا بعد الهجرة . فكيف تحدث بأنها ما فقدت جسد رسول الله ؟ وإنما يصح أن تروى خبراً من أخبار الإسراء ، سمعته ممن يحدث به ، أو سمعته من النبى صلى الله عليه وسلم .

وقوله — أى قول النبى فيما يروى عنه فى حديث الإسراء — « بينا أنا نائم فى المسجد الحرام .. » وذكر القصة ، ثم قال فى آخرها : فاستيقظت وأنا فى المسجد الحرام » .

وذهب معظم السلف ، والمسلمين ، إلى أنه إسراء بالجسد ، وفى اليقظة ، وهذا هو الحق ، وهو قول ابن عباس ، وجابر ، وأنس ، وحذيفة ، وعمر ، وأبى هريرة ، ومالك بن صعصعة ، وأبى حبة البدرى ، وابن مسعود ، والضحاك ، وسعيد بن جبير ، وقتادة ، وابن المسيب ، وابن شهاب ، وابن زيد ، والحسن ، وإبراهيم ، ومسروق ، ومجاهد ، وعكرمة ، وابن جريج .. وهو دليل قول عائشة .. وهو قول الطبرى ، وابن حنبل ، وجماعة عظيمة من المسلمين ، وهو قول أكثر المتأخرين من الفقهاء والمحدثين ، والمتكلمين والمفسرين .

« وقالت طائفة : كان الإسراء بالجسد يقظة إلى بيت المقدس ، وإلى السماء بالروح ، واحتجوا بقوله تعالى : « سبحان الذى أسرى بعبده ليلا من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى » فجعل إلى المسجد الأقصى غاية الإسراء الذى وقع التعجب فيه بعظيم القدرة ، والتمدح بتشريف النبى محمد صلى الله عليه وسلم به ، وإظهار الكرامة له بالإسراء إليه .. قال هؤلاء ولو كان الإسراء بجسده إلى زائد على المسجد الأقصى لذكره ، فيكون أبلغ فى المدح ! .

وبعد أن ينتهى القاضى عياض من عرض هذه الآراء ، يعرض رأيه هو ، فيرجح جانب القول بأن الإسراء كان بالروح والجسد معاً .. يقول :

« والحق من هذا ، والصحيح إن شاء الله أنه إسراء بالجسد والروح فى القصة كلها — أى الإسراء والمعراج — وعليه تدل الآية ، وصحيح الأخبار والاعتبار ، ولا يعدل عن الظاهر والحقيقة إلى التأويل إلا عند الاستحالة ، وليس فى الإسراء بجسده ، وحال يقظته استحالة ، إذ لو كان مناماً لقال : بروح عبده ، ولم يقل بعبده ، وقوله تعالى : «ما زاغ البصر وما طغى»[1] ولو كان مناماً لما كانت فيه آية ولا معجزة ، ولا استبعده الكفار ، ولا كذبوه فيه ، ولا ارتد به ضعفاء من

---

(١) سورة النجم : آية ١٧ .

أسلم ، وأفتتنوا به ، إذ مثل هذا من المنامات لا ينكر .. بل لم يكن ذلك — أى الإنكار — منهم — إلا وقد علموا أن خبره إنما كان عن جسمه ، وحال يقظته ! »(١) .

ونعود بعد هذا فنقول إن الخلاف فى الإسراء بالجسد أو الروح خلاف لا يؤثر فى حقيقة الإسراء ، وما نال الرسول فيه من أمداد ، وما رأى من آيات .. وأن قدرة الله لا تتقيد بتلك القيود التى تقتضيها الضرورات البشرية . . وخير من هذا الخلاف الذى يذهب بعظمة الإسراء ، ويمزق حجب الجلال الذى يحف به ، ويعبث بالستر الملقى عليه من عالم الروح — خير من هذا أن ندع الرسول الكريم فى موكب جلاله وعظمته ، تحف به ألطاف ربه ، وتحدوه رعايته إلى حيث يسبح فى أنوار الحق ، ويطعم بروحه من طيبات الملأ الأعلى .

أما أن نجسد العالم العلوى ، ونحيله إلى أشياء من عالم التراب الذى نعيش فيه فذلك مما يهون من خطر الإسراء ويبخس من قدره . . فإن الذى يطالع قصة الإسراء على تلك الصورة المجسدة التى صورت بها ، لتموت فى نفسه كثير من تلك المشاعر الروحية، التى كان حقيقاً أن تثيرها فيه حادثة الإسراء لو ذهب من طريقها هذا الركام الكثير من العوائق والسدود ! . ولا تنخدع بتلك الأصباغ الساذجة التى يلطخ بها القصاص وجه الحقائق المادية ليجعلوا لها من تلك الأصباغ وجهاً تدخل به إلى العالم العلوى .. فإن هذا « المكياج » المفضوح يجعلها مسخة أكثر منها حقيقة .. فالبراق الذى يهيأ للرسول ليمتطيه إلى العالم العلوى ليس إلا أتانا ركب عليه جناحان من ريش ! فصار لعبة من لعب الأطفال التى يؤلفونها من حطام بعض لعبهم التى انتهى دورها معهم .. ثم هذا الحجر الذى يشد إليه الأنبياء دوابهم عند بيت المقدس ، والحلقات المغروسة فى ذلك الحجر لتمسك المقاود واللجم . . إنها جميعها لتمسك بالمعانى الكريمة الطيبة التى كان ينبغى أن يجدها المرء فى نفسه من حادثة الإسراء لو انزاح هذا الحجر من طريقها ، وانزاحت معه الدواب ، واللجم ، والمقاود ، والسروج وغيرها ، مما يكون فى مرابط الحيوان!!

---

(١) الشفا للقاضى عياض جزء ١ ص ١٥١ .

وعلى أى فإن الإسراء على أية صورة وقع ، لم يكن فيه ما يخرج الرسول عن بشريته ، ويباعد ما بينه وبين الإنسان الذى يعيش فيه . . فقد عاد الرسول بعد الإسراء لم ينكر الناس من ظاهره شيئاً ، حتى أعداؤه أنفسهم لم يروا عليه أمارة من أمارات هذه الرحلة المباركة . . فإن خيرها كله كان مخبوءاً فى كيانه ومنطويا فى صدره ، وسارياً فى روحه .. ! إنه شأن من شأن الله مع نبيه ، وزاد روحى زوده به ، تكريماً له ، وترويحاً عن كيانه المجهد المكدود ! .

* * *

ونقف عند هذا القدر من عرضنا لمعجزات الرسول ، وما دخل عليها من إضافات ، ومرقعات .. بيد المتنطعين من المسلمين ، والمتعصبين من غير المسلمين .

ولكن قبل أن نرسلها من أيدينا نعود فنقرر مرة أخرى أن هذه المعجزات — ما صح منها وما لم يصح — ليست هى المعجزة التى أودعتها السماء يد النبى ، والتى بها كتب الله لرسالته الشمول والخلود .

وإن يكن فى حياة النبى من خوارق — ولا بد من أن يكون — فإن هذه الخوارق تكريم له ، وفضل من الله على نبيه ، ونفحة من نفحات النبوة ، وشذى من شذاها العطر .. « ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء ، والله ذو الفضل العظيم » . . وللنبى الكريم من هذا الفضل ما لم يكن لبشر غيره .. والله سبحانه وتعالى يقول له . « وكان فضل الله عليك عظيما » .

أما المعجزة الكبرى التى وضعها الله بين يدى الرسول . فهى تلك المعجزة الباقية الخالدة ، أبد الدهر .. « هى القرآن الكريم » !

الباب الثامن

الرسول .. والمعجزة الكبرى

« لَوْ أَنزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ
لَرَأَيْتَهُ خَاشِعاً مُتَصَدِّعاً مِنْ خَشْيَةِ اللهِ ..
وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ..
لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ » .

القرآن هو معجزة النبي .. المعجزة التي قامت عليها دعوته ، واستقامت بها حجته ، وانتمت إليها شريعته !

فالقرآن — من بين الكتب السماوية — ليس كتاب شريعة وحسب ، وإنما هو كتاب شريعة ، ودلائل نبوة ! وليس كذلك الكتب السماوية الأخرى حيث جاءت الكتب والصحف يحملها أنبياء الله ورسله في يد ، بينما يحملون في اليد الأخرى معجزات مادية تدل على صدقهم ، وتشهد لنبوتهم !

فالديانة الموسوية .. كتابها السماوي هو التوراة ، وهي دستور شريعتها . وإلى جانب هذا الكتاب قامت معجزات تشهد له كما تشهد للرسول الذي حمله .. فكانت عصى موسى ، وأفعالها الخارقة ، وكانت يده التي يدخلها في جيبه فتخرج بيضاء من غير سوء !

والديانة المسيحية .. كتابها السماوي الإنجيل .. وهو — مع التوراة — دستور هذه الديانة ، وإلى جانبه قامت معجزات السيد المسيح ، لتشهد له ، وللكتاب الذي جاء به . فكانت معجزاته التي طلع بها على الناس ليصدقوا به ، وبرسالته .. من إحياء الموتى ، وإبراء الأكمه والبرص ، وإنزال مائدة من السماء وغير ذلك من المعجزات التي وضعها الله بين يدي السيد المسيح !

وقد جاءت الرسالة الإسلامية فى أسلوب آخر غير هذا الأسلوب . . جاءت بكتاب يشرع شريعة كاملة ، تتناول كل مايمس حياة الإنسان الروحية والعقلية ، والمادية ، فى جانبيها ، الدنيوى والأخروى دون أن يحيل إلى كتاب آخر ، أو يشد أتباعه إلى شريعة أخرى — ثم جعل فى كيان هذا الكتاب الدلائل الناطقة بصدقه ، والشواهد القائمة على أنه من عند الله ، وأن الرسول الذى جاء به ، هو رسول الله !

ومجىء القرآن على تلك الصورة الفريدة العجيبة ، قد جعل له سلطاناً على العقول والقلوب ، بما أودع فيه من صور الإعجاز التى يشهدها المتصل به — قارئاً أو مستمعاً — فى كل آية من آياته ، من غير أن يكون فى زمن نبوة ، أو فى حضرة نبى !!

وقد استمعت الجن إلى القرآن فملكت آياته قلوبهم ، واستولت روائعه على عقولهم ، فوقفوا منه موقف العجب والدهش . ثم الإذعان لسلطانه ، والإيمان بدعوته ، التى يدعو إليها .

قال تعالى : « وإذ صرفنا إليك نفراً من الجن يستمعون القرآن ، فلما حضروه قالوا أنصتوا : فلما قضى ولوا إلى قومهم منذرين ، قالوا : ياقومنا : إنا سمعنا كتاباً أنزل من بعد موسى ، مصدقاً لما بين يديه . يهدى إلى الحق ، وإلى طريق مستقيم »(١)

وقال جل شأنه : « قل أوحى إلى أنه استمع نفر من الجن ، فقالوا إنا سمعنا قرآنا عجبا ، يهدى إلى الرشد ، فآمنا به ، ولن نشرك بربنا أحداً »(٢)

إن الجن لتعجب من هذا القرآن ، وتجد فيه مالا تجد فيما تسمع من حكم الحكماء ، وأشعار الشعراء ، وفلسفة الفلاسفة ، وقصص القصاص ، وسجع الكهان ، وترانيم الأحبار والرهبان .

فهذه شهادة تجىء بإعجاز القرآن من أمة الجن التى من شأنها أن تستعلى على

---

(١) سورة الأحقاف آية ٢٩ ، ٣٠ .

(٢) سورة الجن آية ١ — ٢

كل شيء فى عالم الإنسان ، وتستصغر شأنه .. فإن الجن تملك من القوى مالا يملك الناس ، وتأتى من الأعمال مايعجز عنه البشر . ولهذا ينسب إليها كل عمل رائع ، ويوصف بها كل ذى حيلة وحول من الناس ، وقد سخر الله الجن لسليمان عليه السلام لتخرج له من الأعمال مايعجز الناس عنه .. « يعملون له مايشاء من محاريب ، وتماثيل وجفان كالجواب . وقدور راسيات »(١)

ولما للقرآن من هذا الشأن وتلك المنزلة ، وهذا الامتياز على الكلام ؛ فقد أضفى عليه سبحانه وتعالى من الصفات مايشعر بأنه ذات لها حياتها ، وكمالاتها ، ولها فاعليتها فى الحياة ، وتصرفها فى الوجود .

« يس .. والقرآن الحكيم » .. « وإنه فى أم الكتاب لدينا لعلى حكيم »(٢)

فقد وصف القرآن بالحكمة .. وهى صفة «الذات» العاقلة المدبرة ، المتصرفة .

كذلك وصف بالعزة فى قوله تعالى : « وإنه لكتاب عزيز ، لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، تنزيل من حكيم حميد »(٣)

والعزة صفة للعاقل الذى ترفعه صفاته إلى حيث لا يناله هون ، ولا يلحقه ضعف ،

ووصف كذلك بالمجادة فى قوله تعالى : « ق .. والقرآن المجيد » .. والمجادة مقام من مقامات القوة والمنعة ، من يلبسها فقد جانبه الخزى والضعف .

وليس هذا بالكثير على كلام ، هو من كلام رب العالمين .. نزل به الروح الأمين على رسوله الكريم .. « لو أنزلنا هذا القرآن على جبل لرأيته خاشعاً متصدعاً من خشية الله »(٤) .

ومن أجل هذا كان للقرآن هذا السلطان الآسر على النفوس .. فما استمع إليه مستمع حتى وجد له من الرهبة والجلال مالا يجد شيئاً منه لأروع آيات البيان ، من صور الكلام

جاء عتبة بن ربيعة إلى رسول الله ، موفداً إليه من قريش ، يدعوه إلى ما أرادت قريش أن تدعوه إليه ، من ترك هذا الدين الذى فرق به بين قومه ،

---

(١) سورة سبأ : آية ١٥ .　　(٢) سورة الزخرف : آية ٤٣ .
(٣) سورة فصلت : ٤١ — ٤٢ .　　(٤) سورة الحشر : آية ٢١ .

وأثار دواعى العداوة بين الصديق والصديق ، والقريب والقريب ، وعرض عليه ماعرض من صور الإغراء للتخلى عن دعوته . وكان فيما عرض له . أن تلتمس له قريش كل من حذق فى معالجة الصرع والجنون من الكهنة والعرافين ، إذا كان مابه مس من الجن ، أو عارض من الجنون . وأن يجمعوا له مايشاء من المال إن كان ذلك غايته من هذه الدعوة التى يدعو إليها ، أو يجعلوه ملكا عليهم إن كان يبغى الملك والسلطان .

فقال له الوليد فيما قال : يابن أخى : إن كنت إنما تريد بما جئت به من هذا الأمر مالا جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالا ، وإن كنت تريد به شرفاً سودناك علينا حتى لانقطع أمراً دونك ، وإن كنت تريد ملكا ملكناك علينا ، وإن كان هذا الذى يأتيك رئياً تراه ، لاتستطيع رده عن نفسك ، طلبنا لك الطب ، وبذلنا فيه أموالنا حتى نبرئك منه . !

فلما فرغ عتبة ورسول الله يسمع قال ٠ أقد فرغت أبا الوليد ؟ قال : نعم . قال : فاستمع منى ؟ قال : أفعل ! فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « بسم الله الرحمن الرحيم . . حم تنزيل من الرحمن الرحيم ، كتاب فصلت آياته ؛ قرآناً عربياً لقوم يعلمون ، بشيراً ونذيراً ، فأعرض أكثرهم فهم لايسمعون(١)» ثم مضى رسول الله صلى الله عليه وسلم يقرؤها عليه ، فلما سمعها عتبة أنصت لها ، وألقى يديه خلف ظهره معتمداً عليهما يستمع منه . ثم انتهى رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى السجدة فسجد . ثم قال : قد سمعت أبا الوليد ماسمعت ، فأنت وذاك » !

فقام عتبة إلى أصحابه ، فقال بعضهم لبعض : نحلف بالله ، لقد جاءكم أبو الوليد بغير الوجه الذى ذهب به ! ! فلما جلس إليهم قالوا : ماوراءك يا أبا الوليد ؟ قال ورائى أنى سمعت قولا ، والله ماسمعت مثله قط ، والله ماهو بالشعر ، ولا بالسحر ولا بالكهانة . . يامعشر قريش : أطيعونى واجعلوها بى ، وخلوا بين هذا الرجل وبين ماهو فيه فاعتزلوه ، فوالله ليكونن لقوله الذى سمعت نبأ عظيم . فإن تصبه

---

(١) سورة فصلت الآيات ١ — ٤ .

العرب فقد كفيتموه بغيركم ، وإن يظهر على العرب فملكه ملككم وعزه عزكم ، وكنتم أسعد الناس به ، فقالوا : سحرك يا أبا الوليد بلسانه ! ، فقال هذا رأيي فيه فاصنعوا ما بدا لكم» (١) .

والرسول الكريم يصف القرآن بصفات تكشف عن الخير الكثير المخبوء فيه ، وتبين عن الزاد الطيب المشتمل عليه .

يقول النبي صلوات الله وسلامه عليه: «إنه ستكون فتن كقطع الليل .. قيل فما النجاة منها يا رسول الله ؟» قال : كتاب الله تبارك وتعالى .. فيه نبأ من قبلكم ، وخبر ما بعدكم . . وحكم ما بينكم . وهو فصل ليس بالهزل . . من تركه تجبراً قصمه الله ، ومن ابتغى الهدى في غيره أضله الله . .وهو حبل الله المتين . ونوره المبين ، والذكر الحكيم ، والصراط المستقيم . هو الذى لا تزيغ به الأهواء ولا تذهب معه الآراء . ولا يشبع منه العلماء ، ولا يمله الأتقياء ، من علم علمه سبق ، ومن عمل به أجر ، ومن حكم به عدل ، ومن اعتصم به فقد هدى إلى صراط مستقيم» (٢) .

وقال صلوات الله وسلامه عليه: «من أراد علم الأولين والآخرين فليثق بالقرآن» .

من أجل هذا الذى ضم عليه القرآن من جلال ورواء ، مع ما فيه من العلم والحكمة — فقد وقف القرآن شامخاً عالياً عن أن يطاوله قول ، أو يدانيه بيان .. خرست الألسنة أن تسلك مسالكه ، وأن تبلغ مراميه . . وعرف أصحاب اللسن والفصاحة مكانهم من الاستخزاء والعجز إذا بدا لهم أن يحاكوه ، أو يجروا على سننه ، فأمسكوا ما جرى على ألسنتهم من كلام أرادوا أن يحروه في ميدان القرآن ، يقول ابن عطية في مقدمة تفسيره المسمى «الجامع المحرر» : ويظهر لك قصور البشر مطاولة القرآن — أن الفصيح منهم يضع خطبة أو قصيدة يستفرغ فيها جهده

---

(١) السيرة لابن هشام جزء ١ ص ٢١٣ .

(٢) صحيح مسلم

ثم لا يزال ينقحها حولا كاملا ، ثم تعطى لأحد نظيره ، فيأخذها بقريحة خاصة ، فيبدل فيها وينقح ، ثم لا تزال كذلك فيها مواضع للنظر والبدل .

وكتاب الله لو نزعت منه لفظة ثم أدير لسان العرب فى أن يوجد أحسن منها لم يوجد » (١)

سمع أعرابى قارئاً يقرأ ... : « والسارق والسارقة فاقطعوا أيديهما جزاء بما كسبا نكالا من الله » ، ثم حمل فاصلة الآية . « والله غفور رحيم » فقال الأعرابى : ما هذا ؟ فقيل له قرآن ، فقال ما هذا بقرآن . فتنبه القارىء ، فصحح فاصلة الآية بقوله تعالى : « والله عزيز حكيم . » فقال الأعرابى : عز ، فحكم ، فقطع » ! !

فإعجاز القرآن فى ذاته حقيقة مقررة لم ينازع فيها أحد من أولياء الدعوة الإسلامية أو خصومها ، فقد وقف متحدياً كل ذى لسان منذ نزل إلى اليوم أن يأتى بآية أو سورة من مثله ، فلم يكن فى الناس من وقف فى وجه هذا التحدى ولن يكون أبد الدهر .

يقول الجاحظ : إن « محمداً » صلى الله عليه وسلم مخصوص بعلامة لها فى العقل موقع كموقع فلق البحر من العين ، وذلك قوله لقريش خاصة وللعرب عامة ، مع ما فيها من الشعراء ، والخطباء ، والبلغاء ، والدهاة ، والحلماء ، وأصحاب الرأى والمكيدة والتجارب والنظر فى العاقبة — إن عارضتمونى بسورة واحدة فقد كذبت فى دعواى وصدقتم فى تكذيبى . !

« ولا يجوز أن يكون مثل العرب فى كثرة عددهم ، واختلاف عللهم ، والكلام كلامهم ، وهو سيد عملهم ، فقد فاض بيانهم ، وجاشت به صدورهم ، وغالبتهم قوتهم عليه عند أنفسهم حتى قالوا فى الحيات والعقارب والذئاب : والكلاب ، والخنافس ، والجعلان ، والحمير ، والحمام ، وكل مادب ودرج ، ولاح لعين وخطر على قلب ولهم بعد أصناف النظم وضروب التأليف كالقصيدة والرجز والمزدوج

---

(١) مقدمتان فى علوم القرآن . . نشرها أرثر جفرى سنة ١٩٥٤ ص ٢٧٩ .

والمجانس ، والأسجاع ، والمنثور .. وبعد ، فقد هاجوه من كل جانب ، وهاجى أصحابه شعراءهم ونازعوا أخطاءهم وحاجوه فى المواقف وخاصموه فى المواسم وبادروه العداوة ، وناصبوه الحرب ، فقتل منهم وقتلوا منه ، وهم أثبت الناس حقداً ، وأبعدهم مطلباً ، وأذكرهم لخير أو لشر ، وأهجاهم بالعجز ، وأمدحهم بالقدرة — ثم لايعارضه معارض . ولم يتكلف ذلك خطيب ولا شاعر ! ؟

ومحال فى التعارف ، ومستنكر فى التصادق ، أن يكون الكلام أحصر عندهم ، وأيسر مئونة عليهم ، وهو أبلغ فى تكذيبه ، وأنقض لقوله ، وأجدر أن يعرف ذلك أصحابه فيجتمعوا على ترك استعماله ، والاستغناء به ، وهم يبذلون مهجهم وأموالهم ويخرجون من ديارهم ، فى إطفاء أمره ، وفى توهين ماجاء به - ولا يقولون بل ولا يقول واحد من جماعتهم : لم تقتلون أنفسكم وتستهلكون أموالكم وتخرجون من دياركم ؟ والحيلة فى أمره يسيرة والمأخذ فى أمره قريب ؟ ليؤلف واحد من شعرائكم وخطبائكم كلاماً فى نظم كلامه كأقصر سورة يحذلكم بها ، وكأصغر آية دعاكم إلى معارضتها . » (١)

ويقول الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده :

« فالإسلام فى هذه الدعوة ، والمطالبة بالله ووحدانيته لا يعتمد على شيء سوى الدليل العقلى ، والفكر الإنسانى الذى يجرى على نظام نظرى ، وهو ما نسميه النظام الطبيعى .

« فلا يدهشك بخارق العادة ، ولا يغشى بصرك بأطوار غير معتادة ، ولا يخدش لسانك بقارعة سماوية ، ولا يقطع حركة فكرك بصيحة إلهية (٢) .

ويقول أيضاً :

« ذلك الخارق المتواتر المعول عليه فى الاستدلال لتحصيل اليقين هو القرآن وحده ، والدليل على أنه معجزة خارقة للعادة ، تدل على أن موحيه هو الله وحده ،

---

(١) رسائل الجاحظ ص ١٤٣ .

(٢) الإسلام والنصرانية ص ٥٤ .

وليس من اختراع البشر. هو أنه جاء على لسان أمى لم يتعلم الكتابة، ولم يمارس العلوم، وقد نزل على وتيرة واحدة، هاديا للضال، مقوما للمعوج، كافلا بنظام عام لحياة من يهتدى به من الأمم.. وهذا الخارق قد دعا الناس إلى النظر فيه بعقولهم، وطولبوا بأن يأتوا فى نظارهم على آخر ما تنتهى إليه قوتهم، فإن وجدوا طريقا لإبطال إعجازه أو كونه لا يصلح دليلا على الداعى فعليهم أن يأتوا به.. قال تعالى: « وإن كنتم فى ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله ».

معجزة القرآن جامعة من القول والعلم، وكل منهما مما يتناوله العقل بالفهم فهى معجزة عرضت على العقل.. وأطلقت له حق النظر فى أنحائها، ونشر ما انطوى فى أثنائها.. فهى معجزة أعجزت كل طوق أن يأتى بمثلها، ولكنها دعت كل قدرة أن تتناول ما تشاء منها. أما معجزة موت حى بلا سبب معروف للموت، أو حياة ميت، أو إخراج شيطان من جسم، أو شفاء علة من بدن، فهى مما ينقطع عنه العقل، ويجمد لديه الفهم، وإنما أتى بها الله على يد رسله لإسكات أقوام غلبهم الوهم، ولم يضىء عقولهم نور العلم.. وهكذا يقيم الله بقدرته الآيات للأمم على حسب الاستعدادات» (١).

* * *

لا يعرف التاريخ البشرى كتاباً لقى من العناية والاهتمام ما لقى القرآن الكريم من عناية أتباعه. واهتمامهم به، والتفاتهم إليه.

نقول ذلك.. وبين أيدينا الحجة القاطعة فى هذا العدد العديد من المؤلفات التى خلصت لخدمة القرآن. وقامت لاستكشاف أسراره، واجتناء ثمرات هديه.

ومن أجل هذا كانت تلك الألوف المؤلفة من كتب التفسير التى ضمت عليها المكتبة العربية، والتى ذهب أضعافها فى ثنايا الفتن والأحداث التى مرت بالمسلمين.

وإذا كانت كتب التفاسير هى الطريق المباشر الذى سلكه المفسرون لخدمة القرآن، فإن هناك طرقاً أخرى سلكها السالكون لخدمة كتاب الله، وهى لا تقل أثراً فى خدمته عن هذا الطريق.

---

(١) المصدر السابق ص ٥٥.

فهناك العلوم الكثيرة التى عنى بها المسلمون دراسة وتأليفاً .. بعضها عربى صميم ، وبعضها أخذه العرب عن غيرهم من الأمم ، فعلوم القراءات ، والفقه ، والنحو ، واللغة ، والأدب ، والمنطق ، والفلسفة ، والطب ، والرياضة ، والفلك .. وكثير غيرها إنما اتجه إليها المسلمون أول ما اتجهوا لخدمة القرآن ، وتمهيد الطرق لفهمه ، وتهيئة الأجواء للدلالة على إعجازه ..

فكانت علوم اللغة مثلا لصيانة مادته .. وكان علم النحو لحفظ إعرابه ، والأدب لتذوق أساليبه ، كما كان المنطق والفلسفة للرد على خصومه .. وهكذا .

ومن عجب أن يكون هذا كله من عمل الأفراد ، ومن وحى ضمائرهم ، دون أن تقوم عليه دولة ، أو تجمع له جماعة .. ولهذا كان ذلك الاختلاف المتشعب فى كل علم ، وفى كل فن من فنون العربية وعلومها .. إذ كان كل فن ، وكل علم قد اشترك فيه أفراد الأمة — أعنى علماءها — فرداً فرداً ، كل فرد له رأيه ، وله فهمه ، ما وسعه الرأى والفهم .

فالمسألة الواحدة يلقاها المفكرون جميعاً ، كل برأيه ، يتناولها حسب استعداده ، واجتهاده .

ومن هنا كان الاختلاف الذى لا يكاد يحصر ، والذى لا نجد له شبيها عند أمة من الأمم ، أو فى لغة من اللغات .

وحسبنا أن نشير إلى الفقه وما فى أحكامه من آراء ، والنحو وما فى مسائله من خلاف .

وقد كان لهذا الخلاف فى الرأى آثاره المحمودة ، وآثاره السيئة معاً ..

فمن آثاره المحمودة أنه يرى فى أى مسألة ، وفى أى حكم آفاقا من النظر وأنماطاً من الفهم ، يستطيع الواقف على هذه الآراء المتخالفة أن يرى الأمر من جميع جوانبه ، وأن يلقاه من كل وجه من وجوهه .

فإنه فى مجال هذه الآراء المتخالفة ، والمقولات المتباينة ، يتعرى الشىء من لفائف الغموض ، ويتبدى لعين النظار من غير حجاب .

وهذا المحمود ذاته هو المذموم أيضاً ، فكثيراً ما يثير هذا التمزق للفكرة بلبلة فى الفكر ، واضطرابا فى الرأى ، تذهب بالمرء فيه المذاهب ، فتركبه الحيرة حين تتصادم أمامه الحجج ، فلايدرى مايأخذ وما يدع ، وما يعمل منها أويهمل.

وعلى أى فإن كثرة الآراء حول موضوع من الموضوعات إنما هو تمحيص له آخر الأمر ، ولايلبث أن يتهدى الناس — مع الزمن — إلى الرأى الراجح فيه ، والوجه السليم منه .

فلا نفزع إذن لكثرة الخلافات التى دارت حول المسائل الإسلامية - وهى فى الفروع لافى الأصول — ولانظر إليها إلاعلى أنها أضواء كاشفة ، وشعاعات مضيئة إن زاغت بها بعض الأبصار ، فإنه يهتدى بها معظم الأبصار .

° ° °

ونعود إلى حديثنا عن القرآن . . فنقول :

لقد بلغت عناية المسلمين بالقرآن أن عدوا حروفه ، حرفاً حرفاً ، وكلماته كلمة كلمة ، وآياته آية آية . . بل وأكثر من هذا .. إنهم ردوا حروفه إلى حروف المعجم كلها ، وحصروا حظ كل حرف منه .

عناية لانظن أنها وجدت لأى أمر اتصل بحياة الناس ، أفراداً أوجماعات..

ولم تكن هذه العناية بالقرآن إلا من وحى الإيمان به ، وبأنه من عند الله ، وأن كلماته من كلام الله .

فلم تكن نظرة المسلمين إلى القرآن نظرتهم إلى كتاب سماوى يحمل إلى الناس شريعة ، ويقيم لهم دينا ، وإنما هو فوق ذلك كلام الله الأزلى الأبدى .. ففى كل كلمة أسرار ، وفى كل حرف سر وبركة .

وقد سمح القرآن بأن يغذى هذا الشعور عند المسلمين ، وأن يملأ أيديهم من أسراره وعجائبه ، وأن يصدقهم القول بأنه من عند الله ، وأنه كما يقول الله تعالى

« لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ، ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا »(١) .

وهذا التحدى للجن والإنس على مدى الأزمان هو الذى يقطع كل جدل بأن القرآن هو كلام الله ، وأنه معجزة الرسول الخالدة ، وأن هذه المعجزة قائمة ، وأن هذا التحدى قائم لا تنقضه الأيام ، مهما ولدت الحياة من ذكاء وعبقرية ، ومهما جاء فى الأجيال من أذكياء وعباقرة .

* * *

والظاهرة الواضحة فى التحدى بالقرآن أنها لون فريد فى التحدى . . فما عرف الناس قولا لقائل مهما بلغت بلاغته ، وعلت فصاحته ، أن يتحدى الناس جميعاً أن يقولوا مثل قوله . .

إن موازين الكلام لا تخضع لقاعدة محددة ، ولا تنزل عند شرط معين . . وإنما هى موازين تخضع — فى قدر كبيرمنها — إلى المزاج ، وإلى العاطفة والوجدان . . إلى جانب العقل ومنازع التفكير .

إن فن القول واحد من الفنون الجميلة كالموسيقى ، والنحت ، والرسم . . تتفاوت أنظار الناس فيها ، وتختلف معاييرهم لها . .

ومن هنا لم يحفظ التاريخ الإنسانى حكما قاطعاً على عمل فنان أو جانب من عمله : أنه نهاية القمة ، التى لا يلق إليها مرتق ، أولا يجاوزها أحد .

وغاية ما يمكن أن يقال إزاء عبقريات الفنون وروائعها أنها أعمال خالدة ، أو أنها فريدة من فرائد الفنون .

خذ مثلا لذلك الشعر الجاهلى . .

لم يستطع النقاد على كثرة محاولتهم وطول نظرهم فيه ، أن يضعوا شعر شاعر فى المنزلة المنفردة وحدها بالمكان الأول . . وغاية ما بلغوه فى هذا أن عدوا جماعة من كبار الشعراء ، ورفعوهم إلى المكان الأول جميعاً ، وأفسحوا لكل واحد طريقاً يدخل منه إلى هذا المكان . . أمرؤ القيس إذا ركب ، وزهير إذا رغب ،

(١) سورة الإسراء : آية ٨٨ .

والنابغة إذا رهب ، والأعشى إذا طرب[1] .. إلى آخر هذه الأحكام التى كانوا يحكمون بها على عمل شاعر من أولئك الشعراء الكبار .

وأكثر من هذا ، فإنهم فى ديوان الشعر العربى عامة لم يتفقوا على البيت الأول أو القصيدة الأولى فى هذا الشعر .

وهذا الذى نقوله فى الشعر العربى نقوله أيضاً فى الشعر الأوربى . . فهذا « شكسبير » قد عاش زمناً فى منزلة الرجل الإلهى ، ثم لم يلبث الزمن أن أضاف أدبه إلى المتحف الذى يضم كنوز التراث الإنسانى .

إن شعر « شكسبير » وإن كان آية الآيات فى روعة البداهة ، وعمق الفكرة ، ورصانة الأسلوب . . فإنه قد مضى زمنه . . وأصبح من مخلفات القرون ، وآثار الأولين . . لا يلائم روح العصر ، ولا يجرى مع أسلوب التعبير الذى يتفق مع أذواق الناس . . إنه أشبه بالحلى التى كان يلبسها ملوك العصور الوسطى . . رائعة ، معجبة بألوانها ، وأصباغها .. إلا أنها لا تلبس فى هذا العصر إلا فى حفلات التنكر ، وعلى مسارح التمثيل فى الروايات التاريخية .

* * *

وإذ كان القرآن بهذه المنزلة فى قلوب المسلمين ، وإذ كان ذلك هو إيمانهم به ، وتقديرهم له ، واجتماعهم عليه ، فإن أعداء الإسلام وقفوا من القرآن موقف المستخف به ، العائب له ، المشكك فى منبعه الذى فاض منه ، وفى الوحى الذى نزل به ، وفى الرسول الذى دعا الناس إليه !

وسنرى كيف كان كيد أعداء الإسلام لكتاب الإسلام ، ولنبى الإسلام . وكيف كانت رمياتهم الطائشة تكاد تصيب المقاتل من رماتها .

ويلوح هنا سؤال : إذا كان القرآن على تلك الصفة الذى تجعل له ذلك السلطان القاهر على النفوس ؟ وإذا كان يحمل فى كيانه دلائل إعجازه . فما الحاجة إلى النبى ؟ وإذا كان هناك ما يدعو إلى نبى يقدمه للناس ، فإن مهمة النبىّ

---

(١) أى أن كل شاعر من هؤلاء كان مبرزا فى فن من فنون الشعر ، فامرؤ القيس فى الصيد ووصف الخيل ، والنابغة فى الاعتذار ، والأعشى فى وصف الخمر ، وزهير فى المدح .

لاتعدو أن يعرض القرآن عرضاً ، ثم يدعه يحدث عن نفسه، ويشهد لإعجازه. وإذن تكون مهمة الرسول هينة محددة ، ويكون دوره فى الرسالة الإسلامية دوراً ثانوياً ، يستطيع كل إنسان أن يؤديه من غير أن يكون مزوداً بقوى خاصة فى كيانه الروحى ، والنفسى ، والعقلى ، والجسدى . . فما تأويل هذا ؟

ونقول :

أولا : لابد من رسول يبلغ دعوة الله ، وينقل كلماته إلى الناس . . وهذا ماينبغى أن يسلم به بادىء ذى بدء ، فإن كلمات الله إنما تحمل إلى الناس بوساطة رسل يتخيرهم الله لهذه المهمة العظيمة .. فكان « محمد » هو الرسول المتخير لتلقى القرآن وتبليغه .

وثانياً : كون القرآن يحمل فى كيانه دلائل صدقه وإعجازه لايخفف العبء الملقى على كاهل النبى ، ولاييسر مهمته فى تبليغ دعوته ، بل إن ذلك الموقف ذاته يدعو إلى أن يكون النبى الذى يحمل هذه الرسالة مزوداً بصفات .. أقوى وأعظم من تلك الصفات التى زودبها إخوانه من الأنبياء . . فيكون هو فى ذاته معجزة يتأدى منها إلى الناس شواهد تشهد له ، وتنبىء عن صلته بالسماء ، بما يحمل فى كيانه من أمارات السمو ، والعظمة ، والنبل ، التى لاترى على صورتها الكاملة فى أحد غيره .

إن دلائل الإعجاز فى القرآن مع أنها تنتظم القرآن كله ، وتجرى فى كل آية من آياته . لاتكفى وحدها فى حسن استقبال الناس لها ، وفى صدق نظرتهم إليها ، ووزنها بميزان الحق والإنصاف . . فإن الضلال والعنادالذى يستولى على كثير من النفوس يعمى على الناس سبل الهداية ، ويزيف عليهم حقائق الأشياء، فإذا الخير فى أعينهم هو الشر الصراح ، وإذا النعمة المساقة إليهم نقمة وبلاء .

وشواهد التاريخ أكثر من أن يرصدها عد .

فلقد جاء موسى إلى فرعون بالمعجزات المحسوسة القاهرة : فألقى عصاه فإذا هى ثعبان مبين ، ونزع يده . فإذا هى بيضاء للناظرين »[1] . فكان ذلك فى نظر

---

(١) سورة الأعراف : آية ٢٠٨ .

فرعون سحر ساحر، وشعوذة مشعوذ .. وقال فرعون : « إن هذا لساحر عليم ، يريد أن يخرجكم من أرضكم . ؟ فماذا تأمرون ؟ قالوا أرجه وأخاه ، وابعث في المدائن حاشرين ، يأتوك بكل سحار عليم »(١) .

واجتمع السحرة ليبطلوا سحر « موسى » . . واجتمع الناس ليشهدوا هذا الأمر . . « وقيل للناس : هل أنتم مجتمعون ؟ لعلنا نتبع السحرة إن كانوا هم الغالبين »(٢) .

« فلما جاء السحرة قالوا لفرعون : أئن لنا لأجراً إن كنا نحن الغالبين ، قال نعم وإنكم إذن لمن المقربين » ! .

« قال لهم موسى ألقوا ما أنتم ملقون . . فألقوا حبالهم وعصيهم ، وقالوا بعزة فرعون . . إنا لنحن الغالبون . . فألقى موسى عصـــاه فاذا هي تلقف ما يأفكون » .(٣) .

« فوقع الحق ، وبطل ما كانوا يعملون ، فغلبوا هنالك ، وانقلبوا صاغرين ، وألقى السحرة ساجدين ، قالوا آمنا برب العالمين .. رب موسى وهرون »(٤) .

إن أهل الدراية والخبرة هم الذين عرفوا فرق ما بين الحق ، والسحر . . وتكشفت لهم المعجزة فآمنوا . . أما فرعون فقد ظل سادراً في ضلاله حتى بعد أن خذله من اعتز بهم واستنصر .. فقال « ءامنتم له قبل أن آذن لكم ؟ إنه لكبيركم الذي علمكم السحر . . فسوف تعلمون »(٥).

ثم ، كم من آية جاء بها موسى إلى بني إسرائيل فما تكاد تغرب شمس يومها يزحف ظلام الكفر والضلال على قلوبهم .. ويحتاج الأمر إلى معجزة جديدة ، ثم لا تلبث أن تغرق في طوفان الظلام . وهكذا تتتابع الآيات ، وتترى المعجزات واحدة إثر أخرى ، والظلام يزداد تكاثفاً ، والقلوب تزداد صلادة وقسوة !

---

(١) سورة الشعراء: آية ٣٤، ٣٧.
(٢) سورة الشعراء: آية ٣٩ـ ٤٠ .
(٣) سورة الشعراء آية ٤٢، ٤٥ .
(٤) سورة الأعراف: آية ١١٨ ـ ١٢٢
(٥) سورة الشعراء: آية ٤٩ .

وعيسى عليه السلام يرى الناس معجزات قاهرة باهرة : يحيي الموتى، ويبرىء العلل التى لا يعرف الطب لها دواء ، وينزل مائدة من السماء . . فما تفعل كل هذه المعجزات فى قلوب القوم شيئاً ، ولا تزيدهم إلا إصراراً على ما هم فيه من كفر وضلال !

فإذا كان هذا هو شأن الناس مع المعجزات المحسوسة التى تقع بين أيديهم ، وتحت أسماعهم وأبصارهم ، فإن ذلك يكون أشد وأقوى ، فى وجه المعجزات التى يستدل عليها من وحى الكلمات ومدلول الألفاظ ، فى القرآن الكريم ؟

إن الإعجاز القرآنى يخاطب العقل ، ويناجى الوجدان ، على حين أن الإعجاز فى معجزات الرسل إنما يجابه الحواس ، ويصادم ناموس الطبيعة القائم فى الناس ، فيحدث فى الحياة زلزلة عنيفة ، تنبه الغافلين ، وتوقظ النيام .

لهذا كان الإعجاز القرآنى فى حاجة ملزمة إلى قوة تظاهره، وتفتح له القلوب، وتوجه إليه العقول ، وتقيم له فى الحياة مكاناً راسخاً ، وتجعل له فى الناس قدماً ثابتة .

وهذه القوة التى يحتاج الإعجاز القرآنى إلى مظاهرتها ينبغى أن تكون هى ذاتها معجزة ، تتكشف فى كيانها آيات القرآن ، وتتجلى فى أفعالها وتصرفاتها أضواؤه وأنواره .. وذلك ما كان عليه الرسول الكريم ، الذى حمل إلى الناس معجزته الخالدة .. « القرآن » ، فكان هو صلوات الله وسلامه عليه عنوان هذا الكتاب الكريم . قرأ فيه الناس — قبل أن يقرأوا آيات الكتاب — آيات محكمة معجزة :. من الخلق العالى ، ومن الأدب الرفيع .. فكان كما يقول عن نفسه: « أدبنى ربى فأحسن تأديبى » .. وكما وصفه القرآن بهذا الثناء العظيم من رب العالمين : « وإنك لعلى خلق عظيم »(١) .. وكما تقول السيدة عائشة فى كلمتها الجامعة لصفاته : « كان خلقه القرآن » .

فليس فى إعجاز القرآن على تلك الصفة التى اشتمل عليها فى كيانه ما يخففه

---

(١) سورة القلم آية ٤ .

من مهمة الرسول الكريم فى أداء رسالته ، وفى تجلية حقيقتها للناس . . بل إن الرسالة التى تجىء على تلك الصورة، فتحمل الإعجاز بين طياتها، وفى ثنايا حروفها وكلماتها فى حاجة أشد الحاجة إلى مبلغ يتخير لها من الصفوة الكرام فى الرسل. ليستطيع — كما قلنا — أن يفتح لها القلوب ويوجه إليها العقول ، ويهيىء لها مكاناً آمناً مستقراً فى الحياة ، لتظل كهذا أبد الدهر مصدر إشعاع للمؤمنين ، ومنار هدى للسالكين . .

ولو لم يكن من وراء القرآن تلك الشخصية العظيمة التى وقفت تلقى به على الأسماع آية آية ، وسورة سورة ، خلال ثلاث وعشرين سنة — لظل القرآن — إن يكن قدر له وجود على غير تلك الصورة — لظل كنزاً مخبوءاً ، لا يعرف الناس ما يضم من خير ، وما يحوى من رحمة وهدى !

إن الذى يقرأ القرآن غير متمثل تلك الذات الكريمة التى حملته إلى الناس ، وأذنت به فيهم ، ليفقد كثيراً من ذلك الجلال والجمال الذى كان جديراً أن يجده لو أنه قرأه متمثلا صاحب الرسالة .. يتلقاه من السماء ، ويحرك به لسانه قرآنا عربياً لقوم يؤمنون !

إن أنفاس الرسول الكريم لتسرى فى آيات الكتاب آية آية . . وإن شميم سيرته الطيب ليفوح فى ثنايا كلمات الكتاب الكريم وحروفه .

ومن هنا ندرك العبء الثقيل الذى حمله الرسول الكريم فى تبليغ الرسالة، وحملها إلى مواطن الإقناع والإيمان من الناس . . فإنهم يطالبون النبى بمعجزات محسوسة تصدق دعواه ، وهو لا يملك معجزة غير هذا الكلام الذى يوحى إليه: « أو لم يكفهم أنا أنزلنا عليك الكتاب يتلى عليهم ، إن فى ذلك لرحمة وذكرى لقوم يؤمنون »(١) .

ومن هنا أيضاً ندرك ثقل هذه المهمة ، التى يقوم بها الرسول وليس بين يديه معجزة محسوسة .. يغشى بها الأبصار ، ويخرق بها الأسماع ، ويذهل بها العقول .

---

(١) سورة العنكبوت : آية ٥١ .

إن كل ما بين يديه هو هذا الكلام الذى يوحى إليه . وهو معجزات تملأ الوجود، لو وجدت عقولا سليمة وقلوباً واعية . . وهيهات أن تجد تلك العقول، وهذه القلوب فى ظلام الجاهلية، وفى عصبية قريش وكبريائها .

ومن أجل هذا دعا الله نبيه أن يحمل عبء هذه الجهاد، وأن يصبر له . . فإن العبء الذى ألقى عليه عبء لا يستقل بحمله غير أولى العزم من الرسل . . « فاصبر كما صبر أولو العزم من الرسل (١) » . . « إنا سنلقى عليك قولا ثقيلا» (٢) . . «فلا تطع الكافرين وجاهدهم به جهادا كبيرا » .(٣)

عن أبى هريرة رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « ما من نبى إلا وقد أعطى من الآيات ما مثله آمن عليه البشر . . وإنما كان الذى أوتيته وحياً أوحى الله إلى . . فأرجو أن أكون أكثرهم تابعاً يوم القيامة » .

يقول القاضى عياض : « معنى هذا عند المحققين بقاء معجزته ، ما بقيت الدنيا .. وسائر معجزات الأنبياء ذهبت للحين، ولم يشاهدها إلا الحاضر لها ، ومعجزات القرآن يقف عليها — الناس — قرناً بعد قرن عياناً ، لا خبراً ، إلى يوم القيامة »(٤) .

ومعنى هذا أيضاً أن معجزات الرسل معجزات تحمل فى كيانها قوة قاهرة ، يخضع لها الناس لمجرد ظهورها فيهم . . فإن أية ظاهرة خارقة من ظواهر الطبيعة يجتمع لها الناس ، ويقولون فيها ما يقولون ، ثم يجتمعون عليها ويستجيبون لهـا . . فما أكثر ما تجرف العجائب والغرائب — حتى الزائف منها — أفئدة كثير من الناس ، وتستهوى قلوبهم . .

ونحن نشهد فى الحياة ما يفعل مهرة المشعوذين بألباب الناس ، بما يبدون لهم من ضروب الخوارق الزائفة التى تعتمد على الخداع والتضليل . فكيف بالمعجزات السماوية التى تطلع على الناس على غير مألوف الحياة كما لو تطلع الشمس فى منتصف الليل ، ووسط ظلامه الحالك ؟ .

---

(١) سورة الأحقاف: آية ٣٥ . (٢) سورة المزمل: آية ٥ .
(٣) سورة الأحقاف: آية ٥٢ (٤) الشفا فى التعريف بحقوق المصطفى ص١٣٥ .

فتلك هى معجزات الرسل ، يؤمن الناس على مثلها ، ولو لم تقع على يد رسول يتحدى الناس بها . .

أما معجزة « محمد » فهى وحى أوحى الله إليه . . تدرك المعجزة فيه عن طريق العقل .. والعقل يصحب الناس جميعاً ، على اختلاف أزمانهم وأوطانهم .

إن معجزات الأنبياء أمام مشاهديها وحدهم ، وليس لغيرهم حظ منها ، أو نصيب فيها . .

أما معجزة « محمد » فهى تجاه العقل الإنسانى كله . . لكل إنسان نصيبه فيها ، وحظه منها . .

« إن معجزة الأنبياء الذين سبقوا « محمداً » كانت فى الواقع معجزات وقتية ، وبالتالى معرضة للنسيان السريع . بينما تستطيع أن تسمى معجزة الآيات القرآنية المعجزة الخالدة . . وذلك أن تأثيرها دائم ، ومفعولها مستمر . ومن اليسير على المؤمن — بل وغير المؤمن — أن يرى فى كل زمان ومكان — أن يرى هذه المعجزة بمجرد تلاوة كتاب الله .

وفى هذه المعجزة نجد التعليل الشافى للانتشار الهائل الذى أحرزه الإسلام . ذلك الانتشار — الذى لا يدرك سببه الأوربيون ، لأنهم يجهلون القرآن ، أو لأنهم لا يعرفونه إلا من خلال ترجمات لا تنبض بالحياة ، فضلا عن أنها غير دقيقة[1] .

ويقول ابن خلدون : « فاعلم أن أعظم المعجزات ، وأشرفها ، وأوضحها دلالة — القرآن الكريم المنزل على نبينا محمد صلى الله عليه وسلم ، فإن الخوارق فى الغالب تقع مغايرة الوحى الذى يتلقاه النبى ، ويأتى بالمعجزة شاهدة بصدقه ، والقرآن هو بنفسه الوحى المدعى ، وهو الخارق المعجز . . فشاهده فى عينه ، ولا يفتقر إلى دليل مغاير له ، كسائر المعجزات مع الوحى .. فهو أوضح دلالة ، لاتحاد الدليل والمدلول فيه . . وهذا معنى قوله صلى الله عليه وسلم : « ما من

---

(١) محمد رسول الله .. ترجمة الدكتور عبد الحليم محمود .

نبى من الأنبياء إلا وأوتى من الآيات ما مثله آمن عليه البشر ، وإنما كان الذى أوتيته وحياً أوحى إلى ، فأنا أرجو أن أكون أكثرهم تابعاً يوم القيامة » . . يشير إلى أن المعجز متى كان بهذه المثابة فى الوضوح وقوة الدلالة ، وهو كونها نفس الوحى — كان المصدق لها أكثر ، لوضوحها فكثر المصدق والمؤمن ، وهو التابع والأمة »(١) .

ويمكن أن نحصر مقولات أولئك المدعين على القرآن تلك الادعاءات الباطلة فى أمور . . منها :

أولا — أسلوب القرآن:

فقد وقف الغربيون من أسلوب القرآن مواقف متناقضة ، فبينما يرفعه بعضهم إلى منزلة الإعجاز التى أودعها الله فيه ، إذا يزحزحه بعضهم عن تلك المنزلة ، ويرميه بالغموض ، وبالتكرار ، وبما شاء خياله المريض أن يصور له من صور الزراية والتجريح !

بل إن الكاتب الواحد ليقع فى هذا التناقض فى مقرراته التى ينتهى إليها فى أية نظرة ينظرها إلى القرآن . . فإذا قال قولا لم يثبت عليه ، وجاء فى أعقابه بتذييلات وتعليقات ، تقف منه موقف الخلاف والمنابذة .

وأغلب ما يقع من ذلك التناقض عند أصحاب الآراء المحررة من الهوى والتعصب إنما هو نتيجة عدم الفهم لطبيعة الوحى ، وللأسلوب الذى نزل به القرآن .

وقد قلنا من قبل إن علماء الغرب عامة يعتقدون أن القرآن من صنع « محمد » وأنه إذا كانت بينه وبين السماء صلة فهى صلة غامضة يتلقى منها إشارات مبهمة يحولها إلى أفكار ، ثم يترجمها فى ألفاظ وعبارات هى « القرآن » .

---

(١) مقدمة ابن خلدن ص ٩١ .

وإلى هذا الجهل بطبيعة الوحى ، وبصلة محمد بالسماء جهل آخر بمعرفة اللغة العربية ، وبتذوق أساليب الجمال فيها . والاهتداء إلى مواطن الحسن منها . . فلو أن لهؤلاء الباحثين فى القرآن من أولئك العلماء حظا من الحس الفنى وأساليب البيان لوقاهم ذلك شر هذه المزالق التى كثرت فيها عثراتهم وسقطاتهم فى القرآن ، فقالوا تلك المقولات الهزيلة الباطلة .

محمد والقرآن عند غير المسلمين :

أشرنا من قبل إلى أن الذين عرضوا للبحث فى العقيدة الإسلامية من غير المسلمين كانوا من أمرهم على غير بينة . . سواء منهم من جاء إلى تلك الدراسة بقلب مريض ، يحمل للإسلام الحقد والعداوة ، أو من جاء إليها باسم العلم ، وتحت راية البحث عن الحقيقة .

ذلك أن هؤلاء جميعاً ينسبون القرآن إلى «محمد» ، ويجعلونه من صنعه ، وتدبيره . . وأهداهم طريقاً فى هذا الشأن — وهم نفر قليل — من يرى أن محمداً كان يتلقى أمر السماء فى صورة إشارات ورموز أشبه بالخواطر التى يجدها الإنسان عند شأن مع الشئون التى يهتم لها ويعنيه أمرها . . ثم يتولى « محمد » صياغة هذه الإشارات أو الخواطر ، فى قوالب لفظية هى ما عرف باسم القرآن .

ونقول : إنا قد أشرنا إلى هذا من قبل ، وكشفنا عن الدوافع التى تولدت عنها هذه الأباطيل — سواء أكانت متعمدة أم غير متعمدة — ونريد أن نقف هنا وقفة خاصة مع أولئك الباحثين الذين نرى أنهم طلبوا وجه الحق فى هذا الأمر ، فأخطأهم التوفيق للوصول إليه . أما تلك المفتريات المتعمدة فإنها تحمل فى كيانها معاول هدمها ، التى ينكر آخرها أولها ، وينقض لاحقها سابقها . . .

واستمع فى هذا إلى قول عالم نحسبه من أصحاب الآراء الحرة ، ونراه من طلاب الحقيقة فيما يعرض له من دراسة وبحث فى الشريعة الإسلامية . .

هذا العالم هو «جرونيباوم» ، مؤلف كتاب « حضارة الإسلام » . .

وهو على ما به من هذه الصفات التى نراها فيه ، وعلى ما بذل من جهد فى التحقيق والتمحيص — لم يستطع أن يحفظ توازنه وهو يعبر الطريق إلى الحقيقة التى كان ينشد الوصول إليها — حسب رأينا — فى شأن القرآن .

استمع إليه فى حديثه عن أسلوب القرآن . . يقول :

« لقى أسلوب القرآن من الغربيين نقداً إجماعياً شديداً ، وشاركهم فى ذلك بعض المسلمين » !

هذه حقيقة يقررها « جرونيباوم » فى شأن حملات النقد التى لقيها القرآن من الغربيين عامة ، ولا شىء فى هذا ، فذلك أمر معروف سلفاً . . أما مشاركة بعض المسلمين فى هذه الحملات فلا يمكن أن تكون . . ولا ندفع هذا بمستند تاريخى ، وإنما مستندنا فى دفعه هو أن المسلم الذى يستحق هذه الصفة لا يمكن أن يكون مسلماً وفى قلبه شىء من الارتياب أو الشك فى أن القرآن كله كلام الله . . وهيهات أن يعقل أن إنساناً يؤمن بالله ثم يطعن فى كلامه !

ثم يقول « جرونيباوم » :

« وقد يكون لبعض هذا النقد ما يبرره .

« على أن غلو الغرب عامة فى هذا النقد إلى حد إنكار ما للقرآن من فضائل لغوية ، وإسناد التكرار وغيره إليه ، ليس من الإنصاف ولا التقدير الحسن فى شىء » .

إذن ما هو الإنصاف وما هو التقدير الحسن عند « جرونيباوم » إذا كان يأخذ على قومه عدم إنصافهم للقرآن وسوء تقديرهم له ؟ .

لنستمع إلى رأيه فى هذا .. يقول :

« فالكتاب على ما هو عليه اليوم بين أيدينا ليس هو الكتاب كما أبلغنا إياه محمداً » .

ياخيبة الأمل . أهذا هو الإنصاف ، أهذا هو التقدير الحسن ؟ .

واستمع إلى ما هو أدهى وأمر ! . . يقول :

« بل الواقع أن كتابا بأكمله لم يوح إليه قط .

« بل كانت توحى إليه رؤى قصيرة ، ووصايا ، وأمثال ، وقصص ذات مغزى ، أو أحاديث فى أصول العقيدة ! »(١)

ما مصدر هذه الرؤى ؟ وما طبيعتها ؟ أهى متنزلة من السماء أم هى أبخرة تفيض من خواطر «محمد» وتتسرب من مسارب تفكيره ؟ أهى رسالة سماوية يحملها ملك كريم ، إلى نبى كريم أم هى همسات جن ووسوسة شيطان يلقى بها فى قلب كاهن ، أو سمع ساحر ؟

لا تعدو المسألة أحد هذين الأمرين : نبى ، أم مشعوذ ...

فإن كان نبياً فالصلة التى تكون بينه وبين السماء لا تكون صلة رؤى وأحلام، وإنما هى صلة واعية مدركة ، تلمس الحقائق ، وتملأ بها يديها .

وإن كان مشعوذا ، فهذا شأن آخر !

ثم يقول :

« ولعله — أى النبى — كان ينوى أن يجمع شتيت أجزائه المتعددة — أى أجزاء الرؤى التى صورها محمد قرآنا — وأن يحمدها — إن صح هذا القول — حتى تتخذ صورة القوانين الدينية ، وإن لم يكن فى الإمكان إثبات ذلك » .

ولعل هذا القول هو أشنع قول وأنكره فى شأن القرآن .

أترك «محمد» حقاً هذه الدنيا ، وأخلى مكانه منها قبل أن يتم رسالته التى ندبته السماء لها ؟ أهذا عمل يليق برسالة دنيوية بعث بها مبعوث من دولة أو سلطان؟ أيكون من حسن الرأى والسياسة أن يكون هذا المبعوث قائماً بين يدى من بعث إليه يؤدى ما أرسل به ثم يعزل قبل أن يتم رسالته ؟ وإذا جاءت ظروف قاهرة اقتضت عزله ، ألا يكون هناك من يقف موقفه ويكمل ما بدأ به ؟ ذلك أقل ما ينبغى أن يحدث لسد هذا الخلل ، الذى لا يمكن أن يقع إلا تحت ظرف قاهر لا يستطيع الناس دفعه ! .

---

(١) حضارة الإسلام ص ١٠٨ .

فهل يتصور أن تعجز السماء عن أن تصمن لرسولها المبلغ عنها أن يقوم على أداء الرسالة إلى غايتها ؟ أين قدرة الله إذن ؟ وأين الحكمة المرادة من رسالته؟.

لا ، لا . إن ذلك القول لا يستقيم مع منطق ، ولا يجرى مع تفكير سليم أبدا .

أما وثائق التاريخ الوثيقة المحررة ، فإنها تشهد بأن رسول الله قد بلغ الرسالة على وجهها الأكمل ، وأنه ظل قائما عليها يتلوها آية آية حتى فرغ منها فى ثلاث وعشرين سنة . .

لقد كان من تدبير السماء أن تمد للرسول أسباب البقاء فى مقام التبليغ ، وأن تلقى إليه بين وقت ووقت بجانب منها . فكان كل يوم — خلال الثلاث والعشرين سنة — يتوقع رسالة جديدة من السماء يضيفها إلى رسالته . . حتى إذا بلغ الكتاب أجله ، وتمت كلمة الله آذنت السماء النبى بذلك ، وأعلنته بانتهاء مهمته . . فجاءه الروح الأمين جبريل عليه السلام يوحى إليه قول الله تعالى : « اليوم أكملت لكم دينكم ، وأتممت عليكم نعمتى ، ورضيت لكم الإسلام دينا » . . فكانت هذه الآية من أواخر ما نزل من القرآن ، وفهم كثير من المسلمين عند نزولها أنها تنعى إليهم رسول الله .

هذا ما نزل به القرآن صريحاً فى هذا الشأن . . وهو وثيقة لا تقبل شكا ، ولا جدلا باتفاق المسلمين ، وغير المسلمين .

أما ما وردت به الأخبار الصحيحة ، فهو أكثر من أن يحصى أو يحصر ، وجميعها تجتمع على أن القرآن قد تم على هذه الصورة التى بين دفتى المصحف قبل أن يترك الرسول هذه الدنيا ، وأنه كان محفوظاً حفظاً موثقاً فى كثير من الصدور ، كما كان مجموعاً جمعاً كاملا عند كثير من الصحابة .

وثابت من الأخبار الصحيحة أن جبريل كان يراجع النبى ويدارسه القرآن مرة فى شهر رمضان ، وفى السنة التى توفى فيها الرسول قرأه عليه مرتين لا مرة واحدة . فكان ذلك إشارة وداع بين جبريل ، وبين النبى .

أما ما صنعة « أبو بكر » فى شأن القرآن ، فلا يبدو أن يكون نقلا له من الصدور التى حفظته بعد أن استشهد عدد كبير من الحفاظ فى حروب الردة ، وفى حرب « اليمامة » بالذات ، مع مسيلمة الكذاب !

إن الذى فعله أبو بكر هنا هو أن يكتب القرآن فى مصحف حتى يظل بمأمن من خطر النسيان عند من حفظوه ووعوه فى صدورهم ، أو من خوف افتقاد حفاظه بالموت فى مواطن الجهاد.

فكان من الحزم أن يقع هذا العمل ، وأن يكون بين يدى خليفة رسول الله وثيقة كاملة من كتاب الله

أما ما كان مكتوباً من قرآن بصورة كاملة ، أو غير كاملة عند الصحابة ، فلم يكن على الصورة المطلوبة لحفظه وصيانته . . إذا كان الذين أخذوا أنفسهم بكتابة القرآن إنما فعلوا ذلك لغاية أخرى غير التى قصد إليها أبو بكر ، وهى أن يستأنسوا لما حفظوا بما كانوا يكتبون ، وليكون ذلك المكتوب مرجعاً خاصاً لهم عند النسيان أو الشك فى آية أو كلمة ، أو حرف ! .

وفضلا عن ذلك . فإن هذا المكتوب كله كان فى رقاع مختلفة الأشكال والأحجام والأنواع ... فكانت صحف القرآن عند جامعيه أنماطاً غريبة من كل ما كان يكتب فيه ذلك الحين ... فبعض الصحف من العظام . وبعضها من سعف النخيل ، وبعضها من قطع الجلد ، وبعضها من الفخار أو الخزف . . . إلى عديد مما كان يصلحه الكتاب و يهيئونه للكتابة من أية مادة تصلح للخط عليها . .

وفضلا عن ذلك أيضاً ، فإن المداد الذى كان يكتب به كان فى اختلاف صوره وألوانه على صورة أشد مما كان عليه اختلاف الصحف والرقاع .

إن الذين أخذوا أنفسهم بكتابة القرآن لم يكن بين أيديهم شىء من وسائل الكتابة فى صورة مهيأة لأداء هذه المهمة ، يجدها الكاتب حاضرة بين يديه فى كل حال ، وإنما كانت تتنزل آيات الكتاب على رسول الله . فيتلوها على أصحابه فيحفظونها . ثم يبادرون إلى كتابتها بما يقع لأيديهم من رقاع أو مداد .

فهى على صورتها تلك لاتصلح أن تكون مستنداً قريب المأخد سهل التناول، واضح المعالم يمكن الرجوع إليه بعد فترة من الزمن .

أما الصورة التى كتب القرآن فى عهد أبى بكر فقد كانت أقرب إلى الكمال من أية صورة كتب بها إلى ذلك الحين ..

فلقد اجتمعت الدولة لهذا العمل ، وحشدت له ما عندها من إمكانيات مادية وإنسانية ، ليجىء على الصورة التى تحقق الصور المنشودة ، وهى تسجيل القرآن فى سجل من صحف خفيفة الحمل، مصقولة ، منسقة أشبه بما نرى فى تلك المخطوطات التى سجلت فى القرن الأول أو الثانى .

أما ماصنعه « عثمان » رضى الله عنه فقد كان غايته جمع المسلمين على قراءة واحدة بعد أن كثرت اختلافات القراء مما عده المسلمون أمراً خطيراً ، قد تعمق جذوره وتمتد ، فتصل إلى القرآن فى أصوله ذاتها .

فأراد « عثمان » أن يضع حداً لهذا الخلاف ، وأن يجمع المسلمين على قراءة واحدة هى قراءة زيد بن ثابت ..

وليس الخلاف الذى اهتم له « عثمان » وفزع منه خلافا فى ترتيب الآيات فى السور ، ولافى زيادة آيات ونقصها .. فقد كان القرآن مرتب الآيات والسور على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فلم يقع خلاف فى وضع آية مكان آية ، ولا زيادة أو نقص فى آيات أية سورة ، وإنما كان الخلاف فى النطق ببعض الكلمات من إمالة أو إشمام أو إدغام ، أو فى صورة الكلمة التى لا يخرج الاختلاف فيها عن معناها ، وذلك على ما نراه فى القراءات المعروفة التى يقرأ بها القراء اليوم .

عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه قال : مررت بهشام بن حكيم بن حزام وهو يقرأ الفرقان ـ أى سورة الفرقان ـ فى حياة رسول الله صلى الله عليه وسلم واستمعت قراءته ، فإذا هو يقرأ على حروف كثيرة ، لم يقرئنيهـــا رسول

الله صلى الله عليه وسلم ، فكدت أساوره (١) فى الصلاة ، فانتظرت حتى سلم ، فلما سلم ، لببته بردائه ، فقلت : من أقرأك هذه السورة التى أسمعك تقرؤها ؟ قال : أقرأنيها رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقلت له : كذبت ، فوالله إن رسول الله صلى الله عليه وسلم لهو أقرأنى هذه السورة التى تقرؤها . . قال : فانطلقت أقوده إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقلت : يا رسول الله . . إنى سمعت هذا يقرأ سورة الفرقان على حروف لم تقرئنيها ، وأنت أقرأتنى سورة الفرقان ! قال : فقال النبى صلى الله عليه وسلم : أرسله يا عمر . . اقرأ يا هشام . . فقرأ عليه القراءة التى سمعت ، فقال النبى صلى الله عليه وسلم : هكذا أنزلت . . ثم قال : اقرأ يا عمر . . فقرأت القراءة التى أقرأنى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ثم قال : هكذا أنزلت . . ثم قال النبى صلى الله عليه وسلم : إن القرآن أنزل على سبعة أحرف فاقرأ منه ما تيسر »(٢) .

وعن أبى بن كعب قال : اختلفت أنا ورجل من أصحابى فى آية ، فترافعنا فيها إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال : اقرأ يا أبى ، فقرأت ، ثم قال للآخر ، اقرأ ، فقرأ فقال : كلا كما محسن مجمل ، فقلت : ما كلانا محسن مجمل (٣) ؟ قال : فدفع رسول الله صلى الله عليه وسلم فى صدرى ، وقال : أى أبى إن القرآن أنزل على . . فقيل لى أعلى حرف أم حرفين ؟ فقلت : بل على حرفين . . ثم قيل لى : أعلى حرفين أم أربعة أحرف ؟ فقلت : بل على أربعة ، فلم يزل بى حتى انتهى إلى سبعة أحرف . كلها كاف شاف ، مالم تختم آية رحمة بآية عذاب ، أو آية عذاب بآية رحمة .. وإذا كانت « عزيز حكيم » فقلت « سميع عليم » ، فإن الله « سميع عليم » (١) .

---

(١) ساوره : أخذ برأسه ، أو وثب عليه .

(٢) مقدمتان فى : علوم القرآن ص ٢٠٧ ، والرسالة للأمام الشافعى ص ٢٧٣ .

(٣) «ما» هنا استفهامية وليست نافية .

(٤) مقدمتان فى علوم القرآن ص ٢٠٨ .

والاختلاف فى القراءات يقع على وجوه منها :

أولا : الاختلاف فى إعراب الكلمة أو حركات بنائها ، لا يزايلها عن صورتها فى الكتابة ، ولا يغير معناها نحو قوله تعالى : «هن أطهر لكم» (١) . و « هن أطهر لكم » .. وقوله : «وهل نجازى إلا الكفور (٢)» , و «هل يجازى إلا الكفور » .. وقوله : «يأمرون الناس بالبخل » (٣) و «بالبخل »

ثانيا : الاختلاف فى إعراب الكلمة وحركات بنائها ، بما يغير معناها ، ولا يزيلها عن صورتها ، نحو قوله تعالى : « ربنا باعد بين سفارنا »(٤) و « ربنا باعد بين أسفارنا » وقوله : وادكر بعد أمة (٥) » و «بعد أمة »

ثالثا : أن يكون الاختلاف فى حرف الكلمة دون إعرابها بما يغير معناها ، ولا يزيل صورتها ، ونحو قوله تعالى : « وانظر إلى العظام كيف ننشزها (٦) . وننشرها » .

رابعا : أن يكون الاختلاف فى الكلمة بما يغير صورتها فى الكتابة ، ولا يغير معناها ، كقوله تعالى : «إن كانت إلا صيحة واحدة» (٧) وزقية واحدة و «كالعهن المنفوش»(٨) و «كالصوف»

خامسا : أن يقع الاختلاف بالتقديم والتأخير ، نحو قوله تعالى : «وجاءت سكرة الموت بالحق (٩) «جاءت سكرة الحق بالموت» .

سادسا : أن يكون الاختلاف بما يزيل صورة الكلمة ومعناها ، كقوله تعالى : « وطلح منضود » وطلع(١٠) .

سابعاً : أن يكون الاختلاف بالزيادة والنقصان ... كقوله تعالى :

---

(١) سورة هود : ٧٨ .
(٢) سورة النساء : ٣٧ .
(٣) سورةالبقرة : ٣٧ .
(٤) سورة سبأ : ١٩
(٥) سورة يوسف : ٤٥ .
(٦) سورة البقرة : ٢٥٩ .
(٧) سورة يس : ٢٩
(٨) سورة القارعة : ٥ .
(٩) سورة ق : ١٩
(١٠) سورة الواقعة : ٢٩ .

« وماعملت أيديهم » « وما عملته » (١).. وقوله : «فان الله هو الغنى الحميد » (٢)
و « فان الله الغنى الحميد » .

ففى هذا المجال كان يقع الخلاف بين القراء والدارسين لكلام الله .. فيثير هذا الخلاف بينهم جدلا ، ويبعث فيهم شيئاً من القلق والشك .. فعمل عثمان رضى الله عنه بمشورة أصحابه رضوان الله عليهم ، وأمر بجمع الناس على قراءة واحدة من تلك القراءات .

عن مصعب بن سعد قال : لما كثر اختلاف الناس فى القرآن قالوا : قراءة بن مسعود ، وقراءة أبى ، وقراءة سالم مولى أبى حذيفة (٣) ! فجمع — عثمان — أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم فقال : إنى رأيت أن أكتب مصاحف على حرف — أى قراءة — زيد بن ثابت ، ثم أبعث بها إلى الأمصار .. قالوا : نعم ما رأيت .. قال : فأى الناس أعرب ؟ قالوا سعيد بن العاص .. قال : فأى الناس أكتب . قالوا زيد بن ثابت .. كاتب الوحى فليمال سعيد . وليكتب زيد بن ثابت .. قال : ثم كتب مصاحف ، فبعث بها إلى الأمصار .. قال : فرأيت أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم يقولون : أحسن والله عثمان .

وكان عثمان بعد أن كتب القرآن على قراءة زيد بن ثابت أمر بتحريق المصاحف التى ليست مع هذه القراءة .. فكثر من بعض الناس القول فى عثمان رضى الله عنه بأنه حرق المصاحف » ! .

يقول صاحب مقدمة كتاب المبانى : « وأما المصاحف التى أمر — أى عثمان — بتحريقها ، فإنها — والله أعلم — كانت على هذا النظم أيضاً — أى النظم الذى عليه مصحف عثمان — إلا أنها كانت مختلفة الحروف على حسب ما كان النبى صلى الله عليه وسلم سوغ لهم القراءة بالوجوه إذا اتفقت فى المعنى ، وان اختلفت

---

(١) سورة يس : ٣٥
(٢) سورة الحديد : ٢٤ .
(٣) أى أن كل جماعة تزكى قراءة من هذه القراءات وتتعصب لها .

اللفظ ، ثم بان لنا باتفاقهم على هذا الوجه الواحد أن الإباحة التى كانت فى قراءة القرآن من اختلاف اللفظ بالكلمة إذ اتفق المعنى قد نسخ ، وأنه لا تجوز القراءة بما يخالف هذا المصحف المتفق عليه ! » (١) .

هذا ما كان من عمل الخليفتين أبى بكر وعثمان فى كتابة المصحف ، لم يجاوز عملهما ما كان من شأنه صيانة القرآن وحفظه كما تركه رسول الله صلى الله عليه وسلم فيهم . . لم يزيدوا فيه حرفا ، أو ينقصوا منه كلمة !

ولكن لعلماء الغرب رأياً آخر فى هذا . .

فهذا « جرونيباوم » الذى نقف إزاء آرائه هنا يقول فى صدد هذا العمل الذى كان من الخليفتين أبى بكر وعثمان :

« ومن الأمور التى لا سبيل إلى معرفتها بما تبقى لدينا من معلومات — استبانة الأسباب التى دعت الأئمة القراء بإشارة الخليفة « عثمان » إلى تنظيم ما خلفه الرسول من الوحى . . »

ثم يقول : « والراجح أنه — أى القرآن — لم يفقد أو ينسى منه إلا جزء يسير جدا (؟ ؟) فى ١١٤ سورة بالضبط تختلف فى طولها اختلافا بعيدا . .

« كذلك ليس فى الإمكان فى كل حالة من الحالات تقديم تفسير مرض عن السبب الذى من أجله ضمت هذه الفقرة إلى تلك لتكون سورة واحدة . . أو لماذا قرر الكتاب أن يضعوا السور الطويلة أولا ، وقصار السور أخيراً ، وإن كانت الأخيرة تحتوى فى معظم الحالات على المواد القديمة ! . » (٢)

هذا هو رأى « جرونيباوم » فى حقيقة القرآن ، وقد تولى السلف الرد على مثل هذا الافتراء . .

يقول صاحب كتاب مقدمة المبانى :

« ولئن ساغ لأحد أن يشك فى أن هذا القرآن بجميع سوره وآياته هو الذى قرأه محمد صلى الله عليه وسلم على أصحابه رضى الله عنهم ، وتحدى العرب أن يأتوا بمثله فلم يجيبوه إلى ذلك . . وهو الذى تلقى المهاجرون والأنصار

---

(١) مقدمتان فى علوم القرآن ص ٤٤ . (٢) حضارة الإسلام ص ١٠٩ .

وتلاوته من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وعلموه من بعدهم ، وهلم جرا . إلى أن اتصل بنا — ليسوغن له أن يشك فى أن محمداً قد كان بمكة، يدعى النبوة، ثم هاجر إلى المدينة ، وأنه قد كان بينه وبين المشركين وقعة بدر ، ووقعة أحد ، وسائر الوقائع ، ثم توفى بالمدينة ، وهو المدفون بها ! !

وإذا كان من أظهر الشك فيما ذكرناه مكابرا لنفسه ، إذ لا يمكن الشك فى ذلك لمن خالط الناس فسمع أخبارهم ، كذلك لا يمكن فى أن هذا القرآن هو الذى قرأه محمد صلى الله عليه وسلم على الناس — شك ألبتة !

ثم يقول :

« ولو قد اقتصرنا فى دحر الملحد وقذعه على هذا القدر ، لقد كان ذلك كافياً ، غير أنا يجب أن نذب عن هذا الخبر ، إذ قد يمكن أن يقع فيه ريب . وإن لم يمكن ذلك فيما قلناه من أن القرآن هو ما بلغه محمد صلى الله عليه وسلم عن ربه تبارك وتعالى .

« فأقول : إن القرآن كان مجموعاً على عهد النبى صلى الله عليه وسلم ، وأنه ما نزلت آية إلا وقد أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم من يكتب له أن يضعها فى موضع كذا من سورة كذا . . ومن المعلوم الذى لا خباء به أن النبى صلى الله عليه وسلم كان يوم أصحابه فى الصلوات الخمس ، لا يخل بذلك فى سفر ، ولا حضر ، فقرأ فى الركعتين من كل صلاة بسورة مع فاتحة الكتاب . . ويسمعهم ذلك فى الغداة والعشى . . فماذا كان يسمعهم — ليت شعرى — إن كانت آيات القرآن متفرقة ، ولم تنظم السور حتى أنها نظمت فى أيام أبى بكر ، أو أيام عثمان ؟ فماذا كان يقرع العرب حيث يقول الله تعالى : « فأتوا بعشر سور مثله مفتريات »[١] ؟ وذلك مما نزل بمكة . ثم قال تعالى : « فأتوا بسورة من مثله » ، ونزل ذلك بالمدينة ؟ . . ولو كان ذلك على ما خيلوا لم يكن العباس بن عبد المطلب يهدر [٢] يوم حنين حيث انهزم القوم ، فيقول : يا أصحاب سورة البقرة ، وسورة

(١) سورة هود آية ١٣ .

(٢) فى الأصل يهرب ، وهو خطأ ، أو تصحيف .

آل عمران .. هذا رسول الله .. يستدعيهم بذلك إليه !

« ومن مشاهير ما نقلت الرواة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لعبد الله بن عمرو بن العاص : « اقرأ القرآن فى كذا ليلة .. » يدعوه إلى التيسير .. وهو — أى عبدالله — يقول : إنى أطيق أكثر من ذلك .. إلى أن قال له : « اقرأ القرآن فى ثلاث ليال » ...

« وعن ابن مسعود قال : قال لى رسول الله صلى الله عليه وسلم : « اقرأ على » فقلت : أعليك أقرأ ، وعليك أنزل ؟ فقال لى : « أحب أن أسمعه من غيرى » قال : فافتتحت سورة النساء فلما بلغت : « فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد ، وجئنا بك على هؤلاء شهيدا » قال : فرأيت عينيه تذرفان ، فقال لى : حسبك .. » (١)

ثم يعرض صاحب المبانى للحديث الذى يروى عن زيد بن ثابت فى جمع القرآن أيام أبى بكر .. فيقول :

« الوجه فى ذلك عندنا أن القرآن قد كان بجملته معلوما على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم .

« وكانت السور معدودة ، لا يريب فيها أحد منهم ، غير أنهم لم يكونوا قد جمعوها بين الدفتين ، ولم يلزموا القراء توالى سورها ، فكان الواحد منهم يقرأ سورة البقرة ، ثم يقرأ سورة النساء أو الأعراف ، أو نحو ذلك ، من غير ولاء (٢) للسور ...

« وذلك أن الواحد منهم إذا حفظ سورة أنزلت على رسول الله صلى الله عليه وسلم أو كتبها ، ثم خرج فى سرية ، فنزل فى وقت تغيبه سور ، فإنه كان إذا رجع فأخذ فى حفظ ما ينزل بعد رجوعه وكتابته ، ويتبع ما فاته على حسب ما يتسهل له ، فيقع فيما كتبه تقديم وتأخير على هذا الوجه (٣) ،

---

(١) مقدمتان فى علوم القرآن ص ٢٧ .

(٢) أى من غير ترتيب مخصوص للسور .

(٣) أى أن هذا التقديم والتأخير يقع فى السور لا فى الآيات .

« وقد كان منهم من يعتمد على حفظه فلا يكتب ، على ما كان من عادة العرب فى حفظها أنسابها ، وأشعار شعرائها من غير كتابة .

« ومنهم من كان يكتبها فى مواضع مختلفة من قرطاس ، أو عسيب ، أو لخاف — على ما يروى فى الحديث — ثقة منهم بما كانوا يعهدونه من حد المسلمين فى حفظ القرآن ، وشدة تعهدهم له . . » (١)

ثم يتظنى « جرونيباوم » سبباً من عنده يراه الباعث على ترتيب السور . . فيقول :

« فقد يكون تشابه الموضوعات فى حين ، ويكون تماثل الفواصل فى آخر هو السبب الذى دعا إلى الجمع بين آيات كانت فى الأصل مستقلا بعضها من بعض » (٢)

وأنت ترى ما فى هـذا القول من جرأة على الحق ، واعتداء على حرمة التاريخ . . إذ ضرب هذا العالم بالمستندات التاريخية الثابتة الموثقة التى بين يديه ، والتى تحدث عما كان من عمل لأبى بكر وعثمان فى جمع القرآن — ضرب بهذه المستندات عرض الحائط وراح يصطاد من عالم الخيال تلك الآراء المضطربة المشوهة التى لا تقوم على أصل ، ولا تستند إلى دليل . .

فالقرآن — كما قلنا — قد تم نزوله ، وجمعه وترتيبه قبل أن يزايل الرسول الكريم مكانه من الدنيا ، وأن آلافاً عدة من صدور المسلمين كانت تحفظه كله كما نراه اليوم بين دفتى المصحف .

وبحسبنا ما قلنا فى هـذا من قبل لدفع هذا الضباب عن أضواء القرآن الكريم . . وبحسب هذا القول الذى يقوله « جرونيباوم » — بحسبه من التهافت والسقوط من عينى صاحبه أن يجىء عقب هذا القول فيقول :

« ومهما يكن من شىء ، فلا علينا إذا افترضنا أن محمداً لم يقصد ألبتة أن يجعل التوجيهات السياسية ، والمواد التشريعية ، وأساطير (كذا) الكتاب المقدس ، والمحاجة للكفار مجتمعة كلها فى فصل واحد ، أبعاد محدودة تحديداً دقيقا ، لا سبيل إلى نقضه » (٣) . .

---

(١) مقدمتان فى علوم القرآن ص ٣٢ .

(٢) المصدر السابق — نفس الصفحة .

(٣) حضارة الاسلام ص ١٠٩ .

إذن « فمحمد » هو الذى رتب القرآن وأخرجه على هذه الصورة التى عرفها المسلمون ! فإن لم يكن « محمد » هو الذى عمل هذا ، فقد عمله أصحابه . . وإن لم يكن قد عمله أصحابه فقد عمله هو !! .

كل شىء جائز هنا عند الكاتب إلا أمراً واحداً لايدخله فى حسابه ، ولا يجعله فرضاً بين هذه الفروض ، وهو أن يكون القرآن من عند الله ، وأن يكون ترتيبه وجمعه بتوقيف من الله ! ولو أنه كان يضع فى حسابه هذا الفرض لوجد فى قول الله تعالى لنبيه الكريم : « لا تحرك به لسانك لتعجل به ، إنا علينا جمعه وقرآنه ، فإذا قرأناه ، فاتبع قرآنه ، ثم إن علينا بيانه »(١) — لوجد فى هذه الآيات عاصماً يعصمه من الانزلاق فى هذا الخطأ المبين . . فالنبى لايحرك لسانه إلا بإذن من الله ، وإلا بعد أن يستمع إلى ما يلقى إليه من وحى ، . وأن الله هو الذى يتولى جمع القرآن . وأن محمداً متبع يتبع ما يتلقاه من السماء . . بل وأكثر من هذا ، فإن كلام الرسول ذاته الذى يبين به الشريعة هو من عند الله أيضاً . وإن لم يكن من القرآن المقروء ، فالله هو الذى يتولى بيان القرآن وشرحه على لسان النبى . . « ثم إن علينا بيانه » . . فالنبى يستمد أقواله من أمداد السماء: « وما ينطق عن الهوى »(٢) .

ثم يعود «جرونيباوم» بعد هذا مباشرة فينسب ترتيب القرآن إلى الصحابة . يقول : « وربط جامعو القرآن عدداً من قصص الأنبياء بعضه مع بعض ، فتولد عن ذلك فى بعض الأحيان شىء من الرتابة المملة (كذا) لم يكن النبى مسئولا عنه بحال ! ! فى القرآن رتابة مملة .

لأن الذين جمعوا القرآن ربطوا قصص الأنبياء بعضه مع بعض !

وهى تهمة لايخفف منها ، بل ربما يزيد من شناعتها — القول بأن النبى لم يكن مسئولا عنه بحال .

---

(١) سورة القيامة آية ١٦ — ١٩ .
(٢) سورة النجم آية ٣ .

ومفهوم هذا القول أن المسلمين قد عبثوا بالقرآن بعد النبي وجمعوه جمعا مخلا ، مملا . . ومفهوم هذا المفهوم أيضاً أن القرآن الذى مع المسلمين ليس هو القرآن على الصورة التى كانت مع النبى .

والنبى غير مسئول عن هذا الذى حدث فى القرآن من هدم وتخريب !

ولو كان هذا الكاتب يثبت على وجه واحد ويقف عند رأى لكان فى ذلك ما يضيق مجال الأخذ والرد معه . . ولكنه يراوغ ، ويتقلب من رأى إلى رأى .. وها هو ذا يعود للمرة الثالثة أو الرابعة مناقضاً لرأيه فى مسألة واحدة .

يقول وكأنه يبرر لهذه الرتابة التى جاءت — كما يقول فى القرآن — وكأنه يراها ضرورية فى الرسالة التى كان يقوم بها النبى . . يقول :

« وكذلك أيضاً يجب ألا يغرب عن البال أن « محمداً » إنما كان يبغى أن يعلم وأن يصلح . .

« والواعظ والمعلم مجبران بحكم عملهما فى ذاته إلى التكرار ، بل إلى التكرار بنفس الألفاظ تقريباً . .

« ونحن الذين لانقرأ القرآن من أجل إصلاح أمرنا ، ولا ابتغاء التهذيب الخلقى لنفوسنا تساورنا آمال خاطئة حين ننظر فى كثير من فقرات الكتاب !

« فإن كثيراً من الآيات لم يكن قصد النبى من نقله إلى الناس هو الاستثارة الذهنية ، بل توطيد معايير جديدة للتقوى والأخلاق[1] . . »

ثم يأخذ لهذا الرأى سنداً من مقولات بعض علماء الإسلام فى معرض الاستدلال على حكمة التكرار فى القرآن . . فيقول :

« هذا أحد كتاب المسلمين فى القرن العاشر[2] يقول : « ولأن الإنسان قد يقرأ بعض القرآن ، ويحفظ شيئاً منه دون شيء — فلم يخل الله عز وجل كل موضع منه من ترغيب أو ترهيب ، وادكار واعتبار ، تفضلا منه على عباده ،

---

(١) حضارة الإسلام ص ١٠٩ .

(٢) هو أبو بكر الصولى المتوفى سنة ٩٤٦ .

واستدعاء لطاعتهم ، ونهياً عن عصيانهم . فوقع التكرار لذلك»[١] .

ويعقب « جرونيباوم » على هذا بقوله :

« والواقع أن ما يبدو لنا من مآخذ فى طريقة العرض يكون له معنى مخالف لذلك تماماً — أى لتلك التى تبدو أنها مآخذ — حين يوضع القرآن موضعه الحق من التاريخ الأدبى للعرب . .

« ذلك أن النثر العربى لم يكن يستخدم قبل عصر النبى إلا فى تسجيل الذكريات القبلية المتصلة بالوقائع الحربية ، أو ما عداها من حوادث البادية ، ثم صوغ الأمثال الموجزة ، وقواعد التشريع . . ويلوح أن النثر المسجوع كان قاصراً على المأثور من أقوال الكهان . . أما الشعر الذى كان قد تطور تطورا كبيراً فى العبارة والصياغة النغمية فإنه تحاشى الموضوعات الدينية ، ولم يكن هناك أسلوب معتمد يمكن أن تقدم فيه المباحثات الكلامية أو التشريعية..ولا سوابق أو شواهد للشعر تتعلق يشئون الآخرة .

ثم يقول :

« لم يستعمل «محمد» ألبتة فى القرآن شيئاً من أوزان الشعر التقليدية ، بل راح يفك إسار النثر المسجوع ، ويقوم اعوجاجه . ويملأ تضاعيفه حتى أصبح مركباً ذلولا لرؤاه العجيبة (كذا) عن عذاب اليوم الآخر . . كما أنه دخل قسراً على نثر مستعص غير ناضج طريقة التعبير بعبارة جلية محدودة ، عن مبادىء تجريدية ، أو شرائط قصائية ونظرات سياسية» . .

ثم يقول :

« ولكن « محمداً » هو الذى وجد الصيغة العربية للتعبير عما صار أخص خبراته الشخصية ! ولن يستطاع إدراك المدى الكامل لما بلغه من نجاح فى إدخال هذه الموضوعات الجديدة فى ذلك الأدب العربى المقيد بالأوضاع والتقاليد

---

(١) من أدب الكاتب للصولى . . طبعة القاهرة سنة ١٣٤١ هـ .

إلا بملاحظة إخفاق الأجيال التالية فى مواصلة الحديث فى تلك الموضوعات الشعرية السابقة - موضوعات الجنة والنار واليوم الآخر والحساب وتضمينها فى أشعارهم»(١)

لقد طالت وقوفنا فى هذه المسألة — مسألة أسلوب القرآن وما جاء فيه من تكرار ، وما قيل فى جمعه وترتيبه — ولكن لم يكن بد من هذه الوقفة الطويلة إذ كان الرجل الذى تخيرناه ليكون مثلا للناقد العالم الحر من كتاب الغرب ، لم يستطع أن يستقيم على الحياد ، وأن يتحرر من موروثات العصبية . . بل حشد ذكاءه كله للمراوغة والمخاتلة . . يلوح لك بقولة الحق ، فيخيل إليك أن الرجل رجل عدل وإنصاف ، فإذا أنت لم تفطن إلى هذه الخدعة وقعت فى مزلق من تلك المزالق الكثيرة التى يلقى بها فيما لوح لك به حق . .

إنه بهذا الأسلوب المموه بمهارة وحذق يستطيع أن يخدع كثيراً من يلقاهم بالحقائق ملفقة فى لفائف رقيقة من الزور والبهتان ، فيختلط عليهم الأمر ، وتضطرب فى قلوبهم أمواج الشك . .

إن فى كلام الرجل كثيراً من الحق ، كما أن فيه كثيراً من الباطل . .

وأعجب ما فى هذا أن يجىء الرجل بالحقيقة واضحة ، ثم يجىء كذلك بالباطل صريحا واضحاً فى الأمر الواحد ، ويجمع بينهما فى صور شتى . . وهذا أبعد فى الكيد ، وأمعن فى التضليل ؛ ممن يجىء بالحق متلبسا بالباطل ، أو بالباطل متسترا فى الحق !

ولعل أصدق ما قاله الرجل هنا فى قوله فى تفسير التكرار الذى جاء فى القرآن . . حين يقول :

« والواعظ والمعلم مجبران بحكم عملهما فى ذاته إلى التكرار ، بل التكرار بنفس الألفاظ تقريبا . . »

وذلك لاشك وجه من وجوه الحكمة فى تكرار ما تكرر من عبارات

---

(١) حضارة الإسلام لجرونيباوم ص ١٠٨ و ما بعدها .

ومعان فى القرآن .. كما هو الحال فى سورة الرحمن ، وفى سورة المرسلات ، كما هو الحال أيضاً فى قصص الأنبياء ..

ولكن هذا التكرار ليس من عمل « محمد » وإنما هو من تدبير الله فى إنزال القرآن ، وفيه هذه المواقف التى تتكرر فيها الألفاظ والمعانى، حيث تقتضيها دواعى الحال ، فى الأمور ذات الصفة المهمة الخطيرة ، أو فى الحالات التى تزدحم فيها النفس بالخواطر المزعجة ، فيرسل إليها العزاء ، والسلوان ، حالا بعد حال ..

وقد كان من عادة النبى عليه الصلاة والسلام أن يعيد الكلمة أو الجملة ثلاث مرات .. وذلك فى المواقف التى تقتضى العناية والاهتمام ..

عن أنس رضى الله عنه : أن النبى صلى الله عليه وسلم إذا تكلم بكلمة أعادها ثلاثاً حتى يفهم .. وإذا أتى على قوم سلم عليهم ثلاثاً حتى يفهم »(١) .

وعن السيدة عائشة رضى الله عنها : «أن النبى صلى الله عليه وسلم كان يحدث حديثاً لو عده العاد أحصاه » .

ونكتفى بهذا القدر فى مواجهة هذا الباطل الذى يقول به علماء الغرب فى أسلوب القرآن ، وفى تكراره وفى جمعه وترتيبه .

التشريع فى القرآن :

والأمر الثانى الذى يقف منه الغربيون موقف التهجم والتطاول على القرآن هو الأحكام التى جاء بها ، والشريعة التى دعا إليها ، وأقام دعوة الإسلام عليها .

والمفتريات هنا كثيرة متشعبة ..

تجىء أحيانا على طريقة المقايسة إلى الشريعة الموسوية أو العيسوية .

وتجىء تارة بالمناظرة مع الأنظمة والشرائع المادية التى يعيش فيها الناس .

وتلتقى جميعها عند القول بأن الإسلام — سواء كان دينا سماويا أم وضعيا —

---

(١) زاد المعاد فى هدى خير العباد جزء ٢ ص ٦٥ .

(٢) الشفا للقاضى عياض جزء ١ ص ١٠٨ .

فإنه إنما وضع لحياة البادية ، وجاء مقيساً على أحوالها وظروفها ، وأنه إذا خرج إلى محيط غير هذا المحيط ، وإذا جاوز هذه الأحوال والظروف اصطدم بظروف وأحوال لايستطيع مواجهتها ، ولا الحياة فيها .

إن الشريعة الإسلامية — عن هؤلاء الغربيين — شريعة بدائية ، لاتستقيم أبداً مع الحياة المتحضرة ، ولاتتجاوز مع حاجات الناس فى تلك الحياة !

وغاية القائلين بهذا القول أن يحصروا الإسلام فى دائرة ضيقة من الزمان والمكان .. فهو لايصلح إلا لجماعات البدو ، ولايعيش إلا فى البيئات المتخلفة التى لم تطلع عليها شمس الحضارة الحديثة ، ولم تنفذ إليها شعاعاتها .

وهم بهذا إنما يرون أن يضعوا « متاريس » من الوهم والخداع أمام زحف الإسلام ، وأن يكسروا من حدة انطلاقه فى مشارق الأرض ومغاربها ، على رغم ما يلقى من مقاومة المبشرين ومحاربته بكل سلاح ، واضطهاد الداخلين فيه ، وحرمانهم من حقوقهم الاجتماعية والسياسية ..

ثم هم من جهة أخرى يحاولون أن يضعوا حواجز نفسية بين الإسلام وبين المؤمنين به ، بما يخيلون لضعاف العقول ، والمغرورين بالمدنية الغربية والمأخوذين ببريقها — أنهم إنما يحقرون عقولهم ، ويرخصون مواهبهم ، ويعزلون من شخصياتهم إذ يلبسون هذا الزى البدوى ، ويعيشون فيه ، على حين يعيش الناس فى عصر الذرة ، ويستعدون لغزو الفضاء وسكنى الكواكب !

وقد كان لهذه المفتريات سلطان على كثير من أصحاب الشخصيات « المهزوزة » التى لم تتهيأ لها المعرفة الصحيحة بالإسلام ، ولم يتح لها حظ من الإيمان القائم على العلم والمعرفة ، فكان من السهل الميسور أن تغزو هذه الأفكار الخبيثة تلك القلوب التى عاش فيها الإسلام من غير أن يثير فيها عاطفة ، أو يحرك شعوراً .

وشتان بين هذه الدعوى التى يدعيها الغربيون وأشياع الغربيين على الإسلام وبين حقيقة الإسلام والغايات الكبرى التى جاء لتحقيقها فى هذه الحياة !

لقد جاء الإسلام لهداية الإنسانية كلها ، ولقيادة مجتمعاتها جميعاً ، على مدى الأزمان ، وفى مختلف المواطن!

والقرآن الكريم يحمل بين آياته الكريمة مضمون دعوته تلك ، ويؤذن فى الناس بها . وفى موضع آخر من هذا الكتاب تحدثنا عن إنسانية الإسلام ، ودعوته الشاملة لكل من يدخل فى معنى الإنسانية من بنى آدم .. فما جاء الإسلام إلى العرب وحدهم ، وما قصر خطابه عليهم ، بل إنه لم يوجه إلى العرب خطاباً أبدا ، وإنما جاءت أوامره ونواهيه كلها متجهة إلى الناس جميعاً : « يا أيها الناس اتقوا ربكم واخشوا يوما لايجزى والد عن ولده ولا مولود هو جاز عن والده شيئاً »(١) .. « يأيها الناس قد جاءكم الحق من ربكم ، فمن اهتدى فإنما يهتدى لنفسه، ومن ضل فإنما يضل عليها » وقوله : « يأيها الناس إن وعد الله حق ، فلاتغرنكم الحياة الدنيا ، ولا يغرنكم بالله الغرور .. إن الله عنده علم الساعة وينزل الغيث ويعلم ما فى الأرحام وما تدرى نفس ماذا تكسب غداً وما تدرى نفس بأى أرض تموت إن الله عليم خبير »(٣) . . « يابنى آدم لا يفتننكم الشيطان كما أخرج أبويكم من الجنة . . »(٤) .

قلنا هذا ، وقلنا إن الإسلام هنا جاء على غير ما جاءت الديانتين الموسوية والعيسوية ، حيث كان متوجه شريعتهما إلى بنى إسرائيل وحدهم دون الناس .. كما قلنا إن الذين آمنوا بهاتين الديانتين من غير بنى إسرائيل إنما هم يتعاطون طعاماً لا يصلح لهم ، ولا يصلحون له . . إذ كانت هاتان الشريعتان لشعب له ظروف خاصة ، وأحوال متصلة به .. !

ونقول هنا إن الإسلام فى دعوته العامة التى حملتها أوامره ونواهيه ، كما نطق بها القرآن . لم يكن مجرد دعوة تهتف بالناس جميعاً ليوسع دائرة اختصاصه ، وليمد فى قطر دائرته ، وإنما كان إلى جانب هذه الدعوة يحمل كل أسباب الحياة

---

(١) سورة لقمان آية ٣٣ .
(٢) سورة يونس آية ١٠٨ .
(٣) سورة لقمان آية ٣٤ .
(٤) سورة الأعراف آية ٢٧ .

المادية والروحية لكل من تبلغ أسماعهم دعوة الإسلام ، فى أى مكان ، وفى أى زمان .

والجدل فى مجال عرض المبادىء الإنسانية التى جاء بها الإسلام ، ومقايستها إلى الشرائع السماوية أو الوضعية قد تشتد فيه معارك الكلام ، ويحتدم الصراع ، فتغرق الحقيقة فى دخان هذا الصراع ، وتضيع معالمها فى غبار هذا العراك ..

فلا نتجه هنا إلى عرض حقائق الإسلام ، ولا نستعرض مقولات الخصوم فيها ، وما تحمل من بهتان وزور . . فذلك - كما قلنا - قد لا ينهى النزاع بانتصار حاسم لأى من الفريقين المتنازعين .

وإنما الذى نقدمه شاهداً يشهد للإسلام بسلامة مبادئه ، واستقامتها مع طبيعة الحياة ، وتقلب المجتمعات البشرية فيها ، وتنقلهم معها جيلا بعد جيل — الذى نقدمه شاهداً لهذا هو التطبيق العملى للإسلام ومبادئه ، وما كان لهذه المبادىء من آثار فى الحياة الإنسانية : المادية والروحية على السواء .

جاء الإسلام إلى الحياة ، فتخير أجدب بقعة فيها . . ونزل بين جماعات ضائعة ضالة فى غياهب الصحراء ، وفى بطون أوديتها وجبالها . . قد ركبتهم طباع تنضح بالشر ، وترمى به كل من يتصل بها من قريب أو بعيد . . فلا يلق إنسان إنسانا بمودة ، ولا يمد إليه يداً موادعة مسالمة ، وإنما هو البغى والعدوان ، وهو الصراع بالمخالب والأنياب لتنجلى المعركة عن قاتل أو مقتول . . « فمن لم يكن ذئباً أكلته الذئاب » ، ومن لم يكن قاتلا فهو المقتول .

لقد تخير الإسلام هذا الموطن بالذات ليبدأ منه رحلته الطويلة مع الحياة .

هذا أول شاهد يشهد للإسلام بأنه جاء من جهة عليا . . حكيمة مدبرة . . وأنه وضع أقدامه على أول الطريق الصحيح لإصلاح الحياة ، وعمرانها . . حين بدأ بالجدب والفقر منها ، فأخرج منه جنات تفيض بالخير والثمر .

إن الغيث لا يعرف فضله ، ولا تشهد آثاره إلا فى مواطن القفر والجدب . .

حين تستقبله هذه المواطن فتحيا به ، وتتحرك فى أحشائها أجنة النبات ثم تنشق عنها ، فإذا هى زروع ناضرة ، وأزاهير متفتحة ، وثمرات دانية القطوف مختلفة الطعوم ..

وليس كهذه الشهادة شهادة تنطق بفضل الغيث ، وتحدث عن آثاره : «فانظر إلى آثار رحمة الله . . كيف يحيى الأرض بعد موتها» (١) . «وترى الأرض هامدة ، فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج» (٢)

وهكذا جاء الإسلام مجىء الغيث إلى هذه المواطن المجدبة المقفرة ، فاهتزت به وربت ، وأنبتت من كل زوج بهيج !

ولا يستطيع مكابر ـ مهاج به العناد ـ أن ينكر آثار هذه الرحمة الشاملة التى أخصب بها كل جديب ، وعمر بها كل خراب فى أنحاء الجزيرة العربية ، منذ دخل الإسلام فى قلوب القوم ، وعمرت تلاوة القرآن دورهم ومساجدهم !

فهذه الأمة التى جمعها الإسلام من أشلاء ممزقة ، وأقام بنيانها من أنقاض متهالكة .. هذه الأمة التى أتم الإسلام إعدادها فى ثلاث وعشرين سنة — هى مدة الدعوة الإسلامية ـ هذه الأمة قد واجهت أكبر قوتين كانتا تقتسمان العالم بينهما . . واجهتهما ولم تكن قد تمرست بالحروب العامة الشاملة ، ولم تكن تعرف من فنون الحرب ما تعرف أمة الفرس وأمة الروم ـ ومع هذا فقد هزمت الدولتين العظيمتين معاً .

فوضعت يدها على دولة الفرس كلها ، واستولت على بلاد الشام ومصر من دولة الرومان .. كل هذا فى بضع سنوات من وفاة النبى !

وقد يبدو لحاسد أو مجادل أن يقف من هذا الإعجاز الرائع لقوة الإيمان التى كان بها هذا الفتح فيقول : إن هذه الفتوح الإسلامية لم تكن عن فعل الإيمان ، ولا من وحى الإسلام .. وإنما هى قوة مخربة مدمرة من قوى الشر .. انطلقت من قلب الصحراء كما يطلق الإعصار العاتى فيدمر كل شىء ! وفى التاريخ فعلات

---

(١) سورة الروم آية ٥٠ .   (٢) سورة الحج آية ٥ .

لمثل هذا .. فلقد اجتاح التتار دولة الإسلام فى وقت أقل مما احتاجت فيه جيوش المسلمين دولتى الفرس والروم !!

وهذا القول ، وإن يكن فى ظاهره مايضلل ويخدع ، إلا أنه مع قليل من النظر تتضح فيه أوجه الخلاف الشديد بين الأمرين ، فلا يبدو بينهما وجه يلتقيان فيه .

فأولا : لم تكن قوة الإسلام الزاحفة حملة عسكرية تحمل إلى الناس الموت والخراب ، والدمار ، شأن الحملات العسكرية المعبأة بروح النقمة ، وحب السيطرة والغلب .

وإنما كانت قوة الإسلام الزاحفة شعلة مضيئة ، تحاول أن تخترق بشعاعاتها سحب الظلام المتكاثف على قلوب الناس وعقولهم ..

كانت قوة الإسلام الزاحفة بعثة إنقاذ ، تحمل إلى الإنسانية الضالة أطواق النجاة ، ملقية بنفسها فى مواطن الموت فى سبيل الحق والخير الذى تحمله بين يديها ، ليأخذ الناس بحظهم من هذا الحق والخير !

كانت قوة الإسلام الزاحفة لاترفع سيفاً فى وجه من يقول كلمة التوحيد ، وينضم إلى موكب النور ! إنه حينئذ يصبح واحداً من تلك الجماعة ، له مالها ! وعليه ما عليها .

فهل كان شىء من هذا فى حملة التتار ، أو غيرها من حملات الفتح والغزو؟

لانجيب على هذا ، فقد تولى التاريخ الإجابة الواضحة المسهبة !

وثانياً : كانت قوة الإسلام الزاحفة تعمل للبناء ، لا للهدم .. وكانت يدها الباقية قوية ، حكيمة ، عادلة ، خيرة .. تبنى للحق وللخير .. وتقيم ماتبنى على دعائم متينة من العدل والإحسان .. ومن أجل ذلك فقد رسخ ما بنت ، وزاد مع الأيام قوة ، وارتفاعاً .. حتى أن النكسات التى كانت تصاب هذا البناء بين حين وآخر لم تكن لتقوض البناء ، أو تضيع معالمه . وإنما هى صدوع وشروخ لاتلبث يد الإسلام أن ترأب الصدع ، وتسد الثلمة !

وهذه حضارة الإسلام التى عرف الغرب آثارها وأقام حضارتها الحاضرة

على أضواء مشاعلها — هذه الحضارة لا تزال قائمة فى بطون الكتب ، وفى معالم الحياة التى يقوم عليها اليوم مجتمع يضم أربع مئة مليون مسلم !

أفهذا كان شأن التتار ، ودولة التتار ؟

إن دولة التتار لم تقم إلا فى ظل الإسلام ، فقد أعلن قائدها إسلامه — إن صدقا وإن كذبا — ليضمن لدولته الناشئة — حياة تحت راية الإسلام . . ومع هذا ، فقد ذاب التتار فى الدولة الإسلامية ، كما ذاب غيرهم من الأمم والشعوب التى ضمها الإسلام إليه وصبغها بصبغته .

فالقول بأن القوة العربية التى عبأها الإسلام لتكون طليعةموكب النور — القول بأنها كانت ظاهرة من ظواهر الطبيعة العاتية قول لا يستقيم مع الواقع ، ولا يستند إلى شىء من مرويات التاريخ ؛ حتى الضعيف المكذوب منها .

قلنا إن أول الشواهد على أن الرسالة الإسلامية رسالة سماوية تستند إلى قوة عليا لا حدود لقوتها — أنه تخير لدعوته هذا المكان الجديب المقفر ، الذى لم يشهد يوما من الأيام أبهة سلطان ، ولا سطوة دولة ، كما عرف اليونان ، والرومان ، والفرس ، وكما عرف الفراعنة ، بل والتتابعة باليمن .

من هذا المكان القفر الجديب كانت نقطة انطلاق الإسلام ، ومركز دعوته . فإن الطبيب — كما يقول السيد المسيح — لا يزور إلا المرضى .

ومن جهة أخرى . . فان قيام الدعوة الإسلامية فى هذا الموطن كان خير مكان يصلح لتربية إنسانية تستقيم مع مبادىء الإسلام ، وتستجيب مشاعرها للغذاء الطيب الذى يحمله إلى الناس .

والأمة العربية — على ما كان بها من فقر ، وما فى حياتها من مخلفات الفقر والحاجة كانت لا تزال فى صميمها سليمة نقية من العوارض والآفات التى أصابت الشعوب التى تمرست بالمدنية وعاشت فيها زمناً ، ثم خذلتها الحياة ، وتركتها أشبه بالهشيم .

ومن هنا كان أثر الإسلام فى الأمة العربية قويا واضحاً ، منجزاً . . كالغيث يصيب أرضا بكرا ، لم يمتص مادتها الغذائية نبات أو شجر .

وهذا ما يمكن أن يفسر به قوة الجماعة الإسلامية الأولى ، مع قلة عددها ، وشح مواردها ، وهذا ما يفسر أيضا ظهور هذا العدد الكبير من عظماء الإنسانية ، ممثلا فى صحابة رسول الله ، وما أظهروه من عظمة فى فنون السياسة ، والحرب وفى تنظيم الدول ، وبناء الشعوب . إلى ما اشتملت عليه نفوسهم العالية من ترفع عن ماديات الحياة ، واستعلاء على مطالب الجسد والنفس الأمارة بالسوء .

ولا نذكر الأسماء ، ولا نضرب الأمثال . . فكل صحابة رسول الله مثل لهذا ، وكل أعمالهم شواهد له .

فالذين يحاولون أن يصوروا الشريعة الإسلامية بأنها شريعة متخلفة ، لا تصلح إلا فى الحياة البدائية ، ولا يعيش عليها إلا من يسكنون الغابات والكهوف — هؤلاء الذين يضعون شريعة الإسلام فى هذا الوضع هم — كما قلنا — ليسوا أعداء الإسلام وحسب ، بل هم أعداء الحياة نفسها ، أعداء الإنسانيه كلها . . إذ يحاولون أن يحجبوا عن الناس هذا الخير الذى نزلت به آيات الكتاب الكريم ، ليكون رحمة للناس ، وشفاء من تلك الأدواء التى تغتال ما بينهم من أواصر الأخوة ، وصلات المودة والرحمة ، وتوقد بينهم العداوة والبغضاء التى تشعل نيران هذه الحروب المدمرة . والتى تبيت الناس دائما على ذعر وفزع .

إن شريعة الإسلام هى التى جعلت من تلك الجماعة المبددة الضائعة فى رمال الصحراء أمة تظالل بأجنحتها أمما ، وشعوبا . . تنشر فيها العدل ، والأمن ، وتقيم فى ربوعها مدنية مزهرة ، وحضارة قائمة على أصول راسخة من العلم والفن .

يقول « ول ديورانت » فى كتابه قصة الحضارة :

لم يكن لبلاد العرب بوصفها وحدة سياسية وجود قبل عصر النبى إلا فى مسميات اليونان غير الدقيقة ، فقد كانوا يسمون جميع الساكنين فى شبه الجزيرة باسم : « السركنوى » ويلوح أنه هو نفسه مشتق من لفظ « الشرقيين » العربى .

« وكانت قلة سبل الاتصال وصعوبتها مما اضطر أهل البلاد إلى أن يعملوا على الاكتفاء بأنفسهم عن غيرهم ، كما أنهما كانتا سببا فى نمو روح العزلة فيهم .

« فالعربى لم يكن يشعر بواجب أو ولاء لأية جماعة أكبر من القبيلة ، وكانت قوة ولائه تتناسب عكسيا مع سعة الجماعة التى يدين لها بالولاء (١) » .

ذلك هو الوصف الدقيق للحالة التى كانت عليها الحياة الفردية أو الجماعية للعرب فى صحراء الجزيرة . لم يكن العرب أمة من الأمم ، وإنما كانوا جماعات متناثرة ، هنا وهناك ، يكونون وحدات . . كل وحدة تسمى قبيلة ، وتلك هى الوحدة الكبرى ، أو الأمة التى ينتمى إليها العربى ، ويدين لها بالولاء . . أما ما وراء هذه الوحدة القبلية فلم يكن بموضع تفكير عند أحد منهم .

فكان من معجزات الإسلام أن أقام من هذه الجماعات المشتتة المتنافرة ، مجتمعا متماسكا متجانساً . . يشد بعضه بعضا ، فكان كالجسد الواحد ، إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الأعضاء بالحمى والسهر .

وهذا ماتشير إليه الآية الكريمة فى قوله تعالى : « واذكروا نعمة الله عليكم ، إذ كنتم أعداءاً فألف بين قلوبكم ، فأصبحتم بنعمته إخوانا ، وكنتم على شفا حفرة من النار فأنقذكم منها (٢) » .

ولا يذكر التاريخ مجتمعاً إنسانيا جمعت بين أفراده روح الإخاء ، والمودة ، والإيثار مثل المجتمع الإسلامى الذى أقامه الرسول ، وورثه خلفاؤه الراشدون من بعده .

فقد كان هذا المجتمع أشبه بأسرة تجمع بين أبوين عطوفين ، وأبناء بررة كرام ، لايلقى أحد أحداً إلا بالمودة ، ولا يبيت أحد مع أحد إلا على حب وسلام .

فإذا تحدثت المجتمعات الراقية اليوم عن التكافل الاجتماعى ، وعن التقارب بين الطبقات فيها ، فإنها لتستخزى إذا نظرت إلى ما حققه المجتمع الإسلامى من

---

(١) قصة الحضارة جزء ٢ مجلد ٤ ص ١٠

(٢) سورة آل عمران آية ١٠٣

هذا التكافل والتقارب على صورة كاملة ، لا يقوم عليها سلطان غير سلطان الضمير ، ولا يزعها وازع غير وازع الدين .

يقول « ول ديورانت » المؤرخ العالم الفيلسوف :

« ولسنا نجد فى التاريخ كله مصلحاً فرض على الأغنياء من الضرائب ما فرض عليهم « محمد » لإعانة الفقراء .

« وكان يحض كل موص بأن يخصص من ماله جزءاً للفقراء .

« وإذا مات رجل ولم يترك وصية فرض على ورثته أن يخصصوا بعض ما يرثون لأعمال الخير » (١) .

وليس الذى فرضه الإسلام من بر بالفقراء والمساكين هو ضريبة بالمعنى المفهوم فى العرف الاقتصادى اليوم ، وإنما هو زكاة . . والزكاة معناها : النماء والزيادة ، والطهارة ، والطيب . . فيقال : زكا الغلام يزكوزكاة ، إذا نما وشب . . ورائحة زكية أى طيبة . .

فالزكاة التى يؤديها المسلم عن ماله فيها زكاة لهذا المال أى نماء له ، وفيها طهر وطيب لصاحب المال المزكى . . وهذا ما نجده فى الآية الكريمة : « خذ من أموالهم صدقة تطهرهم ، وتزكيهم بها » (٢) . والآية الكريمة :

« الذى يؤتى ماله يتزكى » (٣) .

وشتان بين من يبذل المال فى سبيل الفقراء والمحتاجين وملء مشاعره أنه يعقد صفقة رابحة ، ينال بها نماء ماله ، وطهاره نفسه ، ومرضاة ربه ، وبين من « يدفع » الضرائب وليس فى نفسه أى معنى من تلك المعانى الطيبة الكريمة . . !

وإذا تحدثت المدينة الحديثة عن فضلها فى تخليص رقاب الأرقاء ، وفى القضاء على الرق ، فلتذكر أولا صنع الإسلام فى تحرير الرقيق ، وما حملت

---

(١) قصة الحضارة جزء ٢ مجلد ٤ ص ٥٩ .

(٢) سورة التوبة آية ١٠٣ .

(٣) سورة الليل آية ١٨ .

تعاليه من مساواة مطلقة بين الناس ، لا يتفاضلون إلا بالعمل الطيب ، فلا حساب للأحساب ، والأنساب ، والألوان ، والدماء ، فى موازين الإنسانية ومنازل الناس فى المجتمع الإنسانى . .

لتذكر المدنية الحديثة هذا ، ولتذكر معه أن مجتمعاتها وإن تخلصت من الرق على الصورة التى كانت معروفة من قبل ، وهى تملك الإنسان وعده سلعة تباع وتشترى — فإن هناك صوراً كثيرة للرق لا تزال قائمة يمثلها الاستعمار الذى لم تتخلص منه بعض الجماعات الإنسانية إلى الآن ، كما تمثله التفرقة العنصرية بين زنوج أمريكا والأمريكيين ، وبين السود فى أفريقيا وبين الأوربيين . . كما يمثله المحتكرون وأصحاب رءوس الأموال فى أوربا وأمريكا .

لتذكر المدنية الحديثة هذا كله ، ولتقف وقفة إجلال وإكبار وخشوع أمام عظمة الإسلام ، وسمو المعانى الإنسانية التى غذى بها مشاعر أتباعه ، ليتعاملوا بها فيما بينهم . . وفيما بينهم وبين الناس جميعاً .

سأل رجل النبى صلى الله عليه وسلم : « كم أعفو عن الخادم ؟ . فصمت النبى الكريم ثم قال : أعف عنه كل يوم سبعين مرة » .

وليس حصر عملية العفو فى هذا العدد بواقفة به عند هذا الحد ، بل غايته ألا تكون له نهاية . . وأن يتصل العفو حالا بعد حال .

وعن ابن المنكدر أن رجلا من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ضرب عبداً له ، فجعل العبد يقول : أسألك بوجه الله ، فلم يعفه ، فسمع رسول الله صلى الله عليه وسلم صياح العبد ، فانطلق إليه ، فلما رأى الرجل رسول الله ، أمسك يده فقال رسول الله : سألك بوجه الله فلم تعفه ، فلما رأيتنى أمسكت يدك ؟ فقال الرجل : هو حر لوجه الله يارسول الله . فقال له النبى : لو لم تفعل لسفعت وجهك النار » .

ولم يكن هذا مجرد مبادىء وتعاليم يلقيها الرسول فى آذان أصحابه ، وإنما كان

صلوات الله وسلامه عليه القدوة الطيبة والأسوة الحسنة فى كل ما يأمر به أو ينهى عنه .

عن أنس — خادم الرسول — قال : « خدمت الرسول عشر سنوات ، فما قال لشىء عملته : لم عملته ؟ ولا لشىء تركته لم تركته » ؟ .

فليست منزلة الخادم عند من يخدمه أو العامل عند صاحب العمل بالمنزلة التى دون من يخدمه أو يعمل معه ، وإنما الامر بينهما قائم على التعاون لدفع عجلة الحياة . . هذا هو وضع العامل عند صاحب العمل فى الإسلام .

يقول النبى الكريم : إخوانكم خولكم . . استعينوا بهم على ما غلبكم ، وأعينوهم على ما غلبهم » ! .

فأى نظام من أنظمة العمل ، وأى قانون من قوانين العمال يرتفع إلى هذا المستوى الرائع الكريم الذى رفع به الإسلام منزلة العمل ، ومكانة العامل جميعاً ؟ .

وأى عقد من عقود العمل يضمن للعامل هـــذا الحق الأدبى عند صاحب العمل ، ويقيمه عليه ، ويؤديه له ، فى صورة عبادة وقربى إلى الله ؟ .

« إخوانكم خولكم » .

الأخوة هى الأساس الذى يقوم عليه عقد العمل ، بين العامل وصاحب العمل .

الأخوة أولا وقبل كل شىء .

أخوة مقررة ، متبادلة بين الطرفين . .

أخوة قائمة مقررة قبل أن تكون بينهما صلة تعامل أو عمل .

أخوة إنسانية . . يلتقيان أو يفترقان دون أن ينقطع بينهما هـــذا الرباط الوثيق الذى جمعهما الله فيه .

وهـــذا هو السر فى تقديم كلمة « إخوانكم » على كلمة « خولكم » فى الحديث الشريف .

وفى قول الرسول الكريم : « استعينوا بهم على ما غلبكم ، وأعينوهم على ما غلبهم » تنبيه قوى إلى تكريم العمل والعامل معاً ، وأن من كرامة الإنسان أن يعمل ما وسعته قدرته وكفايته ، فإذا لم يكن فى مستطاعه الوفاء بالعمل ، فلا عليه أن يستعين بمن يجد منه العون .

فأين من هذا الإحساس اليقظ بكرامة العمل وقيمته ـــ هذه المشاعر المريضة التى يعيش فيها كثير من الأغبياء الذين يحسبون الترفع عن العمل ، وفراغ اليد ، والعقل والقلب منه ـــ مدرجاً إلى العظمة ، ومرقى إلى مقام السيادة ؟ .

إن الإسلام يدعو كل ذى طاقة جسدية أو عقلية أن يوجه طاقته تلك إلى العمل المنتج المفيد ، وأن يضم جهده إلى جهد غيره ليضاعف الثمرة وينميها .

وليس فى الإسلام ولا فى المسلمين من يقعده الترفع والتعالى عن أن يكون عاملا مع العاملين ..! والرسول الكريم يقول: «ما أكل أحد طعاما قط خيراً من أن يأكل من عمل يده ، وإن نبى الله داود عليه السلام كان يأكل من عمل يده » .

وكان نبى الإسلام أكمل مثل وأروع شاهد لهذه الدعوة المباركة . . كان يخصف نعله ، ويرقع ثوبه ، ويحلب شاته ، ويقم بيته . . !

* * *

هذا جانب من التشريع الاسلامى ، وأثره فى الحياة . . فهل تنقض الحياة المعاصرة شيئا من هذا ؟ وهل تعلو الحياة فى أعلى مستوياتها على هذا المستوى الذى ارتفعت إليه الحياة فى ظل الاسلام . وعلى أيدى المسلمين فى العصر الذى عملت فيه مبادىء الاسلام عملها ، وأخرجت ثمراتها ؟ .

إن الذين يحاولون أن يشوهوا مبادىء الإسلام ، ويشوشوا عليها ليرتكبون إثما غليظا فى حق الحق ذاته ، وفى الجناية على كثير من الناس قد يصرفهم هذا الضلال عن الوقوف على مبادىء الاسلام والانتفاع بها .

ومما يضاعف من هذا الإثم ويزيده شناعة أن يكون فى هؤلاء الطاعنين على شريعة الاسلام من ينهج نهجها ، ويسير عليها . ويلتمع بمقرراتها فى منازع حياته ، وفى أسلوب معيشته ، ثم يلقى الناس بلسان متسلط عليها ، متنكر لها !

صياغة أحكام الشريعة :

وقد يحاوز الناقدون من علماء العرب مفاهيم الشريعة الاسلامية إلى نقد الصياغة المقننة لهذه المفاهيم ، وذلك ليلقوا فى روع من يقرأ لهم أن أسلوب القرآن ومعانيه ، وحيالاته كلها مستمدة من الحياة العربية ، مستلهمة من روحها .. ملتقطة من لسانها .. وأن الشريعة التى جاء بها القرآن ليست إلا تهذيبا ، وتنظيما لما عرف العرب فى جاهليتهم من أخلاقيات تدور معهم فى مدارات الحياة التى يحيونها ويتقلبون فيها ! .

فمن ذلك ما يقوله مؤلف حضارة الاسلام « جرونيباوم » فى أسلوب القرآن وصياغته لأحكام الشريعة .. يقول :

« وانه ليعبر — أى القرآن — فى بعض الأحيان على طريقة الشعراء ! .

ويضرب لهذا مثلا ، فيقول :

« فالوحى يعترف بالثأر بقــوله : « ولكم فى القصاص حياة يا أولى الألباب»(١) ولكنه لكى يزين للناس روح الصلح والوفاق فى تسوية المنازعات الدموية يضيف إلى تلك قوله : « لعلكم تتقون » .

« وفى مكان آخر يستعين الوحى فى هذا الصدد بقصة قابيل وقتله أخاه هابيل ويتخذ هذا المغزى الخلقى ... والنبى معارض للقصاص ، وإن رغب فى إجازته فى ظروف معينة ، غير أنه لم يخرج أفكاره فى صيغ قانونية ودقيقة : وجزاء سيئــة سيئــة مثلها ، فمن عفا وأصلح فأجره على الله ، إنه لا يحب الظالمين ، ولمن انتصر بعد ظلمه فأولئك ما عليهم من سبيل ، إنما السبيل على الذين يظلمون الناس ، ويبغون فى الأرض بغير الحق ، أولئك لهم عذاب أليم ، ولمن صبر وغفر إن ذلك من عزم الأمور (٢) » .

والاسلام ، أو بمعنى آخر القرآن ليس كتاب قانونى جنائى أومدنى ، وليس

(١) سورة البقرة آية ١٧٩ .

(٢) حضارة الإسلام ص ١١٦ والآيات من سورة الشورى ٤٠ — ٤٣ .

لائحة إجراءات ، كل همه تحديد الجرائم ، ووصفها الوصف الكاشف لها ، ورصد العقوبة المتشددة أو المخففة لكل جريمة .

ليس القرآن على تلك الصفة التى ينظر إليه من خلالها الغربيون ، ويحصرون نظرتهم إليه فيها ، وإنما هو قبل كل هذا كتاب تربية وتعليم ، كتاب بناء للأخلاق، وتقويم للسلوك ، وليست غايته ضبط المجرم متلبسا بجرمه . وإنما مقصده الأسمى تقويم المجرمين وصدهم عن السبيل المعوجة والمنحرفة بما يلقى فى قلوبهم من هداية، وما يشيع فى ضمائرهم من يقظة وصحو !

ذلك هو مقصد الإسلام الأول فيما يشرع من شرائع ، وفيما يرصد من عقاب ثم يجىء بعد هذا دور التكييف للجرائم التى تقع ، ووزنها بميزان مستقيم عادل ، ليحسب لها الجزاء المستقيم العادل !

ويقول : « جرونيباوم » أيضاً فى هذا الصدد :

« كان لعرب الجاهلية محصول لغوى غير قليل من المصطلحات الأخلاقية ، ولكنهم لا يكادون يملكون أبسط مبادىء القانون المدنى أو الجنائى .. »

ونسلم بهذا ..

ولكنه يتخذ من القول ذريعة ليقول :

« حتى إذا استن (محمد)[٢] شريعة مجتمعة أراد أن يتجاوز البت فى الحالات الفردية ، وأن يصوغ قواعد عامة .. إما على أساس العرف القديم ، أو على وفق ما ركب فيه من إحساس بالعدالة مرهف ، شديد الامتياز .

والشواهد الأدبية الوحيدة التى كان يستطيع أن يسير على هديها لم تكن سوى عموميات مجملة كالتى ترد أحيانا فى الشعر ، كما كانت إلى حد ما قواعد لا تجىء مباشرة وصريحة ، بل ملخصه وضمنية ، وذلك عندما يمدح الشاعر بعض النابهين من الأفراد ، أو يذمه .. لتمسكه بفضيلة من الفضائل ، أو تجافيه عنها .

---

(١) وليس « محمد » هو الذى يسن الشريعة الإسلامية، ولكن هكذا يريد الغربيون.

فإذا أحبطت إحدى القبائل مسعى لرجل أجنبي عنها فى طلب الثأر ، وأبت أن تتخلى عن ابن من ابنائها كان قد تورط فى نزاع دموى ، راح (زهير) يمدحها بقوله :

كرام ، فلا ذو الوتر يدرك وتره   لديهم ، ولا الجارم الجانى عليهم بمسلم

« فهو يصور قواعد السلوك الصائب بمنتهى الوضوح ، ولكن بغير الطريقة التى ترضى المشرع . . . ثم إن أدب الحكمة كان يزود الناس بمدخرات أخاذة من الحكم الخلقية المأثورة .

والبغى يصرع أهله   والظلم مرتعه وخيم

« ولكن الشى لم يكن ليجد أى مرجع ينهل منه عندما تقضى عليه الظروف بتعريف الظلم ، أو تعيين الطريقة التى ينبغى أن يتتبعهـــا القانون فى المنازعات المدنية(١) » .

والمغالطات هنا واضحة مفضوحة ..

فإذا كان القرآن قد سلك الترغيب فى مكارم الأخلاق مسلك الإثارة الوجدانية فليس معنى ذلك أنه يطرق النفوس كما يطرقها الشعر وما يحمل من صور المدح أو الذم لخلق من الأخلاق ، أو عمل من الأعمال .

وفرق كبير بين صنيع الإسلام فى هذا ، وبين مايتضمن الشعر من نصائح وحكم . . فإن القرآن تشريع ملزم . . يتبع العمل السيء بالجزاء السيء فى العاجل والآجل معاً .. وليس كذلك ما يجيء فى الشعر مما يمدح أو يذم من أخلاق ، فإنه لا إلزام فيه ولا متوجه به إلى جهة عليا تملك من الناس ما لا يملكون هم من أنفسهم . . . وتجازى الخير بالخير أضعافاً مضاعفة ، وتجزى بالسيئة على قدرها أو تعفو عن مقترفها !

* * *

---

(١) حضارة الإسلام ص ١١٥ .

هذا ، وقد اختلت نظرات بعض الناظرين فى سيرة الرسول من المسلمين ، وغير المسلمين ، فلم يستطيعوا أن يروه بشراً رسولا .. يعطى للبشرية فيه حقها ، كما يعطى النبوة منه حقها ..

فلقد رأى كثير من غير المسلمين أن تابس النبى بالحياة البشرية لايلائم النبوة ، ولا يوائم الرسالة السماوية التى اختير لها .. فهم يكادون يقولون : إن النبى ينبغى أن يحيا حياة الملائكة .. لا يأكل ، ولايشرب ، ولاينام ، ولايتزوج وقد سبقوا إلى هذا القول بما قاله كفار قريش عن النبى فيما حكاه القرآن عنهم : « وقالوا مال هذا الرسول يأكل الطعام ويمشى فى الأسواق ؟ »[1] .

وكثير من المسلمين قد دخل عليهم من هذه المقولات ما عمى عليهم الرؤية الصحيحة . للبشرية القائمة فى كيان النبى فحاولوا أن يصفوا حساب البشرية من كيان النبى ، وأن يروا النبى ملكا لابشراً رسولا ..

ولعل أكثر ما لهج به غير المسلمين من سيرة الرسول ، وحاولوا أن ينالوا من مقام النبوة هو زواج النبى ، وما اجتمع فى بيت النبوة من زوجات ..

فلقد كان هذا الجانب من حياة الرسول أقرب شىء يمد إليه أعداء الإسلام أيديهم .. ويبسطوا فيه ألسنتهم كلما أرادوا أن يهاجموا الإسلام فى شخص نبيه الكريم .

ولهذا فإنا سنقف عند هذه المسألة وقفة نلق فيها هذه المفتريات ، ونكشف عن زيفها ، ونقول قولة الواقع عنها ، وكلمة الحق فيها .

---

(١) سورة الفرقان آية ٧ .

الباب التاسع

بشرية الرسول

ونعود بعد هذه الوقفة التي وقفناها مع سيرة الرسول ، وما وعى التاريخ منها ، وما ألقى إليها القصاص والمؤرخون من إضافات ، وما أدخل عليها الوضاع ، وأصحاب البدع والأهواء من ألوان الباطل الزيف ، ليلبسوا الحق بالباطل ، وليشوهوا معالم هذه السيرة الوضيئة المشرقة .

نعود بعد هذا لننظر فى موقف الرسول نفسه من جلال النبوة وروعتها ، وماكان يأخذ الناس من هذا الجلال وتلك الروعة !

وليس فى مقدور أى إنسان مهما يكن إدراكه لبشرية النبي وتيقنه منها ، أن يحبس فى نفسه تلك العواطف التي تجيش أمام هذا الجلال المهيب الذى لا يرى فى هذا الوجود إلا فى ظلال النبوة ، وفى رحابها الأسنى الطهور !

وحسبك أن تذكر هنا ما يروى عن موقف عمر بن الخطاب حين صك سمعه قولة من يقول : إن النبي قد مات وكان قد سبق ذلك توعك وشكاة من الرسول ، حالت بينه وبين إمامة المسلمين للصلاة ، فأقام أبا بكر مقامه فيها !

لقد أنكر عمر — كما يقول المؤرخون — هذا القول ، ورده على قائليه فى صرامة وعنف .. بل يقال : إنه سل سيفه ، وتوعد من يقول هذه القولة بأن يعلوه بسيفه ! ، بل ويقـــال أيضاً : إن عمر قال : إن رسول الله لم يمت ، وإنما ذهب لميقات ربه ، كما ذهب موسى ، وسيعود ليقطع ألسنة قوم كذبوا وضلوا !

وسواء أكانت هذه الروايات صحيحة فى جملتها أم غير صحيحة ، فإن فيها دلالة على هذا الشعور المذهل الذى طغى على المسلمين حين نعى إليهم النبى

الكريم .. ! حتى ليبلغ بهم هذا أن ينكروا على الموت أن يتخطى حدوده وينال من الرسول ما ينال من الناس !

ولاشك أن المسلمين كانت ألسنتهم فى هذا الوقت رطبة ندية بآيات القرآن الكريم التى تحدث عن الرسول ، وعن عوارض البشرية التى تعرض له ، ومنها عارض الموت الذى لامفر منه .

فلم يقف القرآن فى أن يقرر للرسول نصيبه من هذا العارض الذى ينال كل نفس فى قوله : « كل نفس ذائقة الموت » ، وفى قوله تعالى : « كل من عليها فان » ! لم يقف القرآن عند هذا ، بل أفرد للرسول قولا خاصا ، ينص فى صراحة على أن الرسول ميت لامحالة ، كما يموت الناس جميعاً . . فقال تعالى : « إنك ميت وإنهم ميتون » وقال سبحانه : « وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل . . أفإن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم »(١) .

نقول : إن أى مسلم — بل إن أى إنسان — يقف من النبى موقف المتأمل فى ذاته ، والمطالع لأحواله وتصرفاته ، والراصد لحركاته وسكناته ، والمستقبل لنفحاته وبركاته — لايستطيع أن يحبس ما يحدث فى نفسه من عواطف الإجلال الذى يبلغ مبلغا لانهاية له ، حتى ليكاد ينسى أنه أمام بشر يعيش على الأرض ، ويحيا فى دنيا الناس !

وقد كان الرسول صلوات الله وسلامه عليه يعـــلم ما له فى قلوب أصحابه والمخالطين له من أثر قوى ضاغط على عقولهم وقلوبهم . . إنهم يرون إنساناً سماوياً يعيش معهم ، ويحيا حياتهم ثم إذا هو متصل بالسماء ، يتلقى كلام رب العالمين ، من رسول رب العالمين « جبريل » . . وإذا آيات القرآن تشرق من فم الرسول ، فتغمر المجلس نوراً علوياً ، وينتشى بها المؤمنون نشوة تكاد تطير بها الأرواح طيرانا من الأجساد إلى عالم النور !

يعلم الرسول ، بل ويرى تلك الآثار القوية التى يجدها المسلمون من شعاعات النبوة وأضوائها . . فيعمل جاهداً على أن يمسك بالمسلمين أن يذهب بهم الحال

---

(١) سورة آل عمران آية ١٤٤ .

إلى أن يقولوا فيه ما قال أتباع المسيح فى المسيح .. من أنه «الله» أو «ابن الله» .. !

فما ترك الرسول الكريم حالا مواتية من أحوال أصحابه ، يكشف لهم فيه عن الجانب البشرى منه إلا طلع عليهم به ، ولفتهم إليه ، وأمسك بعقولهم أن تضل ، وبمشاعرهم أن تضطرب ، وعادبهم إلى ما يدعوهم إليه دينهم من إفراد الله وحده بالعبودية ، وإنزال المخلوقين جميعاً إلى مقام الانقياد للخالق والتصاغر أمام جلاله وعظمته ! لا فرق فى هذا بين نبى وغير نبى .. بل إن النبى هو أكثر الناس معرفة بهذه الحقيقة ، وأشدهم تنبهاً لها ، وقياماً عليها ..

شواهد من أحوال الرسول :

ولو أراد إنسان أن يقف من سيرة الرسول الكريم على شواهد لهذه الحال التى يكشف فيها لأصحابه عن بشريته ، وعبوديته ، وخضوعه لضرورات الحياة الإنسانية ، وتلبسه بها ـ لو أراد إنسان أن يجد لهذا شواهد من حياة الرسول لما كان له أن يتخير حالا دون حال ، أو يقف عند شأن دون شأن ، بل إن سيرة الرسول كلها ، وأحواله كلها ، وشئونها جميعاً شواهد عدول على أن الرسول كان إلى جانب قيامه بأمر الدعوة وتبليغ الرسالة قائماً كذلك بتحديد معالم شخصية فى نفوس أصحابه ، ووضعها فى إطار بشرى خالص ، ليس فيه من امتياز على غيره إلا ما فضل الله به عليه باختياره لتلك الرسالة السماوية واصطفائه لها ، وإلباسه اللباس النفسى والروحى والجسدى الملائم لها ، دون أن يخرجه ذلك كله عن أن يكون إنسانا من الناس ، يأكل الطعام ، ويمشى فى الأسواق .. !

القرآن وشخصية الرسول :

ولم تدع الشريعة الإسلامية تقرير بشرية الرسول وتوكيدها إلى الرسول وحده ، وإلى ما يقول عن نفسه من أنه إنسان قبل أن يكون رسولا ، وأنه بحكم هذه الطبيعة يعيش فى مجال الإنسانية ، ويتحرك فى محيطها .. لا يملك لنفسه ضراً ولا نفعا إلا ما شاء الله !

لم تدع الشريعة الإسلامية للرسول وحده أن يكشف لأصحابه عن هذه الحقيقة، بل جعلت ذلك أيضاً وحياً من السماء، مسطوراً فى كتابها المنزل على النبى . . حتى لاتترك سبيلا لمتأول أن يتأول فيما يقول الرسول الكريم عن نفسه . . كأن يحسب هذا القول على سبيل التواضع من الرسول لربه ، والتخاشع فى مقام العبودية لخالقه . . وهو فى واقع الأمر حق لامرية فيه ، وإن حمل معه ماحمل من الولاء والخضوع والتخاشع لله رب العالمين !

من أجل هذا تكررت فى آيات الكتاب الصور التى تحدد شخصية الرسول، وتضعها فى الإطار البشرى ، الذى لايسمح لأتباعه أن يخرجوه من هذا الإطار، وإن بلغ مابلغ من جلال ، وكمال ! .

يقول الله سبحانه وتعالى لنبيه الكريم : « قل إنما أنا بشر مثلكم يوحى إلى »(١) ، فالآية تتجه إلى الرسول أولا ، ليعلم من نفسه أنه بشر ، وهو عالم فعلا ، ولكن ليكون ذلك تقريراً ، وتوكيداً لهذا العلم ، وتتجه ثانياً إلى من يعنيهم أمر النبى من المؤمنين وغير المؤمنين ، ليعلموا أن هذا الإنسان المتصل بالسماء المحلى بالكمالات ، ليس إلا بشراً من البشر ، وإنساناً من الناس . .

ويقول سبحانه لنبيه أيضاً : « قل سبحان ربى . هل كنت إلا بشراً رسولا ؟ »(٢) . . وهذا القول الذى أمر الله نبيه أن يقوله إنما هو رد لما كانت تريد قريش منه ، ودفع لهذا الفهم الخاطىء لطبيعة النبى ، إذ حسبوا أن النبى إله قائم فى الأرض يتصرف فى الوجود كيف يشاء ، فجاءوا يطالبون النبى بما حكاه القرآن عنهم « وقالوا لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعا ، أو تكون لك جنة من نخيل وعنب فتفجر الأنهار خلالها تفجيراً ، أو تسقط السماء كما زعمت علينا كسفاً أو تأتى بالله والملائكة قبيلا ، أو يكون لك بيت من زخرف ، أو ترقى فى السماء . . ولن نؤمن لرقيك حتى تنزل علينا كتاباً نقرؤه . . قل سبحان ربى . . هل كنت إلا بشراً رسولا ؟ » . . إنه بشر . .

(١) سورة الكهف آية ١١٠ . (٢) سورة الإسراء آية ٩٣ .

وكونه رسولا لايخرجه عن البشرية ؛ ولا يطوع له أن يأتى بغير مايرسل به ؛ ويوحى إليه ! .

ولا يقف القرآن عند حد القول الصريح ببشرية الرسول ، بل يذهب إلى أبعد من هذا فيقرر أن للرسول كل خصائص البشرية ، ومتعلقاتها . إنه كسائر الناس ، لايعلم الغيب ، ولا يملك لنفسه ضراً ولا نفعاً ، وأنه لايهدى من أحب ، ولا يملك الشفاعة إلا بإذن ربه ، وأنه يحزن . ويألم . ويضيق صدره . وتقر عينه .

وهذه هى طبيعة الحياة البشرية ، وللرسول نصيبه منها .

يقول الله تعالى « قل لا أملك لنفسى ضراً ولا نفعاً إلا ماشاء الله ، ولو كنت أعلم الغيب لاستكثرت من الخير ، وما مسنى السوء . . إن أنا إلا نذير وبشير لقوم يؤمنون »(١) . . ويقول سبحانه : « إنك لاتهدى من أحببت ، ولكن الله يهدى من يشاء »(٢) . . ويقول سبحانه: « ولا تحزن عليهم ولا تك فى ضيق مما يمكرون »(٣) . . ويقول عز من قائل : « واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشى يريدون وجهه ، ولا تعد عيناك عنهم تريد زينة الحياة الدنيا ، ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا ، واتبع هواه وكان أمره فرطا »(٤) . . وهذه كلها منازع بشرية ، تتجه إليها نفس الرسول ، كما تتجه نفوس الناس ، فيدعوه الله سبحانه إلى تجنبها ، والحذر منها ! .

أما دور الرسول فى مجال التطبيق العملى لتقرير بشريته بين أتباعه فهو كما قلنا دور ممتد من أول بعثته إلى أن الحق بالرفيق الأعلى . . وشواهده تنتظم حياة الرسول كلها فى هذه المرحلة العظيمة من حياته .

ونعرض هنا بعض مواقف الرسول الكريم فى هذا الشأن :

١ — جاء أعرابى إلى النبى صلى الله عليه وسلم فى بعض شأنه ، فلما دنا منه ليتحدث إليه

---

(١) سورة الأعراف آية ١٨٨ (٢) سورة القصص آية ٥٦
(٣) سورة النحل آية ١٢٧ (٤) سورة الكهف آية ٢٨ .

اضطرب كيانه، وتلعثم لسانه، لما أخذه من هيبة الرسول وجلاله.. تلك الهيبة وذلك الجلال اللذين لم يبعثهما فى نفس الأعرابى ما تبعث فى النفوس أبهة الملك وصولة السلطان بما يحشد لها من حرس، وحجاب، وبما يقوم فيها من ألوان الترف، وعجائب التحف ونوادرها — وإنما مبعث تلك الهيبة وذلك الجلال هو ماتشع به ذات الرسول الكريم من عظمة نفسية، وصفاء روحى.. تسرى منهما إلى من حوله موجات من النور العلوى. يجد لها الناس مساً أشبه بمس الكهرباء!

ونعود إلى ذلك الأعرابى، فنجده بين يدى الرسول، وقد علاه البهر، وبلله العرق.. وإذا الرسول الكريم يبعث إليه نسمة ندية عطرة، تشيع فى كيانه الطمأنينة والسكينة، ويسقيه من رحيق كلماته الطيبة ماينعش روحه، ويمسك أوصاله. فيقول له رسول الله ﷺ: «هون عليك.. فإنى لست بملك. إنما أنا ابن امرأة من قريش تأكل القديد!».

إنه إنسان من الناس، ولد لأبوين كما يولد كل إنسان.. ثم هو — وإن كان نبياً — لم يبتعد عن الجماعة الإنسانية بما يتخذ الملوك والأباطرة من أقنعة الأبهة والسلطان التى تعزلهم عن المجتمع الإنسانى.. إنه ابن امرأة تأكل القديد.

٣ — وأخرج أبو داود فى سننه عن ابن عباس أن النبى صلى الله عليه وسلم طاف بالبيت. ثم أتى السقاية، فقال: اسقونى. فقال له ابن عباس ألا نخوص له سويقا (١).؟ فإن هذا يتداول منه الناس! فقال صلوات الله وسلامه عليه: اسقونى مما يشرب الناس..!!

وكيف يعتزل النبى الناس، ويعتزل الحياة التى يحيونها وهو الطبيب الذى يعالج أدواءهم، ويطبب عللهم؟ وهل يعتزل الطبيب مرضاه؟ وهل يرضى الأب أن يكون فى خير لا يصيب منه أبناؤه حظاً كحظه؟

وهل الذين فى ريب من رسول الله، ومن رسالته أن يقفوا عند هذه الأحوال منه ليروا ماذا كان يطالب بدعوى النبوة والرسالة إن لم يكن نبياً مرسلا؟

(١) السويق: الناعم من دقيق الحنطة والشعير.

وما المآرب التى قصد إليها ، وما الغايات التى حققها ؟ أين المال الذى جمع ؟ وأين التاج الذى وضع على رأسه ، وأين متع الحياة التى تحف به ؟ وهل يدخل إنسان فى مثل هذه التجربة ، ويدعى مثل هذه الدعوى ، ويحتمل فيها ألوان الضر والأذى ، ثم إذا استجاب الناس لدعوته ، وداروا حول مشيئته ، وساقوا إليه مغانم النصر — نفض يديه من كل هذا ، وعاش على الكفاف من كل شىء . . ؟ فى المطعم ، والملبس ، والمسكن . . ؟ فكانت حجراته التى يأوى إليها حجارة مرصوصة . . سقفها من الجريد . . لا تزيد على أى كوخ أو خيمة . . وكان أكثر طعامه خبزة الشعير ، وإدامه الخل . . لا يشبع منهما . . وقد كانت السيدة عائشة رضى الله عنها تقول : « إن كنا آل محمد لنمكث شهراً ما نستوقد ناراً ، إن هو إلا التمر والماء . »[1] . . وعنها رضى الله عنها قالت : « ما شبع رسول الله صلى الله عليه وسلم ثلاثة أيام تباعا من خبز حتى مضى لسبيله » . !

وعنها رضى الله عنها قالت : « ولقد مات — أى النبى — وما عندى شىء يأكله ذو كبد إلا شطر شعير فى رف لى » .

وعن ابن عباس قال : « كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يبيت هو وأهله الليالى المتتابعة طاويا لا يجدون عشاء » . !

وعن أنس رضى الله عنه قال : « ما أكل رسول الله صلى الله عليه وسلم على خوان ولا فى سكرجة[2] ، ولا خبز له مرقق ، ولا رأى شاة سميطا[3] قط » .

فهذا طعامه صلى الله عليه وسلم بعد أن فتح الله له تلك الفتوحات التى شملت الجزيرة العربية كلها . طعام غليظ خشن ، وهو مع غلظه وخشونته قليل لا يشبع . .

وإذا جلس صلى الله عليه وسلم للأكل جلس مستوفزا على الأرض ،

---

(١) الشفا جزء ص ١٩ .
(٢) السكرجة : الصفحة التى يوضع فيها الطعام .
(٣) الشاة : السميط التى تشوى بالنار .

لاينصب له خوان ، ولا يتكىء على أريكة أو نحوها . وكان يقول : « إنما أنا عبد ، آكل كما يأكل العبد ، وأجلس كما يجلس العبد » (١) .

وأما فرشه الذى ينام عليه فكان أدماً حشوه ليف ، وعن حفصة رضى الله عنها قالت : كان فراش رسول الله صلى الله وسلم مسحاً(٢) نثنيه ثنيتين ، فينام عليه . فثنياه له ليلة بأربع ، فلما أصبح قال : ما فرشتموا لى الليلة ؟ فذكرنا ذلك له ، فقال : ردوه بحاله ، فإن وطأته منعتنى الليلة صلاتى » !

إنه نبى صاحب دعوة ، وليس طالب ملك ! ولا صاحب دنيا ... فلقدسبقت إليه الدنيا بحذافيرها ، وترادفت عليه ، فتوحها ، إلى أن توفى صلى الله عليه وسلم ودرعه مرهونة عند يهودى فى نفقة عياله .. وكان يدعو ويقول : « اللهم اجعل رزق آل محمد قوتا » .

٣ — قالت أم العلاء الأنصارية :

لما قدم المهاجرون المدينة . . اقترعت الأنصار على سكناهم ، فصار لنا عثمان ابن مظعون فى السكنى ! فرض .. ثم توفى .. فجاء رسول الله صلى الله عليه وسلم فدخل .. فقلت : رحمة الله عليك أبا السائب .. فشهادتى أن قد أكرمك الله ! قال النبى صلى الله عليه وسلم : وما يدريك أن الله قد أكرمه ؟ قالت : لا — والله لا أدرى ! فقال النبى صلى الله عليه وسلم : أما هو فقد أتاه اليقين من ربه ، وإنى لأرجو له الخير .. والله ما أدرى وأنا رسول الله ما يفعل بى ، ولا بكم !»(٣)

وإنه صلوات الله وسلامه عليه — وإن يكن نبيـــا — بشر ، مقيد بقيود البشرية . . لايعلم الغيب ، ولايدرى مايفعل به ولابغيره . . فذلك مما استأثر الله سبحانه وتعالى به .. « ولايحيطون بشىء من علمه إلا بما شاء(٤) » .

٤ — عن عمر رضى الله عنه أن النبى صلى الله عليه وسلم قال « لاتطرونى كما أطرت النصارى ابن مريم .. إنما أنا عبد فقولوا عبد الله ورسوله » .

---

(١) الشفا جزء ١ ص ٦٦ .
(٢) المسح : الكساء من الشعر .
(٣) النبوات لابن تيمية ص ٩
(٤) سورة البقرة آية ٢٥٥

وعن أنس رضى الله عنه : إن كانت الأمة من إماء أهل المدينة لتأخذ بيد رسول الله صلى الله عليه وسلم فتنطلق به حيث شاءت ، حتى تقضى حاجتها » .

وعن أبى هريرة رضى الله عنه قال : دخلت السوق مع النبى صلى الله عليه وسلم ، فاشترى سراويل ، وقال للوزان زن وأرجح . فوثب إلى يد النبى صلى الله عليه وسلم يقبلها ، فجذب النبى يده وقال : هذا تفعله الأعاجم بملوكها ، ولست بملك .. إنما أنا رجل منكم .. ثم أخذ السراويل ، فذهبت لأحملها ، فقال: صاحب الشيء أحق بشيئه أن يحمله »(١) .

أفيبقى بعد هذه التربية القولية والعملية من رسول الله لأصحابه ولأتباعه ما يدع فى نفوسهم إثارة من شك فى بشرية النبى ؟ وأنه عبد الله ، ورسول الله ؟ كلا ، ثم كلا . .

ما شهدت به الأعداء !

ولكثرة ما كان فى حياة الرسول من صور التواضع ، ومن المواقف الكاشفة عن طبيعته البشرية — لم يستطع الدارسون لسيرته . من غير المسلمين — أن يخفوا هذه الحقيقة ، على رغم ما لديهم من استعداد طبيعى للبحث عن مواطن الضعف فى تلك السيرة الطيبة ، والتوصل إلى ذلك بأوهى الأسباب ! هذا إذا كان الباحث طالب حقيقة ، وقليل من هؤلاء من وقف موقف الحياد والإنصاف من سيرة النبى . أما من كان من أولئك الباحثين من نصب نفسه للنيل من رسول الإسلام فإنه يتعامى عن الحقائق ، ويقف متسترا فى ظلال الشكوك والريب التى يسوقها مساق اللمز والغمز !

نقول إن المؤرخين من غير المسلمين — منصفين أو مغرضين — لم يستطيعوا أن يخفوا ما كان فى سيرة النبى . . من مواقفه التى كشف بها عن بشريته ، وعمل على إزاحة التصورات التى كانت ترتفع لأنظار أصحابه ، مما تفيض به مشاعرهم من

---

(١) سورة العنكبوت آية ٥١

عواطف الإجلال والتعظيم الممزوجين بالولاء المخلص، والحب الخالص لذات الرسول وصفاته!

٩ - فهذا العالم الفيلسوف الإنجليزي «ول ديورانت» يقول: «ومع اضطلاع النبي بهذه الشئون كلها - أى القيام بأمر الدعوة وتنظيم شئون الحرب والسلم فى المجتمع الإسلامى - فقد كان جم التواضع إلى درجة تحببه إلى النفوس، وكثيراً ما كان يعترف أن ثمة أموراً لايعرفها، ويحتج على الذين يظنونه أكثر من إنسان يجرى عليه ما جرى على الناس جميعاً . من موت، ووقوع فى الخطأ .. ولم يدع فى يوم من الأيام أنه قادر على معرفة الغيب أو الإتيان بالمعجزات .»[١] .

هذه قولة رجل على غير دين الاسلام، لايحمل عاطفة تعطفه على هذا الدين، وإن يكن فى نفسه شىء فهو أن يجد له المغامز والعثرات!

فلقد عز عليه أن تفلت منه هذه الحقيقة، وأن تغلبه شواهد التاريخ الصادقة عن أن يفلت هو منها - عز عليه هذا، فألقى على تلك الحقيقة التى قررها مرغما أنفاساً من صدره المريض، يتصاعد منها دخان خبيث يخلط بين الحق والباطل، ويجمع بين العسل والسم .. فيقول بعد هذا القول الذى أرغمه الواقع التاريخى على قوله - يقول: لكنه - أى النبى - على هذا لم يكن يستنكف أن يستعين بالوحى فى الأغراض البشرية والشخصية كما حدث حين نزل الوحى مؤيداً زواجه من زوجة زيد متبناه »[٢] .

وعجيب من مثل هذا العالم الفيلسوف أن يسمح لعقله بهذا العبث بالمنطق والخروج على المثل القائل: «إذا كنت كذوبا فكن ذكورا»!

إنه يعترف بأن «محمداً» نبى . .

فهل يتفق ووظيفة النبى أن يكذب على الله؟ وأن يصطنع وحياً يوحيه إلى نفسه، ثم ينسبه إلى الله، ليخدم به حاجة من حاجات نفسه، ويتبع به هوى من أهوائه؟

---

(١) قصة الحضارة الجزء الثانى من المجلد الرابع ص٤٣ .

(٢) قصة الحضارة الجزء الثانى من المجلد الرابع ص٤٣

أمن يفعل هذا يكون نبياً حقاً .. ؟ وهل يكون رسول السماء خائناً لرسالة السماء ؟ إن هذا اتهام لله — سبحانه — إذ لم يكن الرجل الذى اختاره لحمل رسالته إلى الناس بالرجل الأمين الصالح لأداء هذه المهمـــة . . وسوء اختيار الرسول يلقى اللائمة كلها على من أرسله !

هذا ما يجرى عليه منطق الناس فى الحياة — فهل يصح أن يكون من كمال الإنسان حسن اختياره لمن يؤدى عنه أمراً من الأمور، ثم لا يكون هذا الكمال لله فى اختياره لأنبيائه ورسله ؟

إن القول بأن أنبياء الله ورسله يتقولون على الله ... فيه تجديف على الله وكفر به ! وأهون من هذا أن يتهم النبى بأنه غير نبى . فهذه تهمة ، وإن كانت شنيعة ، إلا أنها دون تلك التهمة التى تقر النبى فى مكانه من النبوة ، ثم ترميه بالكذب على الله ، والافتراء على ما أرسل به : « ومن أظلم مما افترى على الله كذباً . . أو قال أوحى إلى ولم يوح إليه شىء[1] » .

إن المنطق الذى يقبل مثل هذا القول فى شأن الأنبياء ، منطق مقلوب ، يتأذى منه العقل ويتقزز منه . . .

٢ — وهناك عالم فيلسوف آخر كان له فى هذا الجانب من حياة الرسول نظرة أشمل وأعمق من نظرة المؤرخ العالم « ول ديورانت » . . كما كانت نظرته تلك أبعد من الهوى ، وأقرب إلى الحق من نظرة صاحبه ! إنه جوستاف جرونيباوم مؤلف كتاب « حضارة الإسلام » .. فقد وقف وقفة طويلة عند تلك القصص الكثيرة التى أدخلها القصاص ، ورواة الأخبار على سيرة الرسول ، وكشف عن تلك الدوافع التى نسجت من أجلها تلك القصص ..

فهو يعترف أولا بأن حياة الرجل العظيم تنطوى على شرارة إلهية ، تجعل لصاحبها شأناً فى نظر أصحابه ، ومكاناً من قلوبهم . . وأن الأعمال العظيمة التى

---

(١) سورة الأنعام آية ٩٣

تجرى على يديه تطلق فى الناس أعنة الخيال ليسحروا منها ضروبا من القصص التى لا يمسكها منطق، ولا يحكمها عقل ..

يقول « جرونيباوم » : « إن انطواء حياة الرجل العظيم على قدر من الشرارة الإلهية أقوى بأساً مما لدى إخوانه الضعفاء لآية حافلة بالمعانى للعالم كافة !

« ذلك أن رسالته تؤذن ببدء مرحلة جديدة فى قصة هذا العالم .

« ولا شك أن القوى التى يملك إسارها ستكون رهن إرشارته ، وستكون أهم أدوار مقامه فى هذه الأرض موضع الترحاب أو المحاكاة من العالم الذى كان مجرد ظهوره فيه ذا أثر فى حظه ومجراه !

« وإن القلوب الساذجة الغفل لتروح تنسج الخوارق وشياً تحيط به حياة الرجل المؤله العظيم ، غافلة عن أن هذه الخوارق تغض من شأن النصر الإنسانى الذى يحرزه بطلها[١] » .

وطبيعى أن « جرونيباوم » يتخذ من مدلول كلمة « العظيم » مرقى يرقى به إلى الحديث عن العظمة الكامنة فى النبى ... فهو إنما يناقش هنا قضية المعجزات التى تنسب إلى نبى الإسلام .

واللفتة الذكية البارعة من « جرونيباوم » هنا هى إشارته إلى غفلة أولئك الذين يرون أن عظمة النبى إنما تتجلى فى كثرة الخوارق والمعجزات التى كانت بين يديه — وهم فى الواقع إنما ينتقصون من كفاح النبى ، ويقطعون الطريق على هذا الكفاح الإنسانى أن يتلبس بالحياة ويلتق بأحداثها ، وينتصر عليها ... إنه حينئذ انتصار يفوح من عرق الجهد الشخصى ، وهو جهد يحسب له ، وينتسب إليه .. أما الخوارق والمعجزات ، فلا يملك الرسول من أمرها شيئاً ، وإنما هى أمانة تلقاها من السماء وأداها للناس !! .

---

(١) حضارة الإسلام ص ١٢٤ .

ثم ينتقل « جرونيباوم » إلى موقف النبي من تلك الموجات التقديسية التي كانت تتدافع في عقول أصحابه وقلوبهم .. فيقول :

« حرص محمد مدة رسالته على أن يؤكد للناس أنه بشر . ذو طبيعة إنسانية ، وأنه بفضل من الله ، لا يستحقه ، ولا يعرف له سبباً اختير رسولا له تعالى . .

« وفيما عدا هذه الخصوصية — خصوصية اختياره للرسالة — ليس ثمة شيء يفرق بينه وبين إخوانه من البشر .

« وإن علمه بالغيب لمحدود بما يريد الله أن يعلمه إياه .

« فكل مالم يرشده إليه الوحى فأمر قد يضل فيه السبيل .

« وليس له بعمل المعجزات يدان .

« وكلما لج أعداؤه في تحديهم إياه بأن يثبت أقواله بإحدى المعجزات أبى ذلك ، غير عابىء بسخرية الساخرين ، وخيبة أمل المتشككين . . ذلك أن رسالته نفسها هي آيته ، وأمارته ! :

« وقالوا لولا أنزل عليه آية من ربه ؟ قل إنما الآيات عند الله ، وإنما أنا نذير مبين ، أو لم يكفهم أنا نزلنا عليك الكتاب يتلى عليهم ؟ إن في ذلك لرحمة وذكرى لقوم يؤمنون »[(١)] ...

ثم يعقب « جرونيباوم » على هذا بقوله :

على أن حصافة « محمد » لم تجده نفعاً .. فمهما أنكر لم يكن إنكاره ليقنع العرب أنه بشر مثلهم ، تعوزه البصيرة الخارقة التي تنفذ حجب الغيب وآفاق المستقبل .

« ولم يكد ينقضى على وفاته طويل زمن حتى ثار الخيال الشعبي متغلبا على نصوص الوحى نفسها ، ومغطيا على الاحتجاجات الفاترة التي أبداها ذوو الضمير الحى من الفقهاء — وراح يقص من جديد سيرة النبي ، واضعاً إياه في صورة الساحر القوى !!

---

(١) الشفا جزء ١ ص ١٠٣ .

« ولقد رانت عليهم تلك الرغبة الساذجة فى تعظيم البطل برفعه فوق درجة الإنسانية إلى أقصى حد مستطاع ، وظاهرها على ذلك التقليد العريق الذى يزكى من أهمية الشخصية الفذة ، بما ينسب إليها من تعاون العالم الروحى كله وإياها ... »

ثم يعرض المؤلف صوراً من القصص التى يرى أنها أضيفت إلى السيرة النبوية لترفع من شأن النبى — كما توهم واضعوها .

وهنا يكشف عن العناصر الغريبة التى دخلت فى تاريخ السيرة وأضيفت إليها .

فيقول : « وثم أقاصيص عن معجزات زرداشتية ، وهيلينستية ، وبوذية ، تنسب بمنتهى الحرية إلى شخص الرسول !

ثم يقول : « وإن اللهفة على تمجيد رسول الله ، وإخراجه عن طن طبيعة البشر لأمر كانت تحركه فى مدارج معينة تلك النزعة المطوية فى الناس عامة ، بل فى نفس محمد نفسه (؟؟) فى إظهاره فى صورة النبى المطابق لسنة الأنبياء كافة !

« فكل ما أثبتت به دعاوى الرسل يعاد قوله فى « محمد » !! فليس يكفى أن تشهد له أعماله ورسالته ، بل لابد من تسويغ الإيمان برسالته ، وذلك على الأقل بإظهاره فى قوة الأنبياء الآخرين المرهوبين .

ثم يقول : إنه من المحتمل أن هذه الأساطير كانت مقصورة فى بادىء الأمر على غير المتعلمين ، وأن القصاص المحترف كان المسئول الأول عن صوغها ونشرها . ولكن بعد فترة وجيزة شرع جلة الفقهاء يجمعون الدلائل النبوية هذه جمعاً منظماً !

« كان الفقهاء بين دافعين قويين . فإن الخيال الشعرى كان يصر على اعتبار رسول الله نبياً صاحب معجزات .. ثم إن إجماع المؤمنين على المطالبة بالاعتراف بالعناصر الإعجازية فى حياة « محمد » كان كافياً فى حد ذاته لحمل الفقهاء على الاستجابة لهم ..

« إلا أن التحدى المسيحى الذى كان يطالب المسلمين بتقديم الشواهد الخارقة على نبوة « محمد » اضطر هؤلاء الفقهاء إلى استجابة سريعة !

وقد استمر ضجيج المجادلين المسيحيين عيفاً لا تهدأ له مفاخرة حتى بعد أن أسرف المسلمون فى الاستجابة لتلك المطالب المسيحية (١) » .

وهذا الكلام كلام رجل منصف إلى حد ما ، فقد كشف عن طبيعة هذا القصص الخرافى الذى دخل به القصاص والوضاع على سيرة الرسول ، كما كشف عن تلك الدوافع التى اندفعت منها هذه القصص فى صورها الخيالية المهلهلة !

على أن « جروفيباوم » لم يرض لنفسه أن تسخو بهذه الحقيقة ، وأن تقول كلمة الحق ، ولو كانت مرة . . فرمى تلك الرمية الخبيثة الماكرة خلال كلمات مشرقة يدعمها الحق ، ويزينها المنطق حتى لتكاد هذه الرمية تمر دون أن يتنبه لها أحد . . .

فيقول فيما نقلنا عنه آنفاً : « وإن اللهفة على تمجيد رسول الله وإخراجه عن طبيعة البشر لأمر كانت تحركه فى مدارج معينة تلك النزعة المطوية فى الناس عامة بل فى نفس « محمد » نفسه . فى إظهاره فى صورة النبى المطابق اسنة الأنبياء كافة ! !

« بل فى نفس محمد نفسه » ! .

كذب مفضوح اشهادة أهله . فقد قرر المؤلف من قبل أن النبى كان حريصا أشد الحرص « على أن يؤكد للناس مدة رسالته أنه بشر . . ذو طبيعة إنسانية . . وأنه بفضل من الله لا يستحقه ، ولا يعرف له سبباً اختير رسولا لله تعالى . وكلما لج أعداؤه تحديهم إياه فى أن يثبت أقواله بإحدى المعجزات أبى ذلك ، غير عابىء بسخرية الساخرين . . ولا خيبة أهل المتشككين) . . هذا ما يقرره المؤلف ، فهل يتفق مع هذا القول أن يقول : إن فى نفس « محمد » نزعة تنزع به إلى تمجيد نفسه . وإخراجه عن طبيعة البشر ؟

أهذا من ذاك ؟ كلا . فشتان بين الحق والباطل . وبين الرأى والهوى .

وما نحسب المؤلف كان على غير معرفة كاملة بسيرة الرسول حتى نجد له

---

(١) حضارة الإسلام ص ١٢٤ .

العذر لهذا الخلط المشين . . فالعلم الذى بين يدى الرجل من تلك السيرة الكريمه قد أتاح له أن يبنى آراء سديدة ، وأن يصدر أحكاماً عادلة . . ولكن الذى أتى منه هذ الكاتب أنه لم ينظر إلى الرسول على أنه مبعوث السماء ، وترجمان الملأ الأعلى ، وإنما نظر إليه فى حدود الإنسان الذى لاصلة له بالسماء ، وأن فى هذا الإنسان جانبا من جوانب العظمة التى تبرز فى كثير من الناس على اختلاف الأمم والأزمان .

ولو نظر هذا العالم الكبير إلى « محمد » على أنه نبى . لما رمى هذه الرمية الطائشة ، التى لاتستند إلى شىء من الواقع الذى يعلمه علم اليقين من سيرة الرسول والذى لم يستطع أن يخفيه ، فقرر فى أول هذا الحديث أن « محمداً » قد حرص مدة رسالته على أن يؤكد للناس أنه بشر . . ذو طبيعة إنسانية ، وأنه بفضل من الله لايستحقه ، ولا يعرف له سببا اختير رسولا له تعالى . . . فكيف يتفق أول هذا الحديث مع آخره ؟ ؟ إنه نضيح حقد قديم على الإسلام ، وعلى رسول الإسلام لم يستطع هذا العالم الكبير ان يحبسه فى صدره فتفلت منه عن قصد أو غير قصد .

إن أعظم العظمة فى « محمد » أنه بشر ، وأنه فى ثوب البشرية هذا استطاع أن يعلو على الضعف الإنسانى ، وأن يقهر ظلام الطين الذى خلق الإنسان منه ، وأن يحيل هذا الظلام نوراً متبعاً يضىء الوجود ، ويكشف للناس الطريق إلى السماء . . إلى عالم الحق ، إلى الله رب العالمين .

إن بشرية « محمد » وما بلغ بها الله من كمال وجلال لشهادة قائمة بين الناس ، تحدثهم أطيب الحديث وأصدقه عن الكمال والجلال المودع فى الانسانية ، والمنطوى فى كيانها ، وإن الطريق لمفتوح أمام الإنسان إلى التحليق فى آفاق الكمال إلى مالانهاية ـ على قدر مايبذل من جهد للاستعلاء على نزعاته وأهوائه . . وأنه بقدر مايمد بصره إلى السماء ، وبقدر مايفتح قلبه لأنوار الحق فيها ، يكون ارتفاعه وعلوه عن عالم التراب .

الباب العاشر

المرأة فى حياة النبى

اتخذ أعداء الإسلام من تعدد زوجات النبى ، ومن تعدد الزواج فى الإسلام مطعنا على هذا الدين ، واعتباره شريعة تزكى مطالب الجسد البهيمية . ولا تعنى بالجانب الروحى والنفسى فى الإنسان !

ويصور أعداء الإسلام الشريعة الإسلامية من خلال هذه النظرة إلى تعدد الزواج فيه — بأنه دين جماعة من الأعراب التائهين فى الصحراء ، المحرومين من طيبات الحياة ، فكان من تدبير هذه الشريعة — لكى تجذبهم إليها ، وتغريهم بقبولها — أن استجابت لأحلامهم التى كانت تطرق خواطرهم فى اليقظة وتظهر على مسرح حياتهم فى النوم ، فجعلت من مقرراتها تأويل هذه الأحلام بإطلاق سراح هذه الخواطر ، وإرخاء العنان لها لترعى حيث تشاء ، مما يغذى شهوات الجسد ، ويشبع جوعتها !

فهناك النساء . . مثنى وثلاث ورباع . . للمسلم أن يتزوج أربعا ، فأربعا يخلى فريقا ، ويمسك فريقا . . إلى غير حد محدود !.

وهناك ألوان الطعام ، والمشتهيات التى تمد المعدة بالوقود الذى يحيل هذا الطعام إلى طاقات تستهلك فى معركة الحياة مع المرأة !!

فإذا لم يجد المسلم بين يديه هذه المتع الجسدية كما تصورها له أحلامه وخواطره فى هذه الدنيا ، أحاله الإسلام إلى وجود آخر يجد فيه تلك المتع على صورة أتم وأوفى ، حيث جنات الخلد فى الحياة الآخرة ، وحيث النعيم المقيم فيها ، وحيث الحور والولدان لمن يريدها ، وحيث هناك الأنهار من لبن لم يتغير طعمه ، ومن عسل مصفى ، ومن خمر لذة للشاربين !

هذا هو المفهوم الذى يحاول أعداء الشريعة الإسلامية أن يظهروها به ويعرضوها فى الناس على صورته .

وهم يتخذون من نبى الإسلام ، والقائم على شريعته غرضا منصوبا لسهامهم الطائشة .. حين يعرضون من سيرة الرسول هذا العدد الكثير من النساء اللاتى تزوج بهن ، ويعدون تجاوز النبى عن العدد الذى أباحته الشريعة للمسلم ، وبإمساكه تسع نساء أو عشراً معاً ، فى حين أنه لا يجوز للمسلم أن يمسك أكثر من أربع - يعدون هذا التجاوز محاباة من السماء له ، إن كان ذلك بتدبير من السماء ، أو إيثاراً لنفسه ، وترضياً لها إن كانت شريعته من عمله ! ويقول أصحاب هذا القول : إن النبى جعل قانون شريعته بحيث يخضع لمطالبه ، ويستجيب لحاجته فى هذا الباب .. !

فتراهم يقولون مثلا :

« إن النبى حين يرى هذا العدد الكثير من النساء فى حوزته ، ويرى أبصار المسلمين ، وغير المسلمين تتجه إليهن — حين يرى ذلك يجىء بقرآن يحرم على المسلمين أن يدخلوا بيته : « يأيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوت النبى إلا أن يؤذن لكم إلى طعام غير ناظرين إناه ، ولكن إذا دعيتم فادخلوا ، فإذا طعمتم فانتشروا ، ولا مستأنسين لحديث .. إن ذلكم كان يؤذى النبى ، فيستحى منكم والله لا يستحى من الحق ، وإذا سألتموهن متاعاً فاسألوهن من وراء حجاب .. ذلكم أطهر لقلوبكم وقلوبهن ، وما كان لكم أن تؤذوا رسول الله ، ولا أن تنكحوا أزواجه من بعده أبداً ، إن ذلكم كان عند الله عظيما » (١).

ثم من جهة أخرى يقرأ على نسائه قرآنا يفرض عليهن فيه الحجاب : « يا نساء النبى لستن كأحد من النساء ، إن اتقيتن فلا تخضعن بالقول ، فيطمع الذى فى قلبه مرض ، وقلن قولا معروفاً ، وقرن فى بيوتكن ولا تبرجن تبرج الجاهلية الأولى » (٢).

ثم من جهة ثالثة ينزل قرآنا يبيح لنفسه ما لا يباح لغيره من ثم على شريعته ؛

---

(١) سورة الأحزاب : ٥٣ .

(٢) سورة الأحزاب : ٣٢ — ٣٣ .

« يأيها النبى إنا أحللنا لك أزواجك اللاتى آتيت أجورهن ، وما ملكت يمينك مما أفاء الله عليك ، وبنات عمك ، وبنات عماتك ، وبنات خالك ، وبنات خالاتك اللاتى هاجرن معك ، وامرأة مؤمنة إن وهبت نفسها للنبى ، إن أراد النبى أن يستنكحها ، خالصة ، لك من دون المؤمنين ، قد علمنا ما فرضنا عليهم فى أزواجهم ، وماملكت أيمانهم — لكيلا يكون عليك حرج وكان الله غفوراً رحيما ، ترجى من تشاء منهن ، وتؤوى إليك من تشاء ، ومن ابتغيت ممن عزلت فلا جناح عليك ، ذلك أدنى أن تقر أعينهن ، ولا يحزن ، ويرضين بما آتيتهن كلهن ، والله يعلم مافى قلوبكم ، وكان الله عليما حكيما » (١)

كل هذا ، الذى يستنزله « محمد » من قرآن ، أويجىء به من عنده ، إنما ليبلغ به حاجة نفسه من النساء ، وليشبع شهوته منهن !

هذا هو نبى الإسلام فى تصور المستشرقين له ، وفى نظر من نظر إلى الإسلام من الغربيين بوجه عام ..

إنهم لايرون حياة النبى إلا فى جو « الحريم » ، ولا تقع أبصارهم من سيرته إلا على هذا الأفق ، لايبرحه أبدا ، ولايتحول عنه إلى غاية من غايات الحياة .

أما الرسالة وأعباؤها . وأما الدفاع عن المجتمع الإسلامى وحمايته . وأما سياسة الحرب والسلم لهذا المجتمع . فذلك كله من وراء ظهر « محمد » ومن نافلة الحياة عنده .. هذا ما يقول به غير المسلمين ممن يرصدون حركات الإسلام ويتربصون الدوائر به !

أما مقطع الحق فى هذه الآراء ، فلا نحب أن نفرد فيه بالحكم لها أو عليها كما لا نحب أن نقول فيها قولا قبل أن نضع إزاءها الحقائق التاريخية الثابتة ، وقبل أن نشهد واقع الحياة على مضامين هذه الآراء ، وما فيها من عناصر التجاوب مع الطبيعة البشرية ، وتفاعلها مع الزمن .

---

(١) سورة الأحزاب — الآيات ٥٠ ، ٥١ .

الرجل والمرأة :

الصلة بين الرجل والمرأة أمر طبيعى ، تدعو إليه الحياة . وتنادى به غريزة بقاء النوع .. تلك الغريزة التى تملأ كيان كل حى ، وتحمله على أن يستجيب لها . وينتهى إلى الغاية التى ترمى إليها ..

وأى خلل فى هذه الغريزة يكون من أثره خمودها ، أوالقضاء عليها — هو خروج على الطبيعة ، وانحراف عن الوضع السليم للكائن الحى فيها ..

فليس مما يعيب إنساناً من الناس أن يكون على الصحة والسلامة ، وأن تكون غرائزه الحيوية ، أوالحيوانية عاملة ، تؤدى وظائفها على الوجه الذى يحفظ وجوده فى ذاته ، وفى نوعه جميعاً .

أيعيب الإنسان أن يأكل ويشرب لأن الحيوان يأكل ويشرب ؟
أيعيب الإنسان أن ينام لأن الحيوان ينام ؟
أيعيب الرجل أن يتصل بالمرأة لأن الحيوان تتصل ذكوره بإناثه ؟

كلا .. فإن بقاء الناس فى الحياة مرتبط بما يحفظ هذه الحياة التى هى جسد يتغذى ، ويتناسل ، كما تتغذى وتتناسل الكائنات الحية جميعاً ..

نعم .. إن الإنسان يفارق الحيوان فى أن له وراء هذه الحياة الحيوانية حيوات أخرى عقلية ، وروحية ، ونفسية !

ولا بقاء ، أو بمعنى آخر لاجود للحياة العقلية والروحية والنفسية لإنسان من الناس إلا فى إطار هذه الحياة الحيوانية . التى من مستلزمات وجودها وبقائها الغذاء والتناسل !

وقد يقول المتفلسفة أو الروحانيون .. إن الإنسان لكى يكون إنساناً ينبغى أن يوهى الصلة بينه وبين الحياة الحيوانية ، بمعنى أن يجتزىء من الحياة الحيوانية بالقدر الذى يحفظ حياته وحسب ، وألا يتجاوز ذلك بحال أبدا ، فإن أى وقود

يد به الإنسان جسده . ويغذى به شهواته هو تبخير لجانب كبير من حيوانه العقلية والروحية والنفسية ، وهو تبديد لتلك الحيوات ، وإضعاف لها ..

وفى هذا القول حق ، ولكن من الحق أيضاً أن نقول إن التحيف على حاجة الجسد ومطالبه ، والمصادمة العنيفة لغرائزه ورغباته ، هو فى الجانب المقابل للإفراط فى الشهوات ، وتخمة الجسد بإشباعها .. كلا الأمرين غير محمود . . « وخير الأمور أوساطها » . . فلا الإفراط محمود النتائج ، ولا التفريط مأمون العواقب !

ولهذا كان من شريعة الإسلام القصد فى كل شىء .. ومنه القصد فى مطالب الجسد وحاجاته . . « وكلوا واشربوا . ولا تسرفوا . . إنه لا يحب المسرفين » وقد ذم الله الكافرين الذين لا يحيون إلا لأجسادهم ، ولا يتفكرون فى خلق السموات والأرض . ولا يرجون حياة وراء هذه الحياة . . كل همهم أن تنال أيديهم ما يقدرون عليه من حياتهم الدنيا «والذين كفروا ، يتمتعون ، ويأكلون كما تأكل الأنعام ، والنار مثوى لهم » . . كما كان من تدبير الإسلام أنه حرم الرهبانية ، فقال نبى الإسلام : « لا رهبانية فى الإسلام . » !

النبى البشر :

ونبى الإسلام بشر ، لم يقل هو أو لم يقل عنه أتباعه ، أو لم يتحدث القرآن الذى نزل عليه - إنه غير بشر . بل إنه يأكل الطعام ، ويمشى فى الأسواق ، وكونه رسول الله ، ومصطفاه لرسالته لم يخرجه ذلك عن طبيعة البشر ، ولم يخله من ضرورات الحياة البشرية .. فهو يجوع ، ويظمأ ، ويشبع ، ويروى ، ويتزوج ، وينام ، ويستيقظ ، ويحزن ، ويسر ، ويتألم ، ويشكو .. ويبول ، ويتغوط . . إلى غير ذلك مما هو من شأن الناس ، فى هذه الحياة !

وإذن فزواج النبى شأنه شأن كل مطلب من مطالب الحياة ، وضروراتها عند الناس ، فليس بدعاً إذن أن يتزوج ، وأن تكون له زوج وولد !

فالزواج فى الإسلام — كما هو فى الحياة — شريعة من شرائع هذا الدين ،

وسنة من سننه ، كما هو سنة من سنن الحياة ، وشريعة من شرائعها . لا يعدل عنه إلا جائر ، ولا يزهد فيه إلا معتل سقيم !

يقول النبي الكريم « النكاح سنتي ، فمن رغب عن سنتي ، فليس مني » !

وهنا اعتراض لا بد منه ؛ وهو أن الذين أرادوا أن ينالوا من نبي الإسلام وأن يشوشوا على شريعته لم يقفوا عند زواجه لمجرد الزواج ، وإنما كانت وقفتهم وتطاولهم عند هذا العدد الكثير من الزوجات اللائى تزوج بهن الرسول ، من ثيبات وأبكارا ، ومن أجناس وألوان .

فهذا العدد الكثير من الزوجات المختلفات سناً ، ولوناً ، وجنساً ، ماذا كانت غاية النبي منه إلا المتعة ، وإلا الإسراف الشديد في هذه المتعة ؟

وظاهر الأمر يعطى لهذا القول شيئاً من المنطق الذى يقيمه على تلك الصورة ، ويلبسه لباس القبول والتسليم .

إنسان يضم إلى بيته اثنتى عشرة زوجة ، فيهن غير واحدة من ذوات الجمال والشباب . . فماذا وراء ذلك إلا التمتع بهن ، ووصل حياته بحياتهن ؟ وماذا يقال عن مثل هذا الإنسان إلا أنه مزواج مفلم ، وأنه زير نساء ، وأسير شهوة ؟

وماذا يبقى لانسان من متجه آخر فى الحياة ، يكون له فيه شأن ومكان بعد أن صرف وقته كله . وجهده كله فى عالم الحريم . ودنيا النساء ؟

وهذا الظاهر الذى يضع على أفواه الواقعين فى سيرة النبي هذه المقولات الزائفة — يخفى وراءه الحقيقة التى تقوم وراء هذا الظاهر شامخة ، مشرقة ، واضحة ، حتى ليكون هذا الظاهر بمنزلة الظل الواقع تحت قدمى الإنسان فى رابعة النهار .

الحقيقة ، والظل :

والذى يعمى عن هذه الحقيقة ، ويفتح عينيه على الظل المرتسم منها ، لا يمسك من الحق بشيء ، ولا يستدل على الحقيقة بدليل . . .

وكيف تقول عن إنسان إنه إنسان من صفته كذا ، وكذا ، وأنت لا تنظر

منه إلا إلى ظله الملقى على الأرض ؟ وكيف تأخذ من هـــذا الظل صفاته التى تحدد شخصيته ، وتحدث عن ملامحه ؟ إن موقف الذين نظروا فى سيرة الرسول من غير المسلمين لم يكن أعدل من هذا الموقف الذى يقفه من ظل إنسان من يريد أن يتعرف على صفات هذا الإنسان . . وهم من أجل هذا لم يروا محمداً النبى ، وهم ينظرون فى سيرته ، وإنما رأوا سواداً حسبوه سواد إنسان !

وهم من أجل هذا أيضاً راحوا يلقون على هذا السواد أحكاماً مختلفة مضطربة ، ليس فيها من الحق شىء ، وليس فيها من واقع أمره كثير أو قليل !

ومن عجب أن يضلل كثير من المسلمين بهـــذه النظرات الخاطئة ، وأن يحرفهم الحماس فيبادروا إلى خوض المعركة فى هذا المستوى المنحدر فى منخفضات التضليل ، ومتاهات الخداع !

فزواج النبى بأكثر من امرأة وقد ذهب به أعداء الإسلام هذا المذهب من التشنيع والتضليل ، ولم يحتكموا فيه إلى عقل ، أو ضمير . بل استجابوا لنوازع الكراهية والحقد — هذا الزواج وإن يكن ذهب به أعداء الإسلام هـــذا المذهب . فإننــا نحن المسلمين . وأعنى أولئك الذين تصدوا للرد عـــلى هؤلاء الطاعنين — لم نحسن الرد على هذا التشنيع . ولم نقل ما ينبغى أن يقال من حق فى هذا الأمر . . إذ لم ننظر إليه فى واقعه مجرداً عن هذا التصوير الخاطىء الذى صوره الخصوم به ، ولم نخرجه عن هذا الإطار المصطنع الذى احتجزوه فيه ، فاندفعنا وراء هذه التصورات الخاطئة ، وعنينــا بالرد عليها بمــا يشبه أسلوب المخالفة فى قضايا المنطق . . فإذا قال الخصم هذا ليل ، قلنا هذا نهار . وإذا قال هذا الشىء أسود ، قلنا إنه أبيض . . نقول ذلك لمجرد أن القائل بهذا معروف لنا مقدماً بأنه لا يقول فى الإسلام وفى نبى الإسلام إلا مقلوبات الحقائق وأضدادها ، وهذا الإحساس المتسلط على المسلمين من جهة غير المسلمين يجعل الذين ينتصبون منا للرد على مقولات أعداء الإسلام لا يكلفون أنفسهم أدنى جهد فى هذا . وإنما حسبهم أن يأتوا بقلب الصورة التى جاء بها الخصم . لتكون هى صورة الحق عندنا ، الذى نرضى عنه ، ونسعد به .

وقد عرفنا فى مواقف كثيرة من قبل أن خصوم الإسلام لا يدمغون هذا المذهب الساذج فى الهجوم على حقائق الإسلام . . إنهم لا يقبلونها هكذا على هذا الوجه المكشوف ، بل إنهم يرصدون الواقع الإسلامى فى صورته التى يعرفها المسلمون ولا ينكرونها ، ثم يسلطون على هذه الصورة — فى حرص وحذر — سحباً رقيقة ماكرة لا تكاد ترى ، تحمل فى طياتها ألواناً معتمة ، تتكاثف شيئاً فشيئاً حتى تطمس معالم الحقيقة دون أن يتنبه لذلك أحد ، إلا بعد أن يقضى الأمر وتفوح رائحة الكذب والافتراء !

وفى موقفنا نحن المسلمين من زواج النبى لم نكن لنذهب إلى أبعد من هذا المذهب الذى أشرنا إليه وهو أن نلقى الخصم بضد ما يقول به . . وكفى !!

ومثل هذا الأسلوب لا يفحم الخصم ، ولا يخدم الحقيقة . . لأنه لا يقوم إلا على أكثر من التماس الادعاءات التى يلقى بها إلى الخصم فى مقابل ادعاءاته . . سواء أكان ذلك مما يقتضيه الواقع ، ويتطلبه الحال ، أم كان مما حكة وتكلفاً . .

وفى هذه القضية بالذات وقع أكثر علمائنا فى هذا ، وتورطوا فيه . .

فإذا قال أعداء الإسلام : إن « محمداً » قد ركبته شهوة طاغية نحو المرأة فراح يتزوج الواحدة بعد الأخرى حتى بلغ نساؤه اثنتى عشرة زوجة — كان ردنا على هذا فى كثير من الأحيان لا يتجاوز النظر إلى زوجات النبى ، ووصفهن جميعاً — عدا واحدة أو اثنتين موضع « المحالات على المعاش » اللائى لا يصلحن للرجال ، وإن صلحت منهن واحدة أو أكثر فقد كانت والنبى عنها فى شغل شاغل بالدعوة وبلقاء الأعباء الثقال ، ومواجهة الأحداث المهولة التى جاءته من قبل أعداء دعوته ، ثم باشتغاله بالدفاع عن المجتمع الإسلامى وملاقاة أعدائه فى ميادين القتال ، ثم فى القيام على تربية المسلمين ، وشرح مبادىء الشريعة لهم . . وهكذا . .

وهذا دفاع حق ، ومقبول بلاشك . . ولكنه إن أرضى الحقيقة ، ورضى عنه المسلمون فإنه لن يجد مقنعاً عند غير المسلمين . . بل وعند بعض المسلمين !

فلقد غفل هؤلاء المحامون عن حياة النبى قبل البعثة . وقبل أن يحمل هذا العبء الثقيل ، الذى ندبته السماء له ، وشغلته به !

فماذا كانت حياة النبى قبل البعثه ، وقبل حمل أعباء الدعوة . . فى عهد الصبا والشباب حيث يشتد سلطان الشهوة ويبلغ غايته فى الاستبداد والتحكم فى كيان الإنسان ؟؟

لابد أن يكون « لمحمد » شبابه ، وفتاءه ، وما تدعو إليه دواعى الشباب والفتاء ! كان سليم البدن ، معافى من كل داء ، فكان من السلامة والصحة والقوة بحيث لا يرى إلا على أتم صورة للشباب العربى الممتلىء قوة وصحة ، فى هذه البيئة التى لا يحيا فيها إلا الأقوياء الأصحاء !

وسيرة النبى الكريم تحدث عن قوته وبطولته التى ظل محتفظاً بها بعد أن قارب الستين من عمره ، وبعد أن مر بهذه الأحداث ، واحتمل ما احتمل من أعباء . . فكان يشهد الحرب ، ويخوض غمارها ، فى ثبات وقوة وعزم . . وقد كان موقفه يوم « أحد » حين هزم المسلمون ، وفى حنين يوم انكشف عنه أصحابه مما أثار عجب أعدائه قبل أصدقائه الذين بلوا شجاعته عن قرب ، وخبروه عن تجربة . . .

يقول على بن أبى طالب : « كنا إذا حمى البأس واحمرت الحدق اتقينا برسول الله صلى الله عليه وسلم » . .

فماذا عن شباب النبى ، وهو ما هو هذا الشباب من القوة والفتاء ؟

إن من ينكر أن « محمداً » كان فى كيانه من الرغبة فى المرأة ما فى كيان أقوى شاب فى بيئته إنما ينكر حقيقتين معاً . حقيقة تاريخية ، سجلتها مواقف النبى فى الحرب . . وحقيقة شرعية هى سلامة البدن ، وصحة الجسد ، وكمال بنائه لأنبياء الله ورسله . . وقد شهد الواقع لأنبياء الله جميعاً بهذه القوة الجسدية ، إلى جانب قواهم الروحية والنفسية .

وقد تحدث القرآن عن قوة موسى . . « قالت ياأبت استأجره ، إن خير من استأجرت القوى الأمين » (١) .

(١) سورة القصص : آية ٢٦

وعن قوة يوسف : « قال اجعلنى على خزائن الأرض .. إنى حفيظ عليم »(١).

وعن قوة داود « وقتل داود جالوت » . وكان جالوت هذا فارس الفرسان وبطل الأبطال فى عصره .

ونعم . إن « محمداً » كان له من القوة الجسدية رصيد كبير إلى جانب هذا الرصيد العظيم من القوة الروحية والنفسية .

وهو بهذه القوة الروحية والنفسية استطاع أن يحفظ توازنه ، وأن يغلب دواعى القوة الجسدية ، وأن يحمى شبابه من أن تستبد به شهوة ، أو تغلبه نزوة . . وهذا هـو فارق ما بين الكمال والنقص ، وفيصل ما بين الإنسان والحيوان : توازن القوى الجسدية والروحية ، وتعادل بين مطالب الجسد وأشواق الروح

فالنبى إذن على ما به من قوة جسدية ، وعلى ما فيه من رغبة قوية للمرأة ، كان له من قوته الروحية ما يستطيع به أن يملك زمام أمره ، ويتحكم فى هذه الرغبة ، وينفق من هذه القوة بالحساب الذى لا يجور عـلى شىء من حياته الروحية ، ولا يوهن من هذه الصلة الوثيقة التى بينه وبين الملأ الأعلى !

وشواهد السيرة النبوية قائمة تحدث بلسان صدق مبين عن هذه القوة الروحية التى كان يسيطر بها النبى على قوته القوية المنبعثة من الجسد نحو المرأة !

إن هذه القوة الجسدية ، والرغبة القائمة فيها للمرأة عند النبى — شأن كل قوة جسدية عند أى إنسان هذه القوة وما فيها من رغبة للمرأة لو أنها كانت فى كيان إنسان آخر غير النبى لجعلت حياته كلها مغامرات فى مراتع الشهوة ، ولما تركت له لحظة يفرغ فيها لشىء آخر وراء هذا السعار المضطرم ، ولما كان له فى حياته حال غير هذه الحال !

ولـكن « محمداً » بما أراد الله به من كرامة ، وما أفاض عليه من فضل قد أعطاه حظه كاملا من هذه القوة ، كما أعطاه حظوظه كاملة من قوى النفس والروح ،

---

(١) سورة يوسف : آية ٥٥

فجرت قوته الجسدية فى هذا المستوى العالى الذى كانت تجرى فيه قواه الروحية والنفسية ، بعيدة عن الرجس والدنس ، مبرأة من كل شائبة ، نقية من كل سوء !

لم يتزوج « محمد » إلا فى الخامسة والعشرين من عمره .. ومع هذا فما أخذت عليه فى فترة شبابه تلك الفترة الحرجة ، التى يختل فيها توازن كثير من الشباب — ما أخذت عليه ميلة هوى ، ولا نظرة سوء ، وما كان منه غدوة أو روحة إلى مراتع اللهو ، ومواطن السمر التى كان يغشاها شباب قريش ، حيث يلهون ، ويسمرون . .

لقد سلطت قريش كل ماتملك من قوى لتقع على سقطة أو زلة لمحمد ، فتأخذه بها ، وتفضحه على الملأ بأنه جاء بشريعة تحرم الزنا ، وتحرم الخمر ، وهو الذى كان من شأنه كيت وكيت ، ومن أمره مع فلانة وفلانة كذا وكذا . .

لم تجد قريش شبهة من الشبه فى هذا المجال ، تقيم منها حجة لإسقاط دعوته ، وكان هذا الصنيع أقرب شىء وأيسره لينهى مابينها وبين « محمد » من خصام ، لو أنها وجدت سبيلا إليه .

وهذه الحقيقة السافرة عن نقاء صفحة « محمد » قبل النبوة قد حملت غير المسلمين على أن يعترفوا بها ، لأنها أكبر من أن تنكر ، وأعرف من أن تخفى . .

يقول « ول ديورانت » :

ولم يتعاط « محمد » الخمر التى حرمها هو على غيره »[1] .

لم يكن ماعرف عن « محمد » من عفة وطهارة قبل البعثة ناجماً عن ضعف ، أو خمود فى رغبته للمرأة ، وطلبه لها ، وإنما كانت تلك العفة وهذه الطهارة عن نفس نقية ، وروح طاهرة ، تأبى الخبث ، وتتأذى منه ، وتضيق به !

قال ، أبو العباس المبرد :

قسم كسرى أيامه ، فقال : يصلح يوم الريح للنوم ، ويوم الغيم للصيد ، ويوم المطر للشرب واللهو ، ويوم الشمس للحوائج . . !

---

(١) قصة الحضارة — المجلد الثانى جزء ٤ ص ٦٤

قال ابن خالويه تعليقاً على هذا ما كان أعرفهم بسياسة دنياهم : «يعلمون ظاهراً من الحياة الدنيا ، وهم عن الآخرة هم غافلون» !

«ولكن نبينا صلى الله عليه وسلم جزأ يومه ثلاثة أجزاء : جزءاً لله ، وجزءاً لأهله ، وجزءاً لنفسه . . ثم جزأ أجزاءه — أى الجزء الذى لنفسه — بينه وبين الناس . فكان يستعين الخاصة على العامة ، ويقول : أبلغوا حاجة من لايستطيع إبلاغى ، فإنه من أبلغ حاجة من لايستطيع إبلاغها أمنه الله يوم الفزع الأكبر» (١) .

هذه هى العظمة فى أرفع منازلها ، وأكمل أحوالها . ! إنه يملأ بشخصيته الحياة كلها ، ويأخذها من جميع أطرافها . . يتحكم فى كل شىء ، ولايتحكم فيه أى شىء ! !

تقول السيدة عائشة رضى الله عنها :

«كان النبي صلى الله عليه وسلم يقبل ، ويباشر وهو صائم ، ولكنه أملككم لإربه» . . (صحيح مسلم جزء /٣ ص ١٣٥)(٢) .

هذا ، وقد طلق النبى نساءه جميعاً شهراً كاملا . فكيف كان صبره على هذا الانفصال بينه وبين المرأة ؟

ولقد كان يطوف على نسائه جميعاً فى ليلة واحدة .. فكيف هجرهن هذا الهجر الطويل وقدر عليه ؟

إنه كما قلنا ـ قوة النفس ، وسمو الروح ، اللذان يتحكمان فى شهوة الجسد ، ولاتتحكم فيهما شهوته !

وإنه لمن الخطأ الفاحش أن يقول الدافعون لهذه التهمة الملفقة : إن النبى

---

(١) الشفاء الجزء الأول ص ١٠٦

(٢) الإرب الرغبة ، والشهوة ، والمباشرة : الملامسة ، والمداعبة : مما يكون بين الرجل والمرأة قبل اتصالهما .

صلى الله عليه وسلم كان قليل الرغبة فى المرأة ، أو أنه فتر فى كيانه الشهوة الداعية إليها .

إن ذلك نقص فى الرجولة ، وليس كمالا كما يفهمه — خطأ — بعض من يطلب مزيداً من العصمة للنبى ، أو يسوق كمالا إليه على تلك الصفة . . والنبى فى هذا الذى كان عليه من قوة رغبته فى المرأة ، وشدة طلبه لها ، مع قدرته على هجرها ، وإمساك نفسه عنها — أكمل كمالا ، وأسمى عصمة . من كل كمال ، ومن كل عصمة .

يقول القاضى عياض :

« النكاح دليل الكمال ، وصحة الذكورية .

« فإن قلت : كيف يكون النكاح وكثرته من الفضائل ، وهذا يحى بن زكريا عليه السلام قد أثنى الله تعالى عليه أنه كان « حصورا » ؟ فكيف يثنى الله عليه بالعجز لما تعده فضيلة ؟ . . وهذا عيسى ابن مريم عليه السلام تبتل من النساء ، ولو كان كما قررته لنكح ؟ ؟

ويجيب القاضى عياض على هذا الاعتراض . . فيقول :

« فاعلم أن ثناء الله تعالى على يحى بأنه « حصور » ليس كما قال بعضهم إنه كان هيوباً (١) ، أو لا ذكر له ، بل لقد أنكر هذا بعض حذاق المفسرين ، ونقاد العلماء ، وقال هذه نقيصة وعيب ، ولا يليق بالأنبياء عليهم السلام . وإنما معناه أنه معصوم من الذنوب ، أى لا يأتيها ، كأنه حصر عنها ، وقيل مانعاً نفسه من الشهوات ، وقيل ليست له شهوة فى النساء .

« وقد بان لك من هذا أن عدم القدرة على النكاح نقص ، وإنما الفضل فى كونها موجودة ثم قمعها ، إما بمجاهدة النفس ، كعيسى عليه السلام ، أو بكفاية من الله كيحي عليه السلام ..

---

(١) أى يهيب لقاء النساء ، والاتصال بهن .

ثم هي - أي القدرة على النكاح - في حق من أقدر عليها، وملكها، وقام بالواجب فيها، ولم تشغله عن ربه - درجة عليا. وهي درجة نبينا صلى الله عليه وسلم، الذي لم تشغله كثرتهن - أي كثرة النساء - عن عبادة ربه، بل زاده ذلك عبادة لتحصينهن، وقيامه بحقوقهن، واكتسابه لهن، وهدايته لهن »(١).

على أن الذي يريد أن يفهم الوضع الصحيح لحال النبي مع المرأة يجب ألا يقصر نظره على هذا الجانب من الحياة الإنسانية، ويغفل الجوانب الأخرى التي تتجه إليها نزعات الإنسان، ورغباته اتجاهاً قوياً لا يقل عن الاتجاه إلى المرأة، والرغبة فيها!

فهناك إلى جانب المرأة شهوات أخرى تستبد بالإنسان، وتغلي مراجلها في كيانه .. كشهوة المال، والجاه، والسلطان، وكشهوة الطعام، واللباس، وصور كثيرة من حياة الترف والزينة التي يقتتل من أجلها الناس ..

« زين للناس حب الشهوات من النساء، والبنين، والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة، والخيل المسومة، والأنعام، والحرث.. ذلك متاع الحياة الدنيا والله عنده حسن المآب »(٢).

ففي هذه الشهوات يتقلب الناس، إليها يتسابقون، وعليها يتزاحمون .. وليست واحدة منها بمغنية عن الأخرى . . بل إن بعضها ليغرى ببعض، حتى لكأنها كائن واحد، وهي منه بمنزلة الأعضاء فلا يكمل وجوده إلا بها، ولا تؤدى هي وظيفتها إلا معه!

وخذ أي مطلب من هذه المطالب، تجده لا يمكن أن يستكمل وجوده، ويستوفى حقيقته إلا إذا رفدته هذه المطالب الأخرى وغذته، كما يرفدها هو ويغذيها.

مطلب المرأة مثلا .

هل يكفي أن يجد الرجل الذي ركبته الشهوة إلى النساء - امرأة أو أكثر وهو جائع فارغ الجيب والبطن؟.

---

(١) الشفا للقاضي عياض جزء ١ ص ٦٨

(٢) سورة آل عمران : آية ١٤

إنه لا بد له من أن يتغذى الغذاء الطيب ، ولا بد أن يوفر لجسده الراحة ، وأن يتاح له فرص الاستجمام من عناء ما بذل فى لقائه بالمرأة ، كى يجد القدرة على الاستجابة لداعى شهوته إليها .

ثم لابد لمثل هذا الإنسان أن يطلب المال ، ويلح فى طلبه ، ويتهالك على جمعه ، كى يجد حاجته من النساء ، وكى يجدن فى جواره من متع الحياة ما يرغبهن فى السكن إليه ، والرغبة فيه ! وهل يكفى المرأة أن تجد رجلا يضمها إلى نسائه . ويمنحها حظها منه . ثم لا تطعم بعد هذا الطعام الشهى . ولا تحيا الحياة التى تجد فيها مطالبها المادية موفورة ، قريبة من يدها ؟

ثم لابد له أيضاً من أن يطلب الجاه والسلطان فإن هذا مما يهيىء له حياة تقدره على أن ينال كثيراً مما يطلب ، وتدنى منه كثيراً مما يشتهى !

قلنا : إن الذى يريد أن يفهم الوضع الصحيح لحال النبى مع المرأة يجب ألا يقصر نظره على حاله مع المرأة ورغبته فيها . بل ينبغى أن تمتد نظرته إلى المطالب الأخرى التى لها سلطانها على النفوس ، والتى لا تقل الرغبة فيها عن الرغبة فى المرأة ، والتى لا يمكن إشباع الرغبة فى المرأة إلا بها .

قلنا هذا — ونقول للذين قالوا فى نبى الإسلام من استكثاره من النساء . وإفراطه فى الحياة معهن ..

نقول لهؤلاء — انظروا هذا الجو الذى كان يحيط بالحياة الزوجية التى كان يحياها أزواج النبى معه ؟

أكانت هذه الحياة ، حياة ترف ، ومتع ، ولذات جسدية ؟ وهل من أجل هذه الحياة أحببن النبى ، وحرصن على السكن إليه ، والحياة فى ظله ؟

لقد شهدت الدنيا كلها أن الحياة المادية فى بيت النبوة كانت حياة كفاف ، بل وجوع يكاد يكون متصلا .. ! .

فالنبى كان يلقى أهله فيسأل هل من طعام ؟ وكان أكثر ما يكون الجواب : لا طعام ! فيحمد الله ، ويطوى نهاره صائماً . . هكذا كان أغلب أيامه . .

تقول السيدة عائشة رضى الله عنها : « ما شبع النبى صلى الله عليه وسلم ثلاثة أيام تباعاً من خبز ، حتى مضى لسبيله » .

وتقول : « لقد مات النبى صلى الله عليه وسلم ومافى بيته شىء يأكله ذو كبد ، إلا شطر شعير فى رق لى » .

أما فراشه فهو كما تقول السيدة عائشة : « كان فراشه الذى ينام عليه صلى الله عليه وسلم أدماً ، حشوه ليف » .

أما البيت الذى يضم نساءه فهو « خوخات » أشبه بالأكواخ التى يتخذها رعاة البدو فى الصحراء للوقاية من الحر أو البرد لعدة أيام .

يقول « ول ديورانت » :

« كانت المساكن التى أقام عليها — النبى — واحداً بعد واحد كلها من اللبن لايزيد اتساعها على اثنتى عشرة أو أربع عشرة قدماً ، ولايزيد ارتفاعها على ثمان أقدام ، سقفها من جريد ، وأبوابها ستائر من شعر المعز أو وبر الجمل »(١) .

هذا هو ما أمسك به رسول الله من الحياة الدنيا ، وما ضم إليه من حطامها ، ولو شاء أن يأكل فى صحاف من ذهب ، وأن يتخذ له قصراً أشبه بقصر كسرى ، يسوق إليه ألوان الحياة ومفاتنها — لو شاء ذلك لكان حاضراً عتيداً عنده ، بعد أن استجابت الجزيرة العربية كلها لدعوته ، وآمنت برسالته ، وجعلت كل حياتها رهن كلمته وإشارته !

ولكنه رسول السماء ، ما جاء بتلك الرسالة العلوية لتكون لحسابه ، وإنما هى لحساب الإنسانية كلها ، ولم يطلب بجهاده فى سبيلها ما عند الناس ، وما فى دنيا الناس ، وإنما طلب بها ما عند الله من رحمة ورضوان !

ونساء النبى شاركنه هذه الحياة ، ووجدن فى جواره من أنوار النبوة ، وجلالها ما أسعدهن ، وأنساهن شظف العيش ، وخشونة الحياة . . فلقد كان

---

(١) قصة الحضارة الجزء الثانى من المجلد الرابع ص ٤٥

الغذاء الروحى الذى وجدنه فى ظلال النبوة زاداً طيباً ، ملأ حياتهن راحة ورضى !

ومع هذا ، فقد شعر الرسول الكريم بأن الحرمان الذى يعيش فيه نساؤه ربما كان مفروضاً عليهن بحكم الطاعة للرسول ، والولاء له . . فهن كمسلمات مفروض عليهن أن ينزلن عند حكم الآية الكريمة : « النبى أولى بالمؤمنين من أنفسهم » . . والنبى الكريم يريد أن يمنحهن حق المرأة فى اختيار حياتها التى ترضاها . . وأن يكن معه زوجات وزوجاً ، لا مسلمات ونبياً . .

وقبل أن يقول النبى كلمته فى هذا الذى دار فى خاطره ، وقبل أن يلتقى نساءه ليخيرهن بين الحياة معه ، واحتمال العيش على تلك الصورة التى يعشنها ، وبين أن يطلق سراحهن — قبل أن يعمل النبى هذا جاءت كلمة السماء لتقول عنه ما كان يريد أن يقول هو لهن . .

« يا أيها النبى قل لأزواجك . . إن كنتن تردن الحياة الدنيا ، وزينتها ، فتعالين أمتعكن وأسرحكن سراحاً جميلا . . وإن كنتن تردن الله ، ورسوله ، والدار الآخرة ، فإن الله أعد للمحسنات منكن أجراً عظيما »(١) .

فهاتان الآيتان تسجلان فى غير لبس : أى حياة كان يحياها النبى فى نسائه ، وأى حياة كان يحياها نساؤه معه ؟

إنها حياة لا يراد بها الحياة الدنيا وزينتها . . فإن كن يردن الحياة الدنيا وزينتها فإنهن لن يجدنها عند النبى ، وهو صلوات الله وسلامه عليه لا يحول بينهن وبين هذه الحياة الدنيا ، وما فيها من زينة إن أردنها ، بل سيخلى بينهن وبين ما يردن ، بعد أن يمتعهن متعة المطلقات . .

هاتان الآيتان وثيقتان تاريخيتان ، ليس بين وثائق التاريخ كلها ما يدانيهما صحة

---

(١) سورة الأحزاب : آية ٢٩

وثبوتاً .. إنهما فى صدور الألوف والملايين من البشر وعلى أفواههم وألسنتهم منذ عهد النبوة إلى اليوم ، محفوظتين أوثق الحفظ من أى تبديل أو تحريف ! ليست الحياة الدنيا وزينتها من مطالب النبى ، ولا من مطالب من يسكن إليه من زوج وولد !

هذا ، ما أذاعه القرآن على أسماع الناس ، وأعلنه فيهم على لسان النبى الكريم .. ورأوا واقعه رأى العين فى حياة النبى ، وحياة زوجاته معه .. !

فهل يعقل عاقل أن يكون النبى على غير ما نطق به القرآن فى هذا الشأن ؟

وهل يعقل عاقل أن يحيا النبى حياة منعمة رافهة ، ثم يجىء القرآن لينفى عن هذه الحياة ما فيها من نعيم ورفه ؟

ماذا يقول أعداء النبي إذ ذاك من يهود وغير يهود ؟ بل ماذا يقول المسلمون أنفسهم من الصحابة وغير الصحابة . . ماذا يقولون عن النبي ، وعن القرآن ؟

ولو أن هذا القرآن لم ينزل كله على النبي ، ولو أن هاتين الآيتين لم يكن لها شأن خاص ، وملابسات ذات دوى وقت نزولهما — لكان هنا مكان للتأويل المنحرف ، والتخريج المريض .. ولكن القرآن نزل كله على « محمد » ، وهاتين الآيتين فاضت عنهما أحاديث وأخبار فى سيرة النبى . وفى سيرة زوجاته ، وفى سيرة آباء زوجاته . كأبي بكر وعمر .

وبعد . .

فنعود ونقرر مرة أخرى إنه لا يضير النبى أن يكون آخذاً بحظ الرجل من المرأة ، فذلك ـ كما قلنا ـ من ضرورات الحياة البشرية ، ودعوة من دعواتها . والعجز عنها ، إنما ينشأ عن خلل فى تكوين الجسد وسلامته !

لا ضير على النبى إذن أن يكون على ما كان عليه من سلامة الجسد وصحة الأعضاء ، وقوة البنية ، ثم يكون له إلى المرأة داع ، وله فيها رغبة .. إنه إنسان ونبى معاً .. ومن الكمال أن يعطى الإنسانية فيه حقها ، وأن يؤدى للنبوة حقوقها !

ولكن ينبغى ألا يفهم هذا على أن زواج النبى من كل هذا العدد من نسائه كان لإشباع حاجته من المرأة وقضاء رغبته فيها ..

فكثير من زوجات النبى كان زواجه بهن لغير هذا ..

كان زواجه لبعضهن تطييباً لخاطرهن ، أو عزاء لهن ، أو رحمة بهن .. !

فإنه مع ما فى كيان النبى من قوة بادية ، وحيوية ظاهرة ، لم يكن مصرف هذه القوة وتلك الحيوية فى جانب واحد من جوانب الحياة ، بل لقد كان أكثر هذه القوة وتلك الحيوية منصرفا فى القيام بأمر الدعوة فى ميادين السلم والحرب ، وفى التمكين لها فى قلوب المؤمنين ، ولقائهم أفراداً وجماعات ، ويسألونه فى أمور دينهم ، ويحظون بالحديث إليه ، ويسعدون بالقرب منه .. فإذا جاء الليل ، وسكنت الحياة ، وآوى الناس إلى مضاجعهم قام ليله أو شطراً كبيراً منه ساجداً ، وقائما ، يناجى ربه ، ويقرأ ما نزل عليه من كتابه . . وكان ذلك دأبه حتى تورمت قدماه !

ومع هذا ، فإن ما بقى له بعد ذلك من وقت ، ومن قوة وحيوية كان كافياً لإرضاء نسائه وقضاء حق الزوجية لهن .

فعن أنس رضى الله عنه : « أن النبى صلى الله عليه وسلم كان يدور على نسائه فى الساعة من الليل أو النهار ، وهن إحدى عشرة » .

وعن طاوس ، قال : « أعطى رسول الله صلى الله عليه وسلم قوة أربعين رجلا » .

وعن سلمى مولاة رسول الله قالت : طاف النبى صلى الله عليه وسلم ليلة على نسائه التسع ، ويطهر من كل واحدة منهن قبل أن يأتى الأخرى ، وقال : « هذا أطهر وأطيب » .

وننظر نظرة سريعة فى زوجات النبى ، والأحوال والظروف التى تزوجهن فيها ...

١ — خديجة بنت خويلد :

أول امرأة تزوج بها النبى . وقد تزوجها قبل البعثة ، وكان إذ ذاك فى الخامسة والعشرين من عمره ، وهى فى نحو الأربعين ؟

ولم يتزوج عليها حتى ماتت قبل هجرته صلى الله عليه وسلم . وقد جاوزت الستين . كما قارب هو صلوات الله وسلامه عليه الخمسين .

ومن هذا نرى أنه قد ذهب أكثر شباب النبى مع امرأة واحدة ، قد كبرت ، ولم يكن فيها مأرب للرجال .

ومع هذا ، فقد كانت أحب نساء النبى إلى النبى . . وقد ظلت ذكراها الطيبة تجرى على لسانه بين نسائه . فيجدن فى أنفسهن غيرة منها .

عن عائشة رضى الله عنها قالت : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يكاد يخرج من البيت حتى يذكر خديجة ، فيحسن الثناء عليها ، فذكرها يوماً من الأيام فادركتنى الغيرة فقلت هل كانت إلا عجوزاً أبدلك الله خيراً منها ؟

« فغضب حتى اهتز مقدم شعره ، ثم قال : « لا والله ، ما أبدلنى الله خيراً منها . . آمنت بى إذ كفر الناس ، وصدقتنى إذ كذبنى الناس ، وواستنى فى مالها إذ حرمنى الناس ، ورزقنى الله منها أولاداً إذ حرمنى أولاد النساء » . قالت عائشة : فقلت فى نفسى لا أذكرها بسيئة أبداً » ؟

وانظر سبب هذا الحب الذى كان من الرسول الكريم للسيدة خديجة ؟ أ كان لجمالها ؟ أو لشبابها ؟ إنه لم يكن لشىء من هذا وإن كان لها جمال ، ولها شباب وإنما لأنها كانت أول من استجاب لدعوته وآمن برسالته ، ووقفت إلى جواره تشد من عزمه ، وتخفف من آلامه .

وكان هذا الحساب للمرأة فى نظر الرسول يغنى عن متابعة النظر فى زوجاته الأخرى ، للتعرف على الغايات التى كان يبغيها النبى الكريم من الزواج بمن تزوج بهن .

ويكفى أن نذكر هنا أنه قضى شبابه مع امرأة واحدة ، وأن هذه المرأة كانت تكبره بأعوام ، حتى لقد أدركتها الشيخوخة ، ولم يكن هو قد بلغ الخمسين من عمره .

ويكفى أن نذكر أنه — صلوات الله وسلامه عليه — لم يذكر فى معرض الكشف عن حبه لها شيئاً مما كان لها من جمال وشباب فى أيامها الأولى معه ، وإنما ذكر نبلها ، ومتانة خلقها ، وعظمة وفائها ، وسابقة إيمانها .

كان يكفى هذا أو بعض هذا .. ولكن لا بأس من أن نمضى فى النظر إلى هذه الزيجات .. ففيها عظات ، وعبر ، وفيها دروس نافعة ، وحكم بالغة .

٢ — سودة بنت زمعة :

تزوجها النبى بمكة بعد موت السيدة خديجة .

وكانت حين تزوجها الرسول فى سن متقدمة ، وهاجرت مع النبى إلى المدينة وتقدمت بها السن ، وبدت بين نسائه فى موقف حرج ، فهم النبى بطلاقها فقالت له : « لا تطلقنى . وأنت فى حل من شأنى ، فإنما أريد أن أحشر فى أزواجك ، وإنى قد وهبت يومى لعائشة ، وإنى ما أريد ما تريد النساء ، فأمسكها الرسول صلى الله عليه وسلم ، وصار يقسم أيامه لبقية نسائه دونها ، ويجعل نوبتها لعائشة » .

وواضح من هذا أن النبى إنما هم بتطليقها ليعفيها من عبء الزوجية ، بعد أن أصبحت فى هذه السن المتقدمة . وقد كان النبى حريصاً على أن يعطيها نصيبها كبقية نسائه من المبيت عندها فى يومها الذى لها . فلما نزلت عن هذا الحق ارتفع الحرج الذى كان بينه وبينها . فأمسكها عنده بين نسائه .

٣ — عائشة بنت أبى بكر :

تزوجها النبى وهى بنت تسع سنين ، وكان صلوات الله وسلامه عليه قد شارف الخامسة والخمسين !

والجدير بالنظر هنا ، أننا نرى النبى . وهو فى مطلع شبابه ، واكتمال فوته يتزوج ممن هن أكبر منه سناً ، بل وممن تكون قد بدت عليها الشيخوخة، كما رأينا فى الزيجتين الأوليين له من السيدتين « خديجة ، وسودة » . . ثم هو وقد ولى شبابه ، وجاءته أعباء الرسالة . وأثقالها ، وما لاقى من أجلها من ضروب الآلام، وشتى المسئوليات - يتزوج فتاة فى التاسعة من عمرها !

أفهذا زواج يراد به المتعة حقاً ؟

قد يكون ذلك لشاب فى مقتبل العمر . يرقب نمو شبابه وشبابها معه ، ففى مستقبل أيامهما فسحة فسيحة للمتعة !

أما والزواج فى مثل هذه السن ، فى الخامسة والخمسين . . فماذا ينتظر من مرور الأيام والسنين إلى أن تنضج فتاته ، وتصبح أهلا للقاء الرجل ؟

كم عاماً تقدر لهذه الفتاة حتى تصلح لأن تكون زوجة . . ؟ سنتين ؟ ثلاثة؟ أربعة ؟ .. خمسة ؟

إن أدنى هذا العدد لا يصبر عليه من فى هذه السن إذا كان يريد بزواجه مجرد الزواج ، ومجرد المتعة به ! . . فإن الأيام التى تمضى تخطر به نحو الشيخوخة والضعف ، بينما تخطو بفتاته نحو الشباب والاكتمال !

إذن فلابد أن يكون للزواج هنا غاية غير المتعة ، ومطلباً أسمى من الزواج لمجرد الزواج ..

والمعروف أن أبا بكر الصديق رضى الله عنه هو والد السيدة عائشة ، والمعروف أيضاً أن مكانه من رسول الله ، كان المكان الأول من الحب والتقدير، لما كان من موقفه فى الإسلام ، وبلائه مع رسول الله ، واحتماله الصدمات الأولى فى سبيل الدعوة الإسلامية ..

كان أبو بكر أول من أسلم من الرجال — على أصح الروايات — فهو بهذا كان ثانى اثنين — الرسول ، وهو — فى الإسلام ، كما كان ثانى اثنين إذ هما فى الغار كما يذكر القرآن الكريم .

وقد أذن الرسول الكريم — وهو بمكة — لأصحابه بالهجرة ، ولم يأذن لأبى بكر ، ليكون ظهيراً له ، وسنداً .. فلما هاجر النبى إلى المدينة كان أبو بكر رفيق هجرته دون المسلمين جميعاً !

ومن أجل هذه المواقف التى وقفها أبو بكر من الإسلام ومن رسول الله كانت له تلك المنزلة عند الله ، وعند رسول الله ، وعند المسلمين !

فلقد رفع الله شأن أبا بكر ، وأذاع فى العالمين ذكره وفضله ، فأشار إليه فى القرآن أكثر من مرة ..

ففى هجرته مع رسول الله ، وتخفيه معه فى غار ثور .. يقول الله سبحانه وتعالى : « إلا تنصروه فقد نصره الله ، إذ أخرجه الذين كفروا ثانى اثنين إذهما فى الغار ، إذ يقول لصاحبه ، لاتحزن .. إن الله معنا »[1] . وصاحب الرسول فى الغار هو أبو بكر الصديق ، بإجماع لم يخرج فيه أحد .

وفى حديث الإفك .. الذى امتحنت فيه السيدة عائشة . كان الذى تولى كبر هذا الإثم ، وأطلق لسانه بالفاحشة قريب لأبى بكر ، اسمه مسطح .

فلما برأ الله السيدة عائشة ، وقطع ألسنة السوء فيها بما نزل من القرآن ، حلف أبو بكر ألا ينفق على قريبه هذا ، وكان من قبل محسناً إليه ، باراً به .. فنزل قوله تعالى : « ولا يأتل أولو الفضل منكم والسعة أن يؤتوا أولى القربى والمساكين والمهاجرين فى سبيل الله ، وليعفوا ، وليصفحوا ، ألا تحبون أن يغفر الله لكم ، والله غفور رحيم »[2] .. وكان أبو بكر هو المشار إليه هنا فى هذه الآية ، فامتثل لأمر الله ، وعاد بالفضل والإحسان على قريبه هذا !

هذا هو أبو بكر ، وقد أسبغ الله عليه هذا الفضل ، واختصه بهذا الإحسان فذكره فى القرآن ورفع ذكره بهذا الذكر !

فماذا يصنع رسول الله لأبى بكر لقاء ما صنع أبو بكر معه ؟ وماذا يعمل ليجزى إحسانه بإحسان وفضله بفضل ؟

---

(١) سورة التوبة : آية ٤٠ .

(٢) سورة النور : آية ٢٢

لقد رضى رسول الله عنه كل الرضا ، ورضا رسول الله ربح عظيم فى الدنيا والآخرة ، لأنه من رضا الله ورضوانه !

ومن تمام هذا الرضا أن يدنى الرسول أبا بكر منه إلى أقرب مكان يمكن أن يكون . . إنه لايكتفى لأبى بكر أن يلقاه فى مجالسه بين المسلمين فى المسجد ، وفى الصلاة ، وفى غير المسجد ، وغير الصلاة . إنه يريد أن يتيح له مزيداً من الفرص للقاء الرسول ، ويؤثره من بين أصحابه بأن يدخل عليه بيته متى أحب . فكان أحكم تدبير لهذا أن يتزوج رسول الله صلى الله عليه وسلم بعائشة . ليكون فى ذلك زيادة فى إدناء أبى بكر منه . وباب يدخل منه إلى بيت الرسول ، ويجلس إليه فى خلوته مع أهله .. وكان فى التعجيل بزواج الرسول من السيدة عائشة قبل أن تنضج . وتصبح أهلا للزواج — كان فى هذا مبادرة بالخير لأبى بكر وتعجيل به له .

ولعلنا نستطيع إذ نلتمس أسباب هذا الحب والتدليل الذى كان من الرسول الكريم لزوجه عائشة أن نضيف ذلك كله ، أو أكثره إلى حب الرسول لأبيها أبى بكر ، وجعل هذا الحب والتدليل الذى يضفيه الرسول عليها زيادة فى الحب والإيثار الذى أضفاه على أبيها . .

« روى عن عمرو بن العاص قال : قلت لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، من أحب الناس إليك ؟ قال : عائشة . قلت : فمن الرجال ؟ قال : أبوها ؟

ولقد اكتسبت السيدة عائشة من حب رسول الله لها بركات من السماء والأرض .. فكان لها هذا الذكر العظيم بما حملت من العلم ، والمعرفة ، وما حفظت من حديث الرسول ووعت من آثاره ، على حداثة سنها ، إذ توفى عنها رسول الله وهى ابنة ثمانية عشر عاماً !

ثم كان لها من الله ذكر عظيم فى القرآن إذ نزلت آيات الكتاب مبرئة لها ، ناطقة بعفتها وطهارتها : فقال تعالى فى حق من أذاعوا هذا السوء فيها ، وافتروا هذه الفرية عليها « إن الذين جاءوا بالإفك عصبة منكم ، لاتحسبوه شراً لكم ،

بل هو خير، لكل امرىء منهم ما اكتسب من الإثم، والذى تولى كبره منهم له عذاب عظيم»(١).. ثم قال فيمن استمع إلى هذا الحديث، وأعطاه أذنيه: «ولولا إذ سمعتموه ظن المؤمنون والمؤمنات بأنفسهم خيراً، وقالوا هذا إفك مبين»(٢). ثم التفت القرآن إلى أصحاب هذا الإفك يسألهم البينة عليه، وما بيدهم من حجة. «لولا جاءوا عليه بأربعة شهداء فإذلم يأتوا بالشهداء فأولئك عند الله هم الكاذبون»(٣) ثم يلتفت مرة أخرى إلى الذين استمعوا لإفك الآفكين: «ولولا إذ سمعتموه قلتم ما يكون لنا أن نتكلم بهذا، سبحانك .. هذا بهتان عظيم»(٤) والذى يتدبر آيات القرآن التى جاءت فى هذا الشأن يجد فيها شواهد ناطقة على ما للسيدة عائشة من منزلة كريمة عند الله، إذ دفع عنها القرآن هذا الإفك دفعاً قوياً، وكان فى هذا الإفك خير كثير، ونعمة من الله ورضوان للسيدة عائشة، «لا تحسبوه شراً لكم بل هو خير لكم»!.

عن القاضى أبى بكر الطيب قال :

«إن الله تعالى إذا ذكر فى القرآن ما نسبه إليه المشركون سبح نفسه لنفسه، كقوله «وقالوا اتخذ الرحمن ولداً، سبحانه»(٥) فى آى كثير. وذكر تعالى ما نسبه المنافقون إلى عائشة، فقال: «ولولا إذ سمعتموه قلتم ما يكون لنا أن نتكلم بهذا سبحانك»(٦) سبح نفسه فى تنزيهها من السوء، كما سبح نفسه فى تنزيهه من السوء»(٧)

هذه هى الزوج الأثيرة عند رسول الله، وأحب الناس إليه! لم يكن زواجه منها صلى الله عليه وسلم لنبوة، لأنه حين تزوجها لم تكن بلغت بعد سن الاشتهاء، ولم تكن دوافع الزواج بها المتعة الزوجية بقدر ما كانت غاية ذلك تكريم أبى بكر، وإيثاره وإدناؤه إليه، وملء قلبه غبطة ورضى فى ضم فلذة من كبده إليه، وإنزالها أكرم المنازل فى بيت النبوة.

---

(١) سورة النور: آية ١١ (٢) سورة النور: آية ١٢
(٣) سورة النور: آية ١٣ (٤) سورة النور: آية ١٦
(٥) سورة الأنبياء: آية ٢٦ (٦) سورة النور: آية ١٦
(٧) نهاية الأرب — الجزء الثامن عشر ١٧٦

٤ — حفصة بنت عمر :

وما يقال فى زواج الرسول الكريم من عائشة ، يقال كثير منه فى زواج حفصة بنت عمر بن الخطاب . وإذا كان شأن عمر فى الإسلام فى المنزلة الثانية بعد أبى بكر ، وإذا كان مكانه من رسول الله بالمكان التالى لأبى بكر . . . وهذا أمر لا يحتاج إلى شرح أو بيان ، إذ كان ل سيرته ، وإفاضة أخباره أظهر من أن يدخل عليه شرح أو بيان !

كانت حفصة من المهاجرات ، وكانت قبل زواج رسول الله بها عند خنيس ابن حذافة السهمى ، وكان ممن شهد بدراً . . فلما مات عنها ، وتأيمت ، ذكرها عمر لأبى بكر وعرضها عليه ، فلم يرجع إليه أبو بكر كلمة ، فغضب من ذلك عمر ، ثم عرضها على عثمان حين ماتت زوجه رقية بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال عثمان : ما أريد أن أتزوج اليوم ، فانطلق عمر إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فشكا إليه عثمان وأخبره بعرضه « حفصة » عليه .. فقال رسول الله : « يتزوج «حفصة » من هو خير من عثمان ويتزوج « عثمان » من هى خير من « حفصة » » . ثم خطبها رسول الله من عمر ، فتزوجها ، فلقى أبو بكر الصديق عمر بن الخطاب ، فقال : لا تجد على فى نفسك ، فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان قد ذكر « حفصة » فلم أكن لأفشى سر رسول الله ، ولو تركها لتزوجتها » . ثم زوج رسول الله «عثمان» بابنته «أم كلثوم» .. ولهذا سمى عثمان بذى النورين ، إذ تزوج بابنتى رسول الله : رقية ، وأم كلثوم .. ولما ماتت أم كلثوم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لعثمان : «لو كانت عندنا ثالثة زوجنا كها يا عثمان » (١) .

وأنت ترى من هذا أن الزيجات كانت بين النبى وأصحابه ، وبين الصحابة والصحابة قائمة على معيار التوثيق للصلات التى بينهم وشد أواصرها بلحمة النسب ، والمصاهرة .

---

(١) انظر نهاية الأرب جزء ١٨ ص ١٧٧

٤ — زينب بنت خزيمة :

كانت تدعى فى الجاهلية أم المساكين .. وكانت قبل رسول الله عند الطفيل ابن الحارث بن عبد المطلب بن عبد مناف ، فطلقها ، ثم خلفه عليها أخوه عبيدة ابن الحارث ، فقتل عنها يوم بدر شهيداً ، فتزوجها رسول الله (١).

وقد مكثت عند الرسول ثمانية أشهر ثم ماتت .

٦ — أم سلمة ، هند بنت أبى أمية :

وكانت قبل رسول الله عند أبى سلمة بن عبد الله المخزومى . وكانت هى وزوجها أول من هاجر إلى أرض الحبشة !

فلما مات عنها زوجها تزوجها رسول الله ، وأصدقها فراشاً حشوه ليف ، وقدحاً ، وصحفة ، ومجشة (٢).

٧ — زينب بنت جحش :

كان اسم زينب برة ، فسماها رسول الله زينب . . وقد زوجها رسول الله صلى الله عليه وسلم « لزيد » بن حارثة متبناه » !

وقد وقعت بينها وبين زيد نفرة ، إذ كانت قرشية ، وزيد غير قرشى . . وللنسب وزنه عند العرب ، رجالا ، ونساء !

ولما لم يستقم الأمر بينهما طلقها زيد .. فتزوجها رسول الله .

وقد لغط المنافقون بهذا الزواج فى عهد الرسول ، وقالوا حرم محمد نساء الولد وقد تزوج امرأة ابنه ؟ فأنزل الله سبحانه وتعالى : « ما كان محمد أبا أحد من رجالكم ، ولكن رسول الله وخاتم النبيين »(٣) . . وقال تعالى : « ادعوهم لآبائهم هو أقسط عند الله »(٤) . . فدعى « زيد » من يومئذ زيد بن حارثة ، وكان من قبل يدعى زيد بن محمد .

---

(١) فى بعض الروايات أنها كانت عند عبد الله بن جحش ، فمات عنها شهيداً يوم أحد فتزوجها رسول الله .

(٢) المجشة : الرحى.

(٣) سورة الأحزاب : آية ٤٠

(٤) سورة الأحزاب : آية ٥

وبهذا التدبير العملى أبطل الإسلام عادة التبنى التى كانت شائعة عند العرب ... ولو اقتصر فيها على حكم القرآن لظلت بعض علائق هذا التبنى قائمة مقام العادة فى النفوس ، ولظل فى الناس من لا يرضى بزواج من يحمل منزلته عنده بمنزلة ابنه ، وإن رضى بحكم الإسلام فدعاه باسم أبيه الذى ولده .

٨ — جويرية بنت الحارث :

وهى من سبى بنى المصطلق ، وقد وقعت فى سهم ثابت بن قيس بن شماس . تقول السيدة عائشة : لما قسم رسول الله صلى الله عليه وسلم سبايا بنى المصطلق ، وقعت جويرية بنت الحارث فى سهم ثابت بن قيس بن شماس ، فكاتبته على نفسها ، وكانت امرأة حلوة ملاحة (١) ، لا يراها أحد إلا أخذت بنفسه ، فأتت رسول الله تستعينه فى كتابتها — أى فى عتقها — ، قالت عائشة : فوالله ماهو إلا أن رأيتها على باب حجرتى فكرهتها ، وعرفت أنه سيرى — أى النبى — منها ما رأيت .. فدخلت عليه فقالت : يا رسول الله : أنا جويرية بنت الحارث ابن أبى ضرار ، سيد قومه ، وقد أصابنى من البلاء مالم يخف عليك ، وقد وقعت فى السهم لثابت بن قيس بن شماس ، فكاتبته على نفسى ، فجئتك أستعينك على كتابتى ، قال : « فهل لك فى خير من ذلك ؟ قالت : وما هو يا رسول الله ؟ قال : أقض عنك كتابتك وأتزوجك ، قالت : نعم يارسول الله قال : قد فعلت » .. قالت — السيدة عائشة — خرج الخبر إلى الناس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم تزوج بجويرية بنت الحارث ، فقال الناس : أصهار رسول الله صلى الله عليه وسلم !! فأرسلوا ما بأيديهم . فلقد أعتق بتزويجه — أى النبى — إياها مئة أهل بيت من بنى المصطلق . فما أعلم امرأة كانت أعظم بركة على أهلها منها » (٢).

وطبيعى أن الجمال وحده لم يكن هو داعية الرسول إلى زواجه من جويرية

(١) أى بالغة قدراً كبيراً من الملاحة والحسن
(٢) نهاية الأرب جزء ٨ ، ص ١٨٣

هذه ، بل كان من دواعي هذا الزواج إكرام عزيزة قوم ذل كما يقول الرسول الكريم : « أكرموا عزيز قوم ذل » . . كما كان من دواعيه إكرام أهلها الذين دخلوا في الإسلام بهذا الذى صنعه المسلمون مع من وقع في أيديهم منهم .

٩ — أم حبيبة بنت أبي سفيان :

كان زوجها عبد الله بن جحش من مهاجرى المسلمين إلى الحبشة ، وقد هاجرت معه . . ثم ارتد زوجها عن الإسلام هناك ، وثبتت هى على إسلامها ، فبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم عمرو بن أمية الضمرى إلى النجاشى ليخطبها له ويزوجه إياها ، فخطبها النجاشى لرسول الله . وأصدقها أربع مئة دينار ! .

وواضح من هذا الزواج ما فيه من ترضية لهذه السيدة الكريمة وهى فى غربة عن أهلها . بعد أن فارقها زوجها كما فارق دينه ! كما أن فيه أيضاً استرضاء لأبى سفيان .

وتخفيف من حدة العداوة التى فى قلبه لرسول الله (١) .

١٠ — صفية بنت حيى بن أخطب :

كان أبوها سيد بنى النضير . . من بنى إسرائيل . . من سبط هرون بن عمران عليه السلام . . فلما غزا الرسول بنى النضير . ووقع حصن « أبى الحقيـــق » فى يد المسلمين جىء إليه بسباياهم . . وكانت فيهم صفية بنت حيى . . فأعتقها رسول الله ، وتزوجها !

روى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم دخل عليها — بعد أن تزوجها وهى تبكى ، فقال ! ما يبكيك ؟ قالت ؛ بلغنى أن عائشة وحفصة تنالان منى وتقولان : نحن خير من صفية ! نحن بنات عم رسول الله وأزواجه ! » فقال لها : ألا قلت لهن : « كيف تكن خيراً منى وأبى هرون ، وعمى موسى ، وزوجى محمد ؟ » ! .

---

(١) نهاية الأرب : جزء ١٨ ص ١٨٣ .

١١ — ميمونة بنت الحارث :

تزوجها رسول الله صلى الله عليه وسلم سنة سبع من هجرته ، فى عمرة القضاء ، وقد خطبها عليه جعفر بن أبى طالب ، وكانت أختها أسماء زوجاً لجعفر ، وأختها سلمى عند حمزة ، وأختها أم الفضل عند العباس بن عبد المطلب .

١٢ — ريحانة بنت زيد بن عمر بن حناقه بن شمعون :

وهى من يهود بنى قريظة ، وكانت قد وقعت فى السبى يوم قريظة ، فكانت صفى (١) رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فخيرها بين الإسلام ودينها فاختارت الإسلام ، فأعتقها وتزوجها .. وقيل إنه لم يتزوجها ، بل كان يطؤها بملك اليمين ، وأنه خيرها بين العتق والتزويج ، أو تكون فى ملكه ، فقالت : أكون فى ملكك أخف على وعليك ، فكانت فى ملكه حتى توفى عنها .

والرواية الأولى أثبت وأرجح .

° ° °

هذه هى زيجات النبى ، وأولاء كن زوجاته .. والأحوال والملابسات التى تزوجهن فيها .

ولن يستطيع منصف ، يحترم الحق ، ويحترم العقل ، أن يقول إن هذا العدد الكثير من النساء اللائى جمعهن الرسول فى بيت الزوجية — كن لإشباع رغبته فى النساء وإرواء ظمئه منهن !

إن ذلك افتراء على التاريخ ، واعتداء على الواقع ، واجتراء على الحق .

يقول ول ديورانت فى شأن زيجات النبى :

« ولقد كان بعض زيجاته من أعمال البر والرحمة بالأرامل الفقيرات اللاتى توفى عنهن أتباعه أو أصدقاؤه .. وكان بعضها زيجات سياسية ، كزواجه بحفصة

(١) الصفى : ما يختاره الرسول من الغنيمة .

بنت عمر الذى أراد به أن يوثق صلته بأبيها ، وكرواجه من ابنة أبى سفيان ليكسب بذلك صداقة عدوه القديم ، وربما كان الدافع إلى بعضها أمله فى أن يكون له ولد»(١)

فإذا تعلق مغيظ من الإسلام ، محنق على شريعته . بهذا اللون الظاهرى للصورة التى يبدو فيها هذا العدد الكثير من النساء فى بيت النبوة — إذا تعلق بهذا اللون الظاهر . من الصورة . وعمى عن إيحاءاتها . وتغافل عن المعانى الجليلة السامية التى تنطق بها — فحسبنا أنه لن يستطيع أن يجد حتى كلمة زور تستجيب له ليتهم النبى مع ما يدعيه له من قوة شهوته إلى المرأة — فى شىء من عفته وطهارته . فى حياته كلها . . قبل البعثة وبعدها . وذلك مما يزيد النبى عظمة إلى عظمته . وجلالا إلى جلاله .

* * *

(١) قصة الحضارة المجلد الرابع جزء ٢ ص

الباب الحادى عشر

نبى الملحمة

الخير والشر ، والنور والظلام ، والطمأنينة والقلق ، والرجاء واليأس ، والعافية والسقم ، والفقر والغنى ، واليسر والعسر ، والسعادة والشقاء . هذه وكثير غيرها من المتناقضات هي دنيا الناس ، التى قدر لهم أن يعيشوا فيها ، وأن تدور أمورهم على هذه الأضداد المتقابلة المتناقضة فى كل شىء منها .

فليس فى هذه الحياة شىء لا يضاده شىء ، ولا يقف له ، حتى لكأن ميزان الحياة لا يقوم إلا على هذا التراجح بين الكفتين .. فى إحداهما الشىء ، وفى الأخرى نقيضه !

انظر إلى الحياة بالمنظار الذى يروقك تجد أنها ليست لوناً واحداً أبداً فى أى حال من الأحوال .. إن نظرت إليها بمنظار أسود حالك السواد . بدا لك من خلال هذه الظلمات الكثيفة التى تسد وجه الأفق شعاعات من النور ، ولمعاً من الضوء تخالط السواد بالبياض ، وتفسد عليك هذه الصورة « السوداء » التى وقعت فى شباك تشاؤمك ويأسك ، فإذا أنت ممسك بخيوط هذا الضوء ، متعلق بشعاعات الأمل والرجاء .. وإن نظرت إليها بمنظار سحرى يريك الأشياء فى حلل عروس تحف بها البهجة ، وترف عليها أطياف السعادة طلع عليك من خلال ذلك وجوه كئيبة كالحة تدخل فى هذا الفرح القائم ، وتضرب بيدها فى عقده المنتظم ، فيتناثر ، وتنفخ بأفواهها فى أنواره ، فتضطرب ، وإذا هذا المنظر البهيج الجميل تظلله سحابة كثيفة ، كما تكسف السحب وجه الشمس فى يوم مشرق من أيام الربيع !

تلك هى الحياة .. ليست خيراً محضاً ، ولا شراً خالصاً ، وإنما هى

مزاج من الخير والشر معاً ، لا ينفرد أحدهما فى هذه الحياة ، ولا يستقل بوجوده فيها ! .

وكذلك الناس .. أخيار وأشرار . لن تخلو الحياة أبداً من وجوديهما معاً .. فما خلصت الحياة للأخيار ، ولا وقعت كلها ليد الأشرار ..

وتمثل هذا فى الإنسان الفرد . تجده « تركيبة » من الخير والشر . . فليس هناك ذلك الإنسان الذى يحسب خيراً لا شر فيه ، كما أنه ليس هناك ذلك الإنسان الذى يحسب شراً لاخير معه !

وإنما الحياة فى شئونها ، والناس فى جملتهم ، والإنسان الفرد فى خاصته — خير وشر ، أشبه بتلك المركبات الكيمائية التى تمزج بين حمضين ، وتؤلف بين عنصرين . .

على هذه الصفة قامت الحياة ، وعلى تلك الصورة صحبت الناس ، وصحبها الناس ، فألفتهم وألفوها .. سنة الله .. ولن تجد لسنة الله تبديلا .

° ° °

نقول هذا ليستقيم فى فهمنا أن الرحمة الخالصة ليست هى الدواء فى كل حال ، وليست الطعام السائغ الذى تحيا عليه النفوس فى كل حين .

وأنبياء الله ورسله هم أطباء الإنسانية وأساتها . ومن تدبير الطبيب الحكيم أن يجعل لكل حال حالا ، وأن يصف لكل داء دواء . فهناك داء دواؤه الحمية والإمساك عن الطعام زمناً . وهناك داء دواؤه طعام دون طعام . . وهناك داء تقضى مصلحة الجماعة أن يغيب مع صاحبه فى التراب اتقاء لعدواه ، ودفعاً للبلاء الذى ينجم عنه إذا لم يكن من الممكن شفاؤه من هذا الداء .

وحين يحمل رسل الله إلى الناس رحمة السماء فإنما هى دواء تستقيم عليه نفوس ، وتضيق به نفوس ، وتتفتح له قلوب ، وتستغلق دونه قلوب .

إن النور الذى يغمر الوجود ، نعمة يعيش فيها الناس ، ويحيا بها الأحياء ،

وتنكشف به مسالك الطريق إلى أبواب الرزق . . ولكنه عدو مبين للخفاش مثلا .. يعزله عن الحياة ويعمى عينيه عن موارد الرزق ، ومواقع الخير . . إنه لا يحيا إلا فى الظلام الحالك ، ولاتهيأ له الحياة إلا فى ظلمات الليل البهيم .

وفى الناس من ارتكست نفسه وانتكست طبيعته ، فلاينتفع بأنوار السماء ، ولا يتقبل الرحمات التى تجىء منها على يد رسل الله وأنبيائه ! ثم لا يقف الأمر به عند هذا ، بل يحاول جاهداً أن يطفىء هذا النور ، ويبدد تلك الرحمات .. فإنها — فى تقديره — العدو المبين له .. ولو استطاع الخفاش أن يسد وجه الشمس بجناحيه لفعل ، ولو غرق الناس والأحياء فى بحار الظـــلام . إنه لا يريد نوراً أبداً !

وإنه لكى يصل هذا النور السماوى الذى تحمله رسالات الرسل إلى أقوامهم لابد أن يدفع عنها كل ما من شأنه أن يعطل وظيفتها ، أو يعوق سيرها إلى غاياتها .

ومن أجل هذا كانت كل رسالة سماوية تحمل معها من القوى الضاربة على يد المعتدين عليها ، والمعوقين ، والواقفين فى وجهها — تحمل القدر الذى يناسب قوى الشر والعدوان المواجهة لكل رسالة .

فإذا كان العناد إجماعياً . وكان الشر مستولياً على الجماعة كلها . . كان العقاب على قدر الجرم . فناءاً إجماعياً ، وهلاكا مبيراً يأتى على كل شىء ..

أما إذا كان فى الجماعة راشدون : رأوا الهدى فاهتدوا ، وسمعوا منادى الحق فأجابوا ، فإن العقاب لا يقع إلا على الميئوس من هدايتهم وإنقاذهم .

« وقوم نوح لما كذبوا الرسل أغرقناهم . وجعلناهم للناس آية » (١) .

وكان ذلك بعد أن لبث نوح فى قومه ألف سنة إلا خمسين عاماً . يدعوهم إلى الله . ويرفع لهم أعلام الهدى والرشاد . فما استقاموا ولا استجابوا . .

---

(١) سورة الفرقان : آية ٣٧

وكان أن دعا « نوح » عليهم دعوته . فاستجاب الله له .

« وقال نوح رب لا تدر على الأرض من الكافرين دياراً . إنك إن تذرهم يضلوا عبادك : ولا يلدوا إلا فاجراً كفارا » (١) ..

« إنى كلما دعوتهم لتغفر لهم جعلوا أصابعهم فى آذانهم ، واستغشوا ثيابهم ، وأصروا ، واستكبروا استكبارا ، ثم إنى دعوتهم جهارا ، ثم إنى أعلنت لهم وأسررت لهم إسرارا ، فقلت استغفروا ربكم إنه كان غفارا ، يرسل السماء عليكم مدرارا ، ويمددكم بأموال وبنين ، ويجعل لكم جنات ويجعل لكم أنهارا .. مالكم لاترجون لله وقارا ، وقد خلقكم أطوارا » (٢) ..

فماذا بعد هذه المصابرة ، وهذا الغدو الرواح بالدواء ؟ لم هذا والمرضى يثورون فى وجه الطبيب ويحسبونه بكل ما يقع فى أيديهم .

وهكذا كان الشأن فى قوم : عاد ، وثمود ، وقوم لوط .. عصيان عنيد : عقابه الإبادة الشاملة التى لا ينجو منها إلا القليل .

يقول الله سبحانه وتعالى : « لقد أرسلنا رسلنا بالبينات وأنزلنا معهم الكتاب والميزان .. ليقوم الناس بالقسط ، وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد ومنافع للناس » (٣)

يقول ابن قيم الجوزية فى تفسير هذه الآية : « من عدل عن الكتاب قوم بالحديد » .. وقد روى عن جابر بن عبد الله رضى الله عنهما قال : « أمرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن نضرب بهذا — يعنى السيف — من عدل عن هذا « يعنى المصحف » (٤) !

فالإسلام دين قام على الدعوة بالحق ، فمـــن لم ير فى الحق مقنعاً . فالسيف . . .

---

(١) سورة نوح : آية ٢٧ (٢) سورة نوح الآيات من ٧ — ١٤

(٣) سورة الحديد : آية ٢٥

(٤) السياسة الشرعية : لابن تيمية ص ١٢ .

إنه لابد للحق من قوة تزيده، وتدفع عنه يد المعتدين الظالمين . . . « ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع وبيع وصلوات، ومساجد يذكر فيها اسم الله »(١) .

الإسلام والسيف :

من مفتريات الغرب على الإسلام، ومحاولاتهم النيل منه، والزراية عليه القول بأن العقيدة الإسلامية إنما قامت على السيف واستندت إليه فى حمل الناس عليها وإلباسهم لباسها، وأنه لولا سطوة سيوف المسلمين وما فعلت فى رقاب الناس لما كان للإسلام أن يبلغ هذا المدى الذى بلغته دعوته . ولا بسط سلطانه على هذه الآفاق البعيدة فى الشرق والغرب التى بسط سلطانه عليها .

ولو انزاحت عن عقول هؤلاء الغربيين عماية الحقد على الإسلام . وتبخرت من أدمغتهم أدخنة الغل الدفين له ، لرأوا أنهم قد خانوا الأمانة العلمية التى جاءوا إلى الناس بها . ودخلوا عليهم من أبوابها ، بهذه المقولات التى تقولوها على الشريعة الإسلامية ، وعلى رسولها الأمين . .

ولو أنا وجدنا عذراً لرجال الدين منهم . من الذين نشئوا على التعصب لعقيدتهم وخلع المجادة عليها ، والقداسة لها ، وإيثارها بالحسن الجميل من كل شيء دون غيرها ، وإظهار محاسنها بإلقاء الريب والشكوك على من ينافسها أو يهددها فى وجودها ـ لو أننا وجدنا عذراً لرجال الدين من هؤلاء العلماء ، فإنا لن نجد مثل هذا العذر للعلماء غير الدينيين، الذين تخصصوا للبحث العلمى ، ونذروا أنفسهم له . .

ولو أننا وجدنا شيئاً يعتذر به لعلماء العصور الماضية حيث استحكم الجدل ، وسيطرت السفسطة على عقول العلماء ، وحيث كانت مذاهب الكلام ، وتركيبات المنطق هى المادة التى يقيم منها العلماء مذاهبهم ، ويعلون بها صروحها ـ لو أننا وجدنا شيئاً يعتذر به هؤلاء العلماء الغابرين لما وجدنا شيئاً من ذلك للعلماء المعاصرين الذين أخلوا رءوسهم تلقيات العلم التلقينى ، وأفرغوا عقولهم من تلك المسلمات التى آمن لها الناس من غير بحث أو تمحيص ، حين أعادوا بناء العلم على أساس التجربة فى

(١) سورة الحج، آية ٤٠

حقل الحياة ، وتمحيص الحقائق وتنقيتها بمعطيات الحس والمشاهدة .

إن هذه القولة التي يقولها العلماء الغربيون المعاصرون عن الإسلام هي إحدى رمياتهم الهزيلة الطائشة فيما يرمون به الإسلام من أباطيل ومفتريات !

* * *

ونحن لا ندفع أن الإسلام قد أعمل السيف في رقاب أعدائه وخصومه، وأنه أطاح رءوساً وفلق هامات ، وأراق دماء .

هذه حقيقة غير منكرة ، فلم يحاول الإسلام أبداً أن يقول إن شريعته لا تستعمل السيف ، بل إنه دعا إلى استعمال السيف وحرض عليه تحريضاً شديداً . إنه لم يحمل إلى أتباعه قولة السيد المسيح : « من ضربك على خدك الأيمن فأدر له خدك الأيسر » ، بل حمل إليهم : « فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم » [1] بل دعا إلى أكثر من هذا ، دعا إلى أن يستبسل المسلم في ميدان المعركة إذا لم يكن له بد من لقاء العدو . فليقتل خصمه قبل أن يقتله الخصم . قال تعالى : « فإن قاتلوكم فاقتلوهم . كذلك جزاء الكافرين » [2] . . فالقتل بين المؤمنين هو الجزاء الذي يجب أن يكون للكافرين ، وهو الحساب الذي ينبغي أن تختم به المعركة بين المؤمنين والكافرين !

لقد دعا الإسلام إلى الجهاد في سبيل الله ، وإلى الإقدام في الحرب ، والثبات في وجه الأعداء ، ومجد الاستشهاد في ميدان القتال ، وجعل منازل الشهداء مع النبيين والصديقين . وحسبنا أن نقرأ في كتاب الله قوله تعالى : « يأيها الذين آمنوا إذا لقيتم الذين كفروا زحفاً فلا تولوهم الأدبار ، ومن يولهم يومئذ دبره إلا متحرفاً لقتال أو متحيزاً إلى فئة فقد باء بغضب من الله ، ومأواه جهنم وبئس المصير » [3] وقوله : « يا أيها الذين آمنوا إذا لقيتم فئة فاثبتوا ، واذكروا الله كثيراً لعلكم تفلحون » [4] ، وقوله جل شأنه : « فإذا لقيتم الذين كفروا فضرب الرقاب ، حتى إذا أثخنتموهم فشدوا الوثاق » [5] وقوله سبحانه : « إن الله يحب الذين يقاتلون في سبيله صفاً ، كأنهم بنيان مرصوص » [6] . . حسبنا أن نقرأ مثل

(١) سورة البقرة : آية ١٩٤
(٢) سورة البقرة : آية ١٩١
(٣) سورة الأنفال : آية ١٦
(٤) سورة الأنفال : آية ٤٥
(٥) سورة محمد : آية ٤
(٦) سورة الصف : آية ٤

هذه الآيات ، من كتاب الله لنعلم أن الإسلام قد جعل الجهاد بالسيف فى سبيل الدعوة والدفاع عنها أمراً واجباً ، ، من نكل عنه ، أو تخاذل فى ميدانه ، أوتلبث فى الانطلاق إليه ، فقد أتى باباً عظيما من أبواب الفسوق والعصيان ، واستوجب غضب الله ومقته(١) .

هذه حقيقة لا ندفعها ، ولكن ليست هى الحقيقة كلها . . إنها شطر الحقيقة أو بعضها . أما الشطر الثانى من الحقيقة ، أو القدر الأكبر منها فهو الدعوة الإسلامية ذاتها ، أو بعض آخر حقائق هذه الدعوة ، وما تحمل إلى الناس فى يديها من خير كثير . ورحمة واسعة . وأن هذا الخير ، وتلك الرحمة هما مقصد الدعوة وغايتها!

أما السيف الذى قام إلى جانب هذا الخير وتلك الرحمة ، فإنه ليس أمراً مقصوداً لذاته . وإنما هو شيء عارض ، لا ينبغى أن يكون من مقومات الدعوة ولا أن يحسب عليها . . إنه الحارس الذى يقف وراء هذا الكنز الثمين ، يدفع عنه غارات اللصوص ، والمنتهبين ، والخطافين !

أرأيت إلى هذا العدد من الشرطة ، يقوم على حراسة هذه الخزائن التى تضم الأموال الطائلة وكرائم الجواهر والحلى فى مصرف من تلك المصارف العالمية ؟ ثم أرأيت إلى اللصوص يتسللون إلى هذه الخزائن ، يريدون الاستيلاء على ما يقدرون على حمله منها؟ ثم أرأيت إلى الشرطة وقد انتبهوا إلى هؤلاء اللصوص؟ ثم أرأيت هؤلاء اللصوص وقد تنبهوا إلى ما يريد الشرطة بهم ؟ ثم أرأيت إلى تلك المعركة التى نشبت بين الفريقين ؟ وإلى الدماء التى سالت ، والأرواح التى ذهبت ؟ ثم .. ماذا ؟ ماذا ترى فيما حدث ؟ هل ينتقص ذلك من قيمة الخزائن وما أودع فيها ؟ وهل يقع لوم على الشرطة وما نالت أيديهم من المعتدين ؟ وهل تأخذك بهؤلاء اللصوص أو بقتلاهم وجرحاهم مرحمة ؟ إنهم أثمة معتدون ظالمون . . قتلتهم اليد الأمينة الحارسة . . « وذلك جزاء الظالمين » .

---

(١) تأمل هذا الإعجاز فى تلك الكناية اللطيفة الرائعة التى قصد منها تنفير المؤمنين من الفرار عند ملاقاة الأعداء فى قوله تعالى : « فلا تولوهم الأدبار » حتى لكأن الذى يفر إنما يكشف عن سوأته .

إن أمر الدعوة الإسلامية ـ وكل دعوة سماوية ـ ليس دون هذه الخزائن وما تشتمل عليه من أموال ، وإن بلغت ما بلغت من نفاسة ووفرة : فإن الروح الذى تتولاه رسالات السماء أهم بكثير من أمر الجسد الذى تتجه إليه هذه الأموال!

ومن جهة أخرى .. فإن الإسلام ليس وحده هو الذى دفع بالسيف بغى الباغين عليه ، وكيد الكائدين لدعوته ، فإن الرسالات السماوية جميعها قد حملت الناس مع ما حملت من أنوار الهداية والرحمة صوراً مختلفة من النذر ، وألواناً متعددة من النكال لمن كذب برسل الله ، ووقف فى سبيل دعوتهم ، وبسط يده أو لسانه بما يسوؤهم !

وهل طوفان نوح أو صواعق عاد ، أو مرسلات هود ، أو لوط ، أقل إهلاكا وتدميراً مما فعلت سيوف الإسلام بالعصاة والملحدين ؟

وهل أما وقع فى بنى إسرائيل من مسخ ، وارتكاس من الطبيعة البشرية إلى طبيعة القردة والخنازير دون ما أحدثت سيوف الإسلام فيمن أصيبوا بها ، وكانوا من صرعاها ؟

ليس الإسلام إذن بدعاً بين الرسالات السماوية فى الالتجاء إلى السيف حين لم يجد النصح ، ولم تغن البينات ؟ بل إن السيف لأرحم كثيراً مما حل بالمعاندين المخالفين للرسل فى الأمم السابقة !

يقول الله سبحانه وتعالى فى شأن المكذبين بالرسل : « فكلا أخذنا بذنبه ، فمنهم من أرسلنا عليه حاصبا ومنهم من أخذته الصيحة . ومنهم من خسفنا به الأرض ومنهم من أغرقنا !.. وما كان الله ليظلمهم ، ولكن كانوا أنفسهم يظلمون »(١)

وقد كانت السماء فى الرسالات السابقة هى التى تتولى تأديب العصاة ، والتنكيل بهم ، على حين أن الرسالة الإسلامية قد جعلت أمر ذلك إلى النبى ومن اتبعه من المؤمنين ، ليبتلى ما فى قلوبهم ، وليمحص ما فى صدورهم ، حتى ترسخ قواعد الإسلام ، ويتأكد مقامه فى الحياة ، وليكون للمؤمنين فى كل زمان ومكان يشاركه فى هذا الغرس الطيب الكريم الذى غرسه النبى ، حتى يرعوه حق رعايته ، وحتى

---

(١) سورة العنكبوت : آية ٤٠

يجد الناس فيه روح الإنسان، فيأنسوا إليه، ويخلطوا أنفسهم به ! . وفى هذا ما ينبىء عن أن هذه الرسالة هى رسالة الإنسانية كلها، وأن الناس قد شاركوا فى رعايتها والقيام عليها .

وفى الرسالة الموسوية أول دعوة إلى الجهاد فى سبيل الله .. وهى أشبه بالطلقة الأولى فى المعركة الإنسانية بين الإيمان والكفر . ولكنها معركة لم تبدأ إلا فى الرسالة المحمدية . .

لقد سأل موسى قومه أن يدخلوا الأرض المقدسة ، وأن يطهروها من الملحدين ، فأبوا أن يسمعوا له ، وأن يلقوا عدوهم هناك .

ويقص القرآن الكريم هذا الذى وقع بين موسى وقومه . . فيقول سبحانه وتعالى « وإذ قال موسى لقومه : ياقوم اذكروا نعمة الله عليكم ، إذ جعل فيكم أنبياء وجعلكم ملوكا وآتاكم مالم يؤت أحـــداً من العالمين ، ياقوم ، ادخلوا الأرض المقدسة ، التى كتب الله لكم ، ولاترتدوا على أدباركم فتنقلبوا خاسرين .. قالوا ياموسى إن فيها قوماً جبارين وإنا لن ندخلها حتى يخرجوا منها فإن يخرجوا فإنا داخلون !! .. قال رجلان من الذين يخافون أنعم الله عليهما : ادخلوا عليهم الباب ، فإذا دخلتموه فإنكم غالبون ، وعلى الله فتوكلوا إن كنتم مؤمنين ، قالوا ياموسى : إنا لن ندخلها أبداً مادموا فيها .. فاذهب أنت وربك فقاتلا، إنا هاهنا قاعدون ، قال : رب إنى لا أملك إلا نفسى وأخى فافرق بيننا وبين القوم الفاسقين .. قال : فإنها محرمة عليهم أربعين سنة يتيهون فى الأرض .. فلا تأس على القوم الفاسقين »(١) .

لم يقدر لبنى إسرائيل أن يحملوا هذا الشرف الذى ندبتهم السماء له : ودعتهم إليه ، بل استحبوا الحياة الدنيا على الآخرة ، فكان هذا الإجماع الآثم على النكول عن الجهاد فى سبيل الله، وعن تلقى هذا الشرف بإهلاك العصاة.. الذى كانت تتولاه السماء وندبت الإنسان له ، ليكون له شرف المشاركة فى هذا الأمر العظيم .

---

(١) هذان الرجلان هما موسى وأخوه هرون كما يدل عليه سياق الآيات : «لا أملك إلا نفسي وأخي» وهي فى المائدة من ٢٠ — ٢٦

وعمل الزمن عمله فى بنى إسرائيل من بعد موسى ، وولدت الحياة منهم من يرضى الجهاد فى سبيل الله . . ولكنهم قلة لاتستقيد إليهم دعوة ، ولايشتد بهم دين .

يقول الله سبحانه وتعالى : « ألم تر إلى الملأ من بنى إسرائيل من بعد موسى؟ إذ قالوا لنبى لهم ابعث لنا ملكا نقاتل فى سبيل الله ! قال هل عسيتم إن كتب عليكم القتال ألا تقاتلوا ؟ قالوا ومالنا ألا نقاتل فى سبيل الله وقد أخرجنا من ديارنا وأبنائنا ؟ »(1) .. فماذا كان من أمرهم بعد أن كتب عليهم القتال ؟

« فلما كتب عليهم القتال تولوا إلا قليلا منهم . والله عليم بالظالمين . . »(2) الآيات .. إنها فلتة من فلتات الحياة أن يوجد فى القوم من يقاتل فى سبيل دعوة الله ، ينصر بها دينه ، ويؤيد كلمته ، ولو كان ذلك من قلة بحيث لا يذكر .

ولكن ما هكذا كان الشأن حين دعا « محمد » إلى الجهاد . . لقد استجاب له المؤمنون جميعاً . وألقوا بأنفسهم فى أحضان الموت . لايبالون أن يلقوه مصبحين أو ممسين . إن المسلمين جميعاً كتيبة معبأة للحرب ، والجهاد فى سبيل الله .. « ماكان للمؤمنين أن يتخلفوا عن رسول الله ولا أن يرغبوا بأنفسهم عن نفسه » .

فلقد كان من فضل الله على العرب أن فتح قلوبهم لدعوة الإسلام ، ثم ضاعف هذا الفضل بما حبب إليهم من أمر الجهاد فى سبيل الله ، وجعلهم أهلا لحراسة هذا الدين ، ودفع بهم كل يد آثمة تريد أن تنال منه .

لقد كانت الدعوات السماوية فى الأمم السابقة تؤيد من السماء بالقوى القاهرة المهلكة : من طوفان ، وصواعق ، وحجارة من سجيل ، وريح صرصر عاتية ، وغيرها مما يذهب بالمكذبين المعاندين ، وبما معهم من مال وبنين .

---

(1) وقد كانت سابقتهم مع موسى لاتزال ماثلة . والآية من سورة البقرة رقم ٢٤٦ .
(2) سورة البقرة : ٢٤٧

إنه لم يكن آنذاك فى الإنسانية مكان لحمل هذه المهمة النبيلة . ولم يكن فى الناس — غير رسل الله — من يستحق أن يقوم بالحراسة على الدعوة السماوية وحمايتها من السفهاء . وهذا مايؤيد ماذهبنا إليه من قبل أن الإنسانية كانت قبل الرسالة الإسلامية فى أطوار لم تبلغ بها مبلغ الرشد . . ولهذا لم يصح أن يقوم فى الناس أوصياء على الناس .. إنهم جميعاً فى طور مادون الرشد، ولا يقوم بالوصاية إلا من كمل ورشد .

فلما أن جاءت الرسالة الإسلامية التقت مع الإنسانية وقد طلعت فيها طلائع الرجولة ، وبزغت من بينها بواكير الرجال — ندبت السماء من آمنوا بهذه الدعوة أن يكونوا هم حمايتها ، والذائدين عنها . إنهم — وقد أصبحوا الإنسان الذى خلق على صورة الله — أن يكونوا خلفاء الله فى الأرض وعلى الناس .

هذه حقيقة من حقائق الدعوة الإسلامية، وفضل من أفضالها على أهلها المؤمنين بها . ثم هى من جهة أخرى شهادة للعرب أنهم كانوا البواكير المتفتحة فى الإنسانية كلها ، وأنهم أول من التقى بالسماء ، واستأهل حمل رسالتها، وحمل مسئولية حمايتها والدفاع عنها (١) !.

وندع هذه المقارنة بين الديانات السماوية ومواقع العقاب وصوره فيها للمعاندين والمكذبين ، لننظر فى تلك الدعوات والمذاهب غير الدينية التى تتجه إلى تغيير الأوضاع والنظم القائمة فى المجتمعات الإنسانية . . ماذا أريق فى سبيل هذه الدعوات وتحقيقها من دماء؟ وماذا أزهق لدعمها والتمكين لها من أرواح؟ ولا نسأل إذا كانت هذه الدعوات وتلك المذاهب صالحة أم فاسدة، ولزماً . . تلد خيراً أم شراً .. أم عقيما لا تلد شيئاً ! فإنها على أى حال لا ترتفع إلى مستوى الدعوات السماوية التى خلصت للخير ، وخلت من الدوافع الذاتية والأهواء الشخصية ، لانسأل عن هذا ، ولكن لننظر كيف سارت هذه الدعوات فى طريقها ، وكيف كان بدؤها وختامها؟ وكيف ذهب بريقها الذى استهوى الناس

---

(١) لعل هذا الرأى يفتح مجالا للنظر عند علماء الحياة — فى مدى تأثير البيئة الصحراوية وخاصة الصحراء العربية — فى الكيان الإنسانى وإنضاج ملكاته : بأن المواطن المختلفة من الأرض أشبه بالأرحام، والناس فى كل موطن هم الأجنة فى هذه الأرحام .

لأول أمرها ، ثم تحرك هذا البريق إلى نار تلظى .. احترق بها أولياؤها قبل أعدائها .. وخذ لذلك مثلا : الثورة الفرنسية .. إنها قامت على مبادىء إنسانية رفيعة . رسمتها أقلام الكتاب ، ولونتها قصائد الشعراء ، وهامت بها أفئدة الجماهير . فكانت هتافاً يملأ الآفاق بالحرية والإخاء والمساواة .. واندفع الناس ثورة عارمة وفى زحف مجنون ، يبشرون بهذه المبادىء ، ويجلونها للناس عرائس عليها بهجة العرس ، ونضرة النعيم . ولكن سرعان ما تحولت هذه الثورة إلى مجزرة ، فسالت الدماء أنهاراً بلا حساب ولا مراجعة .. لا يدرى أحد الطريق إلى النجاة .. فلا يكفى أن ينضم إلى صفوف الثائرين ، ولا أن يتحلى بشاراتهم ، ولا أن يردد هتافهم .. فلن ينجيه ذلك من أن يساق إلى « المقصلة » مادام هناك من يدس له ويشى به ، ويكيد له عند من صارت إليهم مصائر الأمور .

فأين هذا من دعوة الإسلام ومبادئه ؟؟ لقد كشف الإسلام للناس عن دعوته ، ورفع لهم أعلام النجاة .. فمن استظل بها فقد ضمن السلامة لنفسه وماله .. من قال « لا إله إلا الله محمد رسول الله » فقد أصبح فى الإسلام مسلماً ، لا سبيل لأحد عليه .. يقولها بلسانه ، وإن لم يعتقدها فى قلبه . إنها جواز المرور إلى الأمن والسلامة .. وهى الحد الفاصل بين الإيمان والكفر . وإنها حسابه فى الدنيا ، يصدق فيها بقوله .. أما ما فى قلبه فحسابه على الله الذى لا تخفى عليه ما تخفى الصدور .

فلم يترك الإسلام الأمر فى دعوته لهوى الناس وشهواتهم ، يكيلون بالكيل الذى يرضى نفوسهم ، ويجرى مع أهوائهم .. وإنما الذى صنعه الإسلام هو أن أقام إلى جانب دعوته حجازاً بين الحق والباطل هو شهادة ألا لا إله إلا الله ، وأن محمداً رسول الله .. يقولها الإنسان فيتحول من الكفر إلى الإيمان ، وليس لأحد عليه بعد هذا من سبيل !

أما القلوب وما تنطوى عليه فأمرها إلى الله . ليس لأحد أن يدعى الكشف عما فيها من خير وشر .. من إيمان أو كفر ..

يقول النبى الكريم : « أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله محمد رسول الله . فإن قالوها عصموا منى دماءهم وأموالهم .. وحسابهم على الله » !

وفى حديث ذى الخويصرة ، وقد استبان منه للمسلمين ما استبان من ريح

النفاق . . وبدا لأحد الصحابة أن يستأصل هذه الجرثومة الفاسدة . . لم يمكنه النبي منه ، وقال : « هلا شققت عن قلبه ؟ » . . ومن أجل هذا احتمى بالإسلام كثير المنافقين ممن لا خلاق لهم ، ولا مروءة عندهم ، وإنه على الرغم من أمارات النفاق البادية عليهم . فإن الإسلام قد تركهم وشأنهم . وجعل الكلمة التي نطقوا بألسنتهم دون أن تدخل قلوبهم - وقاية لهم ، وستاراً يستترون فيه ومدخلا يدخلون به في المجتمع الإسلامي .

ولا شك أن هذا المنهج على ما فيه من ثغرة ينفذ منها ذوو النفوس الضعيفة هو أعدل منهج يمكن أن يقوم بين الناس . ويعصمهم من الدسائس والوشايات التي إن أدانت مذنباً فإنها تدين إزاءه عشرات من الأبرياء الذين لا ذنب لهم . ولهذا كان من مبادىء الإسلام : « الخطأ في العفو عشرات المرات خير من الخطأ في العقوبة مرة واحدة » .

ونخذ مثلا آخر — غير الثورة الفرنسية ومذابحها — الثورة الروسية . إنها جاءت باسم الانتصاف للطبقات الفقيرة الكادحة وتخليصها من العبودية والإذلال لأصحاب رءوس الأموال ، من طبقات الأمراء وأصحاب الأعمال !

كم ذهب في سبيلها من ملايين البشر الذين حصدهم منجل قادة الحركة وزعمائها ؟ وكيف غرق الناس في بحار من الفوضى فلا يدري أحد ما المصير الذي يصير إليه في مصبحه أو ممساه ؟ ولا يدري أحد الاتجاه الذي يتجه إليه فيجد عنده الأمن والسلامة ، إن مشى في ركب الثائرين لم يأمن أن يجيء من يشهد عليه أنه ليس على دين الثورة . ولم ؟ لأن أسارير وجهه تقول هذا ، أو أنه سمع يقول كلاماً يشتم منه ريح العداوة للثورة ، أو أن فلاناً سمعه يقول كذا وكذا . . أو لا هذا ولا ذاك . . إنه ليس من شأنه أن يسأل : لم ؟ إن عليه أن يمد رقبته لسيف الجلاد وحسب ، دون أن يفتح فمه !

هذا شأن كثير من المذاهب والدعوات المدنية التي ربما تكون قد نشأت عن دوافع إنسانية كريمة ، وقامت من أجل مقاصد طيبة نبيلة ، ولكنها عند دخولها في دور التطبيق العملي اصطدمت بالمعاندين ، أو الحاقدين أو الجاهلين ، فكان

صراعهامعهم صراعاً لاتحكمه قاعدة عامة شاملة تفرق بين الأولياء وبين الأعداء، وإذا الناس جميعاً متهمون ، وإذا كل إنسان منهم إلى أن تثبت براءته ، وذلك على عكس القاعدة القضائية التي تقول : «كل إنسان بريء إلى أن تثبت إدانته» .

* * *

ولا بأس من أن نستطرد هنا بعض الاستطراد ، فنسأل : ترى لو أخذت الدعوات والمذاهب المدنية بالمبدأ الإسلامي وطبقته في مجال الحياة العامة لنشر مذاهبها ، والتمكين لها ـ أكانت تصادف بعض النجاح الذي صادفته الدعوة الإسلامية؟ أو بعبارة أخرى : لو أن كل دعوة من هذه الدعوات المدنية جعلت لها شعاراً مادياً يعرف به الأولياء من الأعداء هذه المعرفة الظاهرية التي لا تكشف عن الواقع الذي عليه الناس ـ أكان ذلك يبلغها الغاية ، ويدفع عنها كيد الكائدين، ومكر الماكرين؟ ونقول في غير تردد أن نعم! فليس بعد هذه التجربة الكبرى التي اتبعها الإسلام في دعوته ـ من يستطيع أن يدفع هذا الجواب أو ينقضه!

تستطيع الدعوات المدنية أن تقفو أثر الدعوة الإسلامية ، وتستطيع أن تضمن ـ مقدماً ـ نجاحاً مؤكداً ، وأن تأمن النكسات التي تعتري كثيراً من الدعوات .. ولكن .

ولكن ليس هذا على إطلاقه . .

فليس كل دعوة صالحة لأن تدخل في مثل هذه التجربة الإسلامية ، وأن تظفر ببعض النجاح الذي قدر لها .

فهناك دعوات هوجاء طائشة ، تمخضت عنها عقول مضطربة ، وتنفست بها صدور محمومة ، ونزوات طائشة . ومثل هذه الدعوات لا يمكن أن تحتفظ بحياتها إلا كما يحتفظ الدود الذي يتولد من الجيف . إنه لا يتحرك إلا ليموت

وفي التاريخ ـ في الشرق والغرب ـ شواهد كثيرة لهذا . .

دعوة بابك الخرمي مثلا(١) . وهو فارسي ظهر أيام « قباذ » بمذهب إباحي

---

(١) الخرمية : لفظة أعجمية تدل على ما يلذ وما يشتهي .

دعا فيه إلى انتهاب كل شىء ، واستحلال كل شىء .. فاجتمع إليه الجياع والمحرومون ، والمنحلون . وتهافت أصحاب اللذات على دعوته تهافت الذباب على العسل !.

هذه الدعوة قد صادفت فى أول أمرها نجاحاً ملحوظاً ، باجتماع الناس عليها ومظاهرتهم لها .. ولكن سرعان ما عصفت بالناس أعاصيرها ، فأفسدت حياتهم وقلبت أوضاعهم ، وانقلب أكثر الناس من دعاتها حرباً عليها .

وهكذا شأن الدعوات التى تخرج على طبيعة الحياة ، وتقلب أوضاعها . . إنها حينئذ لاتجد من الناس من يسندها ويشد أزرها ، لأنهـــا لاتتصل بعقل أو بقلبه .

فلكى تجد الدعوة مدخلا للتجربة الناجحة يجب أن تكون دعوة إنسانية . بمعنى أنها تخدم الصالح العام للناس وترعاه ، فلا تكون لحساب فرد ، أو جماعة . أو طائفة ، وإنما هما للناس ، ولخير الناس . إن لم يكن كل الناس فالغالبية العظمى فيهم . ثم لا يكفى أن تكون هذه الدعوة كلاماً يصاغ فى عبارات طلية ، أو أساليب منطقية ، وإنما يجب أن يكون الداعى أو الدعاة لها مؤمنين بها عن فهم ، متحمسين لها من غير تعصب . يدعون لها بالحكمة والموعظة الحسنة ، ويجيئون بها إلى الناس عن إقناع .

إن مثل هذه الدعوة لاتلبث أن تجد كل يوم ، لامؤمنين بها فحسب ، بل دعاة يسندون الدعاة ، ويقفون إلى جوارهم ومن ورائهم . . إنها ليست دعوة فرد ، ولكنها دعوة الحياة .. دعوة الناس جميعاً .

وفى الناس دائماً ـــ فى كل عصر ، وفى كل أمة ـــ منحرفون ، لايستجيبون لدعوات الخير ولا يستقيمون عليها .. وهؤلاء ينبغى ـــ لكى تسلم الدعوة ، ولكى يصل الخير إلى أهله ـــ أن يضرب على أيديهم ، وأن يرصد لهم العقاب الرادع الذى يناسب كل حالة ..

وهنا مكمن الداء وموضع الخطر ، فما أكثر ماتختلط الأمور . وتختل

الموازين ويفلت الزمام من يد القائمين على الدعوة، فيكون البلاء، وتكون الفتنة.

تحف دائماً بأصحاب الدعوات كثير من أصحاب الأهواء والضلالات، يزينون لهم الشر، ويفتحون لهم أبواب الكيد والانتقام، في صورة من يبغى النصح، ويريد الخير.. وقد يتخذ هؤلاء الناصحون من القول. ولطف المدخل ما يغرى أصحاب الدعوة بالاستماع إليهم، والأخذ بمشورتهم، وهنا ينفتح الباب الذى لا يسد أبداً. بل يزداد على الأيام اتساعاً، وتزداد الفتنة به عمقاً وامتداداً..

ولعلنا نجد العبرة ماثلة في فتنة وقعت في المجتمع الإسلامى — هى فتنة خلق القرآن — التى قسمت المسلمين شيعاً وأحزاباً. وحملت الخليفة «المأمون» على ما به من عقل وما عنده من حكمة — حملته على جناحها وأشرفت به على هاوية كادت تذهب بخلافته.

ولم يكن المأمون هو الذى يطرق هذا الأمر، ولا أن يفتح له عقله أو أذنه، لولا أن التف حوله عصبة أرادت أن تنتقم من خصومها، فلم تجد سبيلا غير هذه السبيل التى تضعهم أمام الخليفة موضع المخالف لرأيه، الخارج على عقيدته!

وانظر كيف كان مكر هذه العصابة وكيف كان تدبيرها!

فأولا: أوقعت في نفس المأمون، بعد مدارسات ومباحثات، في مجالسه العلمية — أن القرآن مخلوق! لأن كل شيء مخلوق لله، والقرآن شيء وإن كان كلام الله! فهو مخلوق!

وثانياً: كل من لا يعتقد هذا المعتقد فهو مشرك بالله. مستوجب العقاب، وكان أن فوجئ الناس بهذا الرأى، ووقع العلماء في محنة! الخليفة — وهو القائم على حماية العقيدة — لا يرى المؤمن مؤمناً حتى يقول إن «القرآن مخلوق»! والعلماء يرون هذه القولة بدعة، لأنها لم تكن من مقولات السلف، ولم تكن موضع نظر وبحث، ولم يكن لها مكان في مقررات العقيدة.

وذلك أن تقرأ صحفاً من أخبار هذه المحنة لترى كم أذيق الناس فيها من بلاء وكم نزل بهم من كرب ؟ حتى أن الإمام الجليل أحمد بن حنبل قد قيد ، وحبس وضرب ، وكادت تذهب روحه مما نزل به من بلاء !

نقول هذا لنقرر أن الدعوات المدنية كثيراً ما تدخل عليها العناصر الغريبة ، فتفسد على القائمين بها تدبيرهم المستقيم ، وتلتوى بمقاصدهم الطيبة .

والناس هم الناس ، أياً كانوا من رجاحة العقل ومتانة الخلق يخضعون للمؤثرات الخارجية ، ويتأثرون بالدوافع الشخصية ، والرغبات الذاتية .

وليس هناك من عاصم لمن يقومون على أمور الناس إلا الرجوع إلى « قانون » يحتكمون إليه ، هم وخصومهم على حد سواء .

لابد من شريعة تحكم بين الناس .. لكل جريمة جزاؤها ، من غير إفراط ولاتفريط .

و « الإسلام » يعصم دماء الناس وأموالهم إلا بحق .. هذا مبدأ قرره الإسلام من أول يوم جاء ! .

فكل ما وقع من الذين عارضوا الدعوة الإسلامية ، قبل أن يدخلوا فى الإسلام — كل ماوقع منهم من أذى للرسول الكريم قد محاه الإسلام ، منذ اللحظة الأولى التى دخلوا فيها مع جماعة المسلمين فى الإسلام .

فدخل أولئك الذين حاربوا الدعوة وآذوا رسول الله حين دخلوا فى الإسلام بصفحات بيضاء ناصعة ، لم يعلق بها شىء مما كان منهم قبل أن يسلموا .

فهذا « وحشى (١) » قاتل « حمزة » ، أسد الله ، وعم النبى ، وأحب الناس إليه .. يدخل فى الإسلام ويعيش فى المسلمين مسلماً ، لا يناله لسان بسوء ولا تمتد إليه يد بأذى .

وعمر بن الخطاب يرى قاتل أخيه زيد ، فلا يزيد على أن يقول له : « والله

---

(١) وحشى هذا عبد حبشى ، كان يجيد استعمال الحربة ، وقد جعل له سيده الخلاص من الرق إذا هو قتل حمزة فى غزوة أحد : وقد فعل ، فقتل حمزة ، وتحرر من الرق .

لا أحبك أبداً حتى تحب الأرض الدم المسفوح » فيقول الرجل : وهل ذلك يمنعنى حقاً هو لى ؟ فيقول عمر : أما هذا فلا . فيقول الرجل : لا بأس . إنما تبكى على الحب النساء !

« العدل » القائم على معيـــار ثابت مستقيم هو الذى ثبت أركان الدعوة الإسلامية ، ومكن لها فى القلوب .

« والعدل » الذى يقول به الإسلام هو « العدل » المطلق . العدل الذى لا يتغير وجهه أبداً ، ولا يناله أحد دون أحد .

* * *

ونعود إلى حديثنا عن الإسلام ، وأن السيف لم يكن الأداة العاملة فى انتشاره . ودخول الناس فيه أفواجا

فنقول - إلى ما قلناه ، من قبل - إن سيف الإسلام قد أغمد منذ أكثر من ألف عام . . ولا زال الإسلام يعمر القلوب فى أربع مئة مليون من البشر ، ولا زال الناس يدخلون فى الإسلام أفراداً وجماعات وأمما ، وليس للإسلام سيف ، بل إن السيوف تشهر ضد الإسلام فى صور من حملات التبشير ، والاضطهاد للمسلمين فى المواطن التى يتجه أهلها إلى الإسلام عن اقتناع ، دون أن يدلهم عليه إغراء بمال أو منصب وإنما دليلهم إليه مبادئه الإنسانية العادلة ، وشريعته السمحاء .

وانظر فى آفاق العالم الإسلامى تجد أن كثيراً من هذه الآفاق قد دخلها الإسلام دون أن يسل فيها سيف ، أو تراق قطرة دم . .

فمثلا أندونيسيا ، وأطراف الصين ، وسومطرة وجاوة وفيها جميعها أكثر من نصف العالم الإسلامى . . هل كانت ميادين حرب بين الإسلام والإلحاد ؟ وهل شهدت جيوش المسلمين تطؤها بخيلها ورجلها ؟ إن الإسلام قد دخل تلك الأوطان فى غير جلبة ولا صخب . . دخلها كما يدخلها شعاع الشمس على الناس

فى يقظتهم أو نومهم دون أن يطرق باباً أو يكسر نافذة . إنه يتحسس النافذ المفتوحة فيتسلل منها فى رفق إلى الحجرات، والساحات، فيغمرها بالنور والدفء، على حين يقف مترصداً النوافذ المغلقة والأبواب الموصدة حتى تفتح فيتدفق منها تدفق السيل الطامى .

هكذا دخل الإسلام على أهل تلك البلاد كما دخل على أوطان كثيرة أخرى فى أفريقيا مثل السنغال ، والصومال ، وأوغنده ، وجنوب إفريقيا ، وغيرها .

٥ ٥ ٥

وندع هذا كله ، ونسلم جدلا ، للقائلين — كيداً أو جهلا — بأن الإسلام قامت دولته على السيف ، وأن السيف وحده هو القوة العاملة فيما كان للإسلام من امتداد فى المشرق والغرب .

نسلم بهذا جدلا .

ولكن لنا سؤال نريد جواباً عليه من أصحاب هذا القول : ما الذى يمسك نظام الإسلام اليوم ؟ ومن الذى يقوم عليه ، فلا تفلت منه من هذه الأمم والشعوب التى تدين به ؟ إن النظام الذى يقوم بالقوة ويعتمد عليها لا يبقى فى الحياة لحظة واحدة إذا ذهبت عنه تلك القوة أو ضعف شأنها .

وواقع الإسلام اليوم ، وقبل اليوم ينبىء عن أن القوة التى صحبت الدعوة فى أول أمرها لم يعد لها مكان .. وأنه لا سلطان لأحد على أحد فى مواطن الإسلام فى أن يدين بأى دين ، أو لا يدين بدين أصلا .

وأكثر من هذا .. الدعوة الإسلامية نفسها صريحة صراحة لا تقبل جدلا فى أنها لا تعتد بشىء — حسناً كان أو شيئاً — إذا جاء عن طريق الإكراه .

فمن آمن مكرهاً ، فلا إيمان له .. كمن كفر مكرهاً ، فليس من الكفر فى شىء . يقول الله سبحانه وتعالى :

« من كفر بالله من بعد إيمانه إلا من أكره ، وقلبه مطمئن بالإيمان .. ولكن

من شرح بالكفر صدراً فعليهم غضب من ربهم ولهم عذاب عظيم » (١) .

ويقول نبي الإسلام صلوات الله وسلامه عليه : « رفع عن أمتى الخطأ ، والنسيان ، وما أكرهوا عليه » .

الدين . . إيمان ، ولا يكون إيمان تحت مؤثرات مادية تهدد الإنسان فى ماله أو دمه أو عرضه .

الدين . هو إيمان . . والإيمان حب وتقديس وإجلال لما يقع الإيمان به . . فكيف بدين يدخل على الناس من طريق الإرهاب والتهديد . . إن النفس لا تنفتح على مثل هذا الدين إلا الكره والمقت والازدراء ، وإنها ستلفظه كما تلفظ المعدة الطعام الفاسد .

وأمر الإسلام من أوله إلى آخره قائم على ألا إكراه فى الدين ، حتى تنفتح له القلوب وحتى يقع منها موقع الحب ، يخالطها مخالطة الروح للجسد .

يقول الله سبحانه وتعالى : « لا إكراه فى الدين ، قد تبين الرشد من الغى . . فمن يكفر بالطاغوت ويؤمن بالله ، فقد استمسك بالعروة الوثقى ، لا انفصام لها ، والله سميع عليم » (٢) . .

فالسيف لم يستعمل إلا ليفتح الطريق للدعوة حتى تبلغ أسماع الناس ، وحتى يدفع عنها حملات التضليل أو الإرهاب التى كان يقوم بها أعداء هذه الدعوة . . من المشركين ومن أهل الكتاب . . وحسبنا أن نقلب الصفحات الأولى من حياة الدعوة لنرى ما لقى النبي والنفر القليل من صحبه السابقين إلى الإسلام من بلاء ، وما احتملوا من شدائد . . حتى أنهم قد سدت عليهم منافذ الطرق إلى الهجرة عن الأهل والوطن ، فراراً بدينهم وتنفيساً لهذا الضيق الذى بلغت به القلوب الحناجر !

ونرى من جانب آخر تلك المفتريات الخبيثة والمراميات الدنيئة التى كان

---

(١) سورة النحل : آية ١٠٦

(٢) سورة البقرة : آية ٢٥٦

يذيعها اليهود فى الناس ، ويدبرونها للكيد للإسلام ولنبى الإسلام ، ولمن دخل فى الإسلام .

فكان لا بد أن يكون للسيف موقف هنا . . وأين يكون موقفه إذن إذا تخلف عن هذا الموقف ، ليمضى بقافلة الرحمة والخير إلى حيث تنتظرها الإنسانية لتجد فيها زادها العتيد لحياتها ، ولما بعد حياتها ؟ . .

فإذا سلمت القافلة من يد اللصوص وقطاع الطريق ، ووصلت إلى أهلها سالمة فقد آن للسيف أن يغمد . . إلا أن تسول لقطاع الطريق ، واللصوص ، أن يحركوا الفتن ، أو يعينوا عليها .

« لا إكراه فى الدين .. قد تبين الرشد من الغى » .. فهذا هو مبدأ الإسلام الذى تقرر بعد أن رسخت قواعد الدين ، وبعد أن وجدت الدعوة طريقها مفتوحة بينها وبين الناس . . يجيئون إليها أو تجىء إليهم . . على حد سواء .

ودع عنك ما يذهب إليه بعض من يستبد بهم الحماس الكاذب من العلماء والفقهاء الذين يقولون — بغير علم — إن هذه الآية منسوخة بآية أخرى أطلقوا عليها آية السيف ، وهى قوله تعالى :

« وقاتلوا المشركين كافة كما يقاتلونكم كافة ، واعلموا أن الله مع المتقين »(١).
« قاتلوا المشركين كافة » . . هذا المقطع من الآية هو الذى تعلق به من تعلق من الفقهاء والمفسرين ، فجعلوا منه وثيقة إعلان حرب على غير المسلمين ، إعلاناً عاما ، قائما أبدا ، لا فرق بين أن يكون ذلك فى مقام الدفاع أو العدوان .

وتحميل هذا المقطع من الآية هذا المعنى هو مما لا تعين عليه دلالة النص ، ولا يلتقى معه المقطع الآخر من الآية نفسها ، كما لا يشهد له الحال الذى نزلت الآية فيه . .

فأولا : « قاتلوا المشركين كافة » لا يمكن أن يفيد العموم المطلق ، وإلا كان على المسلمين أن يتتبعوا فى حرب شاملة مع جميع المشركين على هذه الكرة الأرضية . وإلا كانوا فى حكم المخالفين لأمر الله ، الخارجين عن طاعته ، إذا هم لم يفعلوا ذلك ويحققوه .

---

(١) سورة التوبة : آية ٣٦

ومحاربة المسلمين للمشركين على هذه الصورة أمر مستحيل لا يمكن أن يتحقق فى أى ظرف ، وفى أى حال . والتكليف به تكليف بما لا تسعه النفوس ، ولا تقوم له .. وشريعة الإسلام شريعة يسر لا حرج فيها . . « ما جعل عليكم فى الدين من حرج »(١) . « يريد الله بكم اليسر ، ولا يريد بكم العسر »(٢) . « لا يكلف الله نفساً إلا وسعها »(٣) .

وثانياً : المقطع الثانى من الآية : « كما يقاتلونكم كافة » هى فى مقابل « قاتلوا المشركين كافة » . . وهذا يدل على أن المسلمين ليسوا هم البادئين بالحرب ، ولا بقتال جماعى لجماعات المشركين ، وإنما المشركون هم المعتدون ، فكما اعتدوا فى جموع جمعوا لها الشيع والأحلاف ، فعلى المسلمين أن يجمعوا جموعهم لهم وأن يقاتلوهم جميعاً . . « قاتلوا المشركين كافة . . كما يقاتلونكم كافة » .

وثالثاً : نزلت هذه الآية فى غزوة الأحزاب « الخندق » . . . وفيها جمعت قريش جموعها ، وأحلافها من كل ملة وقبيل . . وبهذا الجمع الغفير رمت قريش المسلمين ، فكان لزاماً على المسلمين أن يكونوا جميعاً جبهة واحدة ضد المشركين جميعـــاً .

وعلى هذا فليست هذه الآية — آية سيف — كما يسمونها . وليست ناسخة للآية المحكمة : « لا إكراه فى الدين ، قد تبين الرشد من الغى » .

ثم كيف يستساغ أن يقول الله لنبيه « لا إكراه فى الدين » . . ويقرر له أن الدين لا يكون عن إكراه . ولا يثمر ثمرة طيبة إذا جاء عن هذا الطريق ، ثم يأمره أن يعلن هذه الحرب الجماعية على غير المسلمين أياً كانوا ، وأين وجدوا ؟ أهذا منطق يقبل إنسان أن يكون له ، وينسب إليه ؟ فكيف بالحكيم الخبير . . رب العالمين ؟

وكيف يلتقى النبى والمسلمون معه المشركين فى حرب عدوانية عامة ، والله سبحانه وتعالى يقول له : « أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين »(٤) ؟ ويقول له :

---

(١) سورة الحج : آية ٧٨ — (٢) سورة البقرة : آية ١٨٥

(٣) سورة البقرة : آية ٢٨٦ — (٤) سورة يونس : آية ٩٩

« ليس عليك هداهم ، ولكن الله يهدى من يشاء » ويقول له : « عليك البلاغ وعلينا الحساب » .. ويقول له : « لست عليهم بمسيطر » ويقول : « وما أنت عليهم بجبار فذكر بالقرآن من يخاف وعيد » ويقول : « إنما أنت منذر .. ولكل قوم هاد » ويقول : «ما على الرسول إلا البلاغ » ويقول : « ليس لك من الأمر شيء أو يتوب عليهم ، أو يعذبهم .. فإنهم ظالمون ..»(١) وكثير من الآيات غير هذه تدعو إلى هذا الموقف .. وورودها على هذه الكثرة لتؤكد هذا المعنى، ولتكون للسيف الذى يحمله النبى والمسلمون معه أو من بعده - أشبه بالمؤشر الذى يضبط وجهة المدفع عند انطلاقه حتى لا يصيب غير الهدف الموجه إليه .

وأكثر من هذا ، فإنه فى سورة التوبة ، وهى آخر مانزل من القرآن وفيها بضع وسبعون آية تحدد موقف المسلمين من المشركين .. وقد بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم على بن أبى طالب رافداً به أبا بكر - أمير الموسم فى الحج - ليعلن المشركين بها ..

فى سورة «التوبة» الآية التالية : « يا أيها الذين آمنوا إنما المشركون نجس ، فلا يقربوا المسجد الحرام بعد عامهم هذا ، وإن خفتم عيلة فسوف يغنيكم الله»(٢).

فهذه الآية صريحة صراحة قاطعة بأن الأمر بقتال المشركين ليس أمراً عاماً على إطلاقه فى كل زمان وفى كل ... فهؤلاء مشركون كانوا يشاركون المسلمين فى الحج والطوف بالمسجد الحرام ، وذلك بعد فتح مكة ودخول الناس فى دين الله أفواجاً .. وكان أولى الناس بالقتال، وأحقهم بالقتل هؤلاء المشركين الذين يخالطون المسلمين ويغشون المسجد الحرام .. ولكن دعوة الإسلام هذه لم تكن للتحريض على قتالهم أو الأمر به ، وإنما هى لإعلانهم بألا يقربوا المسجد الحرام ، ومتى ؟ بعد عامهم هذا !

فما أعظم هذا الدين ، وما أكثر رحماته بالناس .. حتى بالمشركين .. أعدائه السافرين ..

إنه لم يشأ أن يعجل بطردهم - وهم رجس - ولو شاء لكان فى المسلمين القوة

---

(١) سورة آل عمران: آية ١٢٧ .　　(٢) سورة التوبة : آية ٢٨ .

المبيرة المبيدة لهم .. ولكنه سمح لهم أن يطوفوا بالبيت ، وأن يبلغوا حاجتهم منه .. لأنه لم يكن أنذرهم بذلك من قبل .

وقد جاء بعد هذه الآية قوله تعالى :

« قاتلوا الذين لايؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ، ولايحرمون ماحرم الله ورسوله ، ولايدينون دين الحق من الذين أوتوا الكتاب حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون »[1] .

ومجىء هذه الآية بعد الآية السابقة بيان كاشف للعلة التى من أجلها ينبغى أن يضحى المسلمون بما كان يعود عليهم فى موسم الحج ووفود المشركين إليه ، ومشاركتهم فى هذا الرواج المادى الذى يكون عادة فى مثل هذا الموسم ..

إن على المسلمين أن يضحوا بهذا النفع المادى فى سبيل تطهير المسجد الحرام من هذا الرجس الذى يطوف به ، مع المشركين الذين يقتربون منه .. وعلى المسلمين أيضاً أن يعملوا على تطهير المجتمع الإنسانى من الشرك والمشركين، وخاصة فى مواطن الطهر والقداسة « الذين لايؤمنون بالله ، ولاباليوم الآخر ولايحرمون ما حرم الله ورسوله، ولايدينون دين الحق من الذين أوتوا الكتاب » .. قاتلوهم « حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون » .

فهذه الآية وسابقتها فى مساق واحد .. لقتال المشركين الذين يطوفون بالبيت الحرام بعد أن أنذروا بألا يطوفوا بعد عامهم هذا .. فإن عادوا بعد هذا الإنذار وجدوا المسلمين لهم بمرصد ..

الجهاد .. فى الإسلام :

الحرب شر لابد منه .. ودواء مر تقتضيه طبيعة الحياة الإنسانية لعلاج الأدواء الخبيثة ، والعلل المستعصية .

وفى الشر نجاة حين لاينجيك إحسان

إنها سنة الحياة .. سلام وحرب .. وخير وشر .

---

(١) سورة التوبة : آية ٢٩

والإسلام دين الفطرة . وتعاليمه وأحكامه قائمة عليها ، مقدرة بمقدارها . فما كان على فطرة الناس من أمور فهو دين وشريعة . . وما خرج على الفطرة وخالف طريقها ، فليس من الدين ، ولا من الشريعة .

وقد أشرنا من قبل إلى أن الحرب التي قامت في ظلال الدعوة الإسلامية كانت حرباً دفاعية لاهجومية ، وأن غاية هذه الحرب كانت اقتلاع الأشواك ، ورفع الحواجز التي اصطنعها المشركون في طريق الدعوة ليصدوا الناس عنها ، وليحولوا بينهم وبين الاتصال بها ، والتعرف عليها !

وقد عرفنا أيضاً أن آيات القتال التي جاءت في القرآن داعية إلى قتال المشركين والضرب على أيديهم أين كانوا ، وحيث وجدوا — كانت غايتها تعبئة شعور المسلمين ، واستثارة حميتهم للذود عن الدعوة وإرهاب أعدائها حتى لايجدوا فيها مطمعاً ، وحتى ينحسم الأمر بين الإسلام والكفر ، ويوضع حد للفتن التي يدفع بها المشركون إلى مواطن المسلمين . . « وقاتلوهم حتى لاتكون فتنة ، ويكون الدين كله لله »(١) . . « وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم » (٢) !

عرفنا هذا ، وقلنا إنه بعد أن قويت شوكة الإسلام ، وانحجر أعداؤه ، أخذت الآيات القرآنية تنزل بالدعوة إلى إغماد السيوف التي لم يعد لها مكان بعد أن أدت مهمتها ، وبلغت غايتها . . فما كان بالإسلام حاجة إلى إراقة ما أريق من دماء ، لولا أن هذه الدماء كانت إراقتها أمراً تدعو إليه المصلحة العامة لسلامة الإنسانية وخيرها . . إنها دماء فاسدة في الكيان الإنساني ، وفي إراقتها شفاء من هذا الصداع الذي يزعج راحة هذا الكيان وسلامته . . إنها أشبه بعملية « الفصد » تذهب ببعض الدم وإن كان الدم ينبوع الحياة ، وسرها الممسك بها :

وكذاك الجسوم وهي مراض   بعض أعضائها لبعض وقاء

هــذا هو صميم الإسلام في تشريعه للقتال : « لا عدوان إلا على الظالمين » فما جاء الإسلام ليقيم بين الناس العداوة ، وليوقد بينهم نار الحرب .. وماجاءت عقيدة سماوية لذلك ، وإنما جاء ليزرع الود ، والمحبة ، وليؤلف بين القلوب

---

(١) سورة المائدة: آية ٣٩   (٢) سورة الأنفال: آية ٦٠

المتنافرة وليجمع بين الشيع المتباعدة ، وليميت العصبيات التي تولد الحقد والضغينة بين الناس والناس .

والمجال التطبيقى لدعوة الإسلام أصدق شاهد لهذا ، فقد انضوى تحت لواء الإسلام السادة والعبيد ، والأشراف والسوقة ، ووقف الناس جميعاً فى مقام واحد ، ليس لأحد فيه فضل على أحد إلا بالتقوى .

فما اختصت الدعوة قريشاً بشيء ، ولا ميزت العرب بشيء ! لأنها دعوة الله لعباده جميعاً ، وهى رحمة للناس جميعاً . . كالشمس ، والهواء . لا يحجبان عن أحد ، ولا يؤثران بلداً عن بلد !

« يأيها الناس : إنى رسول الله إليكم جميعاً » . . ليس للعرب ولا للعجم ، وإنما لهم جميعاً .

وليس بين المسلم — فى شريعة الإسلام — وبين غير المسلم عداوة . . فهما إن فرق بينهما الدين ، فقد جمعتهما أواصر الإنسانية ! وهى أواصر يمكن أن يعيش الناس فيها على مودة ووفاق ، فإن دعوة الإسلام — فى صميمها ليست إلا توثيقاً لهذه الصلات الإنسانية ، وإقامة قواعدها على أسس ثابتة ، ودعائم متينة ، تمسك ميزان العدل والحق والخير بين الناس . فلا يضطرب ولا ينحرف !

« لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم فى الدين ، ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا إليهم إن الله يحب المقسطين . . إنما ينهاكم الله عن الذين قاتلوكم فى الدين ، وأخرجوكم من دياركم ، وظاهروا على إخراجكم أن تولوهم ومن يتولهم فأولئك هم الظالمون »[1] !

فأى سماحة بعد هذه السماحة ، وأى دين مثل هذا الدين فى سماحته تلك ؟ أو أى مذهب مثل هذا المذهب يسع الأولياء والأعداء ، ويبسط لهم يده جميعاً ؟!

أى دين أو أى مذهب رفع هـذه الحواجز القائمة بين الناس من مختلف الأجناس ، والألوان ، والعقائد ، والألسنة ، والمشارب ، وجمعهم على

(١) سورة الممتحنة : ٨ — ٩

مائدة الحياة ، فى مودة ووفاق ، كما فعل الإسلام بالمجتمع الإسلامى فى المجتمع الإنسانى ؟ .

ودع مايتحدث به الغربيون من تسامح الديمقراطية وإنسانيتها ، فإنها لاتعدو أن تكون أحاديث منمقة مزوقة ، ينكشف زيفها ، ويبطل عملها ،عندالتطبيق، وعند ملامسة الواقع الذى يعيش فيه الناس .

إن العصبية للون ، وللجنس ، وللعقيدة ، مازال يملأ نفوس الغربيين، ويتحكم فى تصرفاتهم ، فإذا الناس عندهم بيض وسود . . وإذا العالم فى نظرهم غرب وشرق ، وإذا الشعوب فى حسابهم مسيحيون ومسلمون !

ولو أخذنا نحصى الشواهد ، ونضرب الأمثال لهذا ، لاستولى ذلك على زمام الموقف منا ، وخرج بنا عن موضوعنا الذى نعالجه .

ولكن حسبنا أن ننظر إلى مأساة فلسطين نظرة خاطفة . . فى هذه النظرة السريعة ينكشف تعصب الغرب ، ويفضح زيف دعواه التى يدعيها عن مبادئه الإنسانية الديمقراطية . .

فلو كان الفلسطينيون غيرعرب .. أكان يلقى بهم فى العراء يموتون جوعاً ، وبرداً ومرضاً ؟

وهل شهد التاريخ أمة تجلى عن وطنها فى القرن العشرين ، وعلى مرأى ومسمع من جمعية الأمم المتحدة ، بل وبتدبير الأمم المتحدة التى يسيطر عليها الغرب ، ويوجه سير الأمور فيها ؟

وهل كانت الهدنة الأولى بين العرب واليهود فى سنة ١٩٤٨ وقد أوشك العرب أن يدقوا بجيوشهم تل أبيب ، هل كانت هذه الهدنة التى دعت إليها الأمم المتحدة إلا الخنجر المسموم الذى أغمد فى صدر الشعب العربى لينتزع تلك القطعة الغالية من الأرض المقدسة لتكون مرتعا خصباً لعصابة من جراثيم اليهود ، تستوطن فلسطين ، وتخرج منها أهلها مشردين ، مجردين من كل ما كان لهم من مال ومتاع وديار !

وقد عاشت هذه المأساة ، وسلخت من عمرها قرابة خمسة عشر عاماً إلى يومنا هذا ولا ندرى إلى متى تعيش . . ولكن الذى ندريه ويسجله التاريخ أن العالم الغربى الذى يزعم لنفسه الوصاية على العالم باسم الإنسانية والديمقراطية قد استساغ هذه المأساة ، وكأنها أمر مألوف لم يدخل على العالم بما يزعج ضميره ، ويؤذى وجدانه !

ولو كان أبناء فلسطين غير عرب لما استساغ الغرب هذا المصير الذى صاروا إليه . فقد كانت الحرب العالمية الأخيرة — مثلا — بما وقع فيها من أحداث قادرة على أن تبيد أمماً وتمحو شعوباً وتجليها عن أوطانها فى الميدان الأوربى ، ولكنها مع ذلك احتفظت لكل أمة بأهلها وبأرضها ، وبعضها لا يعدو أن يكون فى صغره قرية من القرى « كإمارة موناكو » مثلا ؟ ولم ؟ لأن أبناء أوربا - مهما يكن الأمر بينهم — لايمكن أن يسترقوا ، وأن يباعوا فى الحياة بيع العبيد . .

أما غيرهم من أمم الشرق فلا عليها أن تطرد ، وتشرد ، وتهيم على وجهها . ومأساة أبناء فلسطين لم تقع على الصورة التى وقعت بها لأنهم عرب وحسب ، ولكنهم عرب ومسلمون معاً . . وهذا مما ثبت أقدام المأساة ، وأكد حياتها ، ومكن لها . . فإن كون الشعب الفلسطينى شعباً مسلماً هو جريمة غليظة ، إلى كونه شعباً عربياً . . لأن الغرب على رغم لادينيته اليوم وعلى رغم دعوى التسامح التى يدعيها حيال المعتقدات الدينية ، والسياسية ، والاجتماعية وغيرها ، فإنه مازال يحمل للإسلام بنوع خاص دون سائر المعتقدات والمذاهب — مازال يحمل قدراً كبيراً من البغض والكراهية للإسلام والمسلمين ، وإن الحرب الصليبية التى وجهها الغرب إلى الإسلام منذ تسع مئة عام وإن سكن لهيبها فإنها ما تزال تخفى تحت رمادها جمراً يتضرم حنقاً وغيظاً على الإسلام ، ومازال يرمى بين آونة وأخرى بشرر وشر ينال من الإسلام ومواطنه ماينال من ضر وأذى.

وارجع البصر إلى مواطن الإسلام خلال موجة الاستعمار التى اجتاحت قارتى آسيا وأفريقيا خلال القرنين الماضى والحاضر تجد أن ما وقع على الإسلام ومواطنه من آثار الاستعمار وسيئاته أضعاف ماوقع على الشعوب غير الإسلامية

التى أصيبت به ! فإذا كان ما وقع عليه الاستعمار أمة ينسب أهلها إلى المسيحية كانت يد الاستعمار رفيقة عليها رحيمة بها ، بل إن الاستعمار لا يجد له مقاماً فيها ، فسرعان ما يحلو عنها وينسحب منها إلى أقطار إسلامية جديرة به !

الحبشة — مثلا — أمة المسيحية مكان فيها . . فما حدث لها ؟

إنها الدولة الوحيدة بين دول أفريقية هى التى سلمت من الاستعمار ومن جرائمه ، فلم يدخلها فى حسابه ، ولم يضمها إلى قائمة الأمم التى يتعامل معها ! ؟

ولم ؟ ألأنها مما يزهد فيه الاستعمار لقلة مواردها ، وضآلة شأنها ؟ كلا ، فإن فيها موارد كثيرة ، وخيرات موفورة ، ومجالات للاستغلال ، ومواقع « استراتيجية » لها شأنها فى الحرب ، وفى السلم .

فماذا إذن ؟ إنها فى حساب الدول المسيحية ! وهذا وحده كاف لأن يعزلها عن موكب العبيد الذى ينتظم الشعوب المستعمرة .

لقد كانت قبيل الحرب العالمية الأخيرة حرب بين إيطاليا والحبشة . . وفيها استولت إيطاليا الفاشية ، التى كانت تفتح فمها فى شهية محمومة إلى التوسع والاستعمار . .

وكانت هـــذه فرصة إيطاليا الوحيدة للتوسع والاستعمار الذى تنشده ذ ذاك ، ولم يكن لها فرصة غيرها .

فماذا حدث ؟

الذى حدث هو ما كان ينبغى أن يحدث لأية دولة « مسيحية » غلبت على أمرها فى مجال الحرب ، ووطئت أرضها جيوش أعدائها .

لقد طلبت عصبة «الأمم» — وكانت هى المنظمة الدولية إذ ذاك — طلبت إلى إيطاليا أن تنسحب من الحبشة .

فلما تلكأت فرضت عليها « عصبة الأمم » هذه حصاراً اقتصادياً ، وطلبت إلى جميع الأمم المتمثلة فيها أن تنفذ هذا القرار ، وألا تتعامل مع إيطاليا ، حتى تنصاع لطلب العصبة ، وتجلو عن الحبشة . . وقد كان ! فلم تحتمل إيطاليا مقاطعة العالم لها ، فجلت عن الحبشة بعد بضعة أشهر من احتلالها .

أو لو كانت الحبشة دولة « إسلامية » — دولياً — وهى فى حقيقتها دولة إسلامية لأن غالبية أهلها من المسلمين ، ولكن ضعف أحوال المسلمين قد مكنت للعناصر المسيحية القليلة أن تسود وأن تحكم ! لو كانت الحبشة دولة إسلامية دوليا أكان جلاء إيطاليا يحدث . . وعلى تلك الصورة ؟

ولماذا إذن لم تجل الجيوش الإنجليزية عن مصر إلا بعد نحو ثمانين عاماً ؟ ولماذا لم تجل فرنسا عن الجزائر إلا بعد قرن وثلث قرن وإلا بعد أن استبسل أهلها — وبعد أن استيئسوا — فدخلوا فى صراع غير متكافىء مع المستعمرين وضحوا بأكثر من مليون شهيد ؟

ومثل آخر أوضح من كل هذا وأكثر دلالة على ما عند الغرب من حقد دفين على الاسلام الدولة العثمانية . . كانت تضم تحت سلطانها شعوبا إسلامية وغير إسلامية .. فماذا حدث عندما وهنت قوة العثمانيين ، ولانت شوكتهم !

لقد أقام الغرب حرباً صليبية جديدة على الدولة العثمانية فنشبت حرب «البلقان» التى حشدت بها أوربا قوى كثيرة — ظاهرة ومستترة — فى ميادين الحرب ، وفى مؤتمرات — أو مؤامرات — الصلح ، وانتهى ذلك الدور بقطع الاوصال الأوربية من جسم الدولة العثمانية . . فانسلخت بلاد البلقان كلها ، وخرجت من الدولة العثمانية : — اليونان ، ورومانيا ، وبلغاريا ، الصرب ، ومقدونية الأوربية وغيرها !

أهو موقف إنسانى وقفته أوربا مع الدول المغلوبة على أمرها والخاضعة لسلطان العثمانيين ؟ قد كان ذلك يمكن أن يسجله التاريخ ! ولكن ماذا يقول فى الوجه المقابل لهذا الموقف ؟

لقد هزمت تركيا مع حليفتها ألمانيا فى الحرب العالمية الأولى . .

وكالحال مع كل مهزوم فرضت عليها عقوبات . . وكان من تلك العقوبات أن تنسلخ عنها الدول الباقية تحت سلطانها ، وهى دول إسلامية كلها !

وكان المنطق يقضى — كما حدث فى الولايات التى كانت تابعة لتركيا من القطاع الأوربى ، كان المنطق يقضى أن تحكم كل دولة من الدول الإسلامية نفسها بنفسها . .

ولكن الذى حدث كان على غير هذا ! لا لعلة إلا أن هذه الدول تدين بالإسلام، وتلك جريمة لاتغسل أوضارها إلا بالاستعمار !!

ولقد قسمت التركة على الغرب المستعمر ، فهو الوارث الشرعى ، لتلك التركة . .

فذهبت فرنسا بالشام ، وجعلت منه دولتين : سوريا ولبنان .

ووضعت إنجلترا يدها على العراق ، وشرق الأردن ، وأقامت فى الأولى حكما ملكياً وأقامت فى الثانية أميراً على إمارة — وكلا المملك والمؤمر لايملك، ولا يأمر .

أما فلسطين — الجزء الباقى من بلاد الشام — فقد جعلت إنجلترا وصية عليه وصاية انتهت بتسليم فلسطين لليهود !!

وهكذا تم توزيع الأسلاب والغنائم .

أفرأيت إذن كيف كان نضيح هذه الضغائن التى يحملها الغرب للإسلام والمسلمين ؟

على أننا لسنا فى مقام الكشف عن جنايات الغرب وآثامه فيما جر على البلاد الإسلامية من مصائب ومحن . . ولكننا هنا إزاء مقايسة بين مبادىء الإسلام فى الأخوة والمحبة والبر بالناس جميعاً وبين دعوى الغرب فى ظل المدنية الحديثة لتلك المبادىء الكريمة ، والتهم التى يرمى بها الإسلام من أنه دين حرب وعداوة يثيرها أتباعه فى وجه من يخالفهم ولا يدخل فى دينهم !

ونسأل عن السلام الذى نعم به العالم فى ظل المدنية الحديثة فلا نجد إلا حروبا قائمة فى كل مكان ، تتجمع شيئاً فشيئاً حتى تكون حربا عالمية يصلى العالم كله بنارها ، ويحترق فى لهيبها . .

ففى خلال النصف الأول من هذا القرن قامت حربان عالميتان بسبب أطماع الغرب ومدنية الغرب . . وبسبب هذه الأطماع لم يبت العالم ليلة واحدة دون أن تكون هناك حرب فى جزء من أجزائه . . هذا إلى جانب الحرب «الباردة» التى تهدد العالم فى كل لحظة بحرب عالمية ثالثة ، تنطلق فيها الصواريخ محملة بالقنابل الذرية والهيدروجينية . وحسبك أن تتصور وقوع هذه الحرب ، لتعرف المصير

الذى يصير إليه العالم . . إنه الفناء الذى لا يبقى على صورة من صور الحياة على هذه الأرض .

فأين هذا من دعوة الإسلام إلى السلام ، دعوة مخلصة ، تنبع من أعماق عميقة من كل مبادئه . .

فكل ما اشتملت عليه شريعة الإسلام من مبادىء إنما غايته تقويم الإنسانية كلها فى أفرادها وجماعاتها ، حتى يقوم بين الناس ميزان العدل ، فلا عدوان على الضعفاء ، ولا اعتداء على أموال الناس ودمائهم وأعراضهم . . فمن خرج عن هذا الطريق القويم وجد العقاب العاجل الذى يردعه . إلى جانب العقاب الأخروى الذى ينتظره .

لقد أقام الإسلام من مبادئه سياجاً متيناً يحمى الناس - كل الناس - من الناس - كل الناس . . إن المجتمع المثالى الذى أقامه الإسلام بمبادئه ليس مجتمعاً مغلقاً على نفسه بما فيه من خير وشر ، وإنما هو مجتمع أشبه بالشجرة المثمرة الطيبة ينتفع الناس بثمرها . . فمن فاته ثمرها فلن يفوته الانتفاع بظلها . . ومن حرم من هذا وذاك فلن يحرم النظر منها إلى منظر معجب يسر الناظرين .

فما عند المسلم من مبادىء دينه وأحكام شريعته لا يتعامل به فى المجتمع الإسلامى وحده وإنما يتعامل به مع الناس جميعاً . . مسلمين وغير مسلمين . .

فالمسلم شخصية واحدة . . لا تنقسم إلى شخصين أو أشخاص ، فيكون لها مع المسلم حال ، ومع غير المسلم حال أو أحوال . . كلا .

فإذا أمر الإسلام بالوفاء بالعهد ، فإنما هو وفاء واحد لكل الناس وفى جميع الأحوال . قال تعالى : « وأوفوا بعهد الله إذا عاهدتم » . . ويقول نبى الإسلام: « من أمن رجلا على نفسه فقتله ، فأنا برىء من القاتل ، وإن كان المقتول كافراً » هو قول واحد للناس جميعاً ، وتشريع واحد ينزل عليه الناس جميعاً .

وإذا دعا الإسلام إلى العدل وأمر به ، فإنما هو عدل واحد ، لكل الناس وفى جميع الأحوال . .

يقول الله تعالى : « إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها، وإذا حكمتم

بين الناس أن تحكموا بالعدل»[1] .. بين الناس عامة ، وليس بين المسلمين وحدهم! ويقول سبحانه وتعالى : « ولا يجرمنكم شنآن قوم على ألا تعدلوا ، اعدلوا هو أقرب للتقوى »[2] .

هكذا كل مبدأ كريم ، وخلق قويم جاء به الإسلام ، وكل ماجاء به كريم وقويم إنما هو خير عام يعود فضله على القريب والبعيد على المسلمين . وغير المسلمين جميعاً .

كالبحر يلقى للقريب جواهرا　　　منه ، ويرسل للبعيد سحائبا

ooo

عود على بدء :

قد يثير دعاة التشنيع على الإسلام ، والتشويه لحقائقه اعتراضات على هذا القول فيلقونك بعديد من الأسئلة الخبيثة الماكرة . . وكأنهم يجهلون جوابها ولا يعرفون وجه الحق فيها . .

فتراهم يقولون مثلا : لماذا يدفع الإسلام بأتباعه زمراً إلى ميادين الحرب ويصور لهم الموت في ساحة القتال بصورة شهية ، يحرصون على الفوز بها : حتى ليتدافعون إلى ساحة القتال تدافع الإبل العطشى على موارد الماء ؟

ولماذا يمجد الإسلام البطولة ، والفروسية على هذا النحو الذى يمثل حياة الفروسية فى العصور الوسطى ؟

أذلك مما يعده الإسلام لقيام السلام فى الحياة ؟ وهل سلام مع هذه النفوس المعبأة للقتال ، والموطنة على الموت للانتقال فى رحلة سعيدة إلى عالم الخلود ؟ إن مثل هـــذه النفوس إن لم تجد باباً مفتوحاً للقتال عملت بكلتا يديها على فتحه أو تحطيمه ، لتجد طلبتها ، ولتحقق الأمنية التى تحرص عليها ! !

وقد يبدو لهذا القول ظاهر مقبول إذ أنه يجرى على مألوف الحياة التى لا تقوم على دين ، ولا ترجع إلى شريعة إنسانية كشريعة الإسلام !

---

(١) سورة النساء : آية ٥٨　　　(٢) سورة المائدة : آية ٨ .

« فالنازية » حين عبأت شعور الشعب الألمانى للحرب ، وملأت رءوس الشباب بهذا الهوس المسعور باستعلاء الشعب الألمانى وامتياز عنصره ، وحقه فى السيادة على العالم ـ حين عملت النازية على هذا وحققته اندفع الشعب الألمانى نحو الحرب بكل قواه ، وكان من هذا أن قامت الحرب العالمية الأخيرة !

وشىء مثل هذا كان من « الفاشية » الإيطالية التى أرادت أن تحذو حذو النازية الألمانية وأن تجرى معها .

وشتان بين ماصنع الإسلام فى أتباعه ، وبين تلك النزوات التى دعت إليها النازية الفاشية وما على شاكلتهما من دعوات .

وشتان بين إنسان تنمى فيه ملكاته الإنسانية ، فتملؤ كيانه قوة ، وعزماً كما تملأ عقله حكمة ورشداً ، وتملأ قلبه مودة ورحمة .. وبين إنسان تغذيه بطبائع الحيوانات المفترسة . وتستنبت له مخالب الأسود وختل الذئاب ، ومكر الثعالب !

فالإسلام حين دعا إلى القوة ، وحين مجد الأقوياء ، فإنما لتكون هذه القوة قوة عاملة لحساب الخير ، قائمة على ميزان الحق والعدل .. قوة يحكمها خلق ، ويعصمها دين ، وإلا كانت غير محسوبة على الإسلام ، ولا عاملة تحت لوائه .

القوة فى ذاتها كمال مطلوب ، وعدم بلوغها نقص وقصور .. ولكنها تكون عيباً حين تتحول إلى أداة شر ، وتستحيل إلى إعصار مدمر .

وقد أراد الإسلام لأتباعه القوة المادية والمعنوية معاً .. قوة الروح ، وقوة الجسد ، لا ليكونوا نموراً وأسوداً يأكلون الناس ، وإنما ليكونوا أعزاء ، أقوياء ، تجد مبادىء الإسلام فى كنفهم حمى كريماً تتفتح فيه أزهارها ، وتنضج ثمارها ، أشبه بالأرض الطيبة التى تشتمل على عناصر القوة والخصب . فالنبت الطيب لا يؤتى ماعنده إلا فى أرض طيبة .. فإذا ضمته أرض سبخة نكدة ذبل ومات .. « والبلد الطيب يخرج نباته بإذن ربه ، والذى خبث لايخرج إلا نكداً »(١) .

---

(١) سورة الأعراف : آية ٥٨

فالقوة حين تضبطها قوى الخير والعدل تكون رحمة وبركة على نفسها وعلى من حولها ، أما حين تنعزل عن هذه الضوابط أو تتفلت منها ، فإنها تكون شراً وبلاءً ، على نفسها ، وعلى من يتصل بها ، أو يدنو منها !

والقوة التي يزكيها الإسلام ، ويحث أتباعه على تحصيلها هي هذه القوة الملجمة بلجام العقل والحكمة ، والحب والرحمة .. قوة مستبصرة ، تعرف طريقها ، وتتجه إلى غاياته ، ولهذا لم يحمد القرآن القوة إلا ومعها الأمانة ... الأمانة التي تمسك بالقوة أن تجور على حق ، أو تعتدى على ضعيف . . قال تعالى على لسان ابنة نبي الله شعيب في موسى عليهما السلام : « يا أبت استأجره .. إن خير من استأجرت القوى الأمين »(١) قوة ترفدها أمانة . . أمانة هي اليد الممسكة بزمام القوة أن تميل إلى ظلم أو فساد في الأرض ، أو بغى أو عدوان بغير حق !

إن الإسلام ليدعو كل مسلم أن يكون قوياً ، ممسكا من القوى بأقوى أسبابها ، محصلا لأكرم جواهرها .. قوة عامة شاملة .. قوة في الروح ، وقوة في الجسد .. وقوة في الخلق ، وقوة في العلم . . قوة في كل جانب من جوانب الحياة ، وفي كل كنف من أكنافها . .

إنه حين يحصلها المسلم تكون « طاقة » كبيرة من القوى ، يشتمل عليها كيانه ، ويدفع بها في مجالات الحياة فتملء يديه من كل خير فيها . .

فإذا كانت داعية الحرب خف إلى ميدانها منطلقا كالريح المرسلة ، فإذا واجه الأعداء كان إعصارا عاتياً لا يريم مكانه حتى تقتل أو يقتل !

إن الإسلام كان يعطى كل حال حالها . .

وحال الحرب ليست لهواً ولا لعباً . . إنها الحرب . . وليس لمن يشهدها إلا أن يكون على حال من حالين : قاتل أو مقتول . .

فهل ترى يدع الإسلام أتباعه أن يكونوا في عداد القتلى ؟ فمن إذن لجبهة الخير يحميها ؟ ومن للدعوة السماء يقوم عليها ؟

---

(١) سورة القصص : آية ٢٦

وهل من شريعة العدل أن يقتل دعاة الإصلاح ويسلم الطغاة والمفسدون ؟
إن ذلك تأباه الحكمة والعدل !

فليكن إذن ما يجب أن يكون . . وهو أن يلقى المسلمون أعداءهم فى المعركة وهم مزودون بالقوى النفسية والمادية ، ليكونوا أقدر على أن يصيبوا من أن يصابوا . . واستمع إلى قوله تعالى : « يا أيها النبى حرض المؤمنين على القتال : إن يكن منكم عشرون صابرون يغلبوا مئتين ، وإن يكن منكم مئة صابرة يغلبوا ألفاً من الذين كفروا . . بأنهم قوم لا يفقهون »(١) . « الآن خفف الله عنكم ، وعلم أن فيكم ضعفاً ، فإن يكن منكم مئة صابرة يغلبوا ألفاً ، وإن يكن منكم منكم ألف يغلبوا ألفين بإذن الله ، والله مع الصابرين »(٢) .

فإنك تجد فى هاتين الآيتين الكريمتين كثيراً من مواقع العجب والدهش :

فمن ذلك أن هذه المقابلة النسبية بين قوة المسلم وبين قوة خصمه فى الآية الأولى تنبىء فيما تنبىء عنه أن المسلمين فى أول أمرهم كانوا قلة . . وهم — فوق هذا — جبهة الإسلام والسابقون إلى غايات الخير من الناس — ومن أجل هذا كان الحرص عليهم أشد ، والضن بهم ألزم . . فلا يقتل أحد منهم إلا فى مقابل عشرة يقتلون من الجبهة المعادية !

ومن ذلك أيضاً أن الخير لا يوزن بالشر .. والحسن لا يباع بالسيىء . فإن كان ذلك أمراً لابد منه — وهو أمر لابد منه - فليكن الطيب الواحد فى مقابل عشرة !؟

ولعلك تذكر هنا تدبير الإسلام فى الحسنة والسيئات . فإن الحسنة تذهب بعشر سيئات . « إن الحسنات يذهبن السيئات »(٣) . وهذا وجه يمكن أن نرى فيه المعنى الذى أشرنا إليه فى الآية السابقة من تقويم المسلم بعشرة من مقاتليه فى ميدان الحرب ، إن يكن منكم عشرون صابرون يغلبوا مئتين » .

« والفقه » الذى ختمت به الآية وجعلته صفة منفية عن مقاتلى المؤمنين هو الفقه الذى يمنح المرء وعياً مبصراً ، مستقيماً مع الفطرة ، فيولد فى كيانه إيماناً

---

(١) سورة الأنفال: آية ٦٥ (٢) سورة الأنفال: آية ٦٦ (٣) سورة هود: آية ١١٤.

راسخاً بالخير والعدل . . وكراهية بالغة للعوج والانحراف .. فإذا قاتل قاتل عن عقيدة واضحة بينة . . وليس كذلك غير المؤمن . إن فؤاده فارغ من كل معنى من معانى الخير والحق ، وإنما تدور فى فؤاده خيالات من أوهام وأباطيل لا يجد منها فى مجال القتال مدادا يمده بالصبر ويلقى إليه بالعزم . وهذا المعنى ذاته نجده فى المنافق . . فإن أبرز صفاته ألا صفة له . . إنه أشبه بالحرباء ، يتلون كما تتلون ويدور كما تدور . . ولهذا كان وصف المنافقين الذى وصفهم الله به هو أنهم لا يفقهون : قال تعالى « ذلك بأنهم آمنوا ، ثم كفروا ، فطبع على قلوبهم فهم لا يفقهون »[1] .

فالفرق بين المسلم وبين غير المسلم هو هذا « الفقه » الذى عبأ به الإسلام نفوس المسلمين ، بما كشف لهم من معالم الخير وما أراهم من آيات الحق .

وانظر كيف تفعل أجهزة الدعاية فى نفوس المقاتلين ، وكيف تقدم إلى جانب العتاد والسلاح ، عتاداً أقوى من أى عتاد ، وسلاحاً أمضى من كل سلاح .

إن غاية هذه الأجهزة هى تعبئة النفوس ، بما تلقى إليها من التصورات ، وما تحمل إليها من المعانى ؛ التى تزيدها معرفة وفقهاً — إن حقاً ، وإن كذباً — بموقفها من عدوها هذا الموقف الجائر ، الظالم . أبداً ! !

وفرق كبير بين قضية الحق التى يدافع عنها الإسلام ويجمع عليها الأنصار ، ويبذل من أجلها المهج والأرواح ، وبين قضايا مختلطة ظاهرها حق مفترى ، وباطنها أحقاد وأطماع ، ونزوات وشهوات .

وإذ لم يعرف أعداء الإسلام من الإسلام إلا جانب السيف الذى قام بين يدى الحق ؛ يرد عنه هجمات المبطلين ، وضلالات المضللين — فإنا نريهم جانب الرحمة التى حملها الإسلام إلى الناس ، وحمل معها السيف الذى يحميها ، ويثبت مغارسها فى الأرض .

* * *

---

(١) سورة المنافقون : آية ٣ .

الباب الثانى عشر

نبى الرحمة

« وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين »

— ١ —

النبوة :

النبوة رحمة راحمة حيث كانت ، وخير غدق حيث أصابت . لأنها تحمل كلمة السماء إلى الناس محملة برحمة الله لعباده ، موقرة بالخير لمن اتصل بها ، وفتح قلبه لها .

فما بزغ فى الناس نبى من أنبياء الله أو رسول من رسله ، إلا والناس منه فى معرض الرحمة ، وفى عارض ممطر بالرفد والخير العميم .

فبين يدى كل نبى نور يضىء دنيا الناس ، ويكشف لهم معالم الطريق إلى الخير والحق .. وعلى لسان كل نبى كلمات ربانية ترسم للناس مناهج العمل لغايات الخير والسعادة .. يقول الله سبحانه وتعالى « لقد أرسلنا رسلنا بالبينات ، وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط »(١) . ويقول سبحانه : « رسلا مبشرين ومنذرين ، لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل »(٢) ويقول سبحانه « وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا »(٣) .. فأنبياء الله ورسله هم رحمة على عباده .. إنهم يحملون إلى الناس « أطواق النجاة » حين تضطرب بهم سفينة الحياة ، وحين تنطمس أمامهم معالم الطريق إلى شطآن الأمن والسلامة! فمن استجاب لهم ، وتناول ما فى أيديهم من أضواء الحق ، وأطواق النجاة ،

---

(١) سورة الحديد: آية ٢٥ (٢) سورة النساء: آية ١٦٥ .

(٣) سورة الإسراء : آية ١٥

سلم ونجا ، وكان من الفائزين برحمة الله ورضوانه .. ومن أبى واستكبر أن يمد يده إلى هذا الحبل الممدود لنجاته ، واستنقاذه من الهلاك المطل عليه ، فلا يلوم إلا نفسه؟ « من اهتدى فإنما يهتدى لنفسه ، ومن ضل فإنما يضل عليها .. »(١)

إن أنبياء الله ورسله هم رحمة خالصة ، لا أجر عليها . ولا من معها . إنها من الله ، وإلى عباد الله « وياقوم لا أسألكم عليه أجراً ، إن أجرى إلا على الله »(٢) .

فما حملت دعوة نبى ، أو رسالة رسول شيئاً من شأنه أن يضيق به الناس أو يشقوا به . إنها دعوة تحمل إلى الناس الحياة لموات القلوب ، والهدى لضلالات العقول ، كما يحمل الغيث الحياة لصنوف الأحياء ، أو ما من شأنه أن يكون فى الأحياء : أو من كان ميتاً فأحييناه وجعلنا له نوراً يمشى به فى الناس كمن مثله فى الظلمات ليس بخارج منها ؟ » (٣) .

نعم .. قد يضيق بعض المنحرفين ، والمتسلطين بدعوات الأنبياء لأن انحرافهم لا يستقيم معها ، ولأن تسلطهم لا يحيا فى ظلها .. إذ هى دعوة من شأنها أن تقيم العوج ، وتقضى على التسلط ، وتقيم بين الناس موازين المساواة والعدل .

ومن أجل هذا كان الذين يعادون الأنبياء ، ويصدون الناس عنهم هم دائماً أصحاب السلطان ، وأرباب الجاه والغنى ، إذ يحسبون فى هذا الذى تحمله الدعوة النبوية إلى الناس من عدل وإخاء — تضييعاً لما معهم من سلطان وجاه ، وذهاباً لما بين أيديهم من مال وحطام !! أو هو أقل تقدير إزعاج لما هم فيه من حال رضوا بها واطمأنوا إليها ..

ولو عقل هؤلاء لعرفوا أن النبى لا ينزع سلطانهم ليضعه فى يده ، ولا يأخذ مالهم ليضيفه إلى نفسه .. فما جاء رسل الله لطلب جاه أو سلطان ، وما عملوا على جمع المال ، ولا تشييد القصور والاستكثار من الحشم والخدم .. إن دعوة النبى وجهاده وكفاحه من أجل الناس ، ولحساب الحق والعدل ، وليس له من شىء إلا ما فضل الله به عليه من منزلة كريمة عنده ، وثواب طيب لما حمل من عبء الدعوة . ولما لقى فى سبيلها من عنت وأذى : « إن أجرى إلا على الله »

---

(١) سورة الإسراء : آية ١٥ (٢) سورة هود : آية ٢٩ .

ولو عقل هؤلاء الذين يعادون الأنبياء ، لعرفوا أن دعوتهم هي دعوة الحق والإحسان ، والعدل والبر ، وأنها لاتتعرض للسلطان العادل ، ولا تقف في وجه الغنى ، إذا كان فيه حق الله وحق السائل والمحروم .

قد يصاب بعض الناس من الشمس بضربة . أو من الماء بغصة . . ومع هذا فإن الشمس هي سر الحياة ، والماء هو أصلها وممسكها . . فلتطلع الشمس في كل مكان وليجر الماء في كل صوب ، وإن أوذى بالشمس خلق ، وغرق أوغص بالماء خلق ، فإن هذا الذى يذهب هو ضريبة الحياة للأحياء .

وكذلك دعوات الأنبياء قد تضيق بها بعض النفوس ، وقد يهلك بها بعض الناس ، ولكن ذلك لاينقص من قدرها ، ولا ينال من جلالها ، فإن الذى يذهب ويعطب لايعد شيئاً إلى جانب الذى يبقى ويسلم .

الرسالة المحمدية :

وإذا كانت دعوات الأنبياء رحمات وبركات على الناس في أجيالها وأوطانها ، فإن رسالة « محمد » رحمة شاملة ، وبركة عامة ، للناس جميعاً ، من كل أمة ، ومن كل جنس ، على مدى الأيام والدهور .

إنها رسالة لاتخص أمة من الأمم ، ولا تنتهى عند زمن من الأزمان . . فهى ليست للعرب وحدهم ، وليست لعصر النبوة وحده . . فما العرب فيها إلا لسانها وترجمانها ، وما عصر النبوة إلا مطلعها ، ومجلى أنوارها . . ثم هى بعد ذلك رحمة متاحة في الناس كلهم ، وحظ مقسوم لجميع الأزمان ؛ « قل يأيها الناس : إنى رسول الله إليكم جميعاً الذى له ملك السموات والأرض ، لا إله إلا هو ، يحيى ويميت ، فآمنوا بالله ورسوله . . النبي الأمي . . الذى يؤمن بالله وكلماته . . »(١)

ومن أول آية نزلت من القرآن شعر النبي أنه رسول الله إلى الناس كافة ، إذ كانت الآية شارحة لقضية الإنسانية ، من حيث أنها مخلوقة من معدن واحد ،

---

(١) سورة الأعراف : آية ١٥٩ .

فليس لأمة ، ولا لشعب فضل أو امتياز فى الأصل والنشأة . . ولا فى الدم أو الموطن ، ولا فى الزمن السابق أو اللاحق .

« اقرأ باسم ربك الذى خلق ، خلق الإنسان من علق »(١) .

فهذه أول آية يتلقاها الرسول من السماء ، وتفتتح بها رسالته : الله هو خالق كل شىء .. والإنسان هو من مخلوقات الله .. قد خلق من علق !

هذا هو عنوان الرسالة المحمدية : « الإنسان » . . الإنسان مطلقاً ، فى أى مكان ، وفى أى زمان !

والقرآن الكريم كله ، فى أحكامه وتشريعاته ، وفى أوامره ونواهيه ، وفى نصائحه ووصاياه — يخاطب الناس جميعاً ، ويدعو الناس جميعاً . . بهذه الكلمة العامة الشاملة : « يأيها الناس » أو « يابنى آدم » أو « يأيها الإنسان » . ولم يختص العرب أو قريشاً بخطاب أبداً ، فلم يقل يأيها العرب ، أو يا بنى إسماعيل ، أو يا أبناء عدنان وقحطان .. كما كان ذلك شأن أنبياء الله ورسله فى أقوامهم ، ومن أرسلوا إليهم .. فكان كل نبى يدعو قومه خاصة كما حكى القرآن الكريم ذلك فى قصص الأنبياء : « إنا أرسلنا نوحاً إلى قومه أن أنذر قومك من قبل أن يأتيهم عذاب أليم ، قال ياقوم إنى لكم نذير مبين »(٢) .

« وإلى مدين أخاهم شعيباً .. قال ياقوم . . . »(٣) .

« وإلى عاد أخاهم هوداً .. قال ياقوم . . . »(٤) .

« وإلى ثمود أخاهم صالحاً .. قال ياقوم . . . »(٥) .

« ولقد أرسلنا موسى بآياتنا أن أخرج قومك من الظلمات إلى النور ، وذكرهم بأيام الله . »(٦) .

---

(١) سورة العلق: آية ١
(٢) سورة نوح: آية ١
(٣) سورة هود : آية ٨٤
(٤) سورة هود: آية ٥٠ .
(٥) سورة هود: آية ٦١
(٦) سورة إبراهيم: آية ٥ .

« وإذ قال موسى لقومه ياقوم لم تؤذوننى ، وقد تعلمون أنى رسول الله إليكم ؟ »(١)

« وإذ قال موسى لقومه إن الله يأمركم أن تذبحوا بقرة »(٢).

وهكذا كانت دعوات الأنبياء فى أقوامهم خاصة ... ولم تتعد أقوامهم ، ولم تجاوز حدود أوطانهم .

وأكثر من هذا .. فالذى يقرأ التوراة والإنجيل — على ماهما عليه الآن — يجد فيهما حرصاً شديداً على احتجاز الرسالة الموسوية ، والرسالة العيسوية عن الناس ، وقصرها على بنى إسرائيل خاصة .. فلم يكن لهاتين الرسالتين متوجة لغير بنى إسرائيل ، ولم يكن لهذين النبيين الكريمين — موسى وعيسى — شأن بهداية أحد من الناس غير شعبهما الذى بعثا إليه .. والقرآن الكريم يذكر ما بين موسى وفرعون فيحدد الغاية التى من أجلها أرسل موسى إلى فرعون . وهى تخليص بنى إسرائيل من قبضته ، وإخراجهم من تحت سلطانه ، الذى بسط عليهم فيه يد القهر والاذلال « يقتل أبناءهم ، ويستحيى نساءهم » . ولم يكن لموسى دعوة مباشرة إلى فرعون ليؤمن بالله ، اللهم إلا ماقد يلمح فرعون من دلالات تدل على الله ، فيما قدم له موسى من معجزات ، تصدق دعواه أنه رسول رب العالمين ، قد أرسله إلى فرعون ليرسل معه بنى إسرائيل .. يقـــول الله سبحانه وتعالى لموسى وهرون :

« اذهبا إلى فرعون إنه طغى ، فقولا له قولا ليناً ، لعله يتذكر أو يخشى ، قالا ربنا إننا نخاف أن يفرط علينا أو أن يطغى . قال لاتخافا ، إننى معكما أسمع وأرى ، فأتياه فقولا إنا رسولا ربك ، فأرسل معنا بنى إسرائيل ولا تعذبهم ، قد جئناك بآية من ربك ، والسلام على من اتبع الهدى »(٣) .

ويقول سبحانه على لسان موسى يخاطب فرعون : « يافرعون ، إنى رسول

---

(١) سورة الصف: آية ٥ (٢) سورة البقرة : آية ٦٧ .

(٣) سورة طه: الآيات : ٤٣ — ٤٧ .

من رب العالمين حقيق على ألا أقول على الله إلا الحق ، قد جئتك بآية من ربك فأرسل معى بنى إسرائيل » .

والتوجيهات التى يلقى بها موسى إلى فرعون إلقاء مباشراً هى فى الواقع لحساب الغاية الأصلية من الرسالة الموسوية ، وهى تخليص بنى إسرائيل من العذاب المهين، فإذا دعا فرعون إلى الله فإنما ليستقيم على الحق ، وليأخذ بنى إسرائيل بالرحمة والعدل .. التى يأمر الله عباده بها .. يقول سبحانه وتعالى : « اذهب إلى فرعون إنه طغى ، فقل هل لك إلى أن تزكى ؟ وأهديك إلى ربك فتخشى ؟ »(١) أى ليخشى الله فى بنى إسرائيل ، ويرخى يده القابضة على رقابهم !

وليس معنى هذا أن فرعون لا تقوم عليه الحجة بدعوة موسى له إلى الإيمان بالله .. كلا . فإن موسى قد دعاه إلى الإيمان بالله ، وأقام عليه الحجة بتلك الدعوة، وما قام على دلائل صدقها من آيات معجزة قاهرة ! ولكن لم يكن ذلك إلا لأن لفرعون شأناً فى حياة بنى إسرائيل ، فهم فى ملكه ، وتحت سلطانه ، وإنهم ، لكى يخرجوا من هذا السلطان كان لابد أن يكون ذلك عن رضى من فرعون ؛ ولا يرضى فرعون حتى يخرج عن طبيعة البطش والقهر والظلم ، التى تستبد به ؛ ولا يكون ذلك إلا عن إيمان بالله وعن مراقبته وخشيته . . ومن هنا كان موسى رسولا إلى فرعون ، وداعياً له إلى الله ، وإلى الرفق بعباد الله . . فلما لم يستجب فرعون لهذه الدعوة ، ولم يرسل بنى إسرائيل مع موسى ، كان لله تدبير .. فأوحى الله إلى موسى أن يخرج ببنى إسرائيل متخفياً بالليل ، وأن يهرب إلى حيث لا سلطان لفرعون . . : « أن أسر بعبادى ليلا ، إنكم متبعون ، واترك البحر رهواً .. إنهم جند مغرقون »(٢) .

أما التوراة فإنها كلها لبنى إسرائيل ، ليس فيها شىء لأحد من الناس غيرهم .. حتى أن الله هو إلههم وحدهم دون الناس ، لا يلتفت إلى غيرهم ، ولا ينال برحمته وفضله سواهم . . هو رب « الجنود » وهو ، « رب إسرائيل » . وليس رب الناس ، ولا رب العالمين !

---

(١) سورة النازعات: آية ١٧ ــ ١٩ (٢) سورة الدخان: آية ٢٣، ٢٤

« وكلم الرب موسى قائلا : كلم بنى إسرائيل وقل لهم : أنا الرب إلهكم ، مثل عمل أرض مصر التى سكنتم فيها ، ومثل عمل أرض كنعان التى أنا آت بكم إليها لا تعملوا ، وحسب فرائضهم لا تسلكوا »[١] .

« وكلم الرب موسى قائلا : كلم بنى إسرائيل أن يأخذوا إلى تقدمة .. من كل من يحثه قلبه تأخذون تقدمتى ، وهذه التقدمة التى تأخذونها منهم .. ذهب وفضة ونحاس .. ! »[٢]

وهكذا كل ما حملت التوراة من تشريع هو موجه إلى بنى إسرائيل ، لا يراد به غيرهم من الناس . إنه تشريع « مفصل » على « كياس » هذا الشعب ، وهو « دواء » لا يصلح إلا لهذه الجماعة التى حملت فى كيانها تلك الجراثيم الخبيثة التى أفسدت فطرة الله فيها ، وكان أصدق وصف ما وصفهم به المسيح فى قوله : « يا أولاد الحيات » .

وكذلك « الإنجيل » .. وصاياه كلها لبنى إسرائيل ، ومعجزات « عيسى » كلها لبنى إسرائيل .. فهو إذا أبرأ الكمه ، والعمى ، والبرص فى بنى إسرائيل لا يلتفت إلى غيرهم ، ولا يمد يداً إلى سواهم :

ففى إنجيل متى : « ثم خرج يسوع من هناك وانصرف إلى نواحى صور وصيداء ، وإذا امرأة كنعانية خارجة من تلك التخوم ، وصرخت إليه قائلة : ارحمنى ، ياسيد ! يا ابن داود ! ابنتى مجنونة جداً .. فلم يجبها بكلمة . فتقدم تلاميذه وطلبوا إليه قائلين : اصرفها ، لأنها تصيح وراءنا ! ، فأجاب وقال : لم أرسل إلا إلى خراف بيت إسرائيل الضالة ! فأتت وسجدت له قائلة : ياسيد .. أعنى ! فأجاب وقال : ليس حسناً أن يؤخذ خبز البنين ، ويطرح للكلاب الضالة ! ! فقالت : نعم ياسيد : والكلاب أيضاً تأكل من الفتات الذى يسقط على مائدة أربابها ! »[٣] .

---

(١) الإصحاح الثامن عشر من سفر اللاويين .
(٢) الإصحاح الخامس والعشرون من سفر الخروج .
(٣) إنجيل متى : الإصحاح الخامس عشر .

فانظر كيف كان موقف السيد المسيح مع هذه المرأة التى علقت آمالها به ؟ وكيف أذلت كبرياءها، ونزلت إلى منزلة الكلاب، لتنال من فتات المائدة الممدودة لبنى إسرائيل ! ؟

وليس فى هذا ما يؤخذ على الرسالة « العيسوية » . . فهو رسول الله إلى قومه . . مهمته محددة بهؤلاء القوم . ليس له شأن بما عداهم من الناس . . وذلك شأن جميع الرسل المبعوثين من قبله .. كل رسول داعية إلى الله فى قومه، مشغول بهم عن كل ماعداهم .

ولكن الذى لا يستقيم مع هذه الدعوة المحددة القول بأن « عيسى » هو ابن الله أو هو الله، أو ماشاكل ذلك من الادعاءات . وأنه إنما جاء على تلك الصورة البشرية المجسدة، ليكون له مكان بين الناس، يعيش فيهم، ويحيا معهم، ثم تختم حياته بالصلب ليكفر الخطيئة التى تعيش فى الناس . من ميراث أبيهم آدم، وليطهرهم منها !

وفى هذا القول تهافت، وبطلان من وجوه كثيرة :

فأولا : لو كان المسيح هو الله أو ابن الله تجسد فى صورته التى عاش بها فى الناس لما كان له مكانة فى بنى إسرائيل خاصة، ولاقصر دعوته عليهم . . وإلا لما كان الإله الذى يقوم على السموات والأرض، ويبسط رحمته للناس جميعاً .

وإذا كان من تدبير عيسى — وهو الله أو ابن الله — أن يكفر خطيئة آدم فى أبنائه . فكيف يحمل هذا التكفير لبنى إسرائيل وحدهم دون أبناء آدم، وكلهم آخذ بنصيبه من تلك الخطيئة ؟ . . معقول جداً أن يجىء النبى إلى جماعة من الناس، وأن يطلع عليهم بالهدى والرحمة والبركة، كما يصيب الغيث جانباً من الأرض فيخصب ويمرع على حين تظل هناك كثير من وجوه الأرض مغبرة كالحة مجدبة ! ولكن غير معقول أن يجىء الله فى صورة بشر ليخلص الناس من الخطايا، ثم يختص بهذه الرحمة التى أرادها للناس — فريقاً منهم، ويحجزها عن

الغالبية العظمى من الناس . . إن ذلك تدبير لن يدخل فى حكمة الله ولا يجىء مع عدله . فأين يذهب الناس بعد أن قبض الله عنهم يده التى بسطها لحفنة قليلة من الناس، هم بنو إسرائيل ؟

وثانياً : إذا كان المسيح الإله قد جاء ليخلص الناس ، وليحمل عنهم خطيئتهم ، فذلك — إذا سلمنا به — إنما يكون للجيل الذى أدركه المسيح الإله من أجيال الناس ، وقد يمتد للأجيال اللاحقة لهذا الجيل . أما الأجيال السابقة لظهور المسيح من عهد آدم إلى يومه الذى ظهر فيه فإنهم بمعزل عن هذا الذى جاء المسيح من أجله ، لا ينالهم منه شىء ، لأنهم لم يؤمنوا به ، ولم يعمدوا بماء المعمودية الذى باركته يد المسيح !

وإذا كان ذلك كذلك ، فما شأن هذه الأجيال الكثيرة التى تقدمت ظهور المسيح من آدم إلى يوم ظهوره . لماذا لم تأخذ فرصتها من التطهير ؟ ولماذا لم يجىء إليها المسيح فى الصورة التى جاء بها، وللغاية التى قصد إليها منذ هبط آدم إلى الأرض ؛ ليمسح بيده على ظهر آدم أو أبنائه فيطهرهم ويحمل خطيئتهم وخطايا الأجيال المتعاقبة من ذراريهم ؟ ؟ ألم يكن ذلك هو الذى تقتضيه الحكمة والعدل ، إن لم يكن من مقتضيات المنطق والعقل ؟ ؟

وألم يكن ذلك هو الذى يناسب الغاية التى يدعيها المدعون لمجىء المسيح الإله ، وهى تطهير خطايا الناس وحمل أوزارهم ؟

إن القول بأن السيد المسيح هو الله أو ابن الله هو قول أبتر ، لا يستقيم أبداً ، على تملك الصورة التى يدعيها المدعون له .

إن المسيح إلهاً فليكن شأنه عاماً فى الناس ، ورحمة شاملة لهم فى أجيالهم جميعاً . . من آدم إلى أن ينتهى دور الناس على هذه الأرض لا أن يكون ذلك لبنى إسرائيل خاصة . . وإن لم يكن المسيح إلهاً . وكان نبياً من أنبياء الله ورسولا من رسله ، فلتكن دعوته فى بنى إسرائيل ولبنى إسرائيل ، شأن الرسل والأنبياء من قبله !

المسيح إله أو نبي . . إله للناس جميعاً . . أو نبي فى بنى إسرائيل ، ولا ثالث وراء هذين الأمرين

الرحمة العامة الشاملة :

وعجب أن تقصر يد المسيح الإله ، أو الإله المسيح عن أن تمس برحمتها الناس جميعاً وأنها تضيق بهم إلى الحد الذى لا يسع أحداً غير بنى اسرائيل . . ثم يكون لإنسان من الناس ، ولبشر من البشر محض الإنسانية ، خالص البشرية ، ليس إلهاً ولا ابن إله ، — يكون لهذا الإنسان أن يحمل رحمة السماء إلى الناس جميعاً . من كل أمة وفى كل جيل !

عجب هذا . عجب ألا يتساوى الإله مع الإنسان . . وأن يكون المسيح الإله دون « محمد » الإنسان النبى !

فهذه رسالة « محمد » قد حملها صاحبها — بتدبير السماء — إلى الناس كافة . . فآذنهم من أول يوم بما أمر الله سبحانه وتعالى أن يؤذنهم به : « يأيها الناس . . إنى رسول الله إليكم جميعاً »(١) . وجاءت آيات الكتاب تحمل أحكام الشريعة الإنسانية كلها : « يأيها الناس اعبدوا ربكم الذى خلقكم والذين من قبلكم لعلكم تتقون »(٢) . . « يأيها الناس اتقوا ربكم . . إن زلزلة الساعة شىء عظيم »(٣) . . « يأيها الناس اتقوا ربكم واخشوا يوماً لا يجزى والد عن ولده ، ولا مولود هو جاز عن والده شيئاً »(٤) . . « يأيها الناس قد جاءكم الحق من ربكم ، فمن اهتدى فإنما يهتدى لنفسه ، ومن ضل فإنما يضل عليها ، وما أنا عليكم بوكيل »(٥) « يأيها الإنسان ما غرك بربك الكريم الذى خلقك فسواك فعدلك فى أى صورة ما شاء ركبك »(٦) . . . « يا بنى آدم لا يفتننكم الشيطان كما أخرج أبويكم من الجنة »(٧) .

---

(١) سورة الأعراف : آية ١٥٨
(٢) سورة البقرة : آية ٢١
(٣) سورة الحج :آية ١
(٤) سورة لقمان : آية ٣٣
(٥) سورة يونس : آية ١٠٨
(٦) سورة الانفطار : ٦ — ٨
(٧) سورة الأعراف :آية ٢٧ .

وهكذا تتكرر دعوة الإسلام على لسان الرسول ، وفى آيات القرآن فى تلك الصورة العامة للناس جميعاً ، لا يلتبس بها شيء من التخصص بأمة دون أمة ، أو بجيل دون جيل .. فهى خير مطلق للناس جميعاً ، ورحمة مبسوطة لكل من يتعرض لها ، ويمد يده إليها !

وقد ظهرت آثار هذه الدعوة الشاملة العامة منذ اليوم الأول للإسلام، فدخل فيه منذ أيامه الأولى ، بل منذ يومه الأول العبيد والأحرار ، والعرب ، والعجم، فكان بلال ، — العبد — وسلمان — الفارسى — من أول الناس إسلاماً !

سئل النبى صلى الله عليه وسلم : من أول من بايعك على الإسلام ؟ قال : « حر وعبد — .. قيل : إن الحر هو أبو بكر والعبد هو بلال .

ولعل فى هذا البدء الذى بدأ به الإسلام من أن يكون أول المستجيبين له حر وعبد — لعل فى هذا ما ينبىء عن طبيعة هذه الرسالة المحمدية ، وأن حظ الناس فيها سواء ، وأن للعبد مثل ما للحر منها . وأن العبيد والأحرار فيها فى كفتى ميزان . إنهم جميعاً أبناء طينة واحدة .. « كلكم لآدم ، وآدم من تراب »

كذلك كان من مقررات الرسالة المحمدية دعوة النبى للملوك والقياصرة ، والرؤساء من غير العرب ، فبعث النبى بكتبه ومبعوثيه إلى النجاشى ملك الحبشة ، وإلى كسرى ملك الفرس ، وإلى المقوقس رئيس القبط فى مصر ، يدعوهم جميعاً إلى الإيمان بالله والاستجابة لله ولرسوله .. فالملوك والسوقة والأحرار والعبيد ، والرجال والنساء كلهم مدعون إلى الإيمان بالله والاستجابة لداعى السماء .. ثم إنه لم تمر سنوات على الدعوة الإسلامية حتى دخل فى دين الاسلام كثير من الأمم والشعوب ، من جميع الأجناس . ومن مختلف الأمم .. وكان مكانهم فى الإسلام بمنزلة واحدة .. لافضل لعربى على عجمى ، ولا لأسود على أحمر .. إلا بالتقوى » .. « يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى ، وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا .. إن أكرمكم عند الله أتقاكم » (١) .

فأين من هذا ما ادعى لدعوة المسيح الإله أو الإله المسيح ؟

---

(١) سورة الحجرات : آية ١٣ .

ولا تنظر إلى ما صارت إليه دعوة السيد المسيح بعد أن انتهى دوره فيها ، وبعد أن ردها أصحابها من بنى إسرائيل ، وأبوا أن يقبلوا هذا الرسول الكريم ، وأن يعترفوا به وبرسالته .. فلم يؤمن به إلا نفر قليل لا يكاد يذكر من بنى إسرائيل .. لا تنظر إلى هذا ، ولا إلى من دخل فى دعوة المسيح من غير اليهود .. فإن دعوته لم تكن إلا لليهود خاصة ، ولم يكن للسيد المسيح تدبير فيما حدث بعد ذلك من دخول غير اليهود فى دعوته .. فإنه لم يتجه بدعوته إلى أحد غيرهم ، ولم يحاول أن يقول كلمة واحـــدة لقيصر أو لجنود قيصر الذين كانوا يحكمون إسرائيل ، ويعيشون بين اليهود ..

فإذا قدر لدعوة السيد المسيح أن تخرج من محيطها إلى محيط آخر ، وأن تتحول من شعب إلى شعوب أخرى ، فإن ذلك لم يكن من طبيعة الرسالة ، ولم يكن من أهدافها .

ذلك لأن الوصايا التى حملتها رسالة السيد المسيح لا يمكن أن تتقبلها الحياة ، وأن يعيش فيها الناس أجيالا وأزماناً ، وإنما هى دواء مر المذاق لشعب إسرائيل الذى كان قد أصيب فى روحه بداء ذهب بكل ما فيه من مقومات الإنسانية ، وبالعناصر الطيبة فيها . فكان لابد من هذا الدواء المر الثقيل ، ليخلص هذه النفوس المنكوسة من دائها الوبيل .

ومن أجل هذا نرى هذا التفاوت البعيد بين حياة المسيحيين ، وبين الدعوة المسيحية ، فما استقام المسيحيون على تلك الدعوة فى أى دور من أدوار حياتهم فيها .. لأن مقررات هذه الدعوة لم تكن للحياة العامة ، ولم تكن للناس جميعاً ، وإنما هى لفترة من فترات الحياة ، ولجيل معروف من أجيال الناس .

ولو أراد المسيحى أن يكون مسيحياً حقاً ، مستقيما على دعوة المسيح ، لكان راهباً يعيش فى إطار من الإذلال لنفسه ، والانطواء على ذاته .. !

ولا شك أن مثل هذه الحياة لا تستقيم بها حياة الناس ، ولا يصبر عليها كثير من الناس .

وكيف يستطيع الناس أن يحيوا حياة طبيعية فى ظل هذه الوصايا التى ألقاها السيد المسيح فى أسماع اليهود فجعلوا أصابعهم فى آذانهم دونها ؟

وهل يستطيع الناس أن يقوموا على الوفاء لمثل هذه الوصايا ؟

يقول السيد المسيح فى بعض وصاياه : « قد سمعتم أنه قيل عين بعين ، وسن بسن ، وأما أنا فأقول لكم : لا تقاوموا الشر . . بل من لطمك على خدك الأيمن فحول له الآخر أيضاً . . ومن أراد أن يخاصمك ويأخذ ثوبك فاترك له الرداء أيضاً . ومن سخرك ميلا واحداً فاذهب معه اثنين !

« سمعتم أنه قيل: تحب قريبك وتبغض عدوك ، وأما أنا فأقول لكم : أحبوا أعداءكم ، وباركوا لاعنيكم .. ! » (١)

وأحسب أن النفس البشرية لا تتسع لهذه الوصايا ، ولا تستقيم عليها . . إن الناس هم الناس ، وليسوا ملائكة يمشون فى الأرض . . وما نحسب أن الحياة على هذه الأرض تسمح بتجربة ناجحة لهذه الوصايا فى أى مجتمع بشرى .

يقول « جان جاك روسو ، فى مدى التطبيق العملى لتعاليم المسيحية :

« ويقولون لنا إنه إذ وجد شعب من المسيحيين الحقيقيين فإنهم يؤلفون مجتمعاً هو أكثر المجتمعات التى نتصورها كمالا وأنا لا أرى فى هذا الفرض سوى صعوبة كبرى واحدة ، وهى أن المجتمع المكون من مسيحيين حقيقيين لا يعود مجتمعاً بشرياً . . بل أقول أيضاً إن هذا المجتمع المزعوم لن يكون رغم كل كماله أقوى المجتمعات ولا أدومها ، فبقدر كماله ستعوزه الرابطة ، وستكون جرثومة هلاكه فى كماله ذاته . .

ويقول : إنى أخطىء إذ أتحدث عن جمهورية مسيحية ، فالكلمتان متنافيتان : إن المسيحية تبشر بالعبودية والطاعة . . إن المسيحيين الحقيقيين خلقوا ليكونوا عبيداً » (٢) .

ويقول « نيتشه » فى سخرية : « إن المسيحى الوحيد مات على الصليب !! » .

---

(١) إنجيل متى : الإصحاح السادس .

(٢) العقد الاجتماعى ترجمة عبد الكريم أحمد ص ٢٣٧ .

نستطيع بهذا أن نقرر فى يقين نقض مايدعيه المدعون للمسيح من أنه خارج عن طبيعة البشر ، وعن سنة الأنبياء من قبله .. فنقول إنه بشر ، وإنه هو نبى ورسول إلى بنى إسرائيل وحدهم دون الناس .

وأكثر من هذا ، فإنا نستطيع أن نقرر أيضاً أن الذين تابعوا السيد المسيح وآمنوا بدعوته من غير اليهود هم دخلاء على هذه الدعوة ، يتناولون من طعام غير معد لهم ، وغير متناسب مع طبيعتهم . لا يصلح لهم ولا يصلحون له . إن الرسول ليس رسولا إليهم ، والرسالة لم تكن شرعاً لهم . فكيف يدينون بدين لم يدعوا إليه ، وشريعة لم يحسب لهم حساب فيها ؟

ولو كانت شريعة موسى ، أو المسيح شريعة عامة شاملة لكان إيمان المؤمنين بهما من غير اليهود إيماناً صحيحاً ، لا شائبة فيه ، بل هو الإيمان الواجب على كل عاقل أن يدين به ، ويستقيم عليه .

ولكن الأمر — كما قلنا — على خلاف هذا ، فالديانة الموسوية ليست لأحد غير اليهود ، ولا متوجه لها إلا هذه الجماعة من الناس ، لتعالج داء «محلياً» متوطناً فيهم ، متمكناً فى نفوسهم .. وليس الدواء الذى تحمله شريعة موسى وتؤكده وصايا المسيح إلى هذه الجماعة المريضة بالذى تصلح عليه نفوس غير تلك النفوس ، أو يداوى به داء غير هذا الداء !

وهل رأيت مريضاً بالحمى — مثلا — يتداوى بالدواء الذى يوصف للرمد؟ وهل يغير ذلك من واقع الأمر شيئاً أن يكون الطبيب الذى تخصص داء الرمد ووصف علاجه هو ماهو فى العلم والمعرفة ؟ ذلك هو الحال سواء بسواء فى الديانة العيسوية فهى امتداد لشريعة موسى وتأكيد لها . بل هى تكرار للدواء لذات الداء الذى يكمن فى كيان بنى إسرائيل .

* * *

وقد يقول قائل : إن شريعة الإسلام ذاتها تدعو إلى الإيمان بالشريعتين الموسوية والعيسوية ، وأن القرآن يقول : «قولوا آمنا بالله ، وما أنزل إلينا ،

وما أنزل إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحق ويعقوب : والأسباط ، وما أوتى موسى وعيسى ، وما أوتى النبيون من ربهم ، لا نفرق بين أحد منهم ، ونحن له مسلمون » (١) .

ونقول فى إيجاز : إن الذى تدعو إليه شريعة الإسلام من الإيمان بالنبيين وما أنزل عليهم ، هو التصديق بالرسل ، والتصديق بما جاءوا به ، إذ أن ما جاءوا به هو الهدى والخير ، وهو الحق من عند الله ، وليس المراد بهذا التصديق العمل بالشرائع التى جاءوا بها ، فقد جاء القرآن بهذا الخير كله ، وبهذا الهدى كله .

° ° °

وندع هذا كله لنعود إلى حديثنا عن الرسالة المحمدية من جانب الرحمة العامة فيها ، فنقول إننا قبل أن نلتمس الشواهد والأدلة على هذه الرحمة العامة فى الرسالة المحمدية نجد القرآن الكريم قد تولى تجلية هذه الحقيقة ، فجاء فيها بالقول الفصل فى غير موضع منه ، وفى غير آية من آياته . فقال تعالى مخاطباً نبيه الكريم « وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين » (٢) . وقال سبحانه : « لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم ، بالمؤمنين رءوف رحيم » (٣) فالرسول مبعوث لرحمة الناس جميعاً . . وليس شىء فى باب الرحمة بالناس أفضل من استنقاذهم من الضلال ، وتزكية نفوسهم وتطهيرها من الرجس . إن ذلك يعادل الحياة بعد الموت . والبصر بعد العمى ، والسمع بعد الصمم . « أو من كان ميتاً فأحييناه ، وجعلنا له نوراً يمشى به فى الناس كمن مثله فى الظلمات ليس بخارج منها ؟ » (٤) ورسالة « محمد » تحمل للناس جميعاً الهدى فى رفق ، وفى لين . فليس فيها هذا البريق الذى يخطف الأبصار ، ثم يخبو ، وليس فيها هذا العنف الذى تنقطع له الأنفاس ، وينقطع دونه جهد كثير من الناس .

إنها ليست رسالة « طوارىء » كما جاءت كثير من الرسالات فى أحوال مضطربة ، وظروف قاسية . قد ركب الناس فيها ظهر الفتنة ، ولبدوا طبائع

---

(١) سورة البقرة : آية ١٣٦   (٢) سورة الأنبياء : آية ١٠٧ .
(٣) سورة التوبة : آية ١٢٨   (٤) سورة الأنعام : آية ١٢٢ .

الوحوش الكاسرة .. فكان مجىء الرسول فى مثل هذه الأحوال ، وفى مواجهة تلك الظروف ، إنما هو للإنقاذ الحاسم السريع ، الذى لا يحتمل مهلة أو تطاولا فى مـــدة الإنقاذ . . ومن أجل هذا كان إعلان حالة « الطوارىء » هو العلاج الحاسم فى مثل هذه المواقف ، ومن أجل هذا أيضاً كانت عملية الرسول أحياناً تنتهى بالبتر الحاسم ، والتدمير الكامل للمجتمع المريض الذى بعث إليه ، حين لم يكن ينفع العلاج ، ولم يفيد الدواء . . فقد شهد كثير من الرسل مصرع أقوامهم واستئصال فروعهم وأصولهم . . لم ينج منهم إلا قلة تعد على الأصابع .

« الحاقة ، ما الحاقة ، وما أدراك ما الحاقة . . كذبت ثمود وعاد بالقارعة . فأما ثمود فأهلكوا بالطاغية ، وأما عاد فأهلكوا بريح صرصر عاتية ، سخرها عليهم سبع ليال وثمانية أيام حسوماً فترى القوم فيها صرعى كأنهم أعجاز نخل خاوية ، فهل ترى لهم من باقية .(١) . . « وأنه أهلك عاداً الأولى ، وثمود فما أبقى ، وقوم نوح من قبل .. إنهم كانوا هم أظلم وأطغى »(٢)

فالإهلاك الجماعى ، والإبادة العامة ، والاستئصال الشامل لهؤلاء المنحرفين داعية من دواعى التأمين للإنسانية ، وحمايتها من عدوى هذا الانحراف الذى لا يرجى له شفاء ! والذى إن عاش فى الناس امتدت عدواه إلى غير المصابين به ، فتعم به البلوى ، ويشمل البلاء .

أما الرسالة المحمدية فإنها لم تجىء من أجل أمر عارض ، ولا لحالة طارئة فى جيل من أجيال الناس .. وإنما جاءت للناس جميعاً فى جميع أحوالهم وأزمانهم.. ولهذا لم يكن من تدبيرها تلك الإجراءات السريعة الحاسمة التى تنهى الموقف بين النبي وقومه فى لحظة واحدة ينتهى فيها كل شىء ، ويسكن فيها كل شىء ، فلا تحس منهم من أحد أو تسمع لهم ركزا . . بل إن تدبيرها قائم على ترويض الناس ، وأخذهم بالرفق ، وإعطائهم الدواء جرعة جرعة ، على فترات متفاوتة ، وأزمان متباعدة . !

---

(١) سورة الحاقة : الآيات من ١ — ٨ (٢) سورة النجم : الآيات ٥٠ — ٥٢

ولم يكن لرسالة عامة شاملة أن تجىء على غير هذا التدبير والتقدير ، لكى تنجح فى مهمتها ، وتبلغ الغاية المرجوة منها .

وإنك لترى هـذا فى التشريعات والقوانين الوضعية . . فهى فى أحوال الطوارىء تكون حاسمة قاطعة ، لا تحتمل تأويلا ، ولا تقبل تحويرا ، ولكنها فى الأحوال الطبيعية وفى الحياة المستقرة تجىء فى صورة تتسع للاحتمالات المختلفة ، وللتأويلات المتعدده . . التى تفرضها الحياة المتطورة المتنقلة بالناس من حال إلى حال . . ولهذا فإنها لا تتناول إلا الأصول العامـــة ، وأمهات المبادىء دون الفروع والجزئيات ، التى تختلف صورها وأشكالها ، حالا بعد حال ، وجيلا بعد جيل .

والذى ينظر فى الشريعة الإسلامية يجد أنها تناولت الحقائق العامة ، والأحوال الثابتة التى تعيش فى الناس ، ويعيش بها الناس ، فى جميع الظروف والأحوال ، ولم تقف عند الحالات التى لا تقع إلا فى الفلتات النادرة الشاذة من الحياة !

ولك أن تأخذ أى مبدأ من مبادىء الإسلام ، وأى حكم من أحكامه ، وأن تنقل به عبر الأزمان وأن تطوف به فى مختلف الأمم والشعوب ، فإن رأيت فيه نبوا عن الحياة ، أو مجافاة لطبائع الناس ، أو تخلفاً عن مواطن الخير والفلاح لمن اعتقده وعمل به — فلك أن تسوء الرأى بهذا الدين ، وأن تنضم إلى الجهة المعادية له . . ولكن أنا زعيم لك إن أنت نظرت فأحسنت النظر ، وقدرت فأحسنت التقدير ، وحكمت فعدلت فى الحكومة ، ووقفت إلى جانب الحق — أن تعود بعد هذا وملء كيانك إيمان بأن هذا الدين هو الدين الحق ، الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، تنزيل من حكيم حميد . !

وليس من همنا هنا أن نعرض حقائق الإسلام ، وأن نكشف عن جوهرها الحر الكريم ، فذلك ليس من موضوع هذا البحث ، وإنما يكفى أن نشير إلى بعض تلك الحقائق إشارات سريعة ، وأن نضعها فى إطار البقاء والخلود ، وأن ننعتها بالصلاحية فى كل زمان ولكل مكان . . ثم ليتقدم من يجد فى وسعه القدرة على دفعها من مكانها هذا ، وإخراجها عن صفتها تلك ! فإن

من يقم لذلك ويجد الدليل عليه — وهيهات — فإن له ، كما قلنا — أن يسيء الرأى بالإسلام ، وأن ينضم إلى الجبهة المعادية له . . والإسلام فى هذا لن يخسر شيئاً ! لأن الذى ينتهى به الأمر مع الإسلام إلى هذا الموقف فهو أحد رجلين : إما رجل يحمل العداوة الموروثة للإسلام ، ويمتلىء دماغه بما نشىء عليه وغذى به من صغره من مفتريات على الإسلام ، وطمس لحقائقه .. وإما رجل أحمق مغرور يريد أن يلفت إليه الأنظار فيتعلق بأذيال العظماء ، ويندس فى ركب المفكرين .. ليحسب فى الرجال . إنه كالوعل ينطح بقرنيه جبلا شامخاً .. يقف منه موقف الند للند !

ونعرض هنا بعض الأصول التى شرع لها الإسلام ، وبين معالمها وحدودها فمن ذلك : —

١ — الإيمان بالله :

وقد رسم الإسلام إلى التعرف على إله طريقاً واضحاً لا يتعثر فيه إنسان ، ولا يضل ..

والعقل فى شريعة الإسلام هو الذى يهدى إلى الله عن طريق النظر فى ملكوت السموات والأرض ..

فهذا الوجود لابد له من صانع .. والله هو صانع هذا الوجود، وهو القائم عليه .. والله فى مفهوم الشريعة الإسلامية إله واحد .. أزلى أبدى .. « لاتدركه الأبصار ، وهو يدرك الأبصار وهو اللطيف الخبير » .

ذلكم هو الله رب العالمين !

لا يبعد مفهومه عن أحد من الناس .

ولا يحتاج إنسان فى طريقه إلى الله إلى أكثر من نظرة يديرها فى هذا الوجود ..

فلا أستار ولا حجب بين الله وبين الناس جميعاً . . !

والعقل هو فى كيان الناس جميعاً .. لم تختص به أمة دون أمة ، ولم يستأثر به جيل دون جيل . . بل إنه فى الناس جميعاً . . فرداً فرداً . . لا تزيده الأيام إلا قوة وعمقاً .

فالإسلام يدعو الناس إلى الله ، ويدلهم عليه ، وفى كيانهم جميعاً الدليل الذى يدلهم عليه ، ويكشف معالم الطريق .

٢ ـ ما يتصل بالإنسان فى حفظ حياته :

وفى هذا يقرر الإسلام القصاص فى القتلى والجراحات .. قال تعالى : « كتب عليكم القصاص فى القتلى : الحر بالحر ، والعبد بالعبد ، والأنثى بالأنثى : فمن عفى له من أخيه شىء فاتباع بالمعروف وأداء إليه بإحسان » (١) وقال سبحانه : « وجزاء سيئة سيئة مثلها ، فمن عفا وأصلح فأجره على الله » (٢) وقال : « وإن عاقبتم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به . ولئن صبرتم لهو خير للصابرين » (٣) .

فالقصاص مبدأ من مبادىء الإسلام ، يتولاه ولى الأمر كما أمر الله ..

ومن تدبير الإسلام فى هذا أنه أبطل التضحية بالنفس الإنسانية ، وتقديمها على مذبح القربان لله .. فقد كان ذلك مباحاً حتى فى الشرائع السماوية . . ولكن الإنسان الذى أدركته شريعة الإسلام إنسان قد بلغ رشده ، وارتفعت قيمته عن أن يكون قرباناً ولو لخالقه .. فإنه وقد بلغ رشده يستطيع أن يتقرب إلى الله بالمعرفة الواعية لجلاله وعظمته ، وهذه المعرفة فى ذاتها قربان إلى الله أعظم من التضحية بالجسد ، وأعظم دلالة على حب الإنسان لخالقه !

ومن تدبير الإسلام فى هذا أيضاً أنه جعل قتل النفس من أكبر الكبائر ، فلا يتطهر القاتل بأية وسيلة من وسائل التطهير أبداً .. قال تعالى: « وما كان لمؤمن أن يقتل مؤمناً إلا خطأ ، ومن قتل مؤمناً خطأ فتحرير رقبة مؤمنة ودية مسلمة إلى أهله ، إلا أن يصدقوا ، فإن كان من قوم عدو لكم وهو مؤمن فتحرير رقبة مؤمنة وإن كان من قوم بينكم وبينهم ميثاق فدية مسلمة إلى أهله وتحرير رقبة مؤمنة ، فمن لم يجد فصيام شهرين متتابعين توبة من الله ، وكان الله عليما حكيما .. ومن يقتل مؤمناً متعمداً فجزاؤه جهنم خالداً فيها وغضب الله عليه ولعنه وأعد له عذابا عظيما » (٤)

---

(١) سورة البقرة: آية ١٧٨ (٢) سورة الشورى: آية ٤٠ .
(٣) سورة النحل: آية ١٢٦ (٤) سورة النساء: الآيات ٩٢ ، ٩٣

وليس معنى استبعاد أن يقتل المؤمن مؤمناً أن للمؤمن أن يقتل غير المؤمن . ولكن المراد بالآية هنا الإطلاق والتعميم ، فلا يقتل المؤمن المؤمن أبداً فى جميع الأحوال ، على حين أنه قد يقتل المؤمن غير المؤمن فى حال الحرب بين المؤمنين وغير المؤمنين . أما فى غير هذه الحالة فإن لدم غير المؤمن حرمة مثل دم المؤمن.

٣ — ما يتصل بالإنسان فى ماله :

وللمال فى الإسلام حرمة كحرمة النفس، ولهذا وضع الإسلام - حماية للمال - حداً للسارق، والناهب، والمختلس.. كما حرم الإسلام الربا وأكل أموال الناس بالباطل، كالغش فى البيع ، وتطفيف الكيل ، وخسران الميزان ، كما حرم الاحتكار ، والرشوة ، وغيرها مما من شأنه أن تصيب الإنسان فى شىء من ماله .. يقول الرسول الكريم : « كل المسلم على المسلم حرام : ماله ، ودمه ، وعرضه » .

٤ — ما يتصل فى حياته مع الناس :

(ا) الرجل والمرأة :

مكان المرأة فى الحياة ، وموضعها من الرجل لم تأخذ صورة مستقرة فى الحياة، وما زال وضع المرأة قلقاً مضطرباً حتى فى تلك المجتمعات التى تدعى أنها ساوت بين المرأة والرجل ، وجعلتها بمنزلة سواء .. فما زالت المرأة هى المرأة .. إنها غير الرجل ، وستظل أبداً هكذا . . شيئاً آخر غير الرجل ما دامت تختلف عنه فى تكوينها العضوى وفى وظيفتها لحفظ النوع . . إنهـــا أنثى . . . « وليس الذكر كالأنثى »(١) .

ولسنا هنا فى مقام الموازنة أو المفاضلة بين الرجل والمرأة ، فذلك ليس فى موضوع بحثنا ، ولا يدخل فى مقرراته . . وإنما الذى نريد أن نقرره هو مالا يثير خلافاً بين أنصار المرأة وخصومها ، وهو أن المرأة غير الرجل .. وأنها وإن اتفقا فى كثير من الصفات فإنهما يختلفان أيضاً فى كثير من الصفات ، كما أنهما يختلفان فيما اتفقا فيه من صفات كما وكيفاً . . ذلك أمر لا يمارى فيه أحد . .

---

(١) سورة آل عمران : آية ٣٦ .

وهذا القدر يكفينا لما نريد أن نقرره ، وهو أن الحياة قد سارت بكل من المرأة والرجل فى الاتجاه الذى ينبغى أن يسير فيه كل منهما كى تحقق من سيرها الغاية التى خلقا لها ..

وإن أى انحراف يحدث لها أو لأحدهما فى الطريق الطبيعى يضر بها ، كما يضر بالحياة التى يعملان فيها .

وإن أى تشريع سماوى أوغير سماوى لايقوم على هذا التقدير ، ولا يتخذه أساساً فى تحديد العلاقة بين الرجل والمرأة ، وفى وضع كل منهما بالموضع المناسب له — كل تشريع لايقوم على هذا التقدير لايمكن أن ينتظم به ركب الحياة ، بل لايمكن أن يعيش فى الحياة ، وإن قدر له أن يقوم فى حال من الأحوال وفى زمن من الأزمان . فلن يكون ذلك إلا أمراً عارضاً لا يلبث أن يزول .

ولا تنخدع لما يبدو اليوم فى المجتمع الغربى ، من إدماج الرجل والمرأة فى كيان واحد ، تبدو فيه الحياة وكأنها أخليت من الرجال ، أو تعرت من النساء .. وأن الناس قد أصبحوا كائناً واحداً .. لك أن تقول فيهم إنهم جميعاً رجال أو هم جميعاً نساء ..

لاتنخدع لهذا ...

لاتنخدع لهذا ، فما هو إلا عارض لايلبث أن يزول ، ويعود كل شىء إلى وضعه الذى لايصلح شأنه إلا عليه .

والإسلام قد جعل تشريعه فى العلاقة بين الرجل والمرأة قائماً على مابينهما من ضروب الاتفاق والاختلاف .. فألف بينهما من جهة ، وفرق بينهما من جهة أخرى .. جمعهما فى كائن واحد هو « الإنسان » ، وفرق بينهما داخل إطار الإنسانية: رجلا وامرأة ، ذكراً وأنثى .

وهو بهذا التدبير الحكيم وضع الأمر فى مكانه الصحيح السليم .

فهما من حيث الإنسانية كائن واحد : المرأة والرجل سواء .

يتكافئآن فى الدم ، والعرض ، والمال !

فتقتل المرأة بالرجل . ويقتل الرجل بالمرأة فى القصاص عند قتل أحدهما الآخر عن عمد . فإذا قتل رجل امرأة عامداً كان القصاص قتله . وكذلك الشأن فى المرأة . إذا قتلت رجلا قتلت به . والرجل والمرأة إذا فعلا فاحشة أقيم عليهما حد واحد . . وهو جلد كل منهما مئة جلدة إذا كانا غير محصنين ، أو رجمها إذا كانا محصنين .

وفى المال : يسرق الرجل فتقطع يده اليمنى ، وتسرق المرأة فتقطع يدها . وحرمة ما فى يدها من مال كحرمة ما فى يد الرجل من مال . لا يؤخذ إلا بحق ، والاعتداء على ما بيدها من مال مثل الاعتداء على ما فى يد الرجل من مال، يقام فيه الحد على السارق ، وتوقع العقوبة على الخاطف والمغتصب .

والقرآن الكريم يوجه أو امره ونواهيه إلى الناس جميعاً ، لم يفرد النساء بلون خاص من الأمر أو النهى إلا ما كان من مستلزمات طبيعتهن ، وما يقتضيه الحياء الذى ينبغى أن يكون سمة بارزة فى المرأة ، ليظل لها مكاناً فى قلب الرجل . وذلك كالنهى عن التبذل والخلاعة فى الزى والحركة .

أما فيما عدا هذا الذى تقتضيه طبيعة المرأة فالأوامر والنواهى متوجهة إليهما معاً وبقدر واحد . فالصلاة ، والصوم ، والزكاة ، والحج ، وقبلها جميعاً الإيمان بالله وبرسوله . هى جميعها للرجال والنساء على حد سواء ، لا يكمل إيمان الرجل أوالمرأة إلا بها . والمرأة والرجل فى موقف الجزاء سواء . الحسنة بعشر أمثالها ، والسيئة بمثلها .

وأكثر ما يتوجه الخطاب إلى الرجل والمرأة فى القرآن على صورة الجمع بينهما فى مثل : « يا أيها الناس . ويا أيها الذين آمنوا » .

ولكى لا يكون هناك أدنى لبس فى أن المرأة والرجل على حد سواء تجاه أوامر الله ونواهيه ـ جاء القرآن الكريم بصور من الخطاب يزاوج فيه بين الرجال وبين النساء مثل قوله تعالى : « إن المسلمين والمسلمات ، والمؤمنين والمؤمنات ، والقانتين والقانتات ، والصادقين والصادقات ، والصابرين والصابرات ، والخاشعين

والخاشعات ، والمتصدقين والمتصدقات ، والصائمين والصائمات ، والحافظين فروجهم والحافظات ، والذاكرين الله كثيراً والذاكرات ، أعد الله لهم مغفرة وأجراً عظيماً »(١) .

فهذه تسوية مطلقة بين الرجل والمرأة فى مجال الطاعات والعبادات ، وفى مقام الجزاء الطيب للعمل الطيب . ويقول سبحانه وتعالى : « ومن يعمل من الصالحات من ذكر أو أنثى وهو مؤمن ، فأولئك يدخلون الجنة ولا يظلمون نقيراً »(٢) ويقول جل شأنه : « من عمل صالحاً من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة ، ولنجزينهم أجرهم بأحسن ماكانوا يعملون »(٣) . هذا هو وضع المرأة مع الرجل فى إطار الإنسانية .. هما فى مقام واحد ، لأنهما من نفس واحدة ، كما يقول سبحانه وتعالى : « ياأيها الناس اتقوا ربكم الذى خلقكم من نفس واحدة ، وخلق منها زوجها ، وبث منهما رجالا كثيراً ونساء »(٤) .. ويقول سبحانه : « هو خلقكم من نفس واحدة وجعل منها زوجها ليسكن إليها »(٥) .. ويقول سبحانه أيضاً : « ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجاً لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة » .

فأما فى غير المجال الإنسانى للرجل والمرأة فهما رجل وامرأة .. ذكر وأنثى .. فلكل منهما طاقاته واتجاهات طبيعته !

فالجهاد ـ مثلا ـ الذى فرضه الإسلام على المسلمين عند اقتضاء دواعيه وقيام أسبابه ، قد أعفى الإسلام منه المرأة أن تدخل ميدان الحرب مقاتلة ، تقتل أو تقتل .. لأن ذلك لايناسب طبيعة المرأة ، ولا يتفق مع وظيفتها فى الحياة .

إن الحرب شر بشع الوجه .. دماء تراق ، وأشلاء تتناثر ، وأرواح تزهق .. منظر مفزع مروع .. تطير له نفوس الأبطال شعاعا وتنخلع قلوبهم هلعاً .. فكيف بالمرأة وما فى طبعها ـ مها تكن ـ من رقة ؟ وما فى عزيمتها من خور . ؟

---

(١) سورة الأحزاب : آية ٣٥
(٢) سورة النساء : ١٢٤
(٣) سورة النحل : آية ٩٧
(٤) سورة النساء : آية ١ .
(٥) سورة الأعراف : آية ١٨٩
(٦) سورة الروم آية ٢١ .

أتستطيع المرأة أن تصبر على هذا الموقف ، وأن تتماسك أوصالها فيه ؟ ذلك شيء فوق طبيعتها من غير شك .. وقد دارت الحرب بين الناس والناس فى ملحمة متصلة من أول الحياة إلى اليوم ، ولم يشهد الميدان جيوشاً من النساء ، ولا عرف فوارس منهن إلا فى فلتات نادرة ، وظروف قاهرة — لا تكاد تذكر فى هذه الملحمة الطويلة التى عاش فيها الناس محاربين . . وحتى فى هذه الفلتات كانت المرأة لا تخرج للحرب إلا وقد لبست ملابس الرجال ، وشدت نفسها وعزمها بهذا الثوب المستعار .

ومن جهة أخرى ، فإن المرأة وهى التى كانت مصدر الحياة ومستودعها ، وهى التى حملت الإنسان جنيناً ونشأته فى كيانها ، وغذته بدمها ولبنها ، وشاطرته — روحها — هذه المرأة كيف تحمل على أن تغدو إلى ميدان القتال لتهدم ما بنت ، وتقتل أبناءها بيدها . إن ذلك لا يمكن أن يستقيم مع طبيعة المرأة ، وإن استقام — على عوج — عند أفراد فى الحياة الإنسانية من النساء .. لا يحسب لهن حساب.

وهناك — غير هذا — واجبات كثيرة أعفت الحياة منها المرأة ، وألقت بها على عاتق الرجال ، كالقوامة على الأسرة وتدبير شأنها وحمل أعبائها ، كما أن هنالك واجبات أعفت الطبيعة الرجال منها وجعلتها منوطة بالنساء ، كالحمل والرضاعة.

(ب) الزوج والزوجة:

وحين يجتمع الرجل والمرأة كزوج وزوجة يكون للرجل المقام الأول ، وللمرأة المركز التالى له . . إن اجتماع الرجل والمرأة كزوجين هو نواة لمجتمع صغير ، ولابد أن يكون لهذا المجتمع — على صغره — من أمير يقوم عليه ويتولى تدبير أمره وتوجيه شئونه .

إن الإسلام لا يدع أى مجتمع — مهما صغر — دون أمير يقوم عليه ، ويتولى حمل المسئولية عنه .. يقول النبى الكريم : « كلكم راع ، وكلكم مسئول عن رعيته . فالأمير الذى على الناس راع وهو مسئول عن رعيته ، والرجل راع على أهل بيته ، وهو مسئول عن رعيته ، وعبد الرجل راع على مال سيده ، وهو مسئول عنه ».

فلكل من الرجل والمرأة نصيب من حمل المسئولية فى مجتمع الأسرة الصغير .. ومع هذا فلابد — لهذا المجتمع الصغير من مسئول عام ، يتولى — إلى جانب مسئوليته الخاصة - المسئولية العامة .. وعلى هذا ، كان لابد أن يكون الرجل - لا المرأة - هو الذى يتولى القيام على شئون هذا المجتمع الصغير ، ويكون منه بمنزلة الرأس من الجسد .. قال تعالى : « الرجال قوامون على النساء بما فضل الله بعضهم على بعض ، وبما أنفقوا من أموالهم »(١) .. ويقول سبحانه : « وللرجال عليهن درجة »(٢) .

ومع هذا ، فقد نبه الإسلام على رعاية الحقوق التى ينبغى أن تكون للزوجة فى هذا المجتمع لئلا يطغى عليها الرجل ويستبد بها ، وتطغيه الإمارة ، فلا يرى للمرأة مكاناً معه . .

فالقوامة التى جعلها الإسلام فى يد الرجل ليست قوامة جبرية ، أو استبداداً ، وانتقاماً ، وإنما هى قوامة ألفة ، وحب ، ومودة ، . قوامة غايتها إسعاد أفراد المجتمع الأسرى ، فرداً فرداً ، لأن فى إسعادهم سعاده لرب الأسرة لأنه إنما يسعد نفسه فى أبنائه الذين هم بضعة منه ، وفى زوجه التى هى بعض نفسه كما يقول القرآن: « خلق لكم من أنفسكم أزواجاً لتسكنوا إليها ، وجعل بينكم مودة ورحمة »(٣)

الرحمة الشاملة أيضاً :

ونعود إلى حديثنا عن جانب الرحمة فى الرسالة المحمدية بعد أن عرفنا شمول هذه الرسالة وعمومها ، وامتدادها عبر الأزمان والأجيال . . وبعد أن عرفنا أنها لم تكن رسالة طوارىء ترى مهمتها فى وقت محدود .

وقد استبان لنا مما تقدم أن الناس فى ظل الرسالة المحمدية فى أمن من الضربات المفاجئة القاصمة ، فلا ينزل بهم ما نزل بأقوام الأنبياء من قبلهم من خسف ، وإغراق ، ومن صواعق ومهلكات تحملها حجارة من سجيل تمطرها السماء .. « وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم وما كان الله معذبهم وهم يستغفرون »(٤)

ولا شك أن هذا رحمة واسعة وفضل كبير اختصت به الرسالة المحمدية ،

---

(١) سورة النساء : آية ٣٢ — (٢) سورة البقرة: آية ٢٢٨

(٣) سورة الروم : آية ٢١ — (٤) سورة الأنفال: آية ٣٣ .

التى ما كان غير « محمد » فى كماله الكامل أن يحمل مثل هذه الرسالة العامة السامية . يقود فيها الإنسانية كلها إلى شطآن السلامة والأمن ، محتملا ما احتمل من أذى ، وعنت ، وألم ، دون أن تطاوعه نفسه الرحيمة بالانتقام من آذوه . . ولو دعا دعوة عليهم لتفتحت لها أبواب السماء بالقبول ، ولصبت المهلكات على أعدائه صباً . ولكن صبر وصابر،واحتمل أن يلقى عليه الروث ، وأن يرمى بالأحجار من سفهاء ثقيف حتى تدمى قدماه ، وأن تتبادره السهام فى غزوة أحد حتى ينغرز المغفر فى جبهته وتنكسر رباعيتاه ، ويسيل دمه ، ثم يسأله بعض أصحابه:ألا تدعو على قريش دعوة تمحقهم وتذهب بهم ؟ فيجيب الرسول الرحيم : « إنا بعثت هادياً، ولم أبعث لعاناً . . » ويخفق قلبه الكبير بعواطف الحنو والرحمة ممزوجة بالإشفاق والأمل ، وتتحرك شفتاه ، بهذه الكلمات الخالدة : « اللهم أهد قومى ، فإنهم لا يعلمون » .

وقد تتدافع فى صدر الرسول دوافع الغيظ والألم . وتتحرك فى نفسه الرغبة فى الانتقام من المعتدين الظالمين . فتصرف السماء هذه الرغبة إلى ما هو أليق بالرسول العظيم ، وإلى ما هو أنسب لرسالته الرحيمة .. تصرفه إلى التسامح والعفو، فالعفو والتسامح من شريعة الإسلام . « وأن تعفوا أقرب للتقوى » « ولمن صبر وغفر إن ذلك لمن عزم الأمور »(١)

فى غزوة أحد نالت قريش من المسلمين ، فقتل عدد كبير من خيار الصحابة، وأصيب الرسول بجراحات فى جسده الشريف . . ولم تقف قريش عند هذا ، بل مثلت بقتلى المسلمين ، وتولت هند بنت عتبة ، وزوج أبى سفيان ـ كبر هذا الإثم . وقادت حملة التمثيل ، فبقرت بطن حمزة عم النبى ، وأسد الله والإسلام ، وتناولت مزقة من كبده ولا كتها فى فمها . . تشفياً وانتقاماً من قتلى بدر ، وفيهم أبوها عتبة ، وأخوها الوليد بن عتبة .

ولما رأى الرسول الكريم ما فعلت قريش بعمه ، وبصحابته من تقتيل وتمثيل قال : لئن كان لنا غلبة على قريش لنمثلن بقتلاهم أكثر مما فعلوا بنا .. فنزل قوله تعالى : « وإن عاقبتم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به ، ولئن صبرتم لهو خير

---

(١) سورة الشورى : آية ٤٣ .

للصابرين . . واصبر وما صبرك إلا بالله ، ولا تحزن عليهم ، ولاتك فى ضيق مما يمكرون . إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون » (١)

فانظر إلى أدب السماء مع رسول رب العالمين إلى العالمين . . إنها ترضى فى نفسه جانب البشرية ، فلا تسد عليه منافذ التنفيس لعواطفه وانفعالاته ، فتأذن له بأن يعاقب ولكن بمثل ماعوقب به . فذلك هو شرع الله مع الأعداء والأولياء « وإن عاقبتم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به » . . لاحرج فى هذا . . وهنا يتنبه الرسول إلى أنه قد بعد شيئاً عن هذا الأدب السماوى فى تلك العزمة التى عزمها للانتقام من قريش ، إنه لايعاقب بمثل ماعوقب به بل بأ كثر مما عوقب به، وهذا ما تأباه شريعة العدل الذى يمسك «محمد» بميزانه المستقيم .. ولو انتهت الآية عند هذا الموقف لكان فيها العظة البالغة للنبى فى أن يدع عزمته فى الانتقام من قريش حتى بمثل ماكان منهم ، فذلك هو الذى يراه مناسباً لهذا العتاب الخفى الذى شعر به من الآية الكريمة ، والذى لا يشعر به إلا قلب متصل بالملأ الأعلى ، موصول بأنوار السماء ..

ولكن الآية لم تقف عند هذا .. « وإن عاقبتم فعاقبوا بمثل ماعوقبتم به » . بل أظهرت المفهوم الذى فهمه النبى منها . . « ولئن صبرتم لهو خير للصابرين » فجاءت الدعوة عامة للنبى وأتباع النبى بالصبر على أذى الأعداء ، وعلى مبالغتهم فى هذا الأذى بالتمثيل بالقتلى .. ولا يقف الأمر عند هذا ، بل يختص النبى بتوجيه خاص . « واصبر وما صبرك إلا بالله ، ولا تحزن عليهم ، ولاتك فى ضيق مما يمكرون .. » عزاء جميل من رب العالمين لنبيه الكريم فى هذا الموقف الذى فقد فيه سبعين شهيداً من أ كرم صحابته ، وأعز أوليائه !

ثم يختتم المشهد بهذه الخاتمة التى تدعو إلى التقوى وإلى الإحسان : « إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون » . . ومن التقوى والإحسان . . العفو عن الجاهلين وملاقاة إساءتهم بالإحسان ، والغفران .. « ويدرءون بالحسنة السيئة » .. « ادفع بالتى هى أحسن » (٣)

---

(١) سورة النحل: الآيات ١٢٦ — ١٢٨ (٢) سورة الرعد : آية ٢٢.
(٣) سورة فصلت: آية ٣٤

أرأيت إلى هذا اللطف الذى يحف الله به نبيه فى هذه المحنة القاسية التى مست شغاف قلبه؟ ثم أرأيت إلى تدبير الله سبحانه وتعالى فى هذه المداخل التى دخل بها إلى قلب النبى ليتجه به إلى جانب العفو والمغفرة ؟ لقد عاتب الرسول فى رفق، وعزاه فى حكمة ، ودعاه إلى حضرته فى إعزاز وتكريم .

ويلقى الرسول هذا التوجيه السماوى بالرضا والقبول . فيقول : « بل نتقى ونصبر » !

◦ ◦ ◦

ومن ينابيع « الرحمة » التى تفيض بها الشريعة الإسلامية هذا اليسر الذى تقوم عليه أحكامها . فإنها الشريعة التى اختير لها الطريق الوسط بين الشرائع السماوية كلها . وهو سمة الإسلام ، وسمة أهله . . قال تعالى : « وكذلك جعلناكم أمة وسطاً ، لتكونوا شهداء على الناس ، ويكون الرسول عليكم شهيداً » (١) .

والوسط فى كل شىء هو مركز الاعتدال فيه ، ومكان القلب منه . !

وطبيعى أن فوق الوسط منزلة أعلى منه ، وأنه ليس هو غاية الكمال . . ولكنه مع هذا هو خير فى مجموعه مما فوقه .. لأنه أثبت وأدوم ، ولأنه أقرب إلى متناول الناس .. إن لم يكن الناس جميعاً ، فالأغلب الأعم منهم ..

إن الاعتدال فى أى شىء ، وفى كل شىء يحتمله الناس ، ويقدرون على الوفاء به ، ويصبرون على مكروهه .. أما ما فوق الوسط فهو أمر لا تحتمله أكثر النفوس ، ولا تصبر عليه .. وقد يرتفع الإنسان إلى أكثر مما يحتمل ، فيختل توازنه ، ويسقط فى الهاوية ، ولا تكون السلامة والعافية إلا حيث الاعتدال الذى يجد فيه الإنسان القدرة على التحرك إلى فوق أو إلى تحت ، وهو فى تلك الحركة لا يخرج عن المقام الكريم اللائق به حيث يظل بالمنزلة التى يشرف منها على الأرض ، ويشارف فيها السماء !

---

(١) سورة البقرة : آية ١٤٣ .

قد يقول بعض الناس إن « الوسط » لا طعم له ، ولا ذاتية له .. إنه أشبه شيء بالخط الوهمي . . إنه ليس شيئاً ، ولا ضد شيء . . إن القسمة في الأمور إنما هي الشيء وما يقابله : الخير ، والشر . . الأبيض ، والأسود . . الحلو ، والمر . . الجميل والقبيح . والوسط الذي يفصل بينهما ليس إلا خطاً وهمياً . أما الذي يأخذ صفته من هذين الطرفين ، فيأخذ شيئاً من هذا وشيئاً من ذاك فهو دخيل عليهما ، لصيق فيهما . . يضاف إلى هذا مرة ، وإلى ذاك مرة حسب الصفة الغالبة عليه من أي منهما .

والشيء الذي على تلك الصفة شيء باهت اللون ، واهي الأساس . . لا يمسك بشيء ، ولا يمسك به شيء !

انظر .. الماء الفاتر .. وهو وسط بين الحار والبارد .. لا يصلح للاستحمام ولا يساغ للشرب !

والشراب المز .. وهو وسط بين الحلو والمر .. لا طعم له . . قد جمع بين الضدين ، وخلط بين المتناقضين .

هذا في الماديات . فإذا ذهبت إلى المعنويات وجدت أن التوسط فيها ، والوسط منها ليس هو غاية الكمال فيها ، ولا نهاية الخير منها . . بل إنه كلما بلغ المرء فيها منزلة وجد فوقه منازل أخرى أكرم وأفضل . . ولهذا كان التفاضل بين الفضلاء ، وكان الفضل للسابق المتقدم ، والحظ الأوفر لمن جد في الطلب . وتقدم الركب .. فالعلم والتقوى ، والإحسان ، والجهاد في سبيل الله ، والصبر على المكاره ، وغيرها من الفضائل التي يتميز بها الأخيار من الأشرار ، هذه الفضائل لا ينازع أحد في أن الاستزادة منها استزادة من الخير ، وأن القول بالتزام حد الوسط منها هو غاية الغايات فيها قول مردود . وكيف وقد علم الله سبحانه وتعالى نبيه الكريم أن يدعو فيقول : « رب زدني علماً (١) . . وهو الذي بلغ غاية الغايات من العلم الذي لا يبلغه من البشر غيره ؟ وكيف والله

(١) سورة طه : آية ١١٤ .

سبحانه وتعالى يدعو عباده إلى التسابق فى مجال الخير فيقول سبحانه : « سابقوا إلى مغفرة من ربكم وجنة عرضها السموات والأرض » (١) . ويقول : « وفى ذلك فليتنافس المتنافسون » (٢) .. لقد فتح المجال للتنافس بين المتنافسين على مصراعيه بلا حدود .. فما تأويل هذا ؟

ونقول إنه غير منكر أن فوق حد الوسط منازل كثيرة للفضل ، وأنه غير محجور على الناس أن يرقوا إليها ، وأن يتنافسوا فيها .. ! إن الطريق إلى الكمال مفتوح للناس جميعاً .. ليس عليه حارس .. فلكل من وجد فى نفسه القدرة ، وآنس منها الاستعداد على مجاوزة « نقطة » المرور أن يضع قدمه على الطريق ، وأن يسير إلى حيث يبلغ جهده !

ولكن هذا شىء ، والتشريع العام شىء آخر ..

التشريع إلزام . وهذا عن تطوع واختيار !

التشريع عقد بين صاحب الشريعة وبين أتباع هذه الشريعة .. فهم مطالبون بالوفاء بها .. إذا قصروا حوسبوا على تقصيرهم وأخذوا به ، ولا كذلك ما كان عن تطوع واختيار ! يستطيع الإنسان أن يمضيه ! ويكف عنه !

والتشريع حين يكون عاماً تقتضى الحكمة فيه أن يكون قائماً على معيار يسع الناس جميعاً ، الأقوياء والضعفاء . كما تقتضى رحمة الخالق بعباده أن يكون التكليف مقدراً على ما يحتمل الضعفاء لا الأقوياء ، وأن يكون ما فى الأقوياء من قدرة على احتمال ما فوق التشريع هو فضل من فضل الله عليهم .. يزدادون به كمالا فوق الكمال الذى بلغوه بأداء ما كلفوا به .. فإنه « ما على المحسنين من سبيل » !

وهنا يتضح معنى الآية الكريمة « لا يكلف الله نفساً إلا وسعها (١) ، فإن أى نفس لا تضيق بالتشريع الذى قد على قدر الضعفاء ، وفصل على مدى احتمالهم ! وما تسع نفوسهم .

لهذا كان تشريع الإسلام كله مضبوطاً على هذا التقدير . وكانت سيرة الرسول

---

(١) سورة البقرة : آية ٢٨٦ .

فى المسلمين ، وأدبه لهم ، قائماً على هذا الصراط المستقيم ، صراط الله الذى له مافى السموات وما فى الأرض ..

يقول الرسول صلوات الله ، وسلامه عليه : «سيروا بسير أضعفكم»!

فموكب الإسلام موكب ملاحظ فيه جانب الضعفاء فى ماديات الحيـــاة ومعنوياتها ، فلا يوطأ فيه الضعفاء بالأقدام ، ولا يتخطاهم الركب . . !

وهذا إعلان من نور ، وصحيفة مشرقة مسطورة بيد الرحمة والحكمة السماوية بمكانة الإنسان ، وقيمته عند الله .

فالإنسان شىء عظيم عند الله .. ينبغى ألا يضيع بحال أبداً .. وعلى الجماعة ، أن تتقيد به ، لا أن يتقيد هو بها ، ومن حق الإنسان الفرد أن يحيا فى الجماعة ، وأن ترعى الجماعة هذا الحق ، بل وأن تضحى بالكثير من جانبها لأجله ..!

فأين هذا مما تدور عليه حياة كثير من المجتمعات فى هذا العصر ، عصر المدنية، وعصر النور كما يسمونه ؟

إن الإنسان فى كثير من هذه المجتمعات لا يعدو أن يكون أداة من أداوت الإنتاج ، وأن مكانه فى الجماعة على قدر مايعطى من محصول ! فإن لم يكن من القوى المنتجة فليلق به فى عرض الطريق ، وليذهب طعاماً للجوع والحرمان !

وأين هذا الذى يلقاه الضعفاء فى ظل المدنية الحديثة من امتهان وازدراء من هذا العطف والحنو ، والرعاية التى يلقونها فى ظل الدعوة الإسلامية وتحت جناحها ؟

رأى نبى الإسلام شيخاً من اليهود قد ضعف بصره ، وذهبت قوته وهو يتكفف ، فقال الرسول الرحيم .. «ما أنصفناك .. » ثم فرض له فى العطاء !

وليس هذا شأن الإسلام مع الإنسان وحده ، بل إنه مع كل حى . . من حيوان وإنسان ..

فقد نهى الإسلام عن تجويع الحيوان ، أو إرهاقه بالعمل . . فإن ذلك ظلم كظلم الإنسان للإنسان .. له جزاؤه السيء عند الله ..

ويكشف نبي الإسلام للناس عن صور من هذا المصير الذى يصير إليه أولئك القساة الذين يؤذون مخلوقات الله . .

يقول النبي الكريم : «عذبت امرأة فى هرة حبستها حتى ماتت ، فدخلت فيها النار . . فلاهى أطعمتها ، ولاسقتها ، ولاهى تركتها تأ كل من خشاش الأرض» .

كما يكشف النبي الرحيم عن المصير الكريم ، والجزاء الحسن الذى يلقاه أصحاب القلوب الطيبة الرحيمة فيقول صلوات الله وسلامه عليه : «بينما رجل يمشى فاشتد عليه العطش فوجد بئراً ، فنزل ، فشرب ، ثم خرج .. فوجد كلباً يلهث ، يلعق الثرى من العطش فنزل فملأ خفه ، فسقى الكلب ، فشكر الله له فغفر له» .

والحيوانات التى أحل الله لنا أكلها بعد ذبحها . يجب أن نرفق بها إلى آخر لحظة من حياتها .. يجب أن تذبح ذبحاً حسناً . فلا يطول إيلامها وتعذيبها ؛ فيقول النبي الرحيم : «إذا ذبحتم فاحسنوا الذبحة» .

والحيوان المؤذى كالعقرب والثعبان . وغيرها مما يتأذى الناس بمقامه بينهم ينبغى إذا قتلناه أن نقتله من غير تعذيب له .. فنقتله لندفع أذاه ، لالنتشفى منه : «وإذا قتلتم فأحسنوا القتلة» .

ذلك هو تدبير الإسلام فى رعاية الضعفاء والرفق بهم ، سواء أكانوا من الإنسان أو الحيوان .

فإذا ظهرت فى هذا العصر بعض الدعوات التى تنادى بالرفق بالحيوان ، فإنها — على ظاهرها الطيب الجميل — ليست نابعة عن طبيعة أصيلة ، وإنما هى صورة من صور التعويض عن الجانب المفقود فى الإنسان من عاطفة الحب والرحمة ، حيث استحكمت فى الناس رغبات التحكم والقهر والتسلط من جانب الأقوياء على الضعفاء ، أمماً وأفراداً ، وحين تجلت هذه النزعات الخبيثة الوحشية

فى تلك الحروب المروعة المدمرة التى تأتى على الأمم ، وتحصد الناس بغير حساب ، وتغرق فى بحورها العميقة الأطفال والشيوخ والنساء بلا رحمة . فكان هذا العطف البادى على الحيوان هو فى الواقع تكفير عن هذه الجرائم ، وتبرير لها ، فى حال معاً .

وقد يسأل سائل : كيف تمضى الحياة بهذا الركب الذى يدعو الإسلام الناس فيه إلى أن يسيروا بسير أضعفهم ؟ وهل يستطيع مثل هذا الركب « السلحفائى » أن يبلغ غاية : أو يحقق مقصداً ؟ أليس هذا هو سر تخلف المجتمع الإسلامى وسبب ضعفه وتخاذله بين المجتمعات الإنسانية ؟ وماذا يرجى لسائر يسير هذا السير الواهن المتخاذل بينما الناس يشدون وينطلقون ؟ ماذا يرجى لهذا الإنسان غير التخلف والضعف والقصور عن أن ينال شيئاً من طيبات الحياة التى تمتلى بها أيدى الجادين المنطلقين فيها ؟

ونقول : إن الذى يدعو إليه الإسلام فى أن يسير المجتمع الإسلامى بسير الضعيف ليست غايته توهين قوى الأقوياء ، وإطفاء جذوة الحماس المتقدة فيهم — بقدر ما هى حث للضعفاء على إطلاق القوى الكامنة فيهم ، وبعثها من رقدتها .. عن طريق الغيرة والتنافس والعدوى التى تصيبهم من جانب الأقوياء !

إن تدبير الإسلام فى هذا هو أن يحمل من طاقات الأقوياء ، ومن الحرارة والحماس الذى ملأ صدورهم ـ دفئاً يملأ صدور الضعفاء بالأمل والرجاء ، ويطرد من كيانهم هذا اليأس الذى يغتال كل رغبة دافعة إلى السير فى ركب الحياة !

إن الذى يريده الإسلام بهذا التدبير هو استنقاذ هذا العدد العديد من ضعفاء النفوس . أصحاب الهمم الفاترة ، والعزمات الخائرة ، حين يعطف عليهم الركب القوى فيضمهم إليه ، ويدعوهم إلى السير معه !

ولا شك أن فى هذا كسباً كبيراً للجماعة ، وزيادة غير قليلة فى رصيدها من القوى العاملة فى الحياة ، بهذا العدد الكبير الذى يضاف إليها من الضعفاء الذين لولا هذا التدبير الحكيم لذهبوا مذاهب الضياع .

إن انطلاق أقوياء انطلاقاً لا التفات فيه إلى الضعفاء يوقع اليأس فى قلوب المتخلفين فيظلون حيث هم ، إذ لا أمل لهم فى اللحاق بالناس .

وربما بدا لبعض القائلين أن يقول : ولم لا يقع العكس ، وهو أن تجيء العدوى من الضعفاء إلى الأقوياء ، فيتحول الركب كله إلى « سلحفاة » لا تتحرك أبداً . أو تتحرك إذا تحركت فى تثاقل وبطء ؟

ونقول أيضاً : إن هذا القول مردود لأمور :

منها أن الإنسان مدعو من جانب ذاته وحب تحصيل الخير لشخصه أن يسعى ويعمل ، وأنه إذا وجد الجادين العاملين استولى عليه دافع يدفعه إلى مساماة الناس واللحاق بهم وخاصة إذا وجد أنه لن يغرق فى لجج الحياة أبداً إذا اندفع مع المندفعين وخانته قواه ، إنه سيجد أيدياً كثيرة تمتد إليه ، وتستنقذه ، ولا تدعه وشأنه يلقى مصيره .

وهذه هى فائدة السير بسير الضعفاء . . إنه يعطى إحساساً للضعفاء أنهم لو اندفعوا وانطلقوا . فلن يتركوا إذا خارت قواهم ، وأدركهم الجهد والاعياء . وبهذا لا يترددون عن الإقدام والمغامرة والاندفاع .

ومنها أن الإنسان — فى الركب الإسلامى — مدعو إلى العمل والكفاح ، وذلك فوق ما فى نفسه من دوافع للعمل والكفاح حفظاً لكيانه — وأنه إذا قصر فى ذلك عد مخالفاً لشريعة دينه التى تحث على العمل وتدعو إليه . وتجعله ضرباً من ضروب العبادة والقربى إلى الله .

يقول النبى الكريم « إن الله يحب إذا عمل أحدكم عملا أن يتقنه » وليس اتقان العمل فى مجرد تجويده ، وإحسان صنعته كما يفهم كثير من الناس ، وإنما من تمام إتقانه الجد فى أدائه . وإفراغ ما فى الوسع لإنجازه فى سرعة وفى إتقان .

هذا ، وليست دعوة الإسلام هــذه بالتى تأخذ على الأفراد طريقهم

فى الانطلاق إلى غاية ما تحتمل طاقاتهم . فإن كل فرد له فى مجال عمله أن يطلق كل قواه ، وأن يتحرك فى كل مجالاته ، ما دام لم يعتد على أحد ، أو لم يفوت حقاً على أحد . .

فالناس فى ظل هـــذه الدعوة فى حرية مطلقة للعمل حسب طاقاتهم واستعداداتهم . ولـكن الذى تدعو إليه تلك الدعوة هو أن تنسق حركات الناس حين يـكونون فى عمل جماعى يقتضى أن يعملوا له جميعاً ، سواء أ كان ذلك فى شئون الدنيا أم فى شئون الدين كالسير إلى الجهاد لملاقاة العدو . فإن واجب الجماعة أن تسير فى ركب واحد وأن تنظر إلى الجانب الضعيف منها ، فلا تحمله على ما عند الأقوياء من قوة . . أما إذا لاقوا العدو فعلى كل مقاتل أن يعطى كل ما عنده من قوة . . فلا يقع مثلا — أن يسير على بن أبى طالب فى مضاربة العدو بسير حسان بن ثابت ، وإن كان ذلك واجباً أن يـكون فى حال السير إلى جبهة القتال ، لا فى ميدان القتال ، والتحام المعركة .

وفى الصلاة — صلاة الجماعة — ينبغى أن يكون أداء الصلاة على قدر طاقة الضعفاء ، حتى لا يـكون فى أدائها ما يشق على المرضى والعجزة والشيوخ . . وهذا ما يشير به الحديث : « من أم فليخفف » .

ومن جهة أخرى . . هل مطلوب الحياة من الناس أن يجروا حتى يلهثوا ، وحتى تتقطع أنفاسهم ؟

إن الاعتدال فى العمل ، والموازنة بين الحركة والسكون ، وبين العمل والراحة ، فيـــه الكفاية كل الكفاية لحاجة الإنسان فى الحياة ، وتحصيل مطلوباته منها .

ومن جهة ثالثة ، فإن دعوة الإسلام هذه رحمة بالأقوياء أن يشقوا على أنفسهم وأن يحرقوا كل طاقاتهم فى سكرة الانطلاق وحميا التزاحم والتنافس . . فكثيراً ما يذهل الإنسان عن نفسه ، وينسى ما ينبغى أن يكون لبدنه ، وعقله

من حق فى الدعة والراحة . . وكثيراً ما يكون هذا سبباً فى انحلال قوى الإنسان ، انحلالا مفاجئاً ، فيفسد جهازه ، وتتعطل ملكاته ، ويصبح غير صالح للعمل القليل ، فضلا عن الكثير وفى هذا يقول الرسول الكريم : « إن المنبت لا أرضاً قطع ولا ظهراً أبقى » . . ولعـــل فيما نرى فى المجتمعات الأوربية والأمريكية التى جرفتها تيارات الحياة المادية ، وألهبتها سياط التنافس ، والتسابق فى الحصول على المال — لعل فيما نرى من الآثار السيئة التى أصيب بها الناس من انحلال فى القوى الجسدية والعقلية فوق ما أصيبوا به فى قواهم الروحية — لعل فى هذا شاهداً ودليلا .

نعود بعد هذا إلى ما فى مقررات الدعوة الإسلامية من مظاهر اليسر والرحمة بالناس . . ففى القرآن الكريم ، وفى سنة النبي القولية والعملية منهج واضح متكامل لتربية المجتمع الإسلامى وإقامته على طريق الاعتدال فى أموره جميعها ، الدينى منها والدنيوى على السواء ففى القرآن الكريم :

يقول الله سبحانه وتعالى: «لا يكلف الله نفساً إلا وسعها »[١]. ويقول سبحانه: « الذين يتبعون الرسول النبي الأمى ، الذى يجدونه مكتوباً عندهم فى التوراة والإنجيل ، يأمرهم بالمعروف ، وينهاهم عن المنكر ، ويحل لهم الطيبات ، ويحرم عليهم الخبائث ويضع عنهم إصرهم والأغلال التى كانت عليهم » [٢] . لقد كانت الديانات السابقة تأخذ أتباعها بأنواع من العقاب ، لما كان منهم من عناد ، وبغى وظلم ، فتحرم عليهم بعض الطيبات التى كانت من قبل حـــلا لهم ، كما يقص القرآن من أنباء بنى إسرائيل : « فبظلم من الذين هادوا حرمنا عليهم طيبات أحلت لهم ، وبصدهم عن سبيل الله كثيراً ، وأخذهم الربا وقد نهوا عنه، وأكلهم أموال الناس بالباطل »[٣]، « وعلى الذين هادوا حرمنا كل ذى ظفر ، ومن البقر

---

(١) سورة البقرة : آية ٢٨٦
(٢) سورة الأعراف : آية ١٥٧
(٣) سورة النساء : آية ١٦١

والغنم حرمنا عليهم شحومهما إلا ما حملت ظهورهما ، أو الحوايا ، أو ما اختلط بعظم ، ذلك جزيناهم ببغيهم » (١) .

وقد جاءت الشريعة الإسلامية فرفعت هذا الحظر ، وأباحت لأتباعها كل طيب : « اليوم أحل لكم الطيبات ، وطعام الذين أوتوا الكتاب حل لكم ، وطعامكم حل لهم » (٢) . « قل لا أجد فيما أوحى إلى محرماً على طاعم يطعمه إلا أن يكون ميتة أو دماً مسفوحاً أو لحم خنزير فإنه رجس أو فسقاً أهل لغير الله به » (٣) . « قل من حرم زينة الله التى أخرج لعباده والطيبات من الرزق ؟ قل هى للذين آمنوا فى الحياة الدنيا ، خالصة يوم القيامة » (٤) .

ثم إن القرآن قد حمل إلى المسلمين دعوة يدعون بها الله : « ربنا ولا تحمل علينا إصراً كما حملته على الذين من قبلنا ، ربنا ولا تحملنا ما لا طاقة لنا به » (٥) .

وفى هذه الدعوة الضارعة إلى الله تخفيف ورحمة .

وكثير من آيات القرآن تحمل إلى المسلمين هذه الدعوة إلى الرفق ، وإلى القصد فى الأمور : « والذين إذا أنفقوا لم يسرفوا ، ولم يقتروا وكان بين ذلك قواما » (٦) . « ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك ولا تبسطها كل البسط فتقعد ملوما محسورا » (٧) .

وهل منهج أعدل وأكمل من هذا المنهج الذى دعا الله إليه نبيه ، وهل أدب يناظر هذا الأدب الذى أخذ به فى قوله تعالى : « خذ العفو ، وأمر بالعرف ، وأعرض عن الجاهلين » (٨) .

فهل رحمة بعد هذه الرحمة التى تحف بالمسلم ، وترف عليه من ظلال شريعته السمحاء ؟ إن الذى يستقيم على شريعة الإســـلام لا تتعثر خطاه ، ولا يثقل

---

(١) سورة الأنعام آية : ١٤٦
(٢) سورة المائدة : آية ٥
(٣) سورة الأنعام : آية ١٤٥
(٤) سورة الأعراف : آية ٣٢ .
(٥) سورة البقرة : آية ٢٨٦
(٦) سورة الفرقان : آية ٦٧ .
(٧) سورة الإسراء : آية ٢٩
(٨) سورة الأعراف : آيه ١٩٩ .

ظهره ، إنه يثب فى ركب الحياة نشيطاً قوياً ، لا تثقله قيود ، ولا توهن قواه أعباء . إذ أن كل ما تكلفه الشريعة به هو فى واقع الأمر زاد عتيد ، يعينه على الحياة ، ويثبت أقدامه فيها ، وليست تلك التكاليف مما يبهظ الإنسان ويحطم ظهره ، هى حمل على كل حال ، ولكنها لا تعدو أن تكون ذلك الحمل الذى يحمله المسافر من زاد يتزود به ، وعتاد يعينه على الطريق !

الرحمة عنوان الإسلام : والإله الذى يتوجه إليه المسلمون بصلاتهم وولائهم هو « الرحمن الرحيم » ، وليس « رب الجنود » كما تدعوه اليهود . . !

الإنسان فى القرآن :

الإنسان — من حيث هو ذات لها وجودها الخاص هو فى واقع الأمر متوجه الرسالات السماوية ومناط أوامرها ونواهيها . . فغاية هذه الرسالات هداية الناس ، وإسعادهم ، وتوثيق روابط الألف والمودة بينهم .

والفرد هو القوة العاملة فى الخلية الإنسانية . فإذا صلح الفرد كان لبنة صالحة فى بناء تلك الخلية . وعلى قدر ما فى الخلية من أفراد صالحين يكون حظها من الصلاح ، ومكانها فى بناء المجتمع الإنسانى !

الحياة تجرى على هذا الناموس ، من الذرة يتكون الجبل . ولا تقوم الشجرة العظيمة إلا من البذرة ، ولا النخلة الباسقة إلا من النواة . ولا تتكون الأنهار العظيمة إلا من قطرات المطر . . قطرة قطرة .

كذلك المجتمع الإنسانى . هو مجتمع لم يأخذ هذه الصفة ولم يجىء على تلك الصورة إلا لأنه فرد يقوم إلى جانب فرد ثان إلى جانب فرد ثالث . . وهكذا . إلى ملايين ومئات الملايين من الأفراد .

والإسلام ينظر إلى المجتمع الإنسانى من خلال « الإنسان » الفرد . فلا يرى المجتمع كتلة متضخمة من لحم ودم . وإنما يراه أفراداً مجتمعة . كل فرد له

وجوده الخاص ، وله حساب المستقل . ثم له حساب آخر فى رصيد المجتمع الإنسانى الكبير .

يتحدث القرآن عن الإنسان فى أول آية نزل بها جبريل على الرسول الكريم : « اقرأ باسم ربك الذى خلق .. خلق الإنسان من علق . اقرأ وربك الأكرم الذى علم بالقلم .. علم الإنسان مالم يعلم »(١) .

فإفراد الإنسان هنا غايته الإلفات إلى ذاتية الإنسان الفرد ، وأنه خلق خلقاً مستقلا . خلقاً سبق خلق الناس . فالإنسان هو الأصل .. والناس لامفهوم لهم إلا بالإنسان . ويتكرر هذا المعنى فى القرآن أكثر من مرة . فيقول تعالى فى موضع اخر : « ولقد خلقنا الإنسان ونعلم ما توسوس به نفسه »(٢) . فالله خلق الإنسان .. ومن الإنسان كان الناس ! ويقول سبحانه : « ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين »(٣) والإنسان هو مخلوق الله ، والناس من الإنسان . ويقول سبحانه : « إنا خلقنا الإنسان من نطفة أمشاج ، نبتليه ، فجعلناه سميعاً بصيراً »(٤).

إفراد الإنسان فى تلك الآيات التى تتحدث عن خلق الإنسانية ونشأتها لايمكن أن يكون لغير علة . فما وردت إشارة فى القرآن إلى خلق الإنسان إلا فى هذه الصورة المفردة ، وحتى حين يخاطب الناس ويلفتون إلى نشأتهم لايطلق الخطاب عاماً ، وإنما يرده إلى الإنسان الفرد . « يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى ، وجعلناكم شعوباً وقبائل ، لتعارفوا »(٥) .

فالشعوب والقبائل لم تخلق هكذا شعوباً وقبائل ، وإنما جعلت من المخلوق الفرد ، وهو الإنسان ، من ذكر وأنثى .. فالفرد أصل ، والمجتمع وليد هذا الفرد ، وثمرة بذرته .

---

(١) سورة العلق : آيات ١ — ٥
(٢) سورة ق : آية ١٦
(٣) سورة المؤمنون : آية ١٢
(٤) سورة الإنسان : آية ٢
(٥) سورة الحجرات : آية ١٣

وبهذا التقدير كانت نظرة الإسلام إلى المجتمع الإنساني . الفرد أولا ، ثم الجماعة بعد هذا ، فهو يشد بناء الفرد ، ويقيم وجوده ، ويدعم كيانه ، ثم يبعث به عضواً صالحاً يأخذ مكانه في كيان أكبر منه هو كيان الأسرة ، ثم هو مع الأسرة في كيان أكبر .. هو المجتمع .

والتشريع الإسلامي يخاطب الفرد ويوجه إليه أوامره ونواهيه . يخاطبه باعتباره ذاتاً مسئولا عن أعماله ، محاسباً عليها . ويخاطبه باعتباره حلية حية في كيان المجتمع ، يصيبه مايصيب هذا المجتمع من خير أو شر .

ثم يكون حصاد هذه الأعمال الذي يحصده المجتمع من الحقل الإنساني للحياة موزعاً على العاملين جميعاً . كل حسب ما بذل من جهد ، وما عمل من عمل : «من عمل صالحاً فلنفسه ، ومن أساء فعليها »[١] . « من يعمل سوءاً يجز به »[٢] « فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ، ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره »[٣] .

وفي القرآن الكريم سورة سميت باسم الإنسان .. وفيها الخطاب موجه إلى الإنسان الفرد في آياتها الأولى ، وموجه إلى الإنسانية في الآيات التالية . « يا أيها الإنسان ماغرك بربك الكريم ، الذي خلقك ، فسواك فعدلك ، في أي صورة ما شاء ركبك .. كلا ، بل تكذبون بالدين ، وإن عليكم لحافظين ، كراماً كاتبين ، يعلمون ما تفعلون .. »[٤] .

والذي يتدبر آيات الكتاب في هذا الأمر يجد تصريفاً عجيباً في توجيه الأوامر والنواهي هذا التوجيه المردد بين الفرد والجماعة . .

فآيات الأحكام كان من شأنها أن تجيء في صورة الخطاب الجماعي ، لأن شريعة الإسلام شريعة عامة لكل من يدين بها من الناس — فالصلاة ، والزكاة ،

---

(١) سورة فصلت : آية ٤٦

(٢) سورة النساء : آية ١٢٣

(٣) سورة الزلزلة : ٧ ، ٨

(٤) سورة الانفطار : الآيات ٦ — ٩

والصيام ، والحج فرائض عامة على المسلمين جميعاً ـــ هذه الآيات قد جاء فيها الخطاب جمعاً كما جاء مفرداً .. يخاطب الجماعة حيناً ويخاطب الفرد حيناً .. وأحياناً يزواج بينهما ، فيجعل الخطاب فى صدر الآية للفرد ، ثم يجعله فى آخرها للجماعة ، أو العكس .. فمن الآيات التى توجه فيها الخطاب للجماعة ، قوله تعالى : « وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة ، واركعوا مع الراكعين »(١) .. وقوله تعالى: « آمنوا بالله ورسوله ، وأنفقوا مما جعلكم مستخلفين فيه ، فالذين آمنوا منكم وأنفقوا لهم أجر كبير »(٢) . وقوله سبحـــــانه : « قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ، ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله .. »(٣) .

ومما جاء فيه الخطاب مفرداً قوله تعالى : « ومن يعش عن ذكر الرحمن نقيض له شيطاناً . فهو له قرين »(٤) . « من عمل صالحاً فلنفسه . ومن أساء فعليها وما ربك بظلام للعبيد »(٥) . . « يأيها الإنسان إنك كادح إلى ربك كدحاً فملاقيه . . فأما من أوتى كتابه بيمينه فسوف يحاسب حســـاباً يسيرا ، وينقلب إلى أهله مسروراً . . »(٦) .

ومما توجه فيه الخطاب إلى الفرد والجماعة معاً على الوجهين تقديماً وتأخيراً :

قوله تعالى : « والسارق والسارقة فاقطعوا أيديهما جزاءاً بما كسبا »(٧) .

وقوله سبحانه : « الزانية والزانى فاجلدوا كل واحد منهما مائة جلدة »(٨) .

وقوله تعالى : « يأيها الذين آمنوا إذا لقيتم الذين كفروا زحفاً فلا تولوهم الأدبار ، ومن يولهم يومئذ دبره إلا متحرفاً لقتال أو متحيزاً إلى فئة ، فقد باء بغضب من الله ، ومأواه جهنم وبئس المصير »(٩) .

---

(١) سورة البقرة : آية ٤٣
(٢) سورة الحديد : آية ٧
(٣) سورة التوبة : آية ٢٩
(٤) سورة الزخرف : آية ٣٦
(٥) سورة فصلت : آية ٤٦
(٦) سورة الانشقاق : الآيات ٦ ـ ٩
(٧) سورة المائدة : آية ٣٩
(٨) سورة النور : آية ٢
(٩) سورة الأنفال : آية ١٦ .

ونقف هنا وقفة قصيرة عند تلك الآيات التى زاوجت بين خطاب الفرد وخطاب الجماعة .. نقف لنشهد مشهداً رائعاً من مشاهد الإعجاز القرآنى فى الآيات من روائع الإعجاز مايملك على المرء مشاعره ، فلا يكاد يدرى مايصنع إزاءها .. ولو جاز السجود لغير الله لكان هذا القرآن أحق مايسجد له !

فانظر فى قوله تعالى : « والسارق والسارقة فاقطعوا أيديهما » !

جاء الخطاب فى صدر الآية محدثاً عن المفرد : السارق ، والسارقة ، ثم جاء الحكم موجهاً إلى الجماعة ..

ذلك أن السرقة إنما تقع فى أغلب الأحيان من الفرد الواحد ، ولاتقع من جماعة إلا نادراً ، وفى هذه الحال تأخذ صورة غير صورة السرقة فتكون غصباً ، أو قطع طريق .

أما تنفيذ الحكم ، وإقامة الحد على السارق ؛ فهو إلى الجماعة التى خرج الفرد على نظامها ، وخالف شريعتها !

فإقامة النظام وتنفيذ أحكام القانون — الشرعى أو الوضعى — واجب على الجماعة .. إن فرطت فيه ، أو تخاذلت عنه كانت آثمة فى حق نفسها معرضة للفوضى والضياع .

وكذلك الشأن فيما فى الآية الثانية « الزانية والزانى فاجلدوا كل واحد منهما مائة جلدة » .

أما الصورة الثالثة : « ياأيها الذين آمنوا إذا لقيتم الذين كفروا زحفاً فلا تولوهم الأدبار . ومن يولهم يومئذ دبره إلا متحرفاً لقتال ، أو متحيزاً إلى فئة . فقد باء بغضب من الله . ومأواه جهنم وبئس المصير » .

ففى هذه الصورة : جاء التوجيه عاماً للذين آمنوا عند لقاء العدو ، ونهوا عن أن يولوا عدوهم الأدبار . وأن يفروا من ميدان المعركة .

وهذا التوجيه ملزم للمسلمين جميعاً أن يستقيموا عليه فى ساحة الحرب ..

وقد تصح نيات المسلمين جميعاً ، وينعقد عزمهم على تنفيذ هذا التوجيه الملزم ، والأخذ به .

ولكن حين تدور رحى الحرب ، ويحمى الوطيس ، قد تنحل بعض العزائم ، وتستكره بعض النفوس ريح الموت . فيدعوها ذلك إلى التفكير فى الفرار . أو المسارعة إليه . .

وهنا موقع الإعجاز فيما جاء فى الآية من إحكام وتدبير :

«ومن يولهم يومئذ دبره إلا متحرفاً لقتال أو متحيزاً إلى فئة . فقد باء بغضب من الله . . » .

إنها تمسك بالمقاتين من المسلمين فرداً فرداً . لتقول له : اذكر أنك إذا وليت ظهرك للعدو - إلا متحرفاً لقتال ، متخيراً مكاناً مناسباً ، أو منضما إلى جماعة من إخوانك — إنك إن أعطيت العدو ظهرك فاراً من ميدان القتال ، فقد رجعت محملا بغضب من الله ، على حين ترجع جماعة المسلمين بثواب عظيم ورحمة ورضوان . سواء منهم من رجع إلى الله مستشهداً فى ميدان القتال ، أو رجع إلى بيته سالماً أو جريحاً . .

* * *

ونعود إلى موقف القرآن من الإنسان . .

ونسأل بعد هذا ؟

أهناك نظام اجتماعى سليم معافى من أدواء الانحلال والتفسخ — يقوم على وحدات من الأفراد لا ترابط بينهما . كل فرد فيها عالم وحده . يعيش بنفسه ولنفسه . أو يقوم على جماعة قد اندمجت فيها الأفراد اندماجاً كاملا حتى ذابت ذاتية الفرد . وذهبت معالمه ؟ ؟

هل هناك مجتمع على هذه الصورة أو تلك ؟

ربما؛!

يحدث جان جاك روسو فى كتابه «العقد الاجتماعى» عن صورة متخيلة غير محققة فالمجتمع الأول .. المجتمع الذى تتناثر فيه الأفراد كما تتناثر قطع الأحجار على صدر الصحراء . . كل فرد يعيش مغلقاً على نفسه . لايشعر بأحد ولايشعر به أحد . .

يقول «روسو» :

« ولا يبقى بعد ذلك سوى دين الإنسان(١) . أو المسيحية . لامسيحية اليوم ، ولكن مسيحية الإنجيل وهى تختلف عنها تماماً .

« فبمقتضى هذا الدين المقدس السامى يعترف الناس - وهم جميعاً أبناء نفس الرب - بأن الجميع إخوة ، وأن المجتمع الذى يؤلف بينهم لايحل حتى الموت .

« بيد أن هذا الدين لمالم تكن أية علاقة خاصة بالجسد السياسى - فإنه - يترك للقوانين - السارية - القوة الوحيدة التى تستمدها من ذاتها ، ولا يضيف إليها أية قوة أخرى . .

« وبذلك تظل رابطة من روابط المجتمع الخاصة - بلا أثر . .

« وأكثر من ذلك .. فبدلا من أن يربط قلوب المواطنين بالدولة ، يبعدها عنها . باعتبارها من أشياء الدنيا . .

« ولست أعرف شيئاً أكثر تناقضاً مع الروح الاجتماعية من ذلك .

ويستطرد روسو فيقول :

« ويقولون لنا : إنه إذا أوجد شعب من المسيحيين الحقيقيين . فإنهم يؤلفون مجتمعاً ، هو أكثر المجتمعات التى نستطيع أن نتصورها كمالا . .

---

(١) أى النظام الذى يجعل الإنسان وحدة قائمة بذاتها ، لا صلة لها بمن حولها .

« وأنا لا أرى فى هذا الفرض سوى صعوبة كبرى واحدة ، هى أن المجتمع المكون من مسيحيين حقيقيين لايعود مجتمعاً من بشر .

« بل وأقول أيضاً إن هذا المجتمع المزعوم لن يكون — رغم كل هذا — أقوى المجتمعات ولا أدومها .

« فبقدر كماله ستعوزه الرابطة ، وستكون جرثومة هلاكه فى كماله ذاته ... — أى فى هذا المجتمع المثالى .

« فكل إنسان سيقوم بواجبه : يخضع الشعب للقانون ، والرؤساء عادلون ومعتدلون . والحكام مخلصون ولا يفسدون . والجنود يحتقرون الموت . ولن تكون هناك خيلاء ولا ترف وكل ذلك جميل جداً .

« ولكن دعنا ننظر فيما هو أبعد من ذلك :

« إن المسيحية دين روحانى تماماً . لاتشغله سوى أمور السماء وحدها . فوطن المسيحى ليس فى هذا العالم . »

« وصحيح أنه يقوم بواجبه : ولكن يقوم به بعدم مبالاة عميقة بنجاح ما يعهد به إليه أو فشله ، فهو إذ لا يجد ما يلوم عليه نفسه . لا يهمه كثيراً أن يسوء الحال أو يحسن على هذه الأرض .

« فإذا ازدهرت الدولة لايكاد يجرؤ على التمتع بالبهجة العامة . ويخشى أن يفخر بمجد بلاده . وإذا هلكت الدولة يبارك يد الرب التى ألقت ثقلها على شعبه !

ويستطرد روسو أيضاً هذا الموقف فيقول :

« ويجب فى هذه الحالة أن يكون جميع المواطنين بلا استثناء مسيحيين صالحين على السواء . حتى يسود السلام المجتمع ، ويعم التوافق .

« ولكن إذا وجد — لسوء الحظ — رجل واحد طموح . مراء واحد كاتلينا مثلا — أو كرومويل — فإنه سيجد بلا ريب سوقاً رائجة فى مواطنيه الأتقياء . فإذا استطاع واحد من أولئك أن يفرض نفسه على مواطنيه

ويستولى بخدعة ما على جزء من السلطة العامة ، فسرعان ما يصير موضع كل تكريم . فمن إرادة الله أن يكون موضع احترام . . وسرعان ما يصير صاحب سلطان ، وإرادة الله أن يطاع . . ! !

ثم يقول روسو :

« بيد أني أخطىء إذ أتكلم عن جمهورية مسيحية . . فالكلمتان متنافيتان . .

« إن المسيحية تبشر بالعبودية والطاعة . وروحها ملائمة أكثر مما ينبغي للطغيان . ويستغل الطغيان دائماً هذه الحقيقة لصالحه . . إن المسيحيين الحقيقيين خلقوا ليكونوا عبيداً . .

ثم يقول أيضاً :

« ويقال لنا : إن الجنود المسيحيين ممتازون . وأنا أنكر ذلك وأتحدى من يثبت لى ذلك !

« أما أنا فلا أعرف كتائب مسيحية !

« وسيذكر لى البعض الحروب الصليبية . ولكنى دون أن أناقش فى قيمة الصليبيين أقول إنهم لم يكونوا مسيحيين ، بل جنود القساوسة ، ومواطنى الكنيسة . . فالوطن الذى قاتلوا من أجله كان وطناً روحياً ، ولست أدرى كيف جعلته الكنيسة زمنياً[1] ؟ ؟ »

وليس بعد قول هذا الكاتب الاجتماعى العظيم الذى أشعل نار الثورة الفرنسية بكتاباته وآرائه — ليس بعد قوله من يقول إن النظرة المتوازنة التى نظر إليها الإسلام إلى الإنسان ، حين جعل له ذاتية ، ثم جعل هذه الذاتية تعمل بإرادة . وضمير وعقل فى كيان المجتمع الإنسانى - ليس من يقول بعد هذا إن الإسلام كان جائراً على الفرد . محقراً من شأنه . وخاصة أولئك الغربيين الذين يحاولون دائماً أن ينزلوا من قدر الإسلام بحسبان أن ذلك مما يعلى قدر المسيحية . ويرفع شأنها !

---

١) العقد الاجتماعى ص ٢٣٥ وما بعدها .

ولكن أكثر هؤلاء القوم يعلمون من أمر الإسلام ما يعلم هذا الكاتب الحر، إلا أنهم يعز عليهم أن يقولوا كلمة الحق، إذا كان فيها ما يزكى الإسلام. أو يكشف حقيقة من حقائقه المشرقة.

يقول جرونيباوم فى كتابه «حضارة الإسلام»:

«والإسلام.. من بدايته — لم يعترف للإنسان إلا بقليل من التقدير، وينزع القرآن إلى إقناعه بمهانة أصله الجسدى. فيصف خلق الفرد وتكوينه تفصيلا: «ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين، ثم جعلناه نطفة فى قرار مكين، ثم خلقنا النطفة علقة، فخلقنا العلقة مضغة فخلقنا المضغة عظاماً، فكسونا العظام لحماً (١)».

فماذا يريد هذا السيد من القرآن أن يقول غير هذا فى الإنسان؟ الإنسان الذى ينسى دائماً أنه من سلالة يرجع إليها أصل كل إنسان؟ ماذا يقال للإنسان الذى يحقر أخاه الإنسان. ويتخذ لنفسه نسباً آخر غير هذا النسب الذى يلتقى فيه مع الناس جميعاً؟

أليست هذه حقيقة خلق الإنسان؟ ثم أليس هذا هو موقف كثير من الناس من الذهول عن هذه الحقيقة، وتقسيم الشعوب الى منازل ودرجات، حسب ما يجرى فى عروقها من دم، وحسب ما يكون لبشرتها من لون؟

إن الإسلام لايكشف للإنسان عن أصله هذا إلا ليقتل نوازع التفرقة العنصرية التى عانت البشرية منها ما عانت من ألوان التسلط والقهر، ومن صور الاستعلاء والاستبداد.. ولايزال هذا الداء يخامر أمماً وشعوباً إلى يوم الناس هذا.

يريد الإسلام بهذا أن ينزل الإنسان — كل إنسان على حكم الآية

---

(١) حضارة الإسلام ص ٢٨٣، والآيات من سورة المؤمنون من ١٢ — ١٤

الكريمة : «يأيها الناس ، إنا خلقناكم من ذكر وأنثى ، وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا .. إن أكرمكم عند الله أتقاكم .. إن الله عليم خبير»(١) .. وأن يكون سلوك الإنسان — كل إنسان — قائماً على هدى الرسول الكريم : «أيها الناس إن أباكم واحد وإن أصلكم واحد .. كلكم لآدام ،، وآدم من تراب ، لافضل لعربي على عجمى ، ولا لأبيض على أحمر إلا بالتقوى» .

* * *

تلك هى الرسالة التى تلقاها «محمد» من ربه ، ونصب نفسه لها ، وجاهد فى سبيلها ، واحتمل ما احتمل من ألوان الأذى والضر من أجلها . فكان له هذا النصر المبين ، وكان لرسالته هذه الثمرات الطيبة المباركة فى الحياة ، بما غرست فى القلوب من إيمان بالله ، وملائكته ، وكتبه ، ورسله ، واليوم الآخر . وبما رسمت للناس من مناهج الحق ، والخير والإحسان .. وتلك عقبى الدعوات الصادقة ، والنيات الخالصة .. لايخطئها النجاح أبداً ! وإن قامت فى وجهها العواصف ، واعترضت طريقها المعاثر ، فإن يد الله قائمة عليها ، تشد أزرها وتثبت خطوها ، وتمكن لها أسباب البقاء فى الحياة .

---

(١) سورة الحجرات : آية ١٣

خاتمة ... ومفتتح !!

وبعد ..

فهل فرغ حديثنا فى سيرة الرسول ؟

وهل أخذت النفس بحظها من حديث السيرة ، على الوجه الذى قصدت إليه ، وتصورته ، وخططت حدوده ومعالمه ؟

والحق أن حديث السيرة النبوية — حسب ما أردت — لم يبدأ بعد . . إذ أننى حين أقلب هذه الصفحات الكثيرة التى كتبتها هنا ، والتى تبلغ المئات عداً — أكاد أنكرها ، لأنها لم تكشف لى من سيرة الرسول بعض ماعرفت من آياتها الوضيئة المشرقة ، ولم تفض على من النفحات الزكية الطيبة ما كنت أجد حين أمسك بطرف من أطراف السيرة الكريمة ، أو أورد الخاطر على منهل من مناهلها !!

وأشهد لقد غلبنى على أمرى فى هذا البحث ما وجدت من مفتريات وأباطيل رمى بها المفترون المبطلون فى دهاء خبيث وفى حقد أعمى — رموا بهذه المفتريات فى ثنايا السيرة الكريمة ، رجاء أن يكسفوا من أضوائها ، أو يحجبوا من أنوارها ، ثم ليكون لهم من ذلك الضلال طريق إلى الشريعة الإسلامية وإلى كتابها الكريم ، حين قدروا ألا قيام للشريعة ولا احترام لكتابها إذا كان فى صاحب الشريعة وحامل كتابها ما يريب أو يعاب . وهم فى هذا التقدير مصيبون إلى حد بعيد ، لو أنهم بلغوا ما يبغون ، ونالوا ما يقصدون .. وهيهات .. هيهات !

وكما قلنا من قبل : إنه وإن كانت للنبى ذاتيته . وللقرآن ذاتيته — فإنهما فى واقع الأمر كيان واحد ، وإن أى مثلبة تصيب أحدهما — وهيهات — هى قسمة سواء بينهما . . إذ كان القرآن هو شريعة الإسلام قولا ، وإذ كان النبى

هو شريعة الإسلام عملا ، فإذا خالف قول صاحب الشريعة عمله ، أو كذب عمل صاحب الشريعة قوله لم يكن للشريعة ، ولا لصاحب الشريعة سلطان على الناس، ولا مقام فى الحياة . .

ولهذا كان أبلغ وصف وأصدقه للنبى ماوصفته به ، « السيدة عائشة » وقد سئلت عن خلقه ، فقالت : « كان خلقه القرآن » أى أنه والقرآن كيان واحد ، فالنبى هو التفسير الحق لما نزل عليه من آيات الله .

وإذن فلم تكن هذه المفتريات التى زحف بها الجهلة والمضللون على سيرة الرسول — لم تكن مقصوداً بها الرسول لذاته ، وإنما كانت غايتها تدمير الشريعة وصاحب الشريعة جميعاً ، ثم يأتى من وراء ذلك تدمير المجتمع الإسلامى كله ، وتضييع أكثر من أربع مئة مليون إنسان يدينون بهذه الشريعة ، ويجعلون مصيرهم إليها !

أرأيت إذن جناية آثم من هذه الجناية ، وأغلظ جرماً وشناعة منها ؟

فإلى أين تتجه هذه الملايين ؟ وإلى أى مساق تساق هذه الأمم إذا صح تقدير هؤلاء المضللين ، فتخلت هذه الملايين عن شريعة الإسلام ونبذتها وراء ظهورها ؟

أتذهب إلى المسيحية ؟ إن أصحاب هذه المفتريات لا يؤمنون بالمسيحية ولا يعترفون بها ، وإن نسبوا إليها، وحسبوا من أهلها : إنهم أعداء المسيحية ،وعدو لكل دين !

وما للإسلام عندهم من ذنب إلا أنه دين ! .. دين نزل من السماء ، ولم يخرج من التراب والطين !!

وإذا كان فى المسيحية وفى أسرارها ومستغلقات التثليث فيها مالا تستسيغه عقول هؤلاء الذين كفروا بالمسيحية ولا تفسره فلسفتهم . . فهل كان ذلك شأن الإسلام عندهم ، وهل جاءوا إليه بقلوب سليمة . وعقول صحيحة فوجدوا فيه شيئاً لا يستقيم مع العقل أو يخرج على شرائط التفكير . . فى أوسع مجالاته وأعمق أغواره ، وأدق مسائله ؟

هذا هو الإسلام — عقيدة وشريعة — فى معرض النظر لكل ناظر ، لايقوم دونه سدنة أو كهان ، ولا يستأثر بشىء منه أحد دون أحد . فهل جاءوا عليه بشاهد واحد من العقل يقول فيه قولا ينكره عاقل ، أو ترده الحياة ، ويأباه نظامها وعمرانها ؟

وكذب وافتراء ، وإمعان فى الكذب والافتراء أن ينظر فى الإسلام ناظر منصف ، بعيد عن الهوى ثم يجد فى الإسلام مالا يستقيم مع الحياة ، أو مالا يجرى مع سنن الطبيعة ونواميسها !

لقد بذر الإسلام بذوره الأولى فى أقفر مكان وأجدبه ، وفى أقسى قلوب وأصلدها ، وفى أظلم عقول وأضلها ، ثم لم يمض جيل من أجيال الناس حتى أثمر هذا البذر أطيب ثمرات الإنسانية وأكرمها ، فخرج فى جيل واحد من العلماء ، والفقهاء ، والساسة ، والقادة ، أعداداً وفيرة ، يصلح كل فرد فيها أن يكون قائد ركب الحياة كلها ، إلى مواطن الخير والفلاح !

ولم تكن مغارس الإسلام هذه فى أمة من الأمم ، أو فى شعب من الشعوب ، بل كانت مغارسه فى الإنسان من حيث هو إنسان . . فغرس فى قريش كما غرس فى الفرس ، والروم ، والحبش !! ليجمع بلالا الحبشى مع عمر القرشى ، مع عمار الفارسى مع صهيب الرومى ، ليقيم من ذلك شاهداً على أنه دين الإنسان — من حيث هو إنسان — مجرداً من الجنس واللون والمواطن ! وأن أى إنسان يتجه إليه ، ويرد موارده يجد أطيب زاد للدنيا والآخرة جميعاً .

ذلك هو الإسلام .

أفليس من العدوان على الحق ، والتضييع للخير أن تكدر موارد هذا المورد العذب ، وتعمى سبله ، وتطمس معالمه ، أو يضلل الناس عنه أو يحال بينهم وبينه بتلك الأراجيف وهذه المبطلات ؟

ثم هذا نبى الإسلام محمد عليه الصلاة والسلام .

ماذا أخذ من دنيا الناس ، وماذا جمع من أموال ، وحصل من ذهب وفضة ، وماذا اقتنى من ضياع وقصور ؟

أيحسب في المخادعين، والكذابين والمدغلين من يرد كل هذه الدنيا التي وقعت بين يديه ؟ .

وماذا يبغى المخاتل بختله ، والكذاب بكذبه ، والمنافق بنفاقه ، والمدعى بادعائه ، والمنهوذ بشعوذته — ماذا يريد هؤلاء ومن على شاكلتهم إلا أن يفيدوا مالا . أو يحصلوا ثراء ، أو يستكثروا مما عندهم من المال والثراء ؟

ولقد عرفت الحياة كيف كان طعام « محمد » ، وكيف كان لباسه ، وكيف كان مأواه وفراشه .

أما ماخلفه وراءه من حطام الدنيا . . فلا شيء ، إلا درعاً مرهونة عند يهودى ، فى قوته وقوت أهله .

ثم كان أن حسم الأمر جميعه فيما فرض على ورثته من بعده ألا يرثوا شيئاً من مخلفاته إن ترك وراءه مايورث . فقال : « نحن معاشر الأنبياء لانورث ، ماتركنا فهو صدقة » .

فلمن كان هذا الجهاد الذى جاهد ، وهذا الضر الذى وجد ، وهذا الأذى الذى احتمل ؟

إنه لله ، وفى سبيل الله ، والحق الذى بين يديه ، وفى سبيل الأمانة التى حملته السماء إياها ، وكلفته أداءها إلى الناس جميعاً . . « قل ماأسألكم عليه أجراً، إلا المودة فى القربى » (١) .

فلو لم يكن « محمد » نبيا . . أفما كان من حقه على الإنسانية — كإنسان — أن يمجد وأن يكرم ، وأن تكون سيرته فى مسمع الحياة وبصرها ، آية للمتوسمين ، ودرساً للدارسين ، وقدوة للمقتدين ـ لهذه المعانى الكريمة التى اشتمل عليها ، ولهذه المثل العالية التى عاش بها ، ولهذا السمو الروحي الذى حلق فيه ؟

---

(١) سورة الشورى : آية ٢٣

فأى خير فى الحياة ، وأى صلاح يرجى للناس إذا كان حظ العاملين المخلصين الشرفاء الأطهار أن يلقوا من الناس إنكاراً ، وجحوداً . وأن يكون فى الناس من يلفق لهم الأكاذيب ، ويزيف عليهم الأباطيل ؟

ومع هذا . . فإن الخير هو خير حيث كان ، وإن الكلمة الطيبة لاتسقط أبداً . . إنها كشجرة طيبة . أصلها طيب وفرعها فى السماء تؤتى أكلها كل حين بإذن ربها . .

وقد وفى الله سبحانه « محمداً » أجره ، وأجزل له المثوبة ، فرفع ذكره فى العالمين ، ومكن لدعوته فى الحياة ، وجمع قلوب الملايين من الناس على حبه والولاء له ، جيلا بعد جيلا ، إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها وهو خير الوارثين ؟

ولقد شهد « محمد » بنفسه منزلته فى قلوب أصحابه ومكانته من نفوسهم ، حيث كان آثر عندهم من أنفسهم ، وأحب إليهم من أبنائهم وآبائهم وأزواجهم وعشيرتهم ، فقر بذلك عيناً ، وطاب نفساً . . هذا إلى ماقرت به عينه ، وطابت به نفسه مما له عند ربه من رضى ورضوان ، بشر به الوحى ونطق به القرآن : « ولسوف يعطيك ربك فترضى »(٢) .

* * *

أقول : إن همى هنا — فى هذا البحث — كان منصرفاً إلى مواجهة تلك المبطلات ، والمدعيات التى ادعاها خصوم الإسلام على نبى الإسلام ، وعلى الكتاب الذى أنزل عليه .

وكنت أقدر أن هذا الموقف لايصرفنى عن الغاية التى قصدت إليها من هذا البحث ، وهى الوقوف على موارد السيرة النبوية ، وإرواء النفس من رحيقها الطيب الطهور . .

---

(١) سورة الضحى : آية ٥

ولكن جرى الأمر على غير ما كنت أحسب وأقدر . . فلقد وجدت بين يدى كثيراً من المفتريات والأباطيل والخرافات التى تحتل مكاناً كبيراً يزحم الحقائق المعتمدة فى السيرة النبوية ، ويكاد يغلبها ، ويزحزحها عن مواضعها .

ولقد شغلنى هذا الموقف ، الذى ربما أكون قد أسرفت فيه بعض الشىء ، والذى ربما يكون قد حملنى فيه الحماس الدينى ، والغيرة على حمى الرسول — أن أشدد الحساب على أولئك المفترين ، وأن أضرب حتى فى تلك المفتريات الميتة التى نسج الباطل لها أكفاناً من يوم أن ولدت . . ولم آخذ نفسى فيها بالقول المعروف : « الضرب فى الميت حرام » بل كنت أضربها مرة بعد مرة ، ولم يشفع لها علمى أنها ميتة بأن أتركها وشأنها . . بل كان هذا العلم عندى داعية للمزيد من توجيه الضربات لها ، إذ كان مما أعلم أيضاً أن النبتة الخبيثة تستمسك بالأرض الخبيثة . وإن تكن ماتكون من الفساد والعطب . . !

وهذه المفتريات النكدة وإن تكن ميتة ، خامدة الأنفاس ، فإنها قد تصادف قلوباً مريضة ، أو عقولا فاسدة ، فتبيض فيها وتفرخ ، وتنتج أشأم مواليد . . تتصايح فى كيان أصحابها بالمروق من الدين ، وبالتجديف بالكفر والإلحاد فيه ! .

من أجل هذا جاء ما كتبته فى السيرة ، وإن كان محققاً - على ما أرجو - لبعض الواجب فى الدفاع عن حمى الرسول ورسالته - أقول قد جاء ما كتبت فى السيرة شيئاً أشبه بمن يقف إزاء المجانى الطيبة من عسل النحل ، ثم يجد حولها جماعات من الزنابير والأفاعى ، فيشغل نفسه بإجلائها عن هذا الرزق الحسن ، والزاد الطيب ، ليأخذ ما يشاء من رزق ، ويحمل ما يستطيع من زاد ! . . له وللناس !

كان ذلك هو موقفى تماماً !

فلقد جئت إلى السيرة النبوية الكريمة ، فوجدت رزقاً غدقاً ، وزاداً كريماً طيباً ، ولكن وجدت زواحف كثيرة من الضلالات ، والمفتريات . والجهالات . تأخذ على الطريق ، وتحول بينى وبين مواردها الصافية ، ومجانيها الطيبة .

وكنت ـ والحال كذلك ـ بين أمرين:

إما أن أمضى فى طريق ، متخبطاً بين سحب متكاثفة من الضباب والدخان وأقنع بصحبة السيرة فى هذا الجو المظلم العاصف ، وأرضى بما يلوح لى خلال تلك الصحبة من شعاعات .

وإما أن أكشف معالم الطريق، وأجلى هذا الضباب والدخان عنه ! حتى أملأ العين بهذا النور الهاوى . . لا يحول بينى وبينه ضباب أو سحاب .

وغير مشكور أن علماءنا ـ قديماً وحديثاً ـ قد كانت لهم ضربات قاصمة لتلك الضلالات والمفتريات. وأنهم قد استطاعوا أن يجلوا عن حمى السيرة النبوية هذه المنكرات ، وأن يضعوا على الطريق معالم كاشفة بين الحق والباطل ، وبين الهدى والضلال . . وليس على من يرد موارد السيرة الكريمة إلا أن يأخذ طريقه إليها ، وأن يسلك أى طريق من تلك الطرق الكثيرة المستقيمة المعبدة .

وكان يمكن أن آخذ طريقاً من تلك الطرق الممهدة ، وأن أتفقد آثار من سبقوا من الرواد . . كان يمكن أن أفعل هذا ، وأن أوفر الجهد الذى بذلته فى محاربة هذا الباطل ، وإذاقته موتاً بعد موت !

ولكنى آثرت أن أمهد لنفسى طريقاً إلى السيرة النبوية المطهرة ، وأن أجلى بيدى عنه هذه الضلالات وتلك البدع . ليكون لى من هذا العمل ثواب المجاهدين أولا ، ثم ليكون لى ثانياً من الطمأنينة ما يثبت أقدامى على الطريق ، فلا تهجم على خاطرة من تلك الخواطر السوداء التى تترصد غفلة القلب ، أو ضعف النفس ، فتفسد على صحبتى السيرة المطهرة ، وتقطع أمداد النور التى تفيض منها . .

* * *

ولست أزعم أننى شنيت ما بنفسى من الخواطر التى كنت أجدها حينما التقيت بهذه المفتريات والأباطيل التى تسللت إلى حمى السيرة المطهرة . .

لا أزعم أنى شفيت ما بنفسى من هذه الخواطر المزعجة ، فما زلت أجد بين يدى كثيراً من هذه الأباطيل ، لم أعرض لها فى هذا البحث ، ولم ألقها لقاء مباشراً . ولو وقفت منها هذا الموقف لأنفقت أضعاف هذا الجهد الذى بذلته فى تلك المحاولة دون أن تبلغ النفس غايتها من مجاهدة تلك الأباطيل ، وتعريتها من أساليب الخداع والتمويه الملففة فيها !

لهذا ، فقد اكتفيت بهذه الأمثلة القليلة التى سقتها فى هذا البحث ، فإنها على قلتها تمثل أوجهاً كثيرة من وجوه الباطل التى تظهر شائهة كالحة فى معرض السيرة النبوية ، وتطل متلصصة بين أحداثها وشخوصها المشرقة الوضيئة !

* * *

وعلى أى ، فإن ما ضمت عليه فصول هذا الكتاب يمكن أن تكون مدخلا إلى السيرة النبوية لمن يريد أن يلتقى بها ، وأن يعطيها عقله كله وقلبه كله ، دون أن يلتفت إلى هذه الأباطيل التى تصادفه ، ودون أن يدخل عليه منها ما يزيغ به قلبه ، أو يضطرب له عقله ، فقد عرف فيما جاء فى هذه الفصول — إن لم يكن قد عرف من قبل — عرف مما جاء فى هذه الفصول أن نبى الإسلام فوق الشكوك والريب ، وأن القرآن أرسخ من الجبال فى مراسيها ، وأسمى من الكواكب فى مداراتها .. إنه كلام الله الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه « تنزيل من حكيم حميد » .

فأى كلام ينال من مقام النبى فى عليائه ، وأى كلام يشم منه رائحة الشك فى أنه كلام الله ، الذى نزل به الروح الأمين ، على قلب النبى الكريم — إن أى كلام من هذا أو ذاك هو زور وبهتان ، جاء به عدو مغيظ محنق ، أو ولى جاهل أحمق . وما كان للزور أن يصد الحق عن وجهته ، ولا أن يقف له فى طريق إلا كما يقف الغثاء وصغار الحصى فى مجرى السيل العتى المتدفق .

إن الذى يطالع السيرة النبوية المطهرة لا يستطيع أن يخلص إليها إلا بعد ان يجتاز هذه المرحلة من القلق والأسى لما يجد فى ثناياهذه السيرة من فخاخ منصوبة ،

وشباك مهيأة ، لاصطياد الجهلة والسذج ، ومن فى قلوبهم مرض — بما يلقى إليهم من متشابه القول ، وما يزين لهم من زور وبهتان .

على أن من كان سليم القلب ، معافى من آفات الضلال والهوى لايحتاج إلى علم العلماء وحكمة الحكماء حتى يجتاز هذه المرحلة ، فى أمن وسلام ، وأن يلتقى بالسيرة كما يلتقى بالقمر فى ليل تمامه ، وقد خرج من وراء السحاب !

* * *

وأحسب أن هذا « الكتاب » يمثل تلك المرحلة ، التى تجابه قارىء السيرة النبوية — وهى كما قلنا — مرحلة يعانى فيها المرء أزمات نفسية ، ووجدانية ، وذهنية ، من هذه الضلالات والمفتريات التى اندست فى ثنـايا السيرة ، وتلبست بها !

وإذن ، فليذكر هذا قارىء الكتاب ، وليعلم أنه لم يقرأ فيه سيرة الرسول الكريم ، ولا بعضاً منها ، وإنما الذى قرأ هو إشارة بالإصبع إلى الطريق المستقيم إليها ، وإنما هو زاد يتبلغ به من يزمع لقاء السيرة والقبس من أنوارها !

ومن يدرى؟ فلعل كتاباً آخر يجىء وراء هذا الكتاب . . يحدث عن السيرة حديثاً بعيداً عن هذا الجو الذى انعقدت فيه سحب الخصومة وثائرات الجدل . . حديثاً يقف على حمى السيرة وقفة إجلال ، وخشوع ، وصلاة .

فإن ييسر الله يكن من وراء هذا الكتاب ، كتاب ، وربما أكثر من كتاب ، والله المستعان ، وهو ولى التوفيق ؟

(تم بحمد الله)

المراجع

نثبت هنا أهم المراجع التى كانت تحت نظرنا فى إعداد هذا الكتاب

أولا : الكتب المقدسة

القرآن الكريم . . . التوراة . . . الإنجيل

ثانياً : كتب التفسير والحديث

تفسير ابن كثير .. تفسير الزمخشرى .. تفسير البيضاوى

صحيح البخارى .. صحيح مسلم .. بلوغ المرام من أدلة الأحكام

ثالثاً : كتب العقيدة والشريعة

الرسالة للإمام الشافعى . . . تحقيق أحمد محمد شاكر — ١٩٤٠

مقدمتان فى علوم القرآن . . . (مطبعة السنة المحمدية) .

النبوات لابن تيمية . . . . المطبعة المنيرية – ١٣٤٦ هـ .

السياسة الشرعية لابن تيمية . . . المطبعة الخيرية سنة ١٣٢٢ هـ .

الإسلام والنصرانية .. للإمام الشيخ محمد عبده .

قضية الألوهية . للمؤلف (جزءان) . الناشر : دار الفكر العربى .

رابعاً : كتب فى التاريخ والسير

الشفا بتعريف حقوق المصطفى . للقاضى عياض .. المطبعة العثمانية سنة ١٣١٢ هـ .

السيرة لابن هشام (أربعة أجزاء) . المطبعة الخيرية بمصر سنة ١٣٢٩ هـ .

السيرة الحلبية . . . . . طبعة مصر سنة ١٣٢٠ هـ

الطبقات ، لابن سعد . . . طبعة صادر ببيروت .

زاد المعاد ، فى هدى خير العباد ، لابن القيم (أربعة أجزاء) مطبعة السنة المحمدية .

محمد رسول الله .. لإيتين دينيه . . ترجمة الدكتور عبد الحليم محمود.
حياة محمد ، لإميل درمنجم . . . ترجمة عادل زعيتر

خامساً : كتب فلسفية واجتماعية

مقدمة ابن خلدون . . . . . المطبعة الأميرية سنة ١٣٢٠ هـ
حضارة الإسلام ، تأليف جوستاف جرونيباوم (الألف كتاب) مكتبة مصر .
قصة الحضارة ، تأليف : ول ديورانت . طبعة جامعة الدول العربية.
تجديد التفكير الديني الإسلامي . تأليف : محمد إقبال ترجمة : عباس محمود .
رسائل الجاحظ ، مجموعة رسائل . . (للسندوبي) .
اللزوميات ، للمعرى . . . . (طبعة صادر) ببيروت .
العقد الاجتماعي ، لجان جاك روسو (الألف كتاب) ترجمة عبد الكريم أحمد .

سادساً : كتب أدبية

نهاية الأرب فى فنون الأدب ، للنويرى (طبعة دار الكتب المصرية) سنة ١٩٤٩
أدب الكاتب ، للصولى . . طبعة القاهرة سنة ١٣٤١ هـ .
البيان والتبيين للجاحظ . . (طبعة السندوبي) .

الفهرست

الموضوع — صفحة